العسكرية والحربية التي كانت توضع عادة تحت تصرف هذا الوالي .

عدد كبير من هذه الوظائف المستجدة يعيد الى الاذهان سوابق من الوظائف الهلينية. فمدير الحرس يذكرنا حتماً ، بقائد الليل *Stratège de nuit* لدى البطالسة ، ووالي الولاية نفسه المستمد صلاحياته من القانون الروماني العام يحمل طابع قائد الحرس الملكي في الممالك اليونانية التي قامت في اعقاب خلافة الاسكندر المقدوني بما اعتوره من شوائب ولازمه من عورات . وذلك يعود بالفعل ، الى طبيعة الوظيفة ومهامها الاساسية لدى الطرفين : فهي واحدة هنا وهنالك، اذ تقوم اصلاً بالاشراف ، والعمل على كل ما من شأنه ان يزيل الاضطرابات والقلق والفوضى . فاذا ما عرفت الامبراطورية ان تحل المشكلة على مثل هذا النطاق الواسع من الاجراءات والاحتياطات، وعلى مثل هذا الاهتمام الشديد والمستوى العالي الذي لم يُبلغ الى مثله او بعضه في الممالك الاخرى، فمرد ذلك ، من جهة ، الى انها افادت كثيراً من التجربة التي تلقتها من الخارج، كما انها راعت ، من جهة ثانية ، ما كان يحف بروما من وضع معقد بالنسبة لعدد سكانها الكبير والاهتمام الذي هم به جديرون والامجاد التاريخية التي يمثلون . ومهما يكن من الامر، فالاباطرة، لم يعودوا ليعنوا ، هم انفسهم ، بحل المشكلة عن طريق ايجاد مصلحتين لهذا المنصب او دائرتين، طالما راح غيرهم يبحث عن مثل هذا الحل ، ان لم يكن توصل بالفعل ، الى حله بعد . من ذلك مثلاً انهم اقاموا حاميات دائمة مستقرة ، كما عهدوا بالامر ، من جهة ثانية ، الى عملاء ، لهم كل الثقة بولائهم فأولوهم صلاحيات ومسؤوليات انتزعوها ، على نطاق واسع ، من مجلس الشيوخ ومن بعض الحكام ، بحيث يستطيعون معها تأمين الادارة البلدية .

فالنتائج النظرية جاءت جلية ، واضحة بينما كانت هذه النتائج ، من الوجهة العملية بسيطة لا يؤبه لها كثيراً . علينا مع ذلك ان نلاحظ هنا ان الصعوبات العملية جاءت من قِبل قسم من الجيش والحاميات المرابطة دون ان يشترك الشعب بهذه الاضطرابات او يساهم في إثارتها ، كما حدث في كل من الاسكندرية وانطاكية .

٤ ـ الادارة المحلية والاقليمية

كذلك كان من الضرورة بمكان، تأمين ادارة رشيدة للامبراطورية ، تبرز معها المسؤوليات، تقتضي وحدة في السياسة ، كما تقتضى مواصلة العمل على تحقيقها . وكان من المحتم على السلطة الامبراطورية ان تبرهن، منذ البدء ، عن سيطرتها المطلقة وامتلاكها ناصية الامور والاشراف على الادارة الحكومية التي اخذت بالاتساع والتضخم .

ايطاليا

مجرد التفكير بتجريد ايطاليا مما لها من وضع ممتاز في الامبراطورية ، والقضاء على الامتيازات التي كانت تنعم بها ، منذ عهد بعيد ، كان من شأنه ان يثير وحده ، الغبار ويطلق الشكوك . ففي هذا القطر الذي كانت فيه روما تنعم بما تنعم به من وضع مدني

على مسافة ١٠٠٫٠٠٠ خطوة او ما يوازي ١٥٠ كلم . فاذا ما جمع الى وظيفته وهي عضوية مجلس الشيوخ ، عد ذلك تكريماً لمجلس الشيوخ كما عـد اعترافاً من الدولة بالدور المجيد الذي لعبه هذا المجلس في تاريخ روما والامبراطورية التي انشأتها.

اما النيابات الاخرى فيشغلها موظفون من فئة الشفاليه، بينها ثلاثة خليقة بالاحترام تستحق التنويه بها بشيء من التفصيل .

فاولى منها هي نيابة الـ *Prétoire* او الولاية وتشبه رئاسة الاركان ، وهي عبارة عن مركز عالٍ متعدد النشاطات والصلاحيات . فنائب الولاية هو قائد حرس الامبراطور قائد الجيش الاعلى ، الذي يتألف عادة من تسعة طوابير ، يعد الواحد منهـا بين ٩٠٠ — ١٠٠٠ جندي ، ومركزها روما منذ عهد طيباريوس ، بينما لم يكن منها في عهد اوغسطس ، في ايطاليا كلها ، سوى ٦ فرق لا غير . وهذه القوة مكلفة بالسهر على الامن وتأمين اسبابه ، وتمكين الامبراطور من ممارسة سلطته غير المحدودة باعتباره القائد الاعلى للجيش.

ورئيس الحرس يحمل دوماً خنجراً صغيراً رمزاً لوظيفته وللصلاحيات الواسعة التي يمارسها، يقلده اياه الامبراطور تنويهاً منه بان له حق الموت والحياة . ويقوم نائب الولاية ، من جهة ثانيـة بدور رئيس اركان الجيش ، ويتعهد تجهيزاته لا سيما في اوقات الحرب ، ويمارس ، في ايطاليا ، السلطة الجنائية ، على مسافة ١٠٠ ميل؛ كما ان موظفي هذه الفئة هم، بحكم الوظيفة التي يشغلونها، اعضاء مجلس الشورى ، كما نظمه الامبراطور هدريانوس . فصاحب هذه الوظيفة ، يأتي في قمـة سلم الدرجات الوظيفية ، وهي وظيفة تحفظ عادة لفئـة الشفاليه . غير ان أباطرة العهد الاول يترددون في امر صاحب هذه الولاية ، يعهدون بها ، من وقت الى آخر ، دونمـا تمييز او تحديد في الصلاحيات ، الى اثنين من الموظفين ، او الى واحد ، على السواء . الا انهم يفضلون ، مراعاة منهم للفعالية وحسن التنفيذ ، وضبطاً للادارة ، إسنادها ، في الغالب ، إلى موظف واحد ، مع ما عرف عنهم من حذر وتحسب له مـــا يبرره ، اذ ان قصة سيجان ، في عهد طيباريوس ، وبيرينّيس ، في عهد كومود لا تزال ماثلة في الأذهان . فلا عجب ، والحالة هـذه ، ان يوجس الاباطرة شراً مـــن العهد بمثل هذه القوّة والسلطة الى نائب تجيش نفسه بالاطماع. ومن الامراض التي اوهنت العهد وفتت كثيراً في عضد الدولة لتفشيهـــا ، عدم توفر الولاء في هؤلاء الحكام ، وافتقار الموظفين للاخلاص ، وحب الانتفاض والثورة التي كثيراً ما تمخض بهـا جنود الولاية . فلا عجب ان يكون والي الولاية هو المسؤول الاول عما يحدث في الولاية من امور تخل بالامن .

اما الولايتان الاخريان الاقل نفوذاً وتأثيراً : ولاية الحراس *Vigiles* (شرطة الليل وسرية مكافحة الحرائق) ومصلحة التموين والتوريدات *Annone* ، فلم يكن من خوف او تحوط من اصحابها . فقد أولت ظروف الحياة وملابساتها المتشعبة والمعقدة في روما ، هاتين الوظيفتين ، اهمية كبيرة لما كان يجب ان يتحلى به صاحباها من الاستعداد الفني والتقني . فلا عجب ، والامر كما ذكرنا، ان يُضفي عليهما منصب والي الولاية ، بعض الظلال الكاسفة ، وذلك بالنسبة للقوة

والاجلال الذي أُحيطا به وهما في بطانة الامبراطور ، والملق الذي لاقوه من ذوي الالتماس ، جعل اعضاء مجلس الشيوخ يحرضون في ريقهم حسداً ، كل ذلك لم يخفِ عن الناس ، الأصل الوضيع الذي انطلقوا منه . فاذا ما خدموا الامبراطور فخدمتهم هذه تذهب لسيدهم بكل ما في الكلمة من قوة شرعية أكثر مما تتجه للامبراطور نفسه . وعلينا ان ننتظر طلوع عهد هدريانوس لنرى تغييراً جوهرياً في طبيعة هذه الدواوين ، اذ اخذ الامبراطور يسندها ويلقي بهــا الى شخصيات لها شأنهــا في المجتمع ، فيأتي بهم ، في معظم الحالات ، من صفوف الشفاليه . فأعضاء مجلس الشيوخ لا يمكن الاعتماد كثيراً على ولائهم ، كما ان المنزلة التي لهم باعتبارهم اعضاء الندوة المذكورة ترشحهم لوظائف أكبر ، من الوجهة العملية ، مع انها ترتبط بالامبراطور من الوجهــة النظرية .

وصاية ونيابة

وأجهزة التقرير والتبليغ هــذه ، كانت تهتم بشؤون العالم الروماني كله بينما أنشأ الامبراطرة عدداً من الوظائف الاخرى ، عُمل بها في ايطاليا وببعضها في روما فقط ، وهي وظائف وادارات لا يمكن فصلها عن الحكومة المركزية بشكل من الاشكال نعمت كلها بصلاحيات وسلطات محلية وفقاً لدوائر ادارية معينة ، كما لعبت دوراً مهماً في عالم السياسة .

وهذه الوظائف المتباينة في طبائعها وصلاحياتها وفي مسؤولياتها ، من الممل والنافل معاً ان نحاول هنا استعراضها جميعاً ؛ يعهد الامبراطور ببعضها الى مفوض او مندوب يدير شؤونهــا ويتحمل مسؤولياتها كوظيفة « نواب » *Préfets* ، اما الاخرى فوظائف مزدوجة لها طابع فني او تقني ، تستوجب من صاحبها الاختصاص والاستمرار ، وهي شروط لا تتوفر عادة في الحكام والمراقبين الذين ينتدبون لمدة سنة . ومن بين هؤلاء الموظفين : الاوصياء *Curateurs* الذين يتألف من مجموعهم لجان تقوم بالاعمال التي كان يعهد القيام بها من قبل الى « سنسور » المراقب . والخاصة المميزة لهؤلاء الموظفين هي انهم يعيّنون من قبل الامبراطور ، وهو يدفع لهم مرتباتهم ويخضعون للترقية والترفيع ، والعزل والرفت ، حسبما يراه مناسباً . وبما ان الادارة لا تنفصل عن العدل والعدالة ، فالامبراطور يتدخل بواسطة المندوبين والمعتمدين في معظم شؤون الدولة : العامة والخاصه ، على السواء .

بين هذه الوظائف ، عدد كبير يحتفظ به لاعضاء مجلس الشيوخ ، منها وظائف الاوصياء ، باستثناء ما كان منها خاصاً بالطرقات الثانوية او الفرعية الواقعة في ايطاليا ، ومنهــا الطرقات الرئيسية او الدولية ، وقناطر روما ، ومصلحة ضفاف نهر التيبر ومجارير المدينة ، الى غير ذلك. ومن هذه الوظائف : نيابة المدينة التي انشئت ، في الأصل ، لتمثيل الامبراطور في رومــا ، عندما يكون غائباً عنها ، وبقيت وظيفة دائمة ، استمر العمل بهــا ، بعد مكث الامبراطور طيباريوس الطويل في جزيرة كابري . وعلى صاحب هذه الوظيفة ، ان يسهر على الامن واستتبابه في جميع انحاء المدينة ، وتحت تصرفه ثلاثة طوابير من البوليس البلدي . وبعد ان استهدف صاحب هذا المنصب لمنافسة شديدة طويلة ، بقي على رأس القضاء الجنائي ، في روما وضواحيها ،

كان لاوغسطس، منذ البدء، اصدقاء حميمون، بينهم « مكيني » و « أغريبا » ، كما كان يحف به، في اوقات الحرب، رفاق سلاح لم يلبثوا ان ألـّفوا حوله اركان حربه. وهذا العرف التقليدي، له اصوله الرومانية البعيدة الجذور والمحترمة معاً – فعلى كبير القوم ان يستشير من حوله – كما له اصول هلينية ، ولذا استمر الاخذ به والحفاظ عليه . ومـــع ذلك لم يبلغنا قط ، ان هؤلاء « الاصدقاء » ألـّفوا يوماً، بالرغم مما بين الاسماء من مشابهات، طائفة او هيئة مسلسلة الدرجات والرتب، شبيهة، من بعض الوجوه، بما كان معروفاً من امثال هذه الهيئات، في الممالك اليونانية.

فالاهمية المتزايدة للدور النامي الذي لعبه الامبراطور في الحقلين العدلي والقضـائي هي التي تـُبرز التقدم الذي تحقق في انشاء « مجلس الملك » الذي كان يجتمع بصورة غير منتظمة ، كما ان تشكيله كان يختلف في عهد اوغسطس ، ولم يصبح قائماً ، ثابت الشكل إلا في عهد طيباريوس . وقد تجدد تشكيله رسمياً واعيد النظر جذرياً في قوامه ، في عهد هدريانوس . وكان اعضـاؤه يقسمون الى ثلاثة فئات ، ويتقاضون مرتبات سنوية ويعقدون جلساتهم برئاسة الامبراطور او برئاسة كبير امناء البلاط ، في حال تغيبه . وهم يتألفون عادة ، من شفاليه وشيوخ ، يقر مجلس الشيوخ نفسه تعيينهم في هذه الوظيفة . وبين اعضاء المجلس عدد من كبـار الفقهاء والمشترعين، يتحلون، مهما كانت الظروف، بالكثير من الحنكة والخبرة الواسعة ونفاذ البصيرة، وذلك للبت بالقضايا المحالة الى مجلس الامبراطور او المستأنفة اليه للنظر فيها من جديد، وذلك تفسيراً لقانون جديد ، او شرحاً او تكملة لتشريع خاص . ففي مجال الشرع ، حقق مجلس الامبراطور الخاص *Concilium principis* عملاً تشريعياً عظيماً من ابرز الاعمال التي قام بها العهد الامبراطوري .

المكاتب الادارية

لا بد للامبراطور من كتابة سر او ديوان، اسوة بسراة القوم وعظمائهم عند الرومان . فاستخدم اوغسطس ، في هذا السبيل ، أمثل ما لديه من الأرقـاء أدباً ، وارفعهم ثقافة ، وابرزهم علماً ، وهم على الغالب ، اقوام اغارقة او شرقيون ، اعاد اليهم حريتهم ، وأعتقهم ، بعد ان رسفوا في العبودية طويلاً فاعتقهم وحررهم ، تقديراً منه للخدمات الجلى التي أدوها .. وكانت امانة السر في بادىء الأمر ، ديوان كتابة خاص ، لا مشاركة له في الصلاحيات والاختصاص . ومثل هذا الديوان تم انشاؤه على يد الامبراطور كلوديوس ، الذي انشأ ايضاً عدداً من الدواوين والمصالح ، فجعل واحداً منها للآداب ، وآخر للمظـالم ، وآخر للتحقيق القضائي، وآخر للدراسات، وبعد ذلك قام ديوان آخر هو ديوان بيت المال او المحاسبة. واستمر العمل بهذه الدواوين لتيسير مهمة الادارة ، كما نشأ غيرها كثيراً فيما بعد ، كديوان المحفوظات *Archives* . وهكذا قام الى جانب الحكومة المركزية اجهزة ادارية أتيح لها ان تقوم بعمل رتيب ، رصين ، موصول الاصول ، لم يكن بد منه للانضباط .

ويبقى رؤساء هذه الدواوين او المصالح الادارية ، لمدة ثلاثة ارباع القرن ، بين يدي المعتقين من الرق . من أشهرهم في عهد كلوديوس الامبراطور : نرسيس *Narcisse* وبـَلاّس . فالنفوذ العريض الذي تم لهما ، والغنى الوافر الذي جمعـــاه بطرق وأساليب تختلف أمانة واستقامة ،

نقلوا ، وحرصوا ألا يكون القبْس تقليداً حرفياً ، ونقلاً أعمى ، فراحوا يكيّفون ، وفقاً لأغراضهم وحاجتهم ، بعض النظم التي تلقّفوها ، كما استنبطوا من جهتهم حلولاً جديدة للمشكلات التي عرضت لهم .

يجدر بنا ، ونحن نستعرض لهذا كله ، ألا نعوّل كثيراً على تضارب آراء الكتبة الاقدمين وجدلهم الصاخب ، الذين رددوا ، من حيث يدرون او لا يدرون ، ورجّعوا ، عن وعي او غير وعي ، رأي مجلس الشيوخ المعروف بتمسكه بماض مرّ وانقضى ، أفزعه طلوع طبقات اجتماعية جديدة في البلاد ، وهاله سفح « الحرية » ، واستبداد النظام الملكي من كل جانب . ففي التاريخ القديم ، على ادنى تقدير ، لم نر أي نظام ملكي ، حتى هذا النظام الامبراطوري نفسه ، يقبل ، راضياً مرضياً ، على الأخذ بمثل هذه الوظائفية في الادارة . فهو يشعر مسبقاً بفقره واحتياجاته الشديدة للموظفين الفنيين ، الأمناء المخلصين ، كما انه لا يجهل قط كيف ان رسوم الجباية والضرائب مهما زيدت ، تقصر عن تغطية الزيادة الحاصلة في بابي النفقات والصرف ؛ فلا بد ، والتالي ، ان يصاب نشاط الدولة بشيء من الوهن والضعف ، من هذا كله . فلا يُقبل على الأخذ بالنظم الجديدة إلا بضغط من الضرورات القصوى . ففي هذا الظرف بالذات ، فلذة الاستبداد لا تدخل في الحساب ، بل الحاجة الملحة للتنظيم ، لجعل الادارة أكثر فعالية ولانقاذها مما عانت من سوء التصرف ، ومساوىء عدم الكفاءة وعدم الانسجام التي تضرست بها من قبل .

ففلسفة العهد في مرحلته الاولى ، لم تكن ذات نزعة مطلقة . فهي على عكس ذلك تماماً ذات نظرة شورى . فالألوف من القضايا والامور التي كانت تُعرض من قبل لنظر ، كبار الموظفين ، أو لحكام الولايات ، أصبحت تُرفع ، منذ الآن فصاعداً ، للامبراطور رأساً . وهذا التوزع الذي ساد الادارة من قبل ، وحال دون خلق دوائر وإحداث مصالح فيها ، ولو بشكل بدائي ، أولي ، زال وانقضى وحل محله تجميع اداري جعل من الضرورة انشاء مثل هذه الشبكة الادارية وتنظيمها . فلم تنشأ كلها دفعة واحدة ، مكتملة الجهاز والاختصاص . والذي تأخر ظهوره ، ولا سيما في بعض المصالح ، هو الاعتراف بالطابع الرسمي لهذه المصالح ، مع انه كان باستطاعة الامبراطرة فرضها بالقوة قبل ذلك بكثير ، انما آثروا بقاءها والاستعانة بها كأدوات مساعدة خاصة . وقد بدا ، لعمري ، شيء من التناقض ، ولو في الظاهر ، بين العهد الجديد ، من حيث كنه وجوده وطبيعته ، وبين النظام الوظائفي الذي تبناه وسار عليه ، هذا النظام الذي قام في الأصل ، على التفوق البارز الذي تجلى في مؤسسه ، فاذا بالدولة تخفض من أثره المباشر فأقصرت عمله الاكبر على التوجيه ، والاشراف على ادارة لها كيانها الخاص وتنعم بالديمومة والاستمرار .

مجلس الامبراطور الخاص . هذه الملاحظات التي ابديناها هنا ، تلاحظ على الاخص ، مجلس الامبراطور الخاص ، والمصالح العديدة الاخرى التى اقتضاها حسن سير العمل في هذا المجلس ، والتي لم تدخل في صلب تكوين الدولة الا من عهد هدريانوس .

العامة ومباني الدولة ، وكلها دوائر بمعزل عن اختصاص الموظفين ، ترجع لاشراف الامبراطور مباشرة .

فالشكليات التشريفية والمظاهر الخارجية استمر العمل بها بعد ان بولِغَ في الحفاظ عليها. غير ان انحطاط النظم القديمة كان قطع مراحل بعيدة بالرغم من الاحتفاظ بالهيئات الشعبية ونظام الوظائف الادارية ، ومجلس الشيوخ ، وبذلك ألبس العهد الامبراطوري النظامَ الملكي الذي اقامه في البلاد ، رداءً جمهوري المظهر .

٣ ـ النظم والمؤسسات الجديدة التي طلعت بها الحكومة والادارة المركزية

ضرورة التطور ومصاعبه

قابل انحسار العهد الجمهوري ، في الجانب الآخر ، قيام ادارة جديدة اقتضت ما اقتضته من نظم ومؤسسات اخذت تتفتح وتنتظم تحت اشراف الامبراطور وبمعيته ، فضمت عدداً من الموظفين عُهد اليهم الاضطلاع ببعض نواحي الادارة ومساعدة الامبراطور في الحكم . ففي خلال هذين القرنين ، لم يقم احد من هؤلاء الامبراطرة ، حتى من اشتهر بينهم بموقفه المعتدل من مجلس الشيوخ ، وباستعداده الطيب نحوه ، بممالأة هذا المجلس الذي لن تسنح لنا الظروف بالتنويه به ، إلا بنسبة ما يتصل بأتفه الاحداث التي رافقت هذا التطور بعد ان اصبح لا يُقاوم . صحيح انه قطع بعض المراحل بسرعة ، وهي سرعة لم تتم في عهد الامبراطرة الأكثر فظاظة او ذوي النزعات الأكثر اضطراباً ، امثال كاليغولا ودومتيانوس مثلاً . فقد جاء هذا التطور على يد امبراطرة تأثروا كالامبراطور كلوديوس ، مثلاً ، بنُصح بطانتهم النيّرة ، او كالامبراطور هدريانوس ، الذي كان عهده حاسماً ، فوضعوا نصب أعينهم ، في الدرجة الاولى ، مصلحة الدولة العليا .

وهذا التطور الموصول ، لا يمكن ان يفوت معناه احداً على الاطلاق . فمن شتيت من المقاطعات ولَمِّ الولايات ضمت بعضاً الى بعض ، بعد ان تم فتحها على يد مدينة مظفّرة ، حكمتها ونظّمتها بوسائل مرتجلة ، وأمّنت حاجاتها كما تبدت لهذه المدينة ، وراحت تطبق هذه الاساليب بالذات ، حقاً او بطلاً ، على العالم الذي خضع لها ، كان لا بد للامبراطورية الرومانية ان تهدف لنظام دولة ، وان تصبح بالفعل ، دولة لتحقق الاهداف التي تضعها نصب عينيها ، والرسالة التي تضطلع بها . فقد تأثرت ، ولا شك ، بما عرفت من خبرات الممالك الهلينية التي قامت في الشرق او ربطتها بها علاقات نامية واخذت الكثير من نظمها السياسية والادارية . فأين يمكن لها ان تجد ، في هذا المجال ، احسن من الشرق الهليني تجربة ناضجة ، مكتملة ، والمناهج القويمة التي لا بد لدولة عظيمة ، من الاعتماد عليها والركون اليها ؟ فلا عجب ، ان يَرِدَ الامبراطرة الرومانيون على مثل هذا المعين الثري يعبّون منه ويصدرون عنه . إلا انهم كانوا متحفظين جداً في ما

العرش بموته حتى عادت الخصومة على أشدّها .

وفي هـــذا القران الافلاطوني الاستثنائي ، لم يتمتع مجلس الشيوخ ، مع ذلك ، بأية سلطة مستقلة ، اذ كان الامبراطور يشرف عن كثب ، على انتقاء الحكام وكبار الموظفين ، في حال عدم توليه امر تعيينهم بنفسه ، ويخلق وظائف شرفية لا طائل تحتها ، كما يحرص اشد الحرص على تشكيل اعضاء المجلس وتأمين التسلسل الدقيق في المراتب والدرجات . فالمجلس لا يخطر له يوماً على البال ، معارضة رغبات الامبراطور ، والقرارات التي يتخذها هـذا المجلس ، تختفي وتنسخ عندما يصدر الامبراطور مراسيمه فيبادر اعضاؤه الى إقرار المشروعات التي يعرب عنهـــا في خطبه وتصريحاته . وللامبراطور ، كما لمجلس الشيوخ ، حق الاعتراض ، والاحتكام برفع القضايا الى مجلس أعلى ، غير ان الاعتراض ينتهي دوماً لمصلحته هو ، وليس لمصلحة المجلس . فاذا ما نال مجلس الشيوخ ، في عهد الأسرة الانطونية ، وحده ، الحق بمحاكمة احـد اعضائه جزائياً ، فهو يحرص على ان يتبين رغبة الامبراطور وارادته الخفية في الأمر وسريرته قبل اصدار حكمه ، كما انه يبادر في الحال الى الاعراب عن أسفه وندمه ، اذا ما خانه الظن وطاش فأله . ولعـــل اهم امتيازات مجلس الشيوخ الروماني ، هو ان يفوّض ، من قبل الشعب ، وباسم الشعب ، السلطة للامبراطور الجديد . غير انه لم يكن لرأيه إلا ما ندر ، وزن حاسم ، كما وقع للامبراطور نيرفا وللامبراطور ترايانوس . والموقف العادي المألوف الذي يقفه هو الاعتراف بمن وقع عليه اختيار الجيش واقراره له ، او المصادقة على قرار الامبراطور السلف بشأن الخلافة .

ولكي يتوفر له غير ما توفر من سلطة وهمية ، كان عليه ان يضطلع بتوجيه سياسة البلاد الخارجية ومراقبة حكام الولايات وما تحت إمرتهم من جيوش ، والسيطرة على اموال بيت المال . غير ان تحرر قادة الجيش ، قبل نهاية الحكم الجمهوري ، جرّد المجلس المذكور من كل هـــذه السلطات والصلاحيات ، ثم جاء عهد الامبراطورية فأجهز على ما كان تبقى له منها . فحقّ الحرب او السلام هو بيد رئيس الجيش الاعلى . فمنذ اوغسطس ، خضعت البلاد لتقسيم اداري أُدخل عليه فيما بعد تعديلات لم تتعدّ الاساس القائم ، والمبدأ المعمول بـــه . فالولايات المشيخية وحدها هي التي لا تقوم فيهـــا فرق من الجيش ، وهي الولايات التي استتب فيها الأمن ولا اضطراب على حدودها الخارجية . تابع مجلس الشيوخ ، في اول العهـد الامبراطوري ، مراقبة الموظفين الذين يتولون ادارة بيت المـــال ، الملقب « بهيكل ساتورن » والذي لم يكن يتغذّى إلا من الرسوم المجباة من ايطاليا والولايات المشيخية ، وهي رسوم لم تكن لتغطي مصروفات الدولة في هذه المقاطعات . فعلى خزانة الامبراطور ان تبادر لسد العجز . ومنذ عهد نيرون ، اخذ الامبراطور يُعنى شخصياً بتعيين ولي بيت المـــال « *Aerarium* » والحدّ من صلاحية مجلس الشيوخ في ضرب العملة إلا البرونزية منها . كان في روما قطاعات واسعة في الادارة العامة يقتضي لها الاختصاص والتقنية ، كما يقتضي لها المضي في الخطة العامة الموضوعة لها . من هذه الادارات : مديرية البوليس ، ودائرة التموين *Annone* ودائرة القناطر المائية *Aqueducs* ، ومجرى نهر التيبر وشواطئه ، والمجارير

تبقى دوما تحت المراقبة الضيقة واشراف الامبراطور المباشر .

ومثل هذا التحول والتبدل يطرأ على الوظائف الاخرى ، ولا سيا وظيفة البروقناصل الذين يعهد اليهم بحكم الولايات الامبراطورية وادارتها . ويجري انتقاؤهم غالباً من بين طبقة الـ المقدّمين *Prêteurs* الذين لم يكونوا أسعد حظاً، ولأرفع حالاً من حكام ولايتي آسيا وافريقيا. « ان سلك التشريفات والامجاد » هو بيد الامبراطور وتحت رحمته . والوظائف المختلفة التي تتسع لمثل هذه التبجيلات لا تعطى ولا يعهد بها إلا لمن يقوم بمهام وظائف الادارة الامبراطورية .

مجلس الشيوخ *Sénat*

بين المؤسسات الجمهورية التي تضرست بالتغيير ونابها من التحويل والتبديل اقل من غيرها في الظاهر كان مجلس الشيوخ ، لا بل يبدو لمن يرى الامور من الخارج، انه نال المزيد من السلطات ، لأنه حل محل الهيئات الشعبية في الانتخابات التي كانت وقفاً على هذه الهيئات ، كما ان القرارات التي كان يتخذهـا ، كانت بمنأى عن الاستفتاءات الشعبية والانتقادات او الاعتراضات التي يثيرها في وجهها التريبون او محامو الشعب . وكان من سياسة اوغسطس ومعظم خلفائه حتى اواخر القرن الثاني ، الاعتماد ظاهراً ، على هذا المجلس في تجنيب البلاد ، خطر الاضطرابات الشعبية . فقد رموا من وراء ذلك الى تعزيز نفوذ هـذه الهيئة والرفع من شأنها . غير ان هذه المشايعة او السلطة الثنائية *Dyarchie* ، كما يسميها المؤرخ الالماني مومسن *Mommsen* ، لم تكن بالحقيقة، سوى تغرير او تعلّة. هل كان الامبراطور يرغب فعلاً ، باقتسام السلطة — وهو أمر يتنافى أصلاً مع رغبة الفرد بالسيطرة المطلقة — مع مجلس يتألف من ٦٠٠ عضو يضم العديد من العناصر التي لا يمكن استخدامها أو الانتفاع بها ، بينهم كثيرون معروفون بميولهم الجمهورية وحدبهم عـلى نظم العهد البائد ، كما ان بينهم من عرفوا بأطماعهم الاشعبية وطموحهم، وغيرهم من اصحاب الزلفى والمدلسين؟ ونرى اكثر من امبراطور يدخل في خصام مكشوف ، ان لم يكن مع مجلس الشيوخ، كهيئة قائمة بذاتها لم تكن لتجرؤ على الوقوف بوجهه ، فأقله مع بعض الشيوخ الذين تحوم حولهم الشكوك ويرتاب جداً باخلاصهم له، ويشك في ولائهم نحوه ، فيتفادى شرهم بقطع دابرهم أفراداً وافواجـاً . فالمزاج الشخصي الذي فرّد هؤلاء« الطغاة » الذين وصفهم مؤرخون من مؤرخي العصر ، كانوا مثلهم اعضاء في المجلس المذكور ، أمثال تاسيت ، بأبشع الأوصاف كان سبباً في ذلك أن عدداً كبيراً منهم ذهب ضحية الدسائس التي حاكوهـا ، كما ذهب غيرهم فريسة الوشاة النفاثين والأرصاد المبثوثة عليهم . ولم يصفُ الجـو ويصحُ إلا في عهد الدولة الأنطونية ، باستثناء حكم هدريانوس وكومود ، بعد ان لعبت عوامل كثيرة دورها الملطّف والمهدّىء ، منها مثلاً كفاءة بعض الاباطرة الذين عرفوا ان يفرضوا الاحترام حولهم ، وقدرتهم على الذهاب بالاحقاد ، والتحسينات التي أدخلت عـلى تشكيل مجلس الشيوخ بعد ان اعتمدوا في الاختيار ، قاعدة جديدة هي خبرة العضو الجديد وحنكته ، دون حسبه ونسبه أو نشبه ، والرغبة المشتركة في تجنيب البـلاد أزمة كالأزمة التي وقعت فيها ٦٨–٦٩ ق.م. غير ان الحقبة لم تطل كثيراً ، اذ ما كاد ماركاوريل يتوارى ويخلو

احياناً ، نفقة تمثيل. ويذكر ديون كاسيوس في معرض حديثه عن الامبراطور كلوديوس ، ان عدداً من القناصل الرومانيين تخلوا عن الرتب القنصلية التي كانوا يحملونها ، مع ما هي عليه من علو الشأن ، لانهم عجزوا عن تحمل تكاليف تمثيلها .

هنالك ناحية من هذا التطور الذي خضعت له وظيفة القنصلية ، يمكن الوقوف عندها ملياً واتخاذها قياساً ، للدلالة على ما خسرته هذه الوظائف والرتب من قيمة الشأن البعيد الذي كان لها من قبل . ورتبة القنصلية التي بقيت محتفظة بكل شاراتها الفخرية وبعنايتها ببعض المراسم الدينية ، فقدت ، في الواقع ، كل ما كان لها من شأن وشأو ، بعد ان برز الامبراطور على رأس الدولة ، وتخلى مع نوابه وممثليه ، بما يتحلى به من سلطات واختصاصات عالية. وخسرت هذه الرتبة من قدرها وشأنها بعد ان ازداد عدد الحاصلين عليها ، مع انه لم يكن يوجد منهم معاً في الوظيفة ، في وقت واحد ، اسوة بما كان عليه الوضع في الماضي ايضاً ، اكثر من مائتي قنصل. فالذين كانوا يتقلدون هذا المنصب في غرة كانون الثاني (يناير) كانت السنة تحمل اسماءهم. وهذا الفريق من القناصل هم القناصل « العاديون » الذين تأثرت رتبهم والقابهم باقل مما تأثر به اخرى ، بالنظر للامتيازات التي تمتعوا بها . وقد جرت العادة ان يستقيل هذا القنصلان ، قبل بدء السنة الجديدة بقليل ليفسحوا المجال امام قنصلين جديدين يحلان محلهما . وكانوا يتعاقبون بسرعة في الوظيفة ، بحيث كنا نرى ، في القرن الاول ، القنصل يعين لفترة اربعة اشهر . وليس بالغريب او النادر قط ان نرى قناصل قبلوا التعيين لمدة شهرين او لشهر واحد . وهذه العادة كان لها ما يبررها من رغبة الامبراطور في ان تتوفر له سهولة اكبر في اختيار اصحاب بعض الوظائف التي لا يقوم عليها إلا من كانوا قناصل من قبل . وهكذا فقدت هذه الوظيفة كل شأن لها .

هذا الاستخفاف ينزل برتبة القنصلية يبرز على اشده ، عندما نعرف ان القنصلية كانت السبيل او الطريق المؤدي الى البروقنصلية التي لصاحبها سلطات شبه مطلقة على الجيش او الولاية التي يتولى ادارتها . فلم يبق في الامبراطورية سوى مركزين لصاحبيها سلطة البروقنصلية ، يجري اختيارهما من بين فئة القناصل : هما بروقنصل آسيا (مركزه افسس) وبروقنصل افريقيا (مركزه قرطاجة) ويتقاضيان عن وظيفتهما هذه مرتبات ضخمة للغاية تنقطع معها شهوة الارتكابات والاختلاسات وسوء الائتمان . وفضلاً على ذلك ، ان الاول منهما انتزعت منه ، في غرة العهد الامبرطوري ، كل سلطة على الجيش ، وكذلك الثاني منهما كان له المصير ذاته ، وكلاهما يخضع لسلطة الامبراطور ، يساعدهما في حكم الولاية وادارتها موظفون يأتي تعيينهم من قبل الامبراطور نفسه ، كما ان مدة تعيينهم في هذه الوظيفة لا تتعدى السنة ، ولا يمكن تجديدها عند نهايتها ، بأي حال . وهكذا يبدو ان معظم افراد الطبقة القنصلية لم يكن أمامهم من امل سوى التطوع في خدمة الامبراطور ووضع أنفسهم تحت تصرفه للانعام عليهم بأية وظيفة ينتدبهم لها . ولم تكن وظيفة القنصلية تعطى إلا لمن برهنوا عن كفاءتهم ، وجاؤوا بالدليل القاطع على ولائهم للامبراطور ، فاذا ما قبلوا بما يعرض عليهم منها انفتح امامهم الباب لوظائف أكبر وأعلى

هذا العمل الذي أفضى الى نتائج عظيمة ، لم ينقطع في المراكز الشرقية الكبرى ، حيث اعطى بحاثون لا يعرفون الكلل ، من امثال أمين مكتبة برغاموس ، كراتيس ، الذي اوفده الملك أطال الثاني سفيراً الى روما حيث طرأ عليه طارىء أطال اقامته فاستفاد منها لالقاء المحاضرات ، ومن امثال الاسكندري ديديموس « *Chalkentere* » ايضاً ، امثلة حية أسرع الرومان الى الاقتداء بها . وكان فضل هؤلاء الاكبر في توجيه مجهودهم شطر الشؤون الرومانية .

أدى لهم خدمة جلى أمر أصدره الحبر الاعظم بوبليوس موسيوس سكيفولا في أواخر القرن الثاني بنشر « الحوليات العظيمة » حيث دوّن الاحبار حتى ذاك العهد ، سنة فسنة ، الاحداث الرئيسية ، في نظره ، في الحياة الرومانية. ولكن ما هي نسبة ضبط اعادة جمع هذه الحوليات التي أدركتها النيران في السنة ١٤٨ ؟ مهما يكن من الامر ، فان مجموعة احداث ، دينية في الدرجة الاولى ، وسياسية وحتى اقتصادية ايضاً — اسعار الحنطة مثلاً — وضعت ، على هذه الصورة ، تحت تصرف البحاثين . وكان باستطاعة هؤلاء ايضاً اللجوء الى لوائح القضاة وتقاليد العائلات الشريفة التي يشتبه بها على كل حال .

نهض بعمل البحث هذا رجال كثيرون ، وقد حفظت لنا المصادر القديمة أكثر من اسم. ومن التفه وعدم الجدوى احصاؤهم لا سيا وان شيئاً لم يبلغ الينا من نتاجهم تقريباً . فأجدر بنا بالتالي ان نقتصر على اقلهم تعقيداً وأعظمهم شأناً ، أعني به فارون . فقد عمّر طويلاً ، مناهزاً التسعين وبلغ من ذيوع شهرته ان مبادئه الجمهورية المحافظة لم تمنع قيصر من اختياره لادارة المكتبة العامة التي أسسها . وفي الواقع ان اتساع وتنوّع اعماله وشغفه شبه الشامل وانتاجه الخصب النادر — ٧٤ مؤلفاً في ٦٢٠ كتاباً — قد بررا هذه الشهرة . انكب على الادب الصافي ، ربما في شبابه خصوصاً ، فكتب ١٥٠ كتاباً في الاهاجي المينيبية [1] حيث مزج النثر والشعر ، ومزج كذلك السخرية والتحريف الهزلي والتفكير الرصين والادب الشعبي والنقد الادبي . واهتم للغة والادب اللاتينيين فكان نحوياً ولغوياً ومؤرخاً للشعر المسرحي . وكان مؤرخاً لماضي روما في مؤلفات عديدة لا سيا الواحد وأربعين كتاباً في « الآثار البشرية والدينية » ، ذلك المرجع الزاخر الذي انتهلت منه دونما انقطاع الأجيال اللاحقة . وألّف موجزاً تربوياً تضمن كل ما يجب ان يدخل في التربية الجيدة . وجعل من نفسه اخيراً ، في سن متقدمة ، عالماً في أصول الزراعة والاقتصاد الريفي في كتابه « شؤون الريف » الذي جاء نشره موافقاً لفرجيل مؤلف « الجيورجيات » حول اعمال الزراعة وتربية المواشي. لم يبق اليوم من هذا الانتاج الضخم سوى الحطام. «فالشؤون الريفية » وحده وصل الينا كاملاً ؛ ولا يمكن، بالاضافة اليه ، الحكم على فارون إلا بواسطة بعض الفصول الملأى بالنواقص من بحثه في « اللغة اللاتينية » وبواسطة بعض النتف التي ينتسب اوفرها

---

(١) نسبة الى الفيلسوف اليوناني مينيب *Ménipe* ، وهو من اتباع المذهب الكلبي ، الذي اعتمد في لواذعه اشعاراً مختلفة الاوزان في القصيدة الواحدة .

عارضة للتصويت على بعض مشروعات القوانين ، بعد ان حُرمت من فرصة مناقشتها ، مع العلم ان قرارات مجلس الشيوخ والامبراطور ، لها وحدها قوة القانون ، بحيث لم يعد يبقى لهذه الاجتماعات الشعبية أية قيمة تشريعية على الاطلاق .

كذلك فقدت هذه الهيئات ما كان لها من صلاحيات انتخابية، بعد ان بطل العمل بها فعلاً، منذ عهد اوغسطس، وذلك على أثر تمتع الامبراطور بحق التوجيه وتقديم الاقتراحات التي احتفظ به لبعض الوظائف الكبرى بعد ان جرى تحويلها بكل بساطة ونقلها الى يد مجلس الشيوخ . واكتشفت عام ١٩٤٧ بعض كتابات ألقت ضوءاً على وجود نظام وسيط ، جرى العمل به قبل هـذا الانتقال ، تظهر بوضوح ، دهاء النظام الذي تم وضعه عام ٥ ق . م ، ثم أدخلت عليه تحسينات عديدة في الفترة الواقعة بين عامي ١٩ و ٢٣ للميلاد ، جعلت منه مجرد عملية انتخاب شعبي بسيطة . وكان اعضاء مجلس الشيوخ وخيرة طبقـة الشفاليه يتوزعون وفقاً للقرعة ، الى هيئات مائة *Centuries* تتولى اختيار مندوبين اولين *Destinati* ، من بين عدد من المرشحين تعرض قوائمهم على الهيئات الشعبية لاقرارها والتصديق عليها . وكان عشر من هيئات المائـة *Centuries* تحمل اسم حفيدي اوغسطس ، توُفيا يافعين . وعندما توفي ابن طيباريوس وابنـه الآخر بالتبني، جرى إنشاء خمس هيئات مئة جديدة عند كل وفاة منهما حملت اسماءهما. والاعتقاد السائـد هو ان هؤلاء الأمراء الذين رُفعوا الى مصاف الابطال كانوا اداة وحي وإلهـام للناخبين المشتركين بعملية الاقتراع كما يقترحون ، هم أنفسهم ، أسماء الاعضاء الجدد للهيئات الشعبية . إلا اننا نجهل الجهل كله ، الوقت الذي امكن فيه الاستغناء تماماً ، عن مثل هذه الاساليب . ومهما يكن ، فالاقتراع لم يكن سوى عملية صورية ، وهمية ، لا طائل تحتها البتة .

وقد بدا لاوغسطس ولخلفائه من الاباطرة الذين تعاقبوا على الحكم بعده انـه اذا كانوا يريدون فعلاً الاستقرار للعهد الجديد ، كان عليهم ان يجعلوا الحياة السياسية في البلاد بمنأى من الدسائس والاضطرابات والقلاقل التي طالما اتصفت بهـا اجتماعات الهيئات الشعبية وافسدتها . فالشعب الملك كان بالفعل قـد فقد كل سلطة له ، عند اعتلاء الامبراطور العرش ، وفقاً لقرار يصدره مجلس الشيوخ يقتصر عادة، على المناداة به امبراطوراً، وتقليده مقاليد الولاية والسلطة. وقد حفظ لنا التاريخ نص القانون الذي تمت بموجبه الولاية لفسبسيانوس . فالامبراطور وحده يكفي لادارة مصالح الشعب والدفاع عنها .

المناصب والوظائف

فهذه الوظائف الكبرى التي كان الامبراطور يقلـدها لأصحابها، اما رأساً ، كالقنصلية مثلاً ، او بالواسطة عن طريق البوح برغبته الخاصة ، بشأن بعض المرشحين ، لم تكن لتتمتع ، بالفعل، باي استقلال خاص. فهي مراتب بقي معمولاً بها كالقاب لا غير، لها درجاتها ورتبها المتسلسلة في الادارة، باستثناء وظيفة المراقب العام التي كان الامبراطور يحرص على الاحتفاظ لنفسه بكل صلاحياتها واختصاصاتها ، سواء أحمل هو نفسه ، هذا اللقب او لم يحمله ، وكثيراً ما ، لم يكن لهذه الالقاب سوى مظهر تبجيل خارجي تثقل على حامليهـا

الى « الآثار » . اجل نحن لا نلمس عنده مزيداً من التوقد . ولا يعني ذلك انه افتقر الى الذكاء النقدي والعقل الرشيد وحتى النزاهة الفكرية . ولكن أنى له ، حتى بمساعدة كتبة يرجح انه لم يستغن عنهم ، الوقت الضروري لأن يراقب ابداً التقاليد التي جمعها ويُغذي فكراً متميزاً حقاً ؟ ومهما يكن من الأمر ، فان الرجل الذي استطاع انجاز مثل هذا العمل ، غير زاهد في تقلبات زمانه ، يفرض الاحترام .

يمكننا دون تحكم ان نضع ، في جوار الحركة التي نهض بها فارون ، الابحاث العديدة التي كرست في القرنين الثاني والاول للحق الخاص والحق العام : دروس وتعليقات مرتكزة الى تفسير النصوص ، لا سيما نص شريعة الاثنتي عشرة لوحة ، والى التاريخ . وقد اعتبر رجالات روما الاول وضع مثل هذه الابحاث عملاً مجيداً . ونذكر على سبيل المثال حبرين اعظمين ، «ب.موسيوس سكافولا» الذي نشر الحوليات الحبرية، وابنه كوينتوس، واضع مؤلف ضخم اعتبر اساسياً لمدة طويلة لانه المؤلف الاول الذي عني بتوزيع مادة الحق المدني وفاقاً لتبويب منطقي . بفضل هذه الجهود المتواصلة ، وفي الوقت نفسه الذي زال فيه تدريجياً من التشريع كل اثر للماضي القديم ، اعد ما سيشرف العهد الامبراطوري ، اعني به تفتح العلم القانوني الروماني تفتحاً كلياً .

التاريخ

كان لمادة ونتائج هذه الابحاث اهمية تاريخية : فقد تجمعت مصادر اكيدة وواضحة . وفي الوقت نفسه اقدم بعض ذوي المراكز العليا ، على الطريقة الهلينية وبدافع أدبي مزعوم ، على تدوين مذكراتهم : ونكتفي على سبيل المثل ان نذكر سيلا بعد استقالته . كان من المفروض في هذه المذكرات تبيان السيئات التي هي دستور هذا اللون ، ولكنها اوضحت السيكولوجيات وفاقت ، من حيث القيمة ، الذكريات التي يشوهها الكبرياء العائلي . كان الرومان فخورين جداً بماضي وطنهم ومنساقين بدافع السياسة في منازعات الاحزاب والافراد، لذلك فان عقليتهم النقدية كانت بحاجة قصوى الى ان تستيقظ : فاستيقظت عند النخبة . وقد لعب تأثير بعض الاغريق الشخصي دوره في الاتجاه نفسه . فالمؤرخون الهلينيون لم يبالوا كلهم بأمر الوساوس : فقد قام بينهم خطباء خطرون يهوون التأثير المنذوق في النفوس ، ويغلب انهم اوقعوا بعض الضحايا في روما. ولكن اقامة بوليب الطويلة فيها والعلائق التي ربطته ببعض رجالاتها، لا سيما وانه ينتمي الى غير هذه الطبقة ، كان لها صداها . اما الاثر الاقوى ، خلال القرن الاول، فهو أثر بوزيدونوس، ذلك العقل الشامل والرواقي الذي جمع الى التاريخ علم الاجتماع وحتى الجغرافيا العلمية : فمن تحقيقاته الطويلة والرصينة في الغرب وصلت الينا، عن طريق غير مباشرة، اكثرية معلوماتنا عن الغاليين قبل قيصر . بيد ان المؤرخين الرومانيين كانوا اقل اهتماماً لمسألة العلل من هؤلاء الأساتذة اليونانيين المتأثرين بالفلسفة الى حد بعيد . ولكنهم تعلموا منهم اولوية الوقائع والحاجة الى تبريرها الفردي او الجماعي وقيمة انشائهم الواضح. وهكذا تسامى التاريخ

القدر العابث ، الساخر ، ان يأتيها على يد مارك اوريل نفسه .

عدم اكتمال تجربة النظام الملكي الامبراطوري

قيّض لنا ان نشهد ، ونحن بصدد الحديث عن طقوس عبادة « روما واوغسطس» او عبادة الإلهي *Divi* ، عدم اكتمال الملكية الامبراطورية وبلوغها التام ، اذا ما قارناها بالملكيات الاخرى . هـل كان من شأن تطوير أسرع في المظاهر الدينية ومناسك العبادة ، ان يساعد أكثر في تطوير نظرية الملكيـة لامبراطورية ليبلغ بها الى الكمال والتام ؟ فالعبادة الامبراطورية كانت تفتقر ، بالفعـل ، الى الكثير من روحانية الدين. فلا عجب ان يقابلها الكثيرون بالتشكك وان يعرضوا عنها ويولوها ظهورهم.

فلو بلغ هذا التطور تمامه لكان جاء ، على عكس الواقع ، بنتائج فعالة ، ربما تبلورت عـن وضع قانونٍ لوراثة الخلافة الامبراطورية ، ثابت ، واضح ، وهو وحده القادر على ان يشيّد النظام الملكي على أسس ركينـة من الشرعية والدستورية فيجعل من هؤلاء البشر المقدّر لهم ان يحصدهم الموت ، والذين تعاقبوا على الأريكة الامبراطورية، كلا متجانساً ، اذ ان عدم توفر هذا العنصر الاساسي عرّض الامبراطورية ، الفينة بعد الفينة ، لهزات عنيفـة وخضات شديدة ، أورثتها الفوضى والوهن . وهذه الامبراطورية ، باعتبارها مؤسسة بشرية ، وملكية عسكرية، لم يكن لها بدّ من التضرّس بما تضرّست به من إحنِ الدهر وصروفه ودُوَله ، انما قـد يكون جاء هذا كله ، على نطاق اضيق وبعدد اقل . فغموض النظام الذي سارت عليه ، والإشكال الضمني الذي اتصفت به، اقامها، منذ الاساس، على خواء ، وجعلها واهية ، متداعية في الصميم . هنالك ، بالطبع ، عدد من النظم الملكية ، عانت ، منذ البدء ، الداء نفسه ، إلا انها عرفت ، فيما بعد ، كيف تنفض عنها اعراض هذا السقم فتعود اليها العافية سريعاً. ومسؤولية عدم اكتمال فكرة النظام الامبراطوري في روما ، انما مردها قبل كل شيء ، والحق يقال ، الى الظروف التي لابست هـذه الامبراطورية وأحاقت بها ، وللأفراد الذين تولوا مقدّراتها خلال القرنين ، وهي الفترة التي امتد اليها عهد الامبراطورية الاولى ، وما خامرهم من شكوك وتردد وما أتوه من سخافات وترّهات .

ومع ذلك ، وبالرغم من هذا النقص الجذري في التكوين والبنيان ، استطاعت هـذه الامبراطورية ان تحيا وتبقى وان تنتظم ، ان لم يكن نظرياً فأقله واقعياً .

٢ ـ النظم القديمة

عرف النظام الامبراطوري ان يشق طريقه في الدولة، وان يحقق نجاحاته على حساب النظم والمؤسسات الجمهورية التي لم تلبث ان خفـّت حيويتها وضؤُل نشاطها ، يوماً بعد يوم .

الاجتماعات الشعبية *Les Comices*

استمر العمل بالهيئات الشعبية القائمة، انما قلت دعوتها للانعقاد. فاذا ما عقدت جلساتها ، فلأمور تافهة وبصلاحيات اخذت تضيق وتدق ، شيئاً فشيئاً . وقد يحدث ان تدعى ، في القرن الاول للاجتماع ، عنـد مناسبة

الى مرتبة لون ادبي لاتيني كبير واقتبس في الوقت نفسه اقله بعض الفضائل العقليـــة التي كونت عظمة مبدعيه اليونانيين .

ولن نذكر ، هنا ايضاً ، بين اسماء كثيرة ، سوى بعض الاسماء الجديرة بالذكر . اضف الى ذلك ان اسماً واحداً ، بين الاسماء المهملة ، قد عرف ببعض مؤلفاته ، هو كورنيليوس نيبوس . ولكن جامع النوادر الموجزة هذا لا فضل له سوى انه ادخل الى روما لون الترجمة باهتمامـــه حتى للأجانب .

هل قيصر مؤرخ يا ترى؟ اعوزه لذلك الوقت والميل : فهو رجل تشرب ثقافة رفيعة جداً، ولكن ثقافته لم تلاش تصميمه المتأجج على العمل بل خدمته وزادته تأججاً ؛ وهو عقل يستهويه كل ظرف يمارس فيه نشاطه ولكنه لا يحيد ابداً عن هدفه الأوحد : السلطـة ، وهو ذو ذوق رقيق يقدر بهجات الفكر وغيرها ويسعى وراءها ولكنه لا يخضع لسيطرة واحدة منهـا . فقد نظم اشعاراً والف مسرحيـة – على غرار الاسكندر – ووضع درساً في النحو ، وذاعت شهرة خطبه بين المتطلبين . ولكن لم يصل الينـــا منه سوى « تعليقاته » على حرب الغاليين وعلى الحرب الأهلية التي انجزت على يد غيره . وهي لعمري مؤلفات دعاوة قام بتحريرهـا على عجل في فترات راحته ونشرها نتفاً متعاقبة بغية تثقيف الرأي العام تحت ستار إعلامـه . ولا وجود مطلقاً للاهتمام التاريخي الصافي ، على الرغم من تجرد ظاهر ليس في الواقع سوى ارب متناه وفن خالص واسلوب ماهر احسن استخدامه بغية ارغام القراء ، ارغاماً افضل ، على ان ينظروا الى الاحداث ويفسروها بحسن التفات وقبول . وليست « تعليقاته » بالاختصار سوى مذكرات فورية وتقارير موجهة .

ولكنها تصدر عن خير شاهد يمكن ان نحلم به لانه لعب الدور الاول؛ وعن اكثر الناس شغفاً بكل شيء ايضاً ، على الرغم من انه اعظم ذكاء ورغبة في العمل من ان لا يقيس مجهوده بالفائدة التي يستطيع جنيها منه ؛ وعن ابعد الناس سيطرة على نفسه اخيراً واشدهم حرصاً على ان لا يبدو عليه اقل شعور قد يؤثر من قريب او بعيد في وضوح رأيه . فالاديب والرجل قد ارادا عملا خالياً من العصبية ، فكان ما اراداه؛ وقد جاء مطبوعاً باعتدال لا يضاهيه اعتدال في تركه الوقائع تصدر حكمها بالمديح او باللوم . وقد اسهم خلوه من العصبية في وضوحه الذي بلغ من كماله اننا لا نشتبه بصنعيته ، بل علينا التفكير ملياً كي نكتشف ان كل شيء لم يُقل مما يجب ان يقال ، وان كل شيء لم يحدث بمثـــل هذه السهولة . فحتى نعرف ونفهم حقيقة فتح غاليا ، يعوزنا « تعليقات » قائد غالي كبير . كان باستطاعة قيصر ، بفضل مواهبه الكثيرة ، ان يصبح مؤرخاً لا يجارى لو انه طمح الى ذلك ، ولكنه ، لو فعل ، لما كان قيصر .

على نقيض ذلك ، تغلب المؤرخ على رجل العمل في سالوستوس أحـد اصدقاء قيصر وأحد اولئـك الانصار المتحمسين ، الجموحين ، والملتكين احياناً ، الذين يستميلهم كل رئيس حزب .

المفتاح الحقيقي لهذا السر المغلق وبنأى بعيداً عن الواقع : هو قبول الجيش لمثل هذه الاجراءات التي اتبعت لتأمين الخلافة والأخذ بها دون ان يحدث في الغالب ما يعكر صفو الأمن ، اذ كانت ترفع الى السلطة العليا قوّاداً ليس لهم من الحسب ولا من المجد العسكري – باستثناء ترايانوس – ما يستحقون معه ثقة الجيش والولاء الذي عرف بـــه ، وهم في الغالب افراد لمعوا في بطانة الامبراطرة الذين دُعوا لخلافتهم ، أو برزوا في المجتمعات الرومانية التي عرفتهم وقدرت مواهبهم بمعزل عن الجيش الروماني ؛ فاذا ما عرفوا ان يفوزوا بولاء الجيش فبفضل مـا جاؤوا به حالاً من دليل على كفاءتهم ومواهبهم ، أو بفضل ما كان عليه الجند اذ ذاك من احترام لروح الانضباط ، بلغ حداً من العمق لم تعرف البلاد له مثيلاً من قبل ، وهي فترة قصيرة الأمد ، اذا ما قيست بمدة بقاء الامبراطورية ، ولكنه طويل بالنسبة للامبراطرة الأنطونيين الخمسة ؛ فعرف هؤلاء الملوك ان يفيدوا من هذا التوازن المدهش الذي جمع بين القوى الأدبية والقوى الاخرى المتفاعلة في الامبراطورية .

هذه الملاحظات العابرة أعجز من أن تستنفد الاهتمام الخليق بالأسرة الانطونية ، والظروف التي أحاقت بها ، والوضع القائم الذي أوجب تكوين طبقة اجتماعية مُوجّهة تكون في مأمن من وصول امبراطرة الى الحكم يجيء بهم الجيش على سنان الرماح . واقتصرت هذه النظرية على تثبيت وضع قائم ، والترسيخ له في النفوس ، والعمل على رفع مستواه ، بعد ان قررت الأخذ بالنظام الامبراطوري ، وجعل الخلافة في الاسرة من حق « الأفضل » و « الأمثل » لها . وقد حرص العهد عـلى تسمية الوريث الأفضل ، واعلان امره ، وذلك تقويةً للامبراطرة الذين أقر مجلس الشيوخ الروماني خلافتهم . ولم يكن المؤرخ تاسيت ، وهو من معاصري الامبراطور ترايانوس إلا ترجمان حال زملائه من اعضاء هذا المجلس عندما راح يقصّ علينـا في « تواريخه » قصة تبني الامبراطور غلبـا *Galba* لبيزون *Pison* أثر مقتل نيرون ، فكتب على لسان المتبنّي : « لا يعني هذا قط ان لا أنسباء لي ولا رفاق سلاح ، ولم أبلغ الحكم لأنني طمحت اليه ، وسعيت له ، كما يشهد على ذلك ، ممارستي للسلطة بنَصَفَة ، وبمعزل عن الأخذ بالوجوه ، وتفضيلي لك على باقي الناس ، ليس على خاصتي فحسب ، بل على خاصتك ايضاً ... فهذا الاختيار الذي صدر عنا هو الحرية بعينها . أمـــا الآن بعد ان انقطعت اسرة اليوليين واسرة الكلوديين ، فالاختيار والانتخاب أساسه : الأمثل والأفضل . ان يأتي المرء الى الوجود ودم الأمراء يسري في عروقه ، فأمر من صميم الحظوظ والاقدار ، التي يتعطل معهـا الفكر وينعدم النظر . فالمتبني هو الذي يقطع ويجزم في ما يُفصَّل . فاذا ما قرر الاختيار كان له الرأي العام هادياً » . ورسالة الاطراء والمديح التي وجهها «بلين الاصغر» *Pline Le Jeune* للامبراطور ترايانوس تتضمن ، هي الاخرى ، تصريحات من هذا النوع . فالأخذ بهذه النظرية ولو ظاهراً ، أضفى كثيراً على السلالة الانطونية شيئاً من الوقار والنبل في تفكيرها : فعبثاً نحاول العثور على غيرهـا من الاسر الامبراطورية تنفتح في ظلها وعهدها ، مثل هذه الافكار السمحاء التي لم تنقضها الحوادث والماجريات الواقعية التي حدثت خلال أجيال متعاقبة . إلا ان هذا النقص كان لا بد له من ان يقع ويحدث . وقد شاء

أضف الى ذلك ، أن رجل العمل لم يجد عملاً بعد اغتيال الدكتاتور ، فتوارى أمـــام المؤرخ في المنزل الفخم الذي أتاحت له اغتصاباته الحصول عليه في قلب رومـا . لذلك ، فان التطور جليّ بين « مؤامرة كاتيلينا » و« حرب جوغورتا – دونما حاجة الى ذكر كتاب « التواريخ »المكرس لفترة مـــا بين السنتين ٧٩ و ٦٦ ، اذ لم يبق منـه سوى نتف فحسب . منذ البدء ، اقتفى سالوستوس آثار توسيديد ، واستوحى انشاءه الموجز ، والجامـع حتى الخشونة . ولكنه قد اقتدى به احياناً ايضاً في حرصه على استنزاف المصادر بالاستفادة من اقامته فيافريقيا للاستعلام حتى عن البلديين وبالجهد الذي بذله في الفراسة السيكولوجية والتحليل الاجتماعي . وغني عـن البيان ان المشايع لا يمكن ان يتوارى في هـــذه الفترات من ماض قريب لا يزال حياً . وهو لا يهتم ، كما توفق قيصر الى ذلك ، لاخفاء اهواء تعبّر عنها دفاعاته ومهاجماته. بيد ان تمرّده يزداد يوماً فيوماً ، فيقدم هـــذا الديموقراطي أخيراً لقارئه عناصر اكرام لممثلي الحزب المناوىء : وهـــذا ما يزيد في قيمة الداعي الى الاخلاق الذي نتمنى كثيراً لو يكون دون مأخذ في حياته الشخصية .

البلاغـــة

على غرار المؤرخين اليونانيين ايضاً ، أكثر قيصر وسالوستوس من الخطب بأسلوبهـا المباشر او غير المباشر . ولكن الجملة الصافية عند الاول ، والغامضة عن قصد عند الثاني ، والموجزة على غير تنميق عندكليهما، تنحدر من علم البلاغة اللاتيني الذي تمثل هي احدى نزعاته . فمنذ ذاك العهد كانت البلاغة اللاتينية ، وهي ابنـــة البلاغة اليونانية ، مسيطرة على اساليبها ، أي على النثر الذي ابتدعته ، سيطرة كافية لكي تناقش في استخدامها . ان هذه المنازعات، المستوردة من العالم اليوناني الذي انهمك بها منذ القرن الرابع على الرغم من فقدانـــه حرياته في تلك الاثنـــاء ، ازدهرت في روما حيث لعب الكلام في الجمعيات والمحاكم دوراً مماثلاً لذاك الذي لعبه من قبل في اثينا الديموقراطية . فكان على الروماني الحقيقي منذ امد بعيد ان يكون حقوقياً وخطيباً . واذا ما تحلى ببعض الذوق ، فلا يستطيع ان يكون خطيباً دون فن ودون تأمل في فنه . وعبثاً اراد المتمسكون بالتقليد مقاومة أثر البلاغة العلميـــة التي أتاحت حيلها تأمين الغلبة لقضية باطلة . فقـــد درّست وفاقاً لتربية مستوحاة من المدارس اليونانية بقواعد نظرية دقيقـــة جداً وتمارين على مواضيع خيالية . في السنة ٩٢ اقفلت مدارس البلاغة اللاتينية ولكنها لم تلبث ان فتحت ابوابهـا . ولعل التدبير املته ظلامية معادية للديموقراطية ، لأن الخطباء اليونانيين قـــد تركوا وشأنهم منذ اواسط القرن الثاني ولأن النخبة اخـذت ترسل اولادها في القرن الاول الى رودوس واثينا كي يتابعوا علومهم. فانتقلت من ثم الى روما الطرائق المختلفة المعتمدة في العالم اليوناني والمجادلات التي زعزعته .

اعتمد بعضهم اللون المعروف بـ « الأسيوي » لانه نشأ في آسيا ودرّس في برغاموس بنوع خاص . ومن حيث انه كان منمّقاً جـداً أي مثقلاً بالصور والمفردات المؤثرة ، فقد سعى ايضاً وراء الايقاع الذي هو أشبه بالغناء عند الالقاء . وخير ممثل لهذا اللون في اوائل القرن الاول

دون صريف او صرير . ثم راح بعد هذا ، ينصرف من جهة اخرى ، لتنظيم عبادة الامبراطور وتقديسها . فليس ما يصدمنا او يثير دهشنا قط ، ان نرى ونقرأ على احدى النقائش التي عثر عليها في بريطانيا ، ، العبارة التالية التي كتب لها ان تعمر طويلاً ، وهي : « البيت الإلهي » وبعبارة اخرى : « الاسرة الإلهية » ، تنويها بالأسرة الامبراطورية واشارةً اليها .

هذه النظم والانشاءات المستحدثة كان يلزمها ، لتعيش وتُعرق في نفوس القوم ، ان يطول بقاء هذه الأسرة على الحكم ويدوم الى ما شاء الله . غير ان تصرفات دومتيانوس وسفاسفه كانت سبباً في هلاكه وقتله . وما كاد جثمانه يواري الثرى ، حتى راح مجلس الشيوخ يلغي قرارات التبني التي كان اتخذها الامبراطور الراحل ، اذ كان تبنى بعد وفاة اولاده ، اولاد شقيقه الذين كانوا في الوقت ذاته ابناء عمومته . وهكذا وجدت خلافة الامبراطورية نفسها امام فراغ جديد وعلى حافة هاوية عميقة .

الاسرة الانطونية واختيار الاصلح

عرف المتآمرون ، هذه المرة، ان يُحكموا الحبكة ويسددوا الضربة، وينفذوا بدقة ، التدابير المقررة ، فلم يجد العنف طريقه الى تعيين الامبراطور الجديد. فالامبراطور الجديدالذي نادوا به : نيرفا ، قبل به الجيش راضياً مرضياً ، فكان طليعة الأسرة الانطونية التي اطلت على الحكم في شخصه واستقام لها الأمر قرناً تقريباً اي من سنة ٩٦ الى سنة ١٩٢ للميلاد. اما قضية الخلافة في عهد هذه الأسرة، فليس في التاريخ كله، بما فيه تاريخ روما والأسر الملكية التي تعاقبت على الحكم، اسرة أعلق في النفس واشد غرابة من هذه الأسرة. فالغرابة تكاد تلامس الخروج على العرف المألوف .

ولئلا نستطرد الى ما لا طائل تحته ، يكفي التأكيد هنا ان كل الاباطرة الذين أطلعتهم هذه الأسرة ، باستثناء واحد منهم، هو الأخير بينهم، الذي تم على يده وأد الأسرة ، مع انه الوحيد الذي جاء منها الى الحكم بحق الوراثة الخلافية ، قد تعاقبوا على الحكم على أساس التبني وليس على أساس البنوة الطبيعية . ويجب ان نذكر هنا انه حدث مثل هذا لطيباريوس ، اذ كان ابناً بالتبني لأوغسطس . فاستمرار تعاقب الأمر على هذا النحو ، يكوّن بحد ذاته ، حدثاً جديداً ، يستدعي النظر . صحيح انه كان هنالك وشائج من القربى بين السلف والخلف، كأبناء العمومة أو الخؤولة ، والمصاهرات التي ربطت بين الآباء والابناء ، بررت وزكّت اعمال التبني هذه . وليس من الغريب قط، لعمري ، ان نفرض ، في بعض حالات هذا التبني – وهو أغرب ما في هذا النوع – وجود بنوة طبيعية ، ولكن غير شرعية . ومن المؤكد كذلك أن عملية التبني عند هؤلاء الاباطرة لم تكن سوى تدبير أعرج ، أُخِذ به في الحالات القصوى ، بعد ان رأى من لجأ الى هذه الطريقة من بينهم ، أنفسهم بدون عقب يخلفهم. وأول امبراطور منهم رزق صبياً ، بادر للحال لتأمين الخلافة له ، حتى أن الامبراطور مارك أوريل نفسه رأى ذاته ملزماً للأخذ بالقانون الطبيعي مع انه جاء في مصلحة كومود نفسه . فاذا كان ثمّة ما يبرر ، بالفعل ، قرارات التبني هذه ويزكيها، فالشيء الذي يبقى غريباً ويصدم العرف ، لا بل يكوّن

هو هورتنسيوس وانتسب البعض الآخر الى الذوق « الأتيكي » بطموحهم الى النقاء الدقيق ، والموجز على بعض الجفاف ، والمتين . وكان هذا بالضبط مثل قيصر الاعلى ؛ وهـــذا المثل هو الذي احرز الغلبة ، في اواخر العهد ، في اوساط الشباب .

وقال غيرهم اخيراً انهم اكتشفوا فيرودوس درساً ومثلاً في التسوية : فلا افراط في العري ولا إفراط في التنميق الصنعي ، بل غزارة انيقة في خدمة معنى رصين ومتين . وهذا كان برنامج شيشرون .

شيشرون

انه مدين للفصاحة بارتقائه الاجتماعي . وقد بدأ ارتقاؤه هـــذا بالاثراء اذ ان خدماته قد قابلتها الاعطيات والهبات عن طريق الوصيات والنصائح بالتوظيف المثمر. وبدا خصوصاً بسنى الحياة السياسية، اقله في مرحلتها الاولى ، فأتاحت نجاحاته الخطابية « للانسان الجديد »، المنحدر من عائلة فرسان في بلاد « الفولسك »،ان يتوصل الى القنصلية منذ السنة ٦٣ ، « سنته » ، في السن الدنيا المفروضة لذلك. فمارس ، طيلة السنة التي تولى فيها الحكم، دكتاتورية كلامية حقيقيـــة ، منتزعاً من مجلس الشيوخ سلطات خاصة لسحق محاولة كاتيلينا الثورية ، واستطاع التباهي بعد ذلك ، ربما « بفعل سبب ، ولكن دون غاية » ، بأنه خلّص الدولة والمجتمع . ثم أتى دور الكسوف . ولكن موت قيصر جعله يستعيد دوراً اوليـــاً نهض به بسذاجة وهوى وشجاعة معاً . واذا ما هو مات ضحية طامعين عَنِدَ هو في ملاحقة احدهما واعتبره الآخر شخصاً احمق ، فقـــد مات دون ضعف ، على الاقل ، وماتت معه الحرية الرومانية . وهكذا فانه دان بارتقائه الى حدّة فصاحته العلمية ، ودان لها ايضاً بنهـــاية ديموستينس . وانمـــا هو مدين لها حتى اليوم بجوهر شهرته التي لا يضاهيها حقاً سوى شهرة ديموستينس : فالمعاصر الذي يطلب اليه تأليف « تراجم متوازية » لن يتردد في الوقوف موقف بلوطارك ويرى فيه الشريك الضروري للخطيب الاثيني .

لدينا اليوم حوالي الستين من خطبه ، أي ما يعادل نصف الخطب التي عرفها التاريخ القديم . وهو قد اعاد النظر فيها قبل نشرها ، وبلغ منه انه نشر خطباً لم يلقها قط : كأكثرية الخطب « الفرينية » مثلاً . ولكنها ، حتى في مبناهاالشفهي قـــد تضمنت مقاطع أعدت كتابة ، وكانت ، على كل حال، نتيجة تحضير متقن . واذا ما انسجم فن شيشرون مع مزاجه الشخصي، فانه قـــد خضع مع ذلك الى تقنية بالغة المهارة والتفكير كما يتضح من الابحاث النظرية العديدة حيث اطال التكلم عنها بغية تبرير اسلوبه . فقد رفع هـــذا الاسلوب الى مستوى النظرية في ما يعود للصوت والاشارات ، والتركيب العام ، وإنماء الافكار بالثقافة العامة ، والبحث عن الحجج وعرضها ، والوقت المناسب للجوء الى السخرية والحفظة ، وتنضيد الجمـــل واختيار المفردات . فاليقين والاقناع والتأثر والاغراء ، من حيث ان كل ذلك يسهم في بلوغ هدف واحد ، يمكن تحقيقها في نظره باعتماد صفات فطرية تزيد في قوتها التربية والمهنة .

تأمين انتظامها وانضباطها . فقد كان بوسع الامبراطور طيباريوس ان يلزمها التسلسل المدرّج ، وبعبارة اخرى ان يقصرها على التدرج المسلسل الذي كانت تفتقر اليه ، لو عرف كيف يحتذي حذو اوغسطس ويأتم بهدي فطنته ، عندما نظّم قضية خلافته ووراثته . غير ان ما كان عليه طيباريوس من نفرة للناس ، وابتعاده عنهم ومجافاته لهم ، كل ذلك وقف حجر عثرة دون المرتجى والمرغوب . ومنذ ذلك الحين ، اصبحت الوراثة السياسية كرة او ألعوبة ، تتقاذفها شعبية المرشح في الرأي العام ، وقادة الجيش ، والدسائس المحيكة وراء الكواليس ، وسخرية القدر وعبث الأقدار . وعندما بادر حرس القصر كلوديوس بالتحية الامبراطورية ، إعلاناً له باعتلائه أريكة الحكم، خاف وأخذت فرائصه ترتعد هلعاً، فتوارى خلف سجف القصر وستائره. وهذا الوضع حمل كل امبراطور على ان يتخلص من انسبائه وذويه عندما يرى فيهم منافسين له على السيادة والسلطة . وهكذا أخذت الاغتيالات السياسية والسموم المدسوسة بعلم وفن ، من قِبَل طامع في الحكم خالع العذار، امثال «سيجان»، تفعل فعلها الذريع بين الاسرة الامبراطورية العديدة الفروع ، فحصدت افرادها البارزين حصداً ، وكادت تودي بها الى الهلكة والزوال . وعندما أُجبر نيرون على الانتحار عام ٦٨ بعد ان تخلى عنه حرسه، لم يكن بقي احد من افراد الأسرة ليطالب بامجاد قيصر وأغسطس ، ويلوح بها تعريفاً وانتساباً . وهكذا اصبحت الدولة والسلطة العليا فيها ، فريسة الاقوياء يتجاذبونهـا كلما اشتد من احدهم الساعد او تراءى للقوي بسمة يفتر بها الحظ .

الاسرة الفلافية *Les Flaviens*

اما الرجل القوي في هذه الاسرة فهو تيطس فلافيوس فسبسيانوس ، اول امبراطور اخرجته للناس هذه العائلة ، التي تولت الحكم مدة قصيرة لم تزد على ٢٦ سنة، الا انها ألّفت كتلة بزت بتجانسها وتراصّها، ما تم منه للاسرة اليوليو – كلودية . كان تيطس بن فسبسيانوس البكر ، ولما لم يعقب الا ابنة ، فقد خلفه على العرش الامبراطوري ، عند وفاته ، شقيقه دومتيانوس . وهكذا نرى ان الحظ سار في ركاب هذه الاسرة ، فرتبت أمر الخلافة فيها ببساطة كلية ، وبذلك ، عرفت ان تُجري ، في روما ، حقاً وراثياً قام على قاعدة : الخلافة للبكر الذكر ، وجعلته بمعزل عن تقلبات الرأي ودسائس الدساسين .

وعرف الامبراطور فسبسيانوس ، بما أوتي من حزم وعزم ، ان يفيد من مؤاتاة الحظ له وسيره في ركابه . فما ان قبل تسنم أريكة الامبراطورية حتى رأى في وجود ولديه الى جنبه ضمانة كافية للخلافة في ذريته . « وكان له من الجرأة ان عالن مجلس الشيوخ » ، كما يؤكد المؤرخ سويتون ، بان ولديه سيخلفانه ولا احد غيرهما » . وفي هذا السبيل عمل مـا يترتب عليه عمله ، فعهد الى ابنه تيطس بالسلطة التريبونية والسلطة البروقنصلية ، كما رفع ابنه الثاني دومتيانوس الى رتبة القنصلية وثبّته فيها عدة مرات. وبفضل هذه الاجراءات الحكيمة والتدابير الرشيدة، بدت السلطة بين يديه حقاً وراثياً قائماً في الاسرة ، ينتقل من السلف الى الخلف بصورة تلقائية ،

ان ما يلفت النظر اليوم هو صنعية هـــذه الاساليب الماهرة . ونحن نستسلم حتى الى الملل امام هذه الجمل الطويلة وتوازن اقسامها المرتقب مسبقاً . ويستهوينا غالباً ان تتصل اتصالاً مباشراً بالرجـل وبهواه الصادق الضائعين في عموميات تافهة وتمحكات حقيرة . ونكون سعداء جداً حين يحدث له ان يكون سيء النية ، لا بدافع بصيرة المحامي في شدة الضيقة ، بـل بدافع الحدّة والحميا ؛ فنحن حينذاك امام حملات لا ترحم تشن بسخرية متفوقة في المرافعات وببغضاء جنونيـــة في اعنف الخطب السياسية ، كالخطب الكاتيلينية والفيليبية ، مثلاً . ولكن الحقيقة – اوليس ذلك هو الاهم بالنسبة لمحارب خطيب ؟ – هي انه توقف في بعض الظروف الى اثارة حماس مستمعين معادين مبدئياً . والحقيقة ايضاً هي ان اجيالاً متعاقبة كثيرة لم تر ، طالما آمن الناس بفعالية البلاغة ، افضل من ان ينحنوا على كماله حتى ينتزعوا منه الاسرار .

بيد ان الخطيب لم يحدد الرجل كله الذي كان اشد كبار المفكرين الرومـــان ايماناً بامور الروح ، ان لم يكن اعظمهم كمالاً واناقـــة – يجب الا ننسى قيصر – في القرن الاخير من العهد الجمهوري .

الف قصائد رصينة جداً وتعليمية – نقل كتـاب « الظواهر » السماوية لاراتوس السولي – وسياسية تاريخية : بيد ان فقدانها لم يحرمنا من الروائع في الارجح .

راسل صديقه اتّيكوس بصورة متواصلة . ولم يخضع نشر رسائله، بعد وفاته بتسع سنوات، لاعتبارات الصداقة والادب فحسب ، ولكنه قد اخطأ هدفه بدون شك اذا كان مـــا املاه تصميماً على الثلب والتعيير . ولم تكن مجموعات الرسائل امراً جديداً ! فقد نشر الاغريق اكثر من واحدة منها دون تدقيق في صحة النصوص التي تألفت منها . ولكن الشيء الأكيـد ، على الرغم من ان مجموعة سابقة واحدة لم تصل الينا ، هو ان المجموعات السابقة لم ترتد طابع الغزارة والاهمية الذي ارتدته هذه المجموعة . ومهما يكن من الأمر فان هذه المجموعة لا توفر لنـــا ، بالحياة التي تجيش فيها ، شهادة مشوقة حول عهـد شيشرون وبطانته فحسب ، بل خير شهادة تولد فينا الميل الى البداهة الانسانية والحدة البديعة او العطوفة في ردات فعله .

بحث اخيراً، في الاثنتي عشرة سنة الاخيرة من حياته، عما يحوله عن شتى خيبات آماله وآلامه – عن كسوفه السياسي وعن انفلات محزن تستسلم له قوى تفوقت عليه ومزقت منافساتها وطنه ، وعن الدكتاتورية القيصرية التي كمت حرية الكلام ، وعن وفاة ابنة احبهـا – في وضع الدروس الفلسفية . وقد غذى بعمله هذا طموحاً الى إنماء تراث روما . وبديهي ان المقصود هنا هو التراث الادبي ، كما جرى له في دروس البلاغـــة المعاصرة لهذه الدروس : وقد توصل الى ذلك بفضل طريقتها الحوارية ، المقتبسة عن افلاطون ، وبفضل اللهجة المازحة او الحصيفة ، وبفضل اتقان النثر الذي جعلت منه هذه الدروس، بعد الخطب ، وسيلة تعبير واضحة وقوية ومرنة اعتمدها جميع الكتبة اللاتين اللاحقين . كما ان المقصود هو التراث الفكري ايضاً الذي كان يشكو ، اذا

مائتي سنة . إلا انه اتضح أكثر من مرة لمن يعنيهم الأمر عجز هذه الطريقة عن تأمين انتقـــال الخلافة بسلام . ولذا صح لنا ان نعتبر هــذا التأخير ، مظهراً جديداً لموقف المداراة والتحفظ الذي اضطر العهد الجديد للوقوف عنده ، تمييزاً له عن نظام ملكي لم تكن روما لترغب فيه او لتتحمس له .

تطور الحق السلالي والاسرة اليوليو ـ كلودية *Julio-Claudienne*

كان لفكرة خلافة الأسرة وقع ، ولا شك ، شديد في النفوس . وهذا الاغراء بالذات كان له أثره البارز في واقع الخلافة السلالية . فالانسان نزّاع بطبعه ، للبقاء والديمومة . ونظرية الرجـل الذي أعدّته العناية الربانية ، مهّدت السبيل طبعاً امـام الفكرة الثانية وهي فكرة الأسرة المصونة ، الملهَمَة بنعمة الآلهة . فالامبراطورية الاولى تقدم للمؤرخ ثلاثة امثلة لكل منها طابعه الفردي المميز .

فمن عهـد اوغسطس الى عهد نيرون ، برهنت السلالة اليوليو ــ كلودية عما لاثنين من افراد هذه الأسرة من تأثير ونفوذ عظيمين، هما قيصر الذي كان من اسرة يوليوس ، واوغسطس الذي كانت جدته لأمه من هـذه الأسرة ايضاً ، ولم يلبث ان اصبح منها في الصميم بعد ان تبناه قيصر نفسه . وقد تزوج من والدة الشقيقين : *Claudii* ، واذ لم يُعقب تبنّى أكبرهما سناً ، وأرغمه على ان يتبنى بدوره ، ابن اخيه الاصغر ، بعد ان مات ابوه من قبل . وهكذا انصهرت اسرة يوليو بأسرة كلودي . وقد ازدادت الوشائج بين الاسرتين ، فيا بعد ، لصوقاً ومتانة ، على إثر المصاهرات والزيجات التي وقعت عبر الأجيال بين الاسرتين ، فضمت ابنة اوغسطس الوحيـدة وبناتها من بعدها الى افراد الأسرة الكلودية ، وقد وقع من حوادث التبني بـين افراد الأسرتين وأفخاذها وبطونها، ما يجعل من المستحيل اليوم ، تتبع خيوط هذه الوشائج المتشابكة . ولكي يبدو هذا التعقيد على أتم صوره يكفي ان نورد هنا شاهداً واحداً . فعندما تزوجت أغريبين الثانية من خالها كلوديوس ، كانت لحماً ودماً ، ليس فقط ابنة حفيدة اوغسطس وحفيدة ابنـة اخته ، بل كانت ايضاً بالتبني ، ابنة حفيدته . كل هذا التشابك والتراكب والتعاظل لم يخل من نفع وفائدة ، على شرط ان يعرف المستغلّون كيف منه يفيدون ، ومثل هذا الأمر لم يغب عن فطنة أغريبين وزكانتها . فآصرة التبني التي شدتها الى اوغسطس كانت احدى هذه الوسائل التي تذرعت بهاالتحمل كلوديوس على تبني نيرون ، احد افراد اسرة دومتيوس *Domitius* ، فاستطاعت بذلك ان تقصي عن الخلافة بريتانيكوس ابنه الشرعي ، الذي كان بحسبه ونسبه ، بأبيه وامه ، حفيد اوغسطس .

وهكذا بدت الأسرة اليوليو ــ كلودية في عيون معاصريها، من هذه الاسر المختارة، المصطفاة، والمهيأة ، ان لم يكن شرعاً فوضعاً ، للاحتفاظ بالرتبة والسلطة الامبراطورية . غير ان مسائل هذه الشجرة وفروعها المتعددة ، وتشابكها بعضاً ببعض، كان من الأسباب التي حالت او منعت

ما قورن بالتراث اليوناني ، من نقص يحز في وطنيته . ولكنه كان بعيد الهمة في ذلك . وفر له الفكر اليوناني نقطة الانطلاق : فعرض بجلاء ، حيال المسائل المختلفة التي تناولها ، المذاهب التي بدت له جديرة بالاهتمام ، اي مذهب ارسطو ومذهب الرواقية ، راجعاً الى الاصول بغية تفسير ما صارت اليه آنذاك ، فقابلها وانتقدها بغية التوصل الى « اختيارية » وسيطة معقولة . ولكن الجهد العظيم الذي بذله قد تأثر بالسرعة التي بذل فيها ، على الرغم من صفات استساغة وذكاء حاد قل نظيرها . اضف الى ذلك ان شيشرون قد حول برضاه صوب علم الاخلاق والسيكولوجيا والحق ، ولا سيما الحق العام ، نظريات لم يتح له فهمها على الأرجح . فمن السخرية ، والحالة هذه ، ان نضيف الى مجده صفة الفيلسوف التي طمح هو اليها . ولكن هذه الناحية من نتاج ادبي مدهش باتساعه وتنوعه وثروته قد اسهمت ، بوضوحها ، والشغف الفكري ، ونوع المسائل المطروقة ، والثقة الموضوعة في العقل وفي تفاعل الأفكار ، والعناد في معرفة الانسان وخدمته ، والشعور الأدبي ، في جعله اعظم الادباء الذين دانت بهم روما اخيراً لمخالطة الحضارة اليونانية .

موت المسرح الادبي

وهكذا فان النثر اللاتيني الذي بقي قاصراً لمدة طويلة ، قد حصل على براءة النبل . لا بل انه تغلب مؤقتاً على الشعر .

وتعود دونية الشعر جزئياً الى انه فقد حقلاً كاملاً صمتت النداءات التي كانت تأتيه منه والتي كانت له طيلة قرنين حوافز فعالة . فالمسرح الادبي يعاني في الواقع سكرات الموت على الرغم من المساعي المبذولة لاعلاء شأنه لدى الجماهير عن طريق البذخ في الاخراج : استعراض ٦٠٠ بغل في السنة ٥٥ لتمثيلية كليتمنسترا (*Clytemnestre*) و ٣٠٠٠ دن لتمثيلية « حصان طروادة » . وتخلت المأساة والمهزلة عن مركزهما لالوان قبلت اصلاً في آخر التمثيليات وحاول بعضهم عبثاً المحافظة على بعض ما اتسمت به من اعتبار وحشمة : فهناك ضرب من المهازل المضحكة ينحدر بسرعة الى الابتذال ، كما ان نصيب الكلمات المستعذبة يتلاشى تدريجياً في « التمثيلية الايمائية » التي يتوجب على ابطالها ان يكونوا ماهرين في الرقص والمزاح .

الفلسفة والشعر

لوكريس (*Lucrece*)

ولكن الشعر ، في الوقت نفسه ، يسلك طرقاً جديدة : ومنها الفلسفة على الرغم من قصيدتين قصيرتين قلد فيهما اينيوس مؤلفات يونانية . غدت بعض المذاهب الفلسفية اليونانية منذئذ مذاهب معترفاً بها في روما . فلنهمل البيثاغورية التي سمحت لها ارتباطاتها الايطالية بالدخول قبل غيرها : فبعد ان برزت بعض وجوهها الاولى ، نراها آنذاك في روما حيث أسس نيجيديوس فيغولوس *Nigidius Figulus* جمعية دينية حقيقية في عهد قيصر ، هي أقرب الى الديانة منها الى الفلسفة . وقد سبق لنا ورأينا ان المعتقدات الاخرى قد صادفت لدى « كاتون » واصدقائه مزيداً من المقاومة في النصف الأول من القرن الثاني . ولكنها تغلبت على هذه المقاومة : اذ كيف يمكن العزوف عن افكار اعتبرها الاغريق أثمن زينة عقلية للانسان ؟ وكان لتعليم الفلسفة في رودوس واثينا الشهرة نفسها

بريتانيكوس لصالح حفيد اخيه وربيبه نيرون . ومن المؤسف لعمري ، ان تصبح الخلافة تقليدية في مثل هذه الظروف التي لابستها ، لتصبح فيا بعد ، شرعية بقدر ما يمكن لمثل هذا الامر ان يتم ويتوفر لنظام قام اصلاً ، على مبدأ إيلاء سلطة الشعب الروماني والعهد بسيادته ، الى رجل احد ، فرد .

ولئلا تضطر الدولة للاحتكام للسيف وبالتالي لحروب اهلية ، للبت في قضية الخلافة ، كلما اطلت من خلال موت امبراطور ، كان لا بد من إيجاد بديل له او عوض عنه ، فاتخذوا عدداً منهم ، بعضهم جرى اشراكهم معاً في وقت واحد . واكثر الذرائع استعمالاً ، كان التبني الذي يتلاءم جيداً والعرف المتبع واحكام قانون الاسرة عند الرومان . ولهذا العرف سوابق تقره، وتزكيه ، في سلوك قيصر بالذات الذي تبنى ابن اخيه اوكتاف المعروف تباعاً باسم اوكتافيان ثم اوغسطس، كما يبرره سلوك اغسطس في اعمال التبنـّي التي اتاها في عهده المديد. وكثيراً ما اضافوا الى هذا الأسلوب طريقة اخرى هي اشراك المتبني في سلطات وصلاحيات امبراطورية صرفة: كالسلطة التريبونية والسلطة البروقنصلية . وكان من جدوى هذا الاسلوب ومنافع الطريقة التي ساروا عليها، الاّ تجعل العرش يشغر عند وفاة صاحبه الاول. والى جانب هذا التفويض الشرعي او بدونه احياناً، كانوا يعمدون الى تعيين الوريث او ولي العهد بصورة واضحة ، بعيدة عن اللبس والاشكال ، وذلك بتوليته وظائف كبرى ، قبل بلوغه السن القانونية ، مع ما في هذا من مغايرة للعرف المتبع ، او باعطائه ألقاباً تجعل منه بحق، المتقدم ادبياً. وهكذا نرى دومتيانوس يعيّن ست مرات قنصلاً ، قبل وفاة اخيه تيطس ، كما ان الامبراطور هدريانوس جادَ بلقب « قيصر » لمن رشحه لمنصب « اوغسطس » .

وخطا الامبراطور مارك اوريل خطوة أبعد الى الامام ، اذ منح تباعاً لقب « اوغسطس » للوسيوس فيروس *L. Verus* ، ابنه بالتبني ، ثم بعد موت هذا الاخير ، لابنه كومود ، واحتفظ لنفسه وحده ، دون سواه ، في كلا الحالتين ، بلقب ووظيفة كبير الاحبار ، وما تجرؤوا على الفصل بينهما إلا بعد ذلك بنحو ثلاثة ارباع القرن . وفي ما عدا ذلك ، كانت المشاركة كاملة فقد حق للاثنين ان يقابلا بالتحية الامبراطورية الرسمية ، كما استحقا ان يحملا الالقاب ذاتها التي في حملها إعادة لذكرى الامجاد الحربية . فبدلاً من ان تحمل قطع النقد الرومانية الجديدة صورة « نصر اوغسطس » *Victoria Augusti* ، فأصبحت تحمل رسم واسم *Victoria Augustorum* . وهذا الجديد الذي طلع بـه علينا مارك اوريل ، ما لبث ان أصبح القاعدة التي ساروا عليها ، والمثال الذي احتذوه في القرن التالي .

وهذا الاجراء بالذات ، يعيد الى الاذهان، عهد الوصاية المشتركة التي عُمِل بها حيناً في بعض الأسر الملكية الهلينية . فالطريقة كانت مرعية العرف ، متبعة لما كانت عليه من بساطة ويسر. ومن الغرابة ألا تكون الانظار اتجهت اليها والا تكون الامبراطورية الرومانية اخذت بها قبل سنة ١٦١ بعد الميلاد ، مع انها كانت تدبيراً معروفاً عُمِل به وجرى تطبيقه ، منذ أكثر من

التي كانت لتعليم البلاغة ، وقد استهوى ، على غراره ، الشبيبة الرومانية . وأُلقيت محاضرات عديدة في روما نفسها . وتجدر الاشارة هنا الى افتقار روما الى مدارس فلسفة يوزع التعليم فيها باللاتينية على غرار مدارس البيان: فليس من موجب عملي يرغم على ذلك ، وليس ايضاً – وهذا ما يفسر طموح شيشرون – من مذهب متميز نشأ في الغرب يفرض مفرداته الخاصة وتقدمه العقلي .

ان الرواقية ، بين المذاهب المنتشرة في العالم اليوناني قد احرزت في روما أعلى درجة من النجاح . وقد خدمها في ذلك اقامة اهم ممثليها في روما الذين كان لهم من قوّة الفكر ما جعلهم يطبعون آراء اسلافهم بطابعهم الشخصي : باناييتيوس ، صديق شيبيون اميليانوس في القرن الثاني ؛ وبوزاييدونيوس الذي برع في أكثر من حقل من الحقول الفكرية ، في القرن الاول . ومنذ البداية ايضاً ، اقله في ما يعود للنزعات الادبية ، تجمعت ظروف عديدة وقدّرت « للرواق » الانتشار : فهو يوصي بالعمل الذي يتوجب على الروماني الا يحيد عنه ؛ ويدعو باسم العقل الى التحلي بالفضائل العابسة ، العدل والشجاعة والقناعة ، التي تطابق المثل القومي التقليدي ؛ لا بل ان الخضوع نفسه للنظام الإلهي في العالم قد انطوى على بعض ما يأخذ بمجامع القلب في مدينة تنهض بواجب تنظيم الامبراطورية التي سلطها عليها القدر . اجل لن يتم الفوز العظيم إلا في عهد لاحق ، أي في العهد الامبراطوري ، ولا يمكننا الاستشهاد إلا باسم كاتون الأوتيكي حتى نحاول آنذاك ، ولو ببعض التكلف العقائدي وبعض الخور الذي تمحوه عظمة موته ، التوفيق بين سلوكه والمعتقد الذي اعتز بالمناداة به . ولكن وجود الرواقية امر راهن منذ الآن ، وهي على اتم استعداد للتسرب بعيداً الى النفوس التي سيثيرها الاستعباد .

على نقيض ذلك ، وقبل اعصار الحروب الأهلية الطويلة ، يبدو ان الأبيقورية ، في ظاهر أنانيتها اللامبالية ، وفي حقيقة نبل تجرّدها على السواء ، لم تستمل سوى عدد قليل من المشايعين في روما : فهي أبعد من ان تثير اعجاب نخبة متعطشة الى العمل . ولكن فخرها ، الفريد من نوعه آنذاك بين كافة المذاهب ، انها قد ألهمت شاعراً كبيراً هو لوكريس .

ان لهذه الملازمة وزنها ، ولكن ليس ، لسوء الطالع ، ما يوضحها : فالرجل غير معروف إلا بقصيدته التي لا تتضمن أية دلالة على حياته . لا ريب في انه تألم أقله من المشهد الذي وفره له معاصروه . ولكنه تباهى بأنه اكتشف تهدئة لآلامه في حكمة ابيقور ، فأخذ على نفسه تعليمها . فتميّزه من ثم ليس في المعنى ، بل هو ، فكرياً ، وفي الدرجة الأولى ، في شغف علمي متأجج يحمله ، بعد عرض نظرية ديموكريت المادية والذرية التي سبق لابيقور وتبناها ، على درس عدد كبير من الظواهر بغية تقديم الدليل على انها كلها قد تقبل تفسيراً ، او تفسيرات احياناً ، لا تمت الى ما فوق الطبيعة بصلة . فلم يتراجع في هذا الصدد امام أية جسارة وحذا حذو أكثر من اغريقي . واذا نحن لم نستطع اليوم تقدير أهمية إسهامه الشخصي حق

هي من صفات الآلهة ، التي اقرها التقليد الموروث ، ويعمل على الانصهار فيها والذوبان معها . ونرى صوراً للامبراطور نيرون على بعض النقود الرومانية متوجاً باكليل يشع من كل صوب ، رمزاً للشمس المشرقة وتشبهاً بها . ففي الحين الذي يحرص فيه الامبراطور دومتيانوس على الظهور والبروز كرب *Dominus* نراه يتشبث ويتشدد في المناداة به إلهاً *Deus* . وفي عهد الامبراطور كومود ، برزت العادة باعتبار كل ما يختص بالامبراطور او يتعلق به « مقدساً » ، وكلها سوابق لم يلبث ان استفحل امرها وعظم بعد ذلك .

ولما كان الأمبراطور يباهي ويفخر بالرسالة السامية التي يعتقد بائتمانه عليها: الا وهي الدفاع عن الامبراطورية من تعديات البرابرة، بؤرة الفساد على الارض، وتأمين السلام، والحفاظ على النظام في البلاد، وتوزيع الخير والرفاه على الأرض، فهو بالطبع يغض الطرف عن الذين يرون فيه إشعاعاً وانبثاقاً، ومن ثم تجسيداً للالوهية او للآلهة التي تسيطر، تحت اسماء شتى، على النظام الكوني. وفي عهد الاسرة الانطونية التي احسنت الحفاظ على الكثير من هذه المظاهر ، رأينا هذه الافكار بعينها تستبد بالخواطر ، لتبرز بوضوح وجلاء للناس في عهد اسرة سفيروس .

٣ ـ الخلافة في الاسرة
بين الواقع والنظر

الخلافة الامبراطورية : البديل في الوراثة الممتنعة

ليس في هذا كله ما فيه حل المشكلة ، التي تلازم كل نظام امبراطوري أو ملكي من أي نوع كان . وهذه المشكلة هي اشد خطراً على الخلافة والوراثة الامبراطورية التي جاءت في اعقاب سلسلة من الانتصارات الحربية والامجاد العسكرية، والتي سيبقى مصيرها مرتبطاً الى الابد بالجيش، وبنسبة ولاء الجيش لهذه الامبراطورية . كل هذا يجعلنا نتساءل : كيف السبيل الى تأمين استقرار نظام الحكم القائم ، اي انتقال السلطة الشرعية الى امبراطور، من صلب رسالته ومهمته ان يؤمن لروما وللامبراطورية ما يطمعان فيه وينتظران منه بحق ؟

رفض اوغسطس حل مشكلة الملكية، فمنعه رفضه من الاخذ بالحد الادنى من الحق الملكي الذي استبد في اقطار الشرق الهليني . فمبدأ الخلافة الوراثية، لم يكن من الممكن قبوله والاخذ به منذ اعلان العهد الجديد . ومع انه لم يكن احد ليجرؤ على الجهر به ، فمبدأ الحق الوراثي فيها كان كامناً او مضمراً ، اذ انها اي الوراثة ، نتيجة منطقية حتمية لكل نظام ملكي . وقد شاءت الاقدار ان يكون بين الـ ١٧ امبراطوراً الذين تعاقبوا على الملك والحكم خلال قرنين من الزمن ، ثلاثة منهم لا غير ، هم : كلوديوس وفسبسيانوس ومارك اوريل، كان لهم ، عندما حانت منيتهم ، ابن شرعي يخلفهم على العرش . كذلك قضت الاقدار ان يكون الامبراطور كلوديوس ملكاً مستضعف الجانب ، ركيك الارادة والادارة ، ينال منه بيسر ، رهط من الافاكين الدساسين في بطانة لا ذمار لها ولا زمام ، عرفت كيف تقصي ابنه ووريثه الشرعي

قدرها ، فالاحترام الذي يوجبه مدى ونشاط هـــذه المحاولات لا يقبل أي تحفظ . ان تميزه ، – وهو يبدو بذلك ذا طابع روماني اعظم – يقوم ايضاً في تصميمه على الانشاء التعليمي وفي طابع البرهان العقلي الذي يطبع به اسلوبه . فهو يريد اقناع القارىء بأن العالم ليس سوى مادة، وان كل شيء فيه ، حتى النفوس، مركب من ذرات يتنوع جمعها وفاقاً لمصادفة التقائها ويحررها الموت حتى تُجمع بعده جمعاً اتفاقياً جديداً . ان هذا اليقين وحده سيخلّص الانسان من رعبه حيال الموت ، الذي لا تعقبـه أية مكافأة او اية عقوبة ، وحيال الآلهة الذين لا اثر لهم في العالم والذين « يقضون في هدوء دائم اياماً دون اضطراب وحياة دون غمام » . وان تمـــيزه اخيراً وخصوصاً تميز ادبيّ قوامه الجمع العجيب بين قوّة هذا المنطق وانفعال الشاعر الحاد . فمن حيث انه يفيض شفقة على البشر بسبب ألمهم المادي وآلامهم الادبية الناجمة عن مخاوفهم ، يشعر برغبة جنونية في اشراكهم في حقيقته وفي احلالهم معه في « المناطق الصافية » : غير ان هـــذه اللهجة الحادة في كافة اجزاء قصيدته تناقض ، بهذا الصدد ، الهدوء الذي يدعي تلقين سره . اضف الى ذلك انه يهتز اعجاباً ببهاء الطبيعة العظيم ويعبر عن اعجابه بنبرات يغذي حرارتهـــا شعور زاخر . فهـــل ينمّ مؤلفه « طبيعة الاشياء » عن « فن كثير » كما كتب شيشرون الذي يعتقد بأرجحية نشره بعد وفاة لوكريس ؟ اجل قد ينمّ قدم اللغة والنظم عن تقليـــد مقصود للملاحم القديمة . ولكن لا يمكننا والحالة هذه ان نتصور اتفاقاً أكمل بين المقاصد الجمالية وقوّة مزاج الفنان .

الشعر الغنـــائي
كاتولوس (*Catulle*)

في الوقت نفسه تقريباً الذي ظهر فيه شعر لوكريس الفلسفي ، ظهر في روما الشعر الغنائي الذي سيتمثل فيها بسلسلة اطول من الشعراء . نشأ في الأندية المجتمعية التي لم ينقصهـــا سوى شخص « الفاسيلفس » حتى تشبه ، حتى بالتأثيرات النسائية ، بلاطات الملكيـــات الهلينية ، لا سيما بلاط الاسكندرية ، اعظمها رقة وذوقاً سليماً . ويصبح من ينتمي اليها « احدث سناً » ، باعطاء هذا التعبير معناه المزدوج ، الحقيقي والمجازي ، والجدة الجمالية والسن على السواء . وعلى من ينتمي اليها ان يتحلى بثقافة رَفيعة اقتناعاً بان نظم القصيدة جدير بالعناية نفسها التي يتطلبها العمل السياسي ، الذي لم ينصرف بعضهم عنه بعد ، او بالعقدة الظريفة التي غالباً مـــا تُداخل كلا من القصيدة والعمل السياسي : فاذا لم يزل هناك قسوة في الحملات ، حتى المنظومة منها ، فهنالك ظرف في الغزل ، وكثير من التصنع المقصود ، وعـــلم ميثولوجي واسع ، ووزن في النتاج الادبي ، وقد وفرت المدرسة الاسكندرية امثلة كثيرة على ذلك .

كاتولّوس هو الوحيد بين هؤلاء الكتاب الذين وصل الينا منهم مجموعة قصائد غير كاملة على كل حال : حوالي مائة قصيدة بعضها لا يتجاوز البيتين ويبلغ اطولهـــا ٤٠٨ أبيات -- وقد أدركته المنية قبل الخامسة والثلاثين من سنه – ؛ وهي قصائد مختلفة الاوزان والالوان ، طرق فيهـــا الهجاء والمجون والنشيد الديني ، والرواية الاسطورية . وينمّ كل ذلك عن ادراك لكمال

مثل هذا التكريم ، كما جرى إشراك عدد من المتألهين والمتألهات في عبادة جماعية واحــدة ، وذلك ، لأسباب وراثية، خلافية او عملية ، كانتشار عبادة احد هؤلاء المتألهين في مدينة ما او أكثر ، من مدن الولاية ، فيخفف ذلك من حدة او من رواج عبادة « روما اوغسطس » وغير ذلك . فعلى ضوء هــذه الوقائع المتباينة في كل من المناطق والجماعات والافراد ، نرى عبادة الامبراطور ، على عكس ذلك تماماً، يزول ما بينها من فوارق،فتتوحد او تكاد، دون ان تبلغ مع ذلك ، درجة كبيرة من التجانس والانسجام .

ولا يخطرنّ على بال احد ان الامر كله انتهى الى فشل ذريع . فهذا التجانس يأباه امبراطرة القرنين الاول والثاني ، ولا يرضون قط بتأليههم المطلق . فهم يرفضون ان يصيروا الى ما صار اليه الملوك البطالسة او بعض ملوك الدولة السلوقية . فهذا القلق او التشكك يجب رده اصلاً الى نفور بعض الامبراطرة ، امثال طيباريوس وكلوديوس وغيرهما ، من التكريم الإلهي . هــذه العادة التي عرفها على أشدها وسار عليها إغريق بلدة « جيثيون » ، من اعمال ولاية لاكونيا ، وإغريق الاسكندرية . وهذا الإعراض او الجافاة مرده ، على ما يظهر ، لما أنسوه من اشمئزاز سكان روما ومن فشل التجربة المؤسفة التي قام بها كل من كاليغولا ونيرون ، ودومتيانوس وكومود ، فراح الشعب يقتص لنفسه منهم ، وأماتهم شر ميتة ، كانت درساً لقوم يعقلون .

ولكن النظام الملكي له منطقه الذاتي وهو اشد اسراً من التدابير والاجراءات المصطنعة مهما تفننوا في إعدادها وصياغتها . ومهما يكن من السبة او اللعنة التي لحقت بهؤلاء الامبراطرة الذين تجرأوا على التمادي في هذا المجال فدفعوا غالياً ، بدمائهم ، السخافات والاسفافات التي أتوهـا ، الى جانب تجنيبهم الاثيم ، فقد ساهموا ، مع ذلك في إعداد المستقبل وتهيئته اكثر مما ساهم فيه الامبراطرة المترددون . فقد خشي هؤلاء أشد ما خشوا منه ، الا يستطيعوا ، اذا ما هم وحّدوا النهج ، الاستجابة لالتماسات عفوية تلقائية . وعلى هذا الاساس اشتطوا في التنظيم وذهبوا فيـه بعيداً ، بحيث ان عبادة التكريم التي كانوا موضوعاً لهـا ارتدت طابع نظام حكومي او بالاحرى ، نظم حكومية ومؤسسات رسمية ساروا عليها وفقاً للتسلسل الاجتماعي والوظائفي الذي وضعته الدولة ، اذ مهما كان عرفان الجميل والاعجاب عميقاً ، فلا بد ان يفقد شيئاً من الحماس اذا ما افرغا في قوالب جاهزة وجرى التعبير عنها وفقاً لمراسم تضعها السلطات الادارية . وعلى هذا قس ايضاً الفوارق التي تميز الامبراطور المؤله عن الإله، حتى اذا ما نُظر اليهـا نظرة واقعية ، قتلت او اضعفت الشعور الديني ، ومنعته من الانطلاق والتجلي على السجية ، بينما اعتبارها اجراءات سياسية ينتقص كثيراً من مبدأ العبادة في الصميم لما تحركه في المرء من تردد وتثير فيه من تشكك .

فالمستقبل ينفتح بالاحرى امام طرق اخرى ، وهي طرق يصح ان نتساءل معها ما اذا كانت انفع وأجدى ؟ بالطبع لا ، انما هي اوضح وأبين وأنصع ، كما انها اكثر ارتباطاً والتصاقاً ببعض الأفكار التي يزداد الاقبال عليها . فالامبراطور كاليغولا يتبجح بما تم له من مناقب وخصائص

المبنى ومهارة في اللغة ، وجموح مرن وسهل ، تمثل ، على ما نعلم ، ما يقابلها من تقدم حديث العهد وجليل الفائدة . ولكن صدق الشعور المتواتر لأثمن قيمة ايضاً . أحب كاتولوس تلك التي يطلق عليها اسم « لسبيا » (*Lésbie*) التي ليست سوى شقيقة المهيّج كلوديوس . كان باستطاعته ان يختار افضل منها ، ولكن كان من شأن اختياره ، لو فعل ، ان يدعو الى الاسف، لأنه تألم من خيانات عشيقته ، فوفرت له هذه الآلام نفسها ، بانماء وإعماق شعوره ، ظروفاً جديدة للتعبير عنه . اجل لقد وجدت « صافو » من قبل ، وعرف كاتولوس مؤلفاتها ومؤلفات الاسكندريين الذين نقل عنهم الى اللاتينية عدّة تمثيليات ، « كشعر بيرينيس » مثلاً (*La Chevelure de Bérénice*) لكلتيماخوس. ولكن التعبير عن الهوى الذي يعمي البصيرة، تلك الشِرّة الهائمة والالم الصارخ، نادر في ادب العصور القديمة اليونانية والرومانية . فقد وجب، للاقدام على ذلك بمثل هذه القساوة ، قوّة نضرة يتمتع بها شعر في شرخ الشباب ، لم تصل اليها الكلفة بعد . غير ان خلفاء كاتولوس، الذين سيدينون له بالكثير من مهاراتهم التقنية ، لن يسيروا وراءه في هذه الطريق .

الخلاصة

تأيّد اذن ، حتى قبل نهاية العهد الجمهوري، نجاح روما ونضجها الادبيان على نقيض ارتباطها الفني وجمودها العلمي . فما اعظم الشوط الكبير المقطوع منذ ترددات الادب الاولى في النصف الثاني من القرن الثالث ! فان هلينة روما قد انبتت فيها ادباً يتمتع بكيان مستقل وينتج روائع لا تتأخر أبهى الحضارات عن الاعتزاز بها . ولم يحدث شيء من ذلك تلقائياً : اذ ان اختيار القدوات قد وفر تسهيلات نادرة جداً . اضف الى ذلك ان النجاحات كانت بطيئة ، وشاقة في أكثر الاحيان ، يتخللها التسكع والاجهاض . كان للعقل اليوناني الفضل في انه خلق ، وخلق بسرعة ، في قرنين او ثلاثة قرون ، ما قد صرفت روما أربعة قرون في ادراكه وتقليده وتطبيقه على مواردها وعلى نزعات عبقريتها الخاصة . ولكن الانطلاقة قد حدثت، وباستطاعتها ان تسير طريقها حتى ولو قطعت جسور الاتصال بينها .

ثم ان مثل كاتولوس يتيح لنا ان نحدّد ببعض الوضوح المرحلة التي بلغتها آنذاك النخبة الادبية الرومانية . فهي ، من حيث احساسها المرهف بالجمال وتعودها لذة الابحاث الفنية ، تستسيغ في جوهر كيانها كل الحضارة اليونانية منذ العهد القديم حتى المدرسة الاسكندرية ؛ وهي لا تزال تنهل منها وتنقلها الى اللغة اللاتينية ولكن غايتها الوحيدة هي التمرّن والممارسة . فهي في الوقت نفسه قد استعادت بعض الميزات الاصيلة او حافظت عليها ؛ فلم تذهب بالاناقة حتى التصنع ؛ وبرهنت على قدرتها على نظم « اشعار قديمة » في موضوع « الافكار الجديدة » ، وعلى

الفردي او الشخصي ، وتتجه بالأكثر ، الى الرتبة والوظيفة أكثر منها الى حامل اللقب .

وهذا التحول نلاحظه كذلك ، يطرأ على عبادة « روما اوغسطس » التي انتشرت كثيراً خارج ايطاليا ، وهي عبادة لها طابع رسمي . تضطلع بها جمعيات عامة وتنطبع هذه العبادة بطابع الامبراطورية نفسها من الوجهتين المحلية (البلدية) والاقليمية . فمنذ العهد الجمهوري ، استبدلت مدن الشرق ومقاطعاته عبادة ملوكها *Basileus* بعبادة روما . غير ان اوغسطس يرفض ان تقام عبادة خاصة به، إلا انه يسلم بانشاء عبادة خاصة: « بروما واوغسطس » تخصص لها الاعياد والمراسم ، إلا ان مدلولها الفردي الخاص ما لبث ان ضعف ، وفقد من شأنه في هذه الازدواجية واختفى تماماً مع خلفائه . وهذه العبادة تأخذ بالانتشار والاتساع بفضل مؤازرة السلطات الادارية لها ، فيجري الاحتفال بها على نطاق البلديات المحلية ، ليصبح الاحتفال ، فيما بعد ، في إطار يشترك فيه عدة بلديات . وهكذا نرى انفسنا امام احتفالات تقوم في الولاية او تشترك بها مجموعة من الولايات، وهي احتفالات تقام بانتظام، وعلى قدر كبير من الابهةوالفخامة فتنفق المدن عليها وعلى المباني الخاصة المعدة لها ، وعلى الالعاب والملاهي التي ترافقها ، وعلى الموظفين المكلفين بالسهر عليها وعلى اعدادها ، مبالغ طائلة كثيراً ما استنفدت سوازنتها.منهذه الاعياد ما عرف في الغرب باسم *Flumines* او *Sacerdotes* ، بينما قام منها في الشرق مواسم اتخذت مسمياتها من اسم المدينة متبوعاً بكلمة رئيس . فانتشار هذه الاعياد ، ومدة قيامها ، والاحتفال بها ، والآلهة التي تكرّم فيها، انما يشير بوضوح الى اشتراك النخبة الاجتماعية في هذه الاعياد الموسمية التي تقام في الولاية .

اما في روما ، فالدولة نفسها تنشىء عبادة خاصة هي عبادة الامبراطور الراحل ، وعملية التأليه هذه ، يقررها مجلس الشيوخ، فيرفع الامبراطور الى مصاف الآلهة . ويكفي لذلك ان يتقدم شاهد للشهادة من الهيئة المذكورة ويؤكد، بيمين مغلظة انه شاهد، اثناء الاحتفال بجنازة الامبراطور وحرق جثمانه، روحه تطير على اجنحة نسر. وهكذا يحتفظ مجلس الشيوخ بطريقة يرفض معها تكريم امبراطرة ، سيئي السيرة والسريرة . ورفضه هذا بمثابة حكم قاطع عليهم . إلا ان الطريقة لا تخلو قط من الخطر، ولا تسلم دوماً من سوء المغبة، ولذا تحفّظ المجلس بالمجازفة فيها إلا في الحالات الوراثية التي لا ينتطح فيها الخلف للدفاع عن سمعة السلف والحفاظ على ذكراه . وعلى كل حال ، فالاصطلاح الذي سار عليه اوغسطس في ما لقيصر، واتبعه طيباريوس في ما لاوغسطس ، وكرسه العرف والاستعمال ، هو ان الامبراطور الراحل لا ينادى به إلهاً بل إلهي . فهو لا يؤلّه ، انما يكرّم كالآلهة . والبون شاسع بين الوضعين والاصطلاحين . ومع ذلك لم يحُل هذا دون تشييد معبد للراحل الإلهي، ولا دون إنشاء مجمع كهنوتي او رهبنة خاصة تنقطع لتكريمه ، تحمل اسمه ، ينتخب اعضاؤها من بين أغنى طبقات المجتمع .

بين الجرأة والتشكك

استعرضنا في ما اجرينا من بحث ، للاستشهاد بكثير من الحالات والحوادث الفردية . فقد رأينا مثلاً ، أعضاء اسرة احد الامبراطرة يفوزون جميعهم بالتكريم الإلهي . كما جرى ذلك بالفعل للامبراطور ترايانوس : فقد لقي ابوه وشقيقته وزوجته

التعبير ، في صيغ لا يغرب عنهـــا أي سرّ من اسرارها ، عن آراء ومشاعر طبعتها هي بمفارقاتها الخاصة .

وباستطاعة كاتولـّوس ان يرمز الى شيء آخر ايضاً ، فهو قد أتى الى فيرونا (*Vérone*) في ايطاليا الشمالية ، البلاد الغاليّة ، الى روما التي سبق لها واستقبلت في القرن السابق تيرنس مــن افريقيا . وهكذا فان روما التي دانت بيقظة ادبها لايطاليين جنوبيين مستغرقين قــد أمّنت تعبئة حاجتها منهم في الغرب ، فنقلت الى هـــذا الاخير الثقافة التي تلقتها من الغير وكيفتها . ولكنها اجتذبت اليها وضمت الى مجدها القوى الحية التي برزت فيه . وان هذا الدور ينبىء ، من زاوية هذه المظاهر المختلفة بالدور الذي ستلعبه طيلة العهد الامبراطوري الاول .

فهي قد عقدت منذ الآن ، على طريقتها ، ولمصلحتها ايضاً كما هو بديهي ، خيوط شبكة العلائق المختلفة التي أمسكتها بيديها . واحتلت منذ الآن ايضاً ، بفعل تقبلها واعطائها وتحويلها ما تتقبله ومحاولة رقابـــة تحويل ما تعطيه ، مركز حضارة ناشئة ستشمل الإطار الاقليمي والبشري الذي اوجدته فتوحاتها – تلـــك الحضارة التي هي المصدر الأهم والمباشر للحضارة « الغربية » الراهنة .

الكامل او المطلق ويُعترف له بذلك رسمياً . يكفي الانسان ويرضيه ان يقترب او يدنو من الالوهية ، او يبلغ منها نصف المرتبة او درجة وسطى فيها . وهذا التحفظ يبدو واضحاً جلياً في بادىء الأمر ، من خلال الحرية المتروكة للمبادهات المحلية او الفردية ، والتي يُفترض فيها ان تأتي عفوية تلقائية ، او عن طريق براعة الطلب واستدراج العرض ، بضغط من الهيئات الادارية الحاكمة . وكلها حالات تتبلور عملياً عن صور واشكال متباينة . فالتعميم لا يأتي الا بعد حين ، وبصورة تدريجية ، وعلى مراحل . وعهد فسبسيانوس الذي اطل على البلاد عام ٦٨/٦٩ بمثابة مولد ثان او جديد للامبراطورية ، يعتبر مرحلة حاسمة من مراحل التطور الذي مرت به هذه الفكرة ، مع بقائها غير مكتملة ولا مستجمعة لكل شرائطها . ولكن خلافاً للعرف المعمول به لدى بعض الممالك الهلينية ، فالامبراطور هو موضوع عبادة ، وهو في قيد الحياة ، تقدمها له هيئة عامة : كالدولة او الولاية او المدينة ، بصورة عادية وبصفته فرداً .

فالدولة ترفع له تكريماً إلهياً وتجعل من بعض ذكرياته الخاصة اعياداً وطنية عمومية ، فتطلق مثلاً على الشهر الذي ولد فيه قيصر باسم « يوليو » ، كما تطلق على الشهر الذي نال فيه اوغسطس القنصلية لاول مرة ، وفيه سجل اكبر انتصاراته الحربية : اسم اوغسطس . ودرج الناس على استعمال هذه المسميات المصطلحة حتى يومنا هذا . والحلف او القسم باسم الامبراطور ، هو شيء مقبول جائز ، كما ان رسومه وصوره هي من المقدسات . وراحت الحكومة تشرك عبادة جن اوغسطس او نبوغه بالتكريم الذي كانت احياء روما ، تقدمه للارواح المشرفة على مفارق الطرق او تقاطع الطرق ، فتصبح في الاصطلاح العام : الآلهة الاوغسطية . فالمعجم الهليني غني بمثل هذه المسميات . فاستمدوا منه اسماء الاشهر ، والقسم مثلاً . هنالك اكثر من شبه بين الجن *Génie* ، وبين تيخه *Tyché* . فالقدرة على الابداع لا تنضب .

ويتمتع الافراد ، في هذا المجال بحرية اكبر وأوسع . هنالك إهداءات وتقادم مؤثرة للغاية تشرك رأساً او مداورة ، اسم الامبراطور او احد افراد الاسرة المالكة ، بشتى اسماء الآلهة ، فنشأ في معظم المدن جمعيات تحتفل بهذه العبادة وتقيم لها المراسم والاعياد ، وتقدم الذبائح والقرابين على شرفها . وتنظر السلطات الادارية الى هذه المواسم التذكارية بعين الرضى . وهي تتدخل لتنظمها . وبعد ان كانت هذه الهيئات تحمل في الشرق اسماء شتى ، نراها على عكس ذلك ، في الغرب اللاتيني ، اكثر انسجاماً وانضباطاً ؛ من هذه الهيئات مثلاً هيئة الرجال الستة ، التي ما ان تلتهي مدتها القانونية حتى تتحول الى جمعية او شركة حقيقية .

ففي هذه الهيئات التي نوهنا بها ، ومن بينها *Seviri* ، يهيمن اسم واحد هو اسم اوغسطس الذي يتغير مدلوله ومفهومه مع تعاقب الايام والازمان . « فأوغسطس » انما يشير في اول الامر ، الى مؤسس لامبراطورية وموطد اركانها : فطالما هو في قيد الحياة ، فاللفظ إنما يشير الى فرد معين ، واليه تتجه ، بالطبع ، كل عبارات التكريم والتبجيل والعبادة . ثم يصبح الاسم لقباً او كنية ، يحرص على حمله كل خلفائه من بعده . واذ ذاك تفقد مظاهر التكريم والتقديس طابعها

القسم الثاني

مدنيّات الوحدة الرومانية

الشراكة التي لا انفصام ، لها بفضل القوة الإلهية، هذه الشراكة المؤلفة من الامبراطور ، ومن الظفر عربون السلام على الارض .

الفضائل الامبراطورية

كثيراً ما تغنى الشعراء « بفضائل » ملوك الإغريق وبعطفهم ، ولذا راحوا يضفون عليهم القاباً وكنًى منها : المنقذ او المخلّص. ولم تلبث هذه الالقاب ان انتقلت بعد ان تحورت قليلا ، الى شخص الامبراطور . فقيام صاحب الأمر في روما هو عربون سعادتها ، ومنتهى الإسعاد ، كما يقول هوراتيوس في خطبة له القاها مرحّباً بعودة اوغسطس بعد غياب طال أمده : « فعندما تطل بطلعتك البهية على الشعب ، تستحيل ايامه بهجة ، بسامة ، كأيام الربيع الضاحك والشمس في رأد الضحى » . فمع اوغسطس ترى رتاج الصرح الامبراطوري مزيناً بالغار يعلوه اكليل من خشب السنديان ، هو « الاكليل الشعبي» الذي يقدمه المواطنون لمنقذيهم . فالامبراطور ، هو بالفعل ، منقذ الدولة ، كما هو منقذ الرومان ، هو *Conservator* او *Servator* لا، بل هو اكثر من ذلك ، هو مخلص الجنس البشري باسره . فالخلاص او الفداء الذي بذله ، يبرر الى حد بعيد ، لقبه : بابي الوطن ، هذا اللقب الذي اصبح من ألصق القاب الامبراطور . ففي بهو اجتماع مجلس الندوة الروماني في روما ، كان يُرى ، على مقربة من مذبح إله النصر، ترس مذهب نقش تحته ما يشير الى انه تقدمة من مجلس الشيوخ والشعب لاوغسطس اعترافاً بما يتحلى به من فضل ، وحلم ، ومن عدل ، ومن تقى . وكأن بقطع النقد الروماني ، في عهد اوغسطس ، سبحة لا تنتهي ، تقص على الناس في تداولهم لها ، هذه الفضائل الاساسية التي تحلى بها ، كما انها تحاول ان تحيّز ، بما تحمل من شارات ورموز ، مناقب الامبراطور، ولا سيا الشعار الآخر الذي تحمله ويرمز للعناية الالهية تنويهاً بالخيرات التي اسبغها ، والمنافع التي افرغها على الشعب الروماني والامبراطورية الرومانية : رمز السلام على الأرض ، والإسعاد لبني البشر .

وهذه الايديولوجيا الامبراطورية ، وما فيها من مفهوم ومدلول ، تفيض بالطبع ، ببعض الألفاظ والتعابير الرومانية الاصل والطابع. فاذا ما شاعت وذاعت بالسرعة التي نرى، فالفضل في ذلك ، للسوابق الهلينية التي اعتمدتها. فليس من المستغرب قط والحالة هذه ، ان نشهد عبادة الامبراطور تنطق بفكرة الرسالة او الدعوة الالهية التي تمت على يد شخص هو فوق البشر ، فتتبلور معالمها في ما رأينا من هذه المظاهر على اختلاف نواحيها .

عبادة الامبراطور

متشابهون وليسوا انداداً اكفاء . أوتي اوغسطس من الفطنة ما صانه من الانزلاق الى مبالغات قيصر وتطرفه في روما ، ولا سيا من سفاهات انطونيوس وخطله في الاسكندرية . من يستطيع غيره ، باستثناء من اصيبوا بمس في عقولهم او دخل على نفوسهم، ان يطلب لنفسه المجد والتكريم الذي ليس فيه ما يؤهله له ؟ فباستثناء بعض حالات شاذة ، غاية في الندورة ، ليس من يندفع في شهوة الشهرة بحيث يطلب لنفسه التأليه

مدلول أعم واوسع . وبهذه الصفة يستمطر على الشعب الروماني عطف الآلهة ، ويستمد منها الرعاية والهداية . فالتعدي ، والحالة هذه ، على سلطته او مس شخصه ، هو التجني بالذات على الدين وعلى روح الانضباط الذي يمثله في المجتمع .

هالة النصر الامبراطوري

وهذه الآلهة التي تحرس الامبراطور وترعاه في حله وترحاله ، تظهر عطفها وحدبها عليه بما يؤتاه، على يدها، من نصر مبين وتوفيق عظيم ، في جميع اعماله الحربية . فكل المظاهر الحربية التي تلازمه كقائد أعلى للجيش ، يجب ان تحمل عميقاً ، طابع الهالة الدينية . فالفازيلوس في بيزنطية ، مثله مثل الامبراطور في روما ، مدين بما يصيب من فوز مبين في ساحات الوغى ومن نصر في الحروب ، لفعل الآلهة وهديها . وهكذا تلتقي هنا ، مرة اخرى الايديولوجيا الملكية التي انطلقت من فتح الاسكندر ، بالنظريات الرومانية القديمة ، فيتمازجان وينصهران معاً . وهكذا نرى الايديولوجيا تؤيد الى حد بعيد ، هذه التقاليد وتقويها ، وإلا ، تعذر علينا ان ندرك كيف ان ، على شاكلة كلمة *Basileus* ، تصبح كلمة *Imperator* ، لدى قيصر اولاً، ومن ثمّ لدى اوغسطس ثم بسرعة، لجميع خلفائه ، اللقب الرسمي الذي يرد قبل كل الالقاب والرتب والكنى التي يحملها الامبراطور . وعلى هذا تصبح كلمةامبراطور مرادفاً لكلمة المظفر او المنتصر، والمؤهل من قبل الآلهة والمصطفى،بحيث راحوا يضفون صفة الالوهية ، على نصر اوغسطس ، فيقولون: *Victoria Augusti* ، كما راحوا يرفعون هذا الرسم : النصر المجنح، على المباني الرسمية وأثبتوه على العملة والنقد. وفي عهد الاسرة «اليوليو كلودية»، كل شيء كان يدل على ان هذه الإلهة هي بالفعل،الإلهة ذاتها التي رعت مؤسس الإسرة ذاته ، أي اوغسطس المظفر، ومن ثم راح هذا المؤله ينتقل من امبراطور آخر ، مخلداً رسم اوغسطس الحي الدائم .

ثم تطور الامر بحيث راحوا يفردون،أكثر فأكثر،هذه الإلهة.فاستنبطوا وتضرعوا وشكروا تارة *Victoria parthica*،وطوراً *Britannica*،وحيناً *Germanica* أي الإلهة التي بفضلها، تمت الغلبة على الفارثيين والبريطانيين والجرمانيين. ثم تطل علينا فكرة جديدة عمل بها،بكل تحفظ وحيطة، منذ العهد الجمهوري،قامت بتسمية ابن الملك او ولي عهده، باسم العدو المغلوب على امره . واول حادثة نشاهدها من هذا النوع تعود الى عهد اوغسطس نفسه ، اذ لقب ربيبه دروسوس بلقب جرمانيكوس.ولم يمض كبير وقت حتى تركزت العادة في الامبراطور نفسه . وتفادياً للادمان الناجم عن العادة المتكررة،تتكاثر الالقاب والكنى وتضاف اليها نعوت وأوصاف تزيدها قوة ومعنى.فالامبراطور مارك اوريل لا يلبث ان يلقب بـ :صاحب الارمن او صاحب الفارثيين العظيم، بينما الامبراطور ترايانوس لم يلقب إلا *Parthicus* لا غير ، كما عرف ايضاً بـ : صاحب الماديين ، وصاحب الجرمان ، وصاحب السرماتيين . وهذه الالقاب ، مثلها مثل قطع النقد الرومانية الحاملة صورة الامبراطور متوجاً بالنصر او الحاملة لرسوم أسرى حرب سجد ، اشارة للبلدان التي اخضعتها الجيوش الرومانية ، انما يراد منها أكثر من مجد باطل لا طائل تحته . فهي ترمز الى

الكتاب الأول

المدنيّة الرومانيّة في عهد الأمبراطورية الأولى

(القرنان الأول والثاني)

وصلنا في بحثنا اخيراً ، الى هذه الامبراطورية العظيمة التي ابتلعت في ثناياها كل ما تقدمها من امبراطوريات ، وعنها انبعثت الممالك التي نشاهدها اليوم ، ولا تزال لفوسنا تكن لشرائعها الاحترام العميق . فيجب علينا بالتالي ان نقف على اخبارها أكثر من أي امبراطورية كانت. وقد لاحظت يا سيدي الامير ، ولا شك ، أنني أعني الامبراطورية الرومانية .

(بوسويه)

من كتابه : « خطبة في التاريخ العام »

على منحدر جبال الابنين مقابل البحر الادرياتيكي ، قام نهر الروبيكون حداً فاصلاً بين مقاطعة غاليا قبل الألب ، وبين القسم الايطالي الواقع تحت ولاية حكام روما ومجلس شيوخها مباشرةً. وعندما اجتاز قيصر هذا النهر وعبر منه الى الضفة الثانية، في منتصف شتاء ٥٠ ـ ٤٩ ق . م ، واتجه منه الى الجنوب ، على رأس فيالقه المظفّرة التي كانت اداته الطيّعة في فتح غاليا ، في حملات ثمان متتالية ، كرّست زعامته وجعلت منه الزعيم الذي كان ، شكّل عمله هذا ، خروجاً على السلطة الشرعية، فانطلقت بذلك شرارة حرب اهلية استمرت قرابة عشرين سنة تخللتها فترات قصيرة من الهدنة المؤقتة ، وامتدت حتى غرة آب سنة ٣٠ وهو اليوم الذي أطل فيه ، صاحب معركة اكتيوم ، على الاسكندرية فكانت إطلالته تلك ، إيذاناً بانتحار كل من خصميه : انطونيوس وكليوباترا .

من هذه الهزات الدامية التي نزلت بالبلاد ، أطلت اشياء وطلعت عليها اشياء . فاذا على هامة روما سيد هو القائد الاوحد لجيوشها حامية ذمار البلاد واستقلالها ، يوجه منها السياسة ،

وكثيراً ما ظهر في آخر الامر، ان هذه العناصر المتباينة المنشأ والاصل، بين شرقي وبين روماني قومي محض، التي كونت هذه الهالة، قام بينها أكثر من شبه ومجانسة ساعدت على انصهارها معاً وذوبانها بعضاً ببعض في إلفة وانسجام.

وهكذا نرى انفسنا امام فلسفة متنوعة العناصر يحاول المؤرخون اليوم جاهدين، منذ أكثر من ثلاثين سنة، تعيين وتحديد منشأ كل من هذه العناصر المقومة، وتحديد قدر كل واحد منها، وكيفية تفاعلها بعضاً ببعض، وأهمية الدور الذي لعبه كل واحد منها. وامام هذا الضجيج المتصاعد من هذا الجدل العلمي المحتدم، نرى، مرة اخرى، ان من المستحيل ألا نقتصر إلا على بعض امثلة لا غير.

الامبراطور الحبر

بين هذه العناصر، عنصر روماني الاصل، يعبر عن تقليد مكرّس، يرى في الامبراطور: الحبر الاعظم او الكاهن الاعظم. فقد حرص اوغسطس الحرص كله، وهمه كثيراً ألا يُهمل او ينتقص قط، من قيمة هذه الوظيفة التي تلازمه مدى الحياة. فلم ينتزعه عنوة من صنوه ومنافسه ليبدس، بل لبث طويلاً ينتظر وفاته عام ١٢ ق.م، ليطالب به وينتسبه لنفسه. وحرص خلفاء اوغسطس من بعده، على التمتع بهذه الرتبة والوظيفة عند اعتلائهم أريكة العرش. فالحبرية العظمى تولي حاملها وصاحبها سلطات دينية غاية في الأهمية. وقد أعطى اوغسطس المثل في ممارسته لمهام هذه الوظيفة بدقة واهتمام زائدين، وهو مَثَل حرص خلفاؤه من بعده، على احتذائه واقتفاء اثره.

والى هذا، فالامبراطور عضو بارز في مجمع كبار الكهنة والاحبار، بحيث يراقب عن كثب نشاطهم ويُهيمن على انتقائهم واصطفائهم وتعيينهم في مراكزهم. ومن بين هذه الرتب الكهنوتية، رتبة يباهي بالانتساب اليها والنهوض بأعبائها، كما يستدل جيداً من الانواط والميداليات التي تحمل صورته. وهذه الرتبة هي رتبة العرّاف او العائف، وذلك بالنظر للدور الذي يلعبه هؤلاء الكهان في الكشف عن الفأل واستطلاع الطالع. وقد رمزوا الى هذه الرتبة بالعصا المعقوفة المعروفة عندهم باسم *Lituo* التي اصبحت، فيما بعد، من الشارات المميزة للامبراطورية.

وهكذا يبرز الامبراطور على رأس الحياة الدينية ويطل رئيساً لجميع الاحبار، ويصبح بالتالي، الوسيط بين الدولة والآلهة. فالواجبات والحقوق التي تخوله اياها رتبة الكهنوت، تزيد كثيراً من شأن السلطات والصلاحيات التي يتولاها رأس الادارة و«الاول» في الدولة. فهو يرأس شخصياً أهم الاحتفالات الدينية ويضفي حضوره على أبسط الاعمال وأتفهها مهابة الطقوس الدينية ومراسمها. فهو المسؤول الاول عن بناء المعابد والهياكل، وعن صيانتها وتأثيثها وحفظها. وموجز القول، فالاسم الذي يحمله «اوغسطس»، مشتق من أقدم المراسم الدينية واعرقها اصطلاحاً عندهم، هي رتبة العرافة *Augure*، وهي رتبة تضفي عليه شيئاً من الجلال وتجلببه بهالة من التقوى والخشوع بما لهذه الكلمة في مفهومها الحديث من قوة المعنى، بينما الكلمة اللاتينية *Pietas* لها

ويفرض القانون ، ويُشرف على الادارة ويجعلها بمعزل عن طمع الطامحين اليهـــا ، الطامعين فيها ، وفي مأمن من جشَع الجشعين . وبفضله قامت دولة استطاعت ان تؤمن لرعاياها ، ما لا بد منه لدولة تروم عيشاً كريماً : حدود منيعة الجانب في الخارج ، وأمن مستتب في الداخل ، وصحة في ميزانية الدولة وماليتها العامة . صحيح ان ممالك اخرى عرفت ، هي ايضاً ، ان تحقق على اقدار متفاوتة ، مثل هذه الامور ، فرسمت لها الدول الهلينية سوابق عرفت هي ان تـَفيد منها وتتعظ بهـا . ولكن ، الى جانب الجدة التي طبعت معظم الحلول التي طلع بها ، لم يسبق لتجربة مضت ، ان عرفت نجاحاً ملازماً كالنجاح الطويل الذي حالفه ، مما لم يتم مثله او بعضه ، لدولة تمت لها رقعة على هذا النحو من الاتساع ، وتألفت من مثل هـــذا العدد من الشعوب والاقوام المتباينة . وهذا الجديد الذي تبلور على مثل هـذا الشكل واستمر في الصدد المرسوم بضعة قرون ، تم تحت سيطرة اوكتاف اوغسطس وإشرافه المباشر ، فترامت أقاصيه وتباعدت نهاياته : من مضيق جبل طارق غرباً حتى شطآن البحر الأسود شرقاً ، ومن مصابّ نهر الرين شمالاً ، الى مشارف شلالات النيل جنوباً . ولأول مرة في التاريخ ، يصبح البحر الابيض المتوسط برمته ، بحيرة داخلية ضمن الامبراطورية ، فطوت حوضيه : الشرقي المتهلّين ، والحوض الغربي الذي ، بالرغم مما تحالف عليه تباعاً من عوامل إغريقية وبونيقية واخيراً رومانية ، بقي على سماته البربرية الاولى . وعلاوة على ذلك ، فهذه الامبراطورية التي تجاوزت اطرافها بعيداً الأراضي الواقعة حول هذا البحر ، عرفت كيف تحافظ على التوازن الذي أمّنته لها المركزية المعمول بها في روما . وبفضل هذه الوحدة التي حققت ، والتضامن الذي ارست دعائمه في عوالم كانت في الامس الغابر تجهل بعضها البعض ، استفاض افقها ورحب امام الجميع ، واتسعت منه الحدود بحيث استحالت الاتصالات التي قامت فيما بينها ، أمتن واوثق . فقد أطلّ على البشرية جمعاء ، المتخلف منها والمتطور ، عهد جديد ، لم تعرف المدنيات التي مرت على مسرح التاريخ ، مجتمعة ومنفردة ، ظروفاً وأوضاعاً ، اكثر حلماً واوفر مؤاتاة من التي غمرته في هذا العهد . فهل تستفيد مما تم لها ، فتتلاقح الاذهان وتتفتح الاكمام عن قطوف متنوعة الجني والثمار ، تجود بهـا عبقرية كل شعب من هذه الشعوب ، ام تنصهر كلها معاً في وحدة متماسكة ، شاملة ، قادرة ؟

الحروب ، عما تجيش به من حيوية عارمة، مادية وأدبية على السواء . فالتجربة التي قام بها تباعاً، قيصر ثم انطونيوس بعده، اوضحت له الاخطار التي تكمن وراء نقل فلسفات الشرق ونظرياته الى روما ، نقلاً حرفياً مادياً . من المستحيل الا نظهر اعجابنا هنا ، كما اظهرناه من قبل امام مرأى البناء السياسي المشمخر الذي شيده ، بهذه الرويّة والفطنة والتحفظ يبديها في اقتباس بعض هذه المستوردات الأجنبية الصنع ، معرضاً عما جاء في غير اوانه ، مسقطاً منها ما لا يصلح للاستعمال في روما . كل هذه الحيطة حملت النـــاس على الشك في إخلاصه . فقد برهن عن كفــاءة ، ولربما عن تحيّل ايضاً ، وبكل تأكيد ، عن شعور حاد بالممكن الحدوث او الوقوع . ولكن ، مع هذا علينا الا نسقط من حسابنا ما كان عليه من روح تقوية ، صحيحة ، حملته احياناً على الاستسلام للخرافات والاوهام ، واثارت فيه التشكك كغيره من الناس .

ومهما يكن ، فقد ترك لنا ، لدى وفاته ، تراثاً ادبيـــاً له من وفرة الغنى ما نعجز معه عن الإحاطة به . وتم له من الألقــاب والرتب ما لم يتوفر مثله لاي من خلفائه . والقسم الاوفر من هذه التركة التي خلفها بعده ، لم يلبث ان ردها الناس الى فضل الوظيفة التي تمت له ، بمعزل عن الرجل . غير ان تطور هذه الحالة الرومـــانية التي جلببت الامبراطور ، تم وئيداً ، وبتمهل ، بخلاف التطور السريع الذي رافق السلطة السياسية . وقـــد راح بعض الامبراطرة : امثال كاليغولا ودومتيانوس وكومود يستعجلونها ، بينما سار فيها البعض الآخر الهوينا ، ان لم نقل القهقرى . وبمجمل القول ، ففي الحين الذي تبلغ فيه الاسرة الانطونية أوجها ، في القرن الثاني ، وتزداد فيه سلطة الامبراطور قوة وفعلية ، لم نلحظ قط ان هذه الحالة اتسعت وتضخمت عمـا كانت عليه في عهد اوغسطس. فعلينا ان ننتظر الحقبة التالية وبروز فعل المؤثرات الشرقية لنرى تغييراً ملحوظاً يطرأ على هذا الوضع .

ففي عهد اوغسطس نفسه ، كان تأثير العامل الهليني واقعاً متحيزاً لا داع لوجه الغرابة فيه . فمن بين البلدان المتمدينة الاكثر اتصالاً بروما ، هـــذا الشرق الذي عرف ضروباً من الملكية المنبثقة من انتفاضات عسكرية اخذت بتلابيبه منــذ فتوحات الاسكندر ، وخضعت لعوامل التطور والتكامل ، حتى بلغت تمامها ، اقله من الوجهة النظرية. وباستطاعة هــذا الشرق وحده ان يقدّم سوابق يمكن تطبيقها والنسج على منوالها بصورة فعلية ، بحيث ان كل ما أنتجته هذه السوابق من انجازات فنية ، وآثار فكرية ، ونظريات فلسفية ، عاد عليها بتأثير عظيم ، سواءاً أسقطت هذه الممالك تحت هجمات الجيوش الرومانية المتتالية ، ام انها راحت فريسة الفوضى ، فتداعت للخراب ، وزالت من الوجود ، دون ان ينتقص ذلك من سناء البنيان الفكري الذي شيدته . ومع ذلك ، فقد كان على النظام الملكي الذي اطلّ من جديد على روما ان يحسب حساباً لتقاليد روما ، هذه التقاليد التي في السير عليها والاخذ بها ، فخر له وحافز للمباهـاة . فمن الطبيعي ، والحالة هذه ، ألا يُهمل العناصر المستمدة من اعماق التقاليد الرومانية التي منهـا استقى سيلاّ من قبل ، وعنها اخذ قيصر من بعـــد ، ومنها اغترف اوغسطس وعنها صدر .

الفصل الأول

من الحرب الأهلية
الى السلام الروماني

بعد ان قلبت الحرب الاهلية التي استمرت عشرين عاماً الاوضاع الراهنة في رومـا ظهراً لبطن، ورأساً على عقب ، هيأت للعالم الروماني بأسره مصيراً جديداً .

المدينـة الجمهورية اعجز بكثير من ان تدير الامبراطورية

كان لا معدّ من ازمة ولا محيص عن حل لها ، وهي ازمة عرفت البلاد من قبل ، مثيلات لها فشلت جميعاً . فلا بد ان تفشل هي وتهيض مهيئة المجال لطلوع غيرها بعدها حتى يتمهد السبيل امام المصير الذي لابد منه ولا حيدة عنه . فالاشخاص الذين قاموا بالدور الاول على مسرح هـذا المجتمع ، امثال قيصر وبمبيوس ، وانطونيوس واوكتافيوس ، والعديد من الممثلين النكرة ، طبعوا الاحداث التي لازمت هذه الازمة الفاصلة وصاحبتها ، بطابعهم الخاص . وقد تكون جاءت على شكل آخر واوضاع اخرى ، لو قام بتمثيلهـا غيرهم من الممثلين . ولكن النتيجة الاخيرة لم تكن لتأتي الا وفقاً لما صارت اليه : اي قيـام سلطة فردية شخصية . كان لا بد لهذا المخاض وما رافقه من آلام وأوجاع ان يشهد مولد امبراطورية نحتت قسمات صورتهـا ، الظروف المتحكمة الماثلة ، وشخصية الفائز منها ، وتوازن القوى التي لم يكن من مفر من تفاعلها والتعويل عليها .

كان لا بد لهذه المدينة الجمهورية التي أعطيت مثل هذه السيطرة الممتدة الى اراض نائية مترامية الاطراف ان تدفع الثمن غالياً .

فعندما ساوت في رعويتها بين الايطاليين ، عرفت كيف تصون بهذا التدبير الحكيم نُظمها الادارية ، وهي نظم تسرب اليها الخلل عندما اتسع تطبيقها المصطنع، ليشمل مثل هذه الرقعة من الاتساع ، عجزت معه ندوتها عن ضم جزء ضئيل من هذا الجسم الاداري الاخطبوطي الشكل . وقد بدا عجز النظام المعمول به وعدم استجابته للوضع الماثل شيئاً لا يحتمل ولا يطاق ، لا سيا اذا كانت روما ماضية في فرض سيطرتهـا على الولايات الخاضعة لحكمها . ان توسيع الحل الذي

الحاكم ، طمعاً في حظوة صاحب السلطان ، او في المكافآت التي تعود عليهم بحسب القانون ، من مصادرة ثروات المتهمين .

وهكذا ، فالقانون الذي كان يراد بهالحفاظ على « ذات الجلالة » والتسييج حوله، استحال، في بعض العهود ، سيفاً مصلتاً فوق الرؤوس ، يُنزل الرعب والهلع في الطبقة المشيخية ، حيث يقوم المعارضون ويعتصمون ، في القرن الاول ، اذ كان معظم من راحوا ضحية هذا القانون من اعضاء هذه الطبقة . ولما كان اعضاء الندوة يقومون هم انفسهم بالمحاكات والنظر في قضايا ذات الجلالة ، فكم رأينا اعضاء هذه الهيئة ينحدرون الى ادنى دركات الجبن والخنوع في تنفيذ رغائب الامبراطور وتصفية من تحوم حولهم الشكوك ، الأمر الذي غذى الحقد والبغضاء في قلوب الناس ، ضد هذه الطبقة ، كما يشهد على ذلك ، أدب ذلك العصر . فاذا كان من المتعذر علينا ان نعرف اليوم الحقيقة كاملة حول اكثر من قضية من هذه القضايا ضد ذات الجلالة ، فالقانون المذكور كان ، ولامراء في ذلك ، خير عدة واداة ، وخير مسعف لتأييد سيادة الامبراطور وسلطانه .

٢ ـ الرجل الذي أعدته العناية الالهية

الهالة الروحية التي تجلل الامبراطورية : تطورها ومنابعها

ولكن هذه الامبراطورية الملكية لا تقنع بجمع السلطة في قبضتها، ولا يكفيها ان يسير القانون صاغراً في خدمتها : فهي تدرك اكثر من سواها ، ما في هذا وذاك ، من وهن وضعف لما يتعرضان له من تقلب وتحول وتغير . فاذا كان فيها ما يرضي او يقنع ملكاً لا يقيم وزناً لنوازع الروح ، فالواقعية الجامدة ، تبدو جافة في نظر مواطنين تتطلع نفوسهم الى المثُل الروحية ، بعد ان صقلتها الحضارة الهلينية . ولذا راحوا يحيطون الملكية بهالة من الرمزية الروحانية ، من الخير والمفيد لنا معاً أن نتعرف الى قسماتها البارزة . كذلك من اللائق ان نشير هنا بوضوح الى ما كان لهذه الهالة من وقع عميق وتأثير عملي . وبالطبع يجب الا يخامرنا الشك قط انها تطورت ،ودخل على الفكرة الاساسية ، مع الامبراطرة الذين تعاقبوا على الحكم ، والأجيال التي عاصرتهم، تغييرات اقتضتها موجبات الزمان والمكان . فكل نص قانوني ، وكل رمز من هذه الرموز التي احاقت بالامبراطور ، يؤلف حادثاً متميزاً عن غيره ، يتعذر على المؤرخ تقويمه وفقاً للمقاييس العلمية المعمول بها .

كان اوغسطس الرائد الاول في هذا المجال ، وأول من نسج على المنوال . فكل شيء حوله يبسط الأمور . من ذلك مثلاً، الجميل الذي يرعاه له الجميع من دواني الامبراطورية الى اقاصيها ، عندما اعاد اليهم السلام والطمأنينة بعد ان اكتووا بلظى حروب اهلية ضروس لا تبقي ولا تذر ، ناؤوا بكلكلها وتضرسوا بويلاتها: وهذه الوحدة العميقة الجذور التيحققها فلمّت الشعث، وجبرت العظم المهيض ، وهذه الامبراطورية التي شيدها فبرهنت ولاياتها الشرقية ، خلال هذه

فرضته على ايطاليا بحيث يشمل الولايات الاخرى ، محاولة ملؤهـا الهزء والسخرية ان لم تكتمل باصلاح جذري ، لأداة الحكم وبخلق نظـــام اداري جديد ، على اساس من التحالف او التمثيل العام . ومثل هذا الحل لم يخطر اذ ذاك على بال احد . والى هذا ، فالامر يتعلق في الدرجـــة الاولى ، بالسيادة والسيطرة ، وهي سيطرة كريهة في جشعها ، يفرض الأخذ بها ، في الاساس ، إنزال الرعب في الناس ، وتطمين رعاياها المتحفزين دومـــاً للانتفاض والثورة ، والاعتماد على القوة والبطش لارهاب الشعوب الواقعة وراء تخوم امبراطوريتها المترامية الاطراف الذين يتربصون الفرص السانحة للانقضاض عليها .

ولذا كان لزاماً على روما ان تـُبقي لديها ، جيوشاً جرارة يتعرّض معها وجودها وكيانها بالذات لخطر الحروب الاهليـــة . فاذا ما نجحت جمهوريات العصر الحديث ، على ضوء التجربة والخبرة المؤلمة التي خبرتها ، ان تتفادى ، حيناً ، خطر الجيش الضاغط على صدرها ، وتتجنبه ، وتأمن شره ، فالجمهورية الرومانية لم يخطر لها يوماً على بال ، مثل هذا الامر ، ولم تحتط لنفسها يوماً ضد هذا الخطر الماثل الجاثم على صدرها . فقد تغافلت عن الرباط الذي شد السلطة المدنية الى السلطة العسكرية ، فتحلل دو ن ان تبالي ، من الاسفل ، وهمها ان يبقى شديد الاسر في الرأس . فجيوشها تألفت وحداتها من جنود محترفة ، لم يألفوا الانصياع لغير امر قائدهم . وكم سولت النفس الامّارة بالسوء لهؤلاء القادة ، ان يستعينوا، تحقيقاً لمآربهم الخاصة ، بهـذه الاداة الطيعة بين ايديهم ، فجرّت منافساتهم المغرضة واطماعهم المتعارضة ، المذلـّة والهوان للوطن ، والفوضى للبلاد .

وعلى هذا الشكل موت الجمهورية الرومانية ، وقد أعجزها حل قضية غاية ً في الدقة ، هي قضية العلاقات التي يجب ان تشد السلطة المدنية الى السلطة العسكرية، فبرزت حدتها وخطورتها عندما تعلق الامر بالسلطة العليا في الامبراطورية . وقـد حمل موت الجمهورية معه موت مدينة روما نفسها . رأت النور مدينة ً ، فلم يكن في وسع روما ان تتصوّر لها كياناً غير هذا الكيان الذي كانته ، فلم تستطع ان تكيّف نُظـّمها المدنية للدور الذي تستوجبه سيطرتها على اراض شاسعة . صحيح انها برهنت في هذا المجال عن مرونة ولباقة تصرف لم ُتبدِ مثلها مدينـة مـن المدن الكبرى التي برزت في التاريخ القديم ، وذلك بمنحها رعويتها بسخاء لم يسبق ان سخت مدينة بمثله من قبل . وهـذا الامتداد البشري له حدوده.وطاقته ، وهي حدود لا يمكن ان تتخطاها مدينة كان من الانظمة التي سارت عليها ان يتولى جمهرة الناخبين فيها التشريع والقوانين وتعيين الحكام الاداريين . ولكي ُيتاح لها الإبقاء على هذه الاقطار التي فتحتها ، والاقوام التي أخضعتها لامرتها ، وضمتها بعضاً الى بعض ، كان لا بـــد من تغيير وضع الدولة ونظام الحكم والقيام بتشكيل اداري جديد ، وذلـــك بسن نظام جديد قادر على تنظيم الامبراطورية على أسس جديدة ، ونشر نظام حياة مشتركة ينعم بنعمائها الشعب الملك ورعاياه على السواء .

فالاصطلاح الاداري *Auctoritas* له مدلول فقهي ودستوري ، اذ ينظر الى صلاحيات الوظائف واختصاصات كل منها والتدابير الصادرة عنها . غير ان لهذا المصطلح اللاتيني من غموض المعنى وقلق المدلول ، ما لا نرى معه أي نص في القانوني الروماني يوضحه او يزيل منه ما يحيف به من إشكال: فهو يوحي بمعنى سلطة ادبية مشوبة بسلطة دينية. وهذه السلطة يستمدها اوغسطس من مجموع ما تم له من صلاحيات واختصاصات ، نالها شرعاً وقانوناً ، لا ندري انها توفرت لأحد غيره من قبل ، عرف كيف ينتسبها ويصيّرها اليه بعد ان تظاهر ، في بدء الامر ، بالإعراض عنها والزهد فيها . وهذه السلطة أتته صاغرة بعد ان فاضت خواطر الناس وأحاديثهم بالخدمات الجلى والمآتي العظام التي أداها للبلاد، كما أتته من إعجاب الشعب وتعلقه به وعرفانه لكبير جميله وتقديره السامي له . كل هذا جعل منه الرجل الاول — الامير (*Le Princeps*) ليس بين اعضاء مجلس الندوة فحسب ، بل ايضاً بين جميع المواطنين . وهكذا نرى اوغسطس يقطع بصورة جازمة ، ويفصّل بلا لبس ولا غموض ، ويحدد المضامين والمدلولات التي تمور تحت كلمة امبراطور ، وهي مفاهيم تتجاوز كثيراً ، كما سنتحقق ، فيما بعد ، الإطار الفقهي للكلمة . ومع ان خلفاءه من الامبراطرة لم يحظوا بشيء ، من هذا الماضي الثري الذي تم له ، فهم يستمسكون بهذه الكلمة ويشدون عليها بالنواجذ .

صاحب الجلالة في حمى القانون

وهذا الإبهام الشامل ، والغموض يغلّف كذلك ويلفّ « قانون الجلالة » الذي جرى تطبيقه ، منذ عهد اوغسطس ، لصالح الامبراطور ، كما نرى بعض الامبراطرة بعده، ولا سيما طيباريوس، يحرصون على تطبيقه بحذافيره. فنحن امام قانون مسنون قائم . ولذا لا بد لموضوع هذا القانون ، وهو افراغ «الشعب الروماني» في شخص الامبراطور، وتجسده فيه، ان يتم ، ولو شكلياً، بطريقة شرعية قانونية. فأمر تفويض السلطة الذي يجعل من الشخص الاول الممثل الحقيقي للشعب الروماني ، هو كنه هذه السلطة وجوهرها وصلبها . ومن ثم، فصلاحيات التريبون التي حملها وتمتع بها، كان لها هي الاخرى ولا شك ، اثرها العميق في جمام هذه السلطة ، اذ تجعل من الشخص الاول ، الممثل المكرّس ، المقدس ، للطبقة الكادحة *Plèbe* والوريث الادبي لوظيفة استخدمت في الماضي ما لها من صلاحيات واسعة ، للوقوف في وجه اعداء هذه الطبقة الكادحة المتقمصة في الشعب الروماني .

وهذا القانون الذي اورثته الجمهورية كان يعاقب بشدة وبلا رحمة ، كل من تجرأ على النيل من « جلالة » الشعب الروماني . وهذا المصطلح له من الطواعية والمرونة ما يجعل منه اداة رهيبة في يد الامبراطرة الذين تنتابهم وساوس الظنون والشكوك . فكل مخالفة او عبث لقسَم « اداه الامبراطور » والاخلال بواجب الاحترام ليس نحو شخصه فحسب ، بل ايضاً نحو تمثاله ، وابداء أي رأي معارض ينتقص من ارادة الامبراطور ومشيئته ، من قريب او بعيد ، كل ذلك اسباب كافية لملاحقة المتجنين قضائياً ، والحكم عليهم بالموت في اكثر الأحيان . ولذا تكاثر عدد السعاة والوشاة والعيون ، وراحوا يأخذون في غيرة آكلة ، الناس في الظنة ، ويرسلونهم امام

هي حرب قاسية مريرة ، فرقت شمل الوطن ، وأسالت الدماء غزيراً ،وأرغمت الخصوم على اتخاذهم يداً من كل شيء ، والاستعانة بكل أيد ، وطلب المعونة من أي بارقة ، عركت الكل بثفالها ، لم توفر احداً ، بعيداً كان ام قريباً ، وهددت بسوء المصير والشر المستطير ، كيان الامبراطورية ، وسيادة رومـــا وتفوقها ، على السواء .

ولم يتورع بعضهم في تأليبهم الاحلاف والانصار حولهم ، من استنفار حتى اعدى اعداء الرومان الفارثيين انفسهم ، خصومهـم الالداء . فقد سولت النفس لبمبيوس طلب مؤازرتهم . الا انه عرف ، بما له من لباقة وكياسة وتصريف للأمور ، ان يتفادى الخيانة العظمى ، غير ان الحقد الازرق والموجدة حمل كوينتوس لابيانوس سليل احد قواد قيصر البارزين ابان حروب الفتح في غاليا ، ان يتولى قيادة جيش من جيوشهم ، في هجوم له ناجح ، قام به باتجـــاه البحر المتوسط. وتمكن احد ملوك الدولة الارزادية *Arsacides* ، من احتلال سوريا وفينيقيا وفلسطين وبسط سيطرته عليها . بينا راح لابيانوس نفسه يبسط سيطرته على كل آسيا الصغرى، وضرب السكة باسمه ولقب نفسه امبراطور الفارثيين . اما اذا كان انطونيوس فشل فيما بعد في تجريدته العسكرية على ميديا *Médie* ، فقد كان له الفضل في ارجـــاع حدود الامبراطورية الى ضفاف نهر الفرات .

ولحسن حظ روما، لم يكن في الغرب بين الشعوب المنضوية تحت لواء الامبراطورية الرومانية، شعب له من شدة الشكيمة والبأس ، مـــا عرف معه ان يفيد من الأزمة الخانقة التي تخبطت فيها روما . فالعالم الذي كان اذ ذاك ، يأتمر بامرها ، بقي في مجمله، صامداً متماسكاً، فالمحاولات التي قامت بها بعض البلدان الدائرة في فلك الامبراطورية ، بقصد التحرر وخلع النير الرومـاني الذي رزحت تحت ثقله ، لم تلق النجاح المرتجى . وهكذا، بدلاً من ان تنكمش رقعة الامبراطوية وتتقلص ، راحت ، على عكس ذلك ، تتسع وتمتد وترحب ، باحتلالهـــا ولو بصورة مؤقتة ، اقطاراً في كل من آسيا وافريقيا ، لم يبرهن حكامها عن خضوعهم التـام ولا امتثلوا ، كما يجب ، للنواهي التي وصلتهم من روما . كذلك تم لها اخيراً ، ان تضم الى ممتلكاتها الواسعة ، مقاطعة جديدة لها وزنها وقيمتها ، هي مصر التي كانت للآن ، من البلدان الحليفة المرتبطة بالامبراطورية بمواثيق ومعاهدات .

وهكذا كل من ارتبط بروما رأساً او بالواسطة ، وشد مصيره الى مصيرها ، اضطر ، طوعاً او قسراً، انينحاز لهذا او ذاك من هؤلاء الزعماء المتناحرين، الذين جاشت نفوسهم على السواء ، باطماع أشعبية وزخرت بنشاط محموم وبحيوية لا تعرف الملل في تحقيق الرغائب. ولو كان بالامكان تقويم الخسائر البشرية والمادية التي جرتها على البلاد هذه الحروب الاهليـة النَّهمة ، الاكول ، لبلغت أرقامها عدداً مرعباً . وهذه الحروب ، بما اتسمت به من حول وطول ، وبما رافقهـا من

يعينون لها ، عدة مرات ، طيلة حكمهم ، ويقبضون عليهـــا كلما تم لهم الامر . فالبعض منهم تولاها بصورة آلية في غرة كانون الثاني او (يناير). فالقنصليات التي هي من هذا النوع ، ملؤها الفخار ، لان السنة تُعرف اذ ذاك باسم القنصل. فمن اصل عشر سنوات ، فات فسبسيانوس منها اللقب مرتين ، وابنه تيطس ثلاث مرات . وعلى كل ، فلا نعرف احداً تولى هـــذا المنصب في حياته ، اكثر مما تولاه الامبراطور اوغسطس .

ومهما يكن من شأن هذه الوظائف والرتب ، وضيعة كانت ام رفيعة ، ومن النفوذ الذي توليه صاحبها ، فسيان لدى الامبراطور اسقاطها واهمالها بالكلية او التمرس بصلاحياتها بصورة رسمية قانونية . فبفضل النصوص القانونية ، وبمـاله من قوة النفوذ ، فالامبراطور وحده يعين اصحاب هذه المراتب ، اما رأساً او يوصي بتعيينهم او يسمح لهم بتقديم ترشيحهم لها . فليس من امل قط ان تؤول احداها الى عدو له ، او شخص تحوم حوله الشكوك والظنون . وليس لاي من هذه الوظائف ، اي مدلول سياسي حقيقي ، فهي تتيح لحاملهـــا او لصاحبها بالاكثر مناسبات الظهور امام الحاكم في الحفلات العامة وتلفت اليه النظر ، كما تتيح له ، في افضل الحالات واحسنها ، ان يكون موضوع تكريم ، مكافأة له على خدمة اتاها . وعلاوة على ذلك ، له الحق الكامل بانشاء وظائف شرفية ، تمكنه من تعديل سلم المراتب المعمول بها في ترفيعهم ، ويُقحمهم في طبقة حاملي عضوية مجلس الشيوخ وفي المرتبة التي يحلو له تعيينهم فيها .

هذه الامثلة ترينا ولا شك ، مدى الصلاحيات المدنية المضافة الى صلاحيـــاته او السلطات العسكرية الأساسية التي يتمتع بها . في وسعنا ان نمضي قدماً في مثل هذا العرض ، ونجري مثل هذا التحليل على مجالات اخرى من مجالات الادارة العـــامة في الامبراطورية ، ولا سيما في حقل السلطة التشريعية او السلطة القضائية ، فننتهي معها الى النتائج ذاتها . فالسلطة التي تمتع بهـــا الامبراطور دوماً ، كانت سلطة مطلقة لا حد لها . فبعد ان كانت هـــذه السلطة ، في بادىء الأمر ، ضمنية ، مستترة ، اذ بها تبرز وتتفتح بشكل اوضح ، في القرن الثاني . فعندما يكتب الفقيه الروماني اولبيانوس ، في مطلع القرن الثالث : « ان الشعب يولي الامبراطور جماع السلطة التي له ، كما يوليه كل سلطان *Imperium* *Auctoritas* » فهو انما يعترف ويؤكد النتائج التي آل اليها التطور الذي خضع له الحكم في العهد السابق .

السلطة *Auctoritas*

منذ البدء ، نرى اوغسطس يضيف شيئاً جديداً على جماع السلطات التي تمت له واستقرت في قبضة يده . فقـــد رأينا عندما قرأنا العبارة التي وردت في : « امور الحكم » ، كيف انـــه كان يدعي بأنه لم ينعم من السلطة ما جعله يتقدم به على رُصفائه ، في أي من « الوظائف والمناصب التي صارت اليه » . وقد قال بعكس ذلك تماماً في الفقرة السابقة لها ، كما يعترف ، هو نفسه ، عندما يقول: « فقد تَفوّقت في السلطة على الجميع » أي على جميع الموظفين . فليس في التصريحين المذكورين أي تناقض كما يبدو لأول وهلة ، لأن كلًا منهما يُنـاظر ناحية خاصة .

تكالب مرير ، ومن قوى ضخمة تشابكت فيها وتلاحمت في جميع الميادين ، تجـــاوزت بمراحل كل ما سبقها من حروب أهلية نشبت في تلك البلاد، وشتت منها شمل العباد ، اذ لم تبلغ مطامع الخصوم المتشابكين في الحروب الماضية هذا الاتساع في الطمع والجشع والاهـداف الواسعة التي رمت هذه الحرب الاخيرة الى تحقيقها . والحق يقال ، فالولايات الغربية لم تتضرس بها كثيراً . ففي غاليا ، تعرضت مرسيليا وحدها للأذى والضرر، إثر محاصرة قيصر لها وإرغامها على التسليم له . أما اسبانيا وافريقيا ، فقد كانت كل منهما ، ساحة حروب دامية ، وقعت في عهد قيصر . وعلى عكس ذلك تماماً ، ففي الحقبة التي عقبت وفاة قيصر مباشرة ، وهي اطول ادوار هـذه الحرب الضروس ، ازدادت العـــاصفة هيجاناً كما ازدادت نار الحرب أواراً ، فاكتوت بلهيبها جميع انحاء الامبراطورية لاسيما ايطاليا والشرق وصقلية، وتجلى العنف على اشده وبرز في جميع اشكاله والوانه : من نفي، وإبعاد بالجملة، ومصادرة الاملاك والمقتنيات، ووضع الجوائز والاعطيات لمن يأتي برأس خصم معين، وهمجية الجند وفظاظتهم والاعمال الوحشية التي قاموا بها ، ونهب المدن التي تؤخذ غلاباً او قهراً وسلبهــا ، وذبح السكان ذبح النعاج وبيعهم اسرى في اسواق النخاسة والرق ، واستفحال شأن قراصنة البحر وقطاع الطرق بعد ان اختل الأمن واختلط الحابل بالنابل، والاستعانة بالعبيد والارقـــاء وتجنيدهم كما فعل سكتوس بمبيوس ، ومصادرة الاملاك والكنوز المدخرة ، والاموال المكنوزة ، وفرض التجنيد العسكري العام على جميع القادرين من الرجال، وفرض الرسوم والضرائب ، والغرامات الباهظة على المنظمات والجمعيات واعتصارها بشتى الوسائل، والقروض الاجبارية والضرائب الاعتباطية والمصادرة على جميع انواعها، الى غير ذلك من ضروب العسف والابتزاز

وبالرغم من اعفاء الرعايا من الضرائب المباشرة ، وهو امتياز نعموا به منذ اكثر من قرن، لم تنجح ايطاليـا في فرض الرسوم البـــاهظة عليها ، ولا من اعمال التعصب والسلب والنهب والابتزاز ورؤوس الاموال التي كانت الشركات التجارية تستثمرها وتستغلها في اعمال الاتجار، راحت فريسة المغتصب المستبيح. وقد كتب على ايطاليا ان تمد كلا من الزعمـــاء المتنافسين ، بالرجال القادرين على الحرب ليؤلفوا منهم الكتائب التي يستعملونها مطايا للوصول الى اهدافهم وتحقيق اطماعهم . ومهما كان من فظاظة اعمال العسف والضغط والارهاق التي تعرضت لها ، فالشرق الهليني استهدف لاكثر منها وافظع . فبعد ان سُلبت اقطاره ونُهبت مقاطعاته خلال حروب الفتح الروماني، واستغلها الحكام ورجال الاعمال ابشع استغلال بدت موارده الطـــائلة وكانها لا تنضب ومصادره لا تنقطع. فكل فريق من هؤلاء الزعماء المتشابكين وقعوا تحت اغرائه واخذوا بما لهذه الاصقاع من سحر جذاب وثروات طائلة فراحوا يمتارون منها ، تباعـاً ما فيه قوام الحرب وعدتها ومادتها. وهذه الاعتدة الخيفة التي أتيح لانطونيوس جمعهــا ، والنفقات الباهظة التي تكبدها، استمدها من الشرق، بينما لم ينعم اوكتافيوس، في الغرب ، ببعض هذا ، او بما يمكن مقارنته به .

وتباين عميق ، بين ما تم للامبراطور منها وبين هؤلاء التريبون . فالسلطة التريبونية تُعطى لسنة واحدة ولذا اقتضى تجديدها وإقرارها سنة بعد سنة ، ولو بصورة شكلية . فالصلاحيات التي تخولها لصاحبها ، يُعمل بها وتبقى سارية المفعول ، على بعد ١٠٠٠ خطوة من روما . والى هذا فالتريبون الآخرون ، الذين يجالسهم ويصاحبهم ، ويجلس معهم الى مقعد واحد ، ليسوا طبعاً ، رصفاء له ولا زملاء . فليس في مكنتهم قط ، ولا لهم الجرأة ، ان يمارسوا ضده ، حق الرفض او الاعتراض . ولذا كانت السلطة التريبونية من هذه الدعائم الاساسية التي قامت عليها سلطة الامبراطور وصلاحياته الواسعة

ومع ان الامبراطور ليس من فئة التريبون ، فهو لا يتنزل ليمارس اية وظيفة من الوظائف الخاصة بمكدار البلدية . ومع ذلك فقد ألقى الامبراطور قبضته الشديدة على شرطة المدينة وعهد بها الى موظف ينعم برعايته ، يستطيع هو ، متى شاء ، عزله وطرده . كذلك عهد الى احد خاصته ، بمهمة تأمين وسائل الاعاشة لروما وسكانها ، وهي وظيفة أُلقيت مقاليدها بين يديه . وحرص على ان يحتفظ بها ويؤمّن مهامّها بعد ان تم له من الامر والسيطرة المطلقة على مصر ، اخصب اهراء روما واغناها على الاطلاق . فنهض بأعباء مهمته هذه ، على احسن وجه ، بعد ان استتب الامن في البلاد وتقلص خطر القراصنة في البحر .

وحرص الامبراطور على ألا يُهمل مبدئيا ، او يسخر ، او يُغفل او ينتقص من صلاحيات اية وظيفة من الوظائف العليا المعترف له بها شرعاً وقانوناً . وهمه جداً ان يقوم بها وفاقاً للتقاليد المرعية ، اي بالاستعانة بأحد الزملاء له في هذه الوظيفة . وكان باستطاعته ان يردد ما كان يردده اوغسطس حين يقول : «لم يكن لي من الصلاحيات أكثر مما لزملائي في الوظيفة الفلانية» . ولكن ما عسى ان يستطيعه زميل له ، وللامبراطور مثل هذه الصلاحيات ، ومثل هذه القوة والسطوة ؟

وتطل علينا ، من وقت لآخر ، في القرن الاول ، وظيفة *Censure* وصاحب هذه الوظيفة (*Censor*) هو القيّم على النظام الاجتماعي في المدينة . وهي وظيفة كانت دوماً من وظائف الرجل « الاول » في الدولة ، إلا مرة واحدة جاءت ضد اوغسطس نفسه . وقد اتفق مرة ان قرر الامبراطور دومتيانوس الاحتفاظ بهذه الوظيفة ١٨ شهراً أي أطول من المدة المعينة لها قانوناً ، فأصدر قانوناً اصبح معه *Censor Perpetuus* ، أي «سنسور» الى الابد. ولم تلبث هذه الوظيفة ان تنوسي امرها ، فزالت الى الابد . وقد استطاع الامبراطرة ، بها او بدونها ، ان يراقبوا بعين يقظة ، النظام الاجتماعي والتسلسل الطبقي عن كثب ، فرفعوا الى طبقة الفرسان *Chevalier* او الى مرتبة الشيوخ ، من شاؤوا من الناس ، دونما رقيب او حسيب وأنعموا برتبة *Patriciat* على من شاؤوا من افراد الاسر الرومانية .

اما وظيفة القنصلية ، فهم يتقلدونها كلما رغبوا فيها ، ومالوا اليها . ولذا نرى الامبراطرة

الشرق الهليني ينازع روما الصدارة

ليس من المستغرب قط ، والحالة على ما وصفنا ، ان يبدو الشرق حقلاً مقفلاً حاول معه ذوو الاطماع من الرومانيين تصفية منازعاتهم ووضع حد لهذا الوضع المتأرجح . فشهد أعنف المعارك الفاصلة واشدها هولاً : موقعة فرسال في تساليا، حيث قُيِّض لقيصر ان يسحق جيش بمبيوس، ومعركة فيلبس في مقدونيا حيث ثأر لنفسه من قَتَلَة ١٥ آذار ، ومعركة أكتيوم في ابيروس، اذ ادى انتصار اوغسطس الى هرب كليوباترا وانسحابها من المعركة، الى هرب انطونيوس واللحاق بها متخلياً عن اسطوله وجيشه . وقد بدا الشرق في نظر المتحاربين ، انه خير الاماكن لتحركات الجيوش ومناوراتها ، فيه من الموارد الطائلة ما يساعد، الى حد بعيد ، على الكر والفر ، والهجوم والدفاع ، على ايطاليا محط الآمال والانظار . ولما ظهر لبمبيوس اولاً ، ثم للقتلة الجمهوريين الذين اغتالوا قيصر ان لا حيلة لهم في البقاء في روما والاحتفاظ بها ، قرروا الانسحاب واللجوء الى الشرق ليقيموا فيه عدتهم للحرب من جيوش وعتاد . وقد حالفهم النجاح الى حد بعيد ، بحيث قرر خصومهم مبادرتهم حالاً بالحرب لئلا يقوى منهم الجانب . اما انطونيوس ، فقد كان عليه في اعقاب معركة فيلبس ان يقرر أي الشطرين يفضل . فما عتم ان آثر الشرق تاركاً الغرب وقضاياه المربكة وشؤونه المحرجة لاوكتافيوس. وبذلك حسن اختياره وتمت له الحصة الفضلى . وبالفعل ، فقد أنشأ له في الشرق ، قوة حربيـــة ، ضخمة اقتضت خصمه عشر سنوات من الجهد المرير ، والتنمية المدروسة ، والتخطيط ليؤمن التوازن والتعادل معه . ومن بين الدروس البليغـــة الكثيرة التي أتاحت لنا هـــذه الازمة الخانقة ، استنتاجها ، الدرس التـــالي وهو ان العالم الهليني الذي بدا في اعين البعض عيياً، متعباً ، ومنهوكاً منذ عهد بعيد ، كان بالفعل ، ولا يزال يملك ، في الفترة الاخيرة من تاريخ الجمهورية الرومانية ، حيوية عارمة وطاقات هائلة ، لم يتبينهـــا اصدق الرومانيين فراسة .

فاذا كان ، والحق يقال ، المظهر المادي من هذه الحيوية هو الذي يبرز للعين ، للوهلة الاولى ، فالمادة ليست وحدها مما يستبد بالاذهان ، لا سيما وهنالك عالم الفكر ودنيا الحضارة ، ولكل منهما سطوه على الخواطر ، ووقعه في النفوس .

ففي عالم ، على مثل هذا القدر العظيم من غنى التجربة الطويلة والخبرة الواسعة التي تمت له ، من اي لون او جنس كانت، ألم يكن لروما ان تجد الكثير مما يليق بها اقتباسه واخذه، بالرغم مما اقتبست عنه من قبل واخذت ؟ ففي الشرق وجده ، يمكنها ان تجد الحلول المرتجاة للمشكلات الشائكة التي تتخبط فيها ، والتي لا يصح بعد ، التسويف في حلها .

فقد وضعت احداث الحرب الاهلية الكبرى ، من هذه الناحية ، الخصمين وجهاً لوجه امام تغييرات وتطورات لم تنته الى نتيجة حاسمة . فبتعويل بمبيوس على الشرق الذي عرف ان ينشىء له فيه نفوذاً عظيماً ، بفضل الحملات المظفرة التي قادها من قبل ، ومكثه الطويل بين ربوعـه

يترتب عليه دفع التعويضات العائدة للمسرّحين، لا يتحرك بدون اشارة منه او كلمة يقولها هو. فهو الذي يهب الاوسمة الحربية لمستحقيها ، ويُعيّن الضباط ، ويقر الترفيعات لذويها . فإليه وحده ، يعود تقرير تشكيل الجيوش ، وتعبئتها ، وبقاؤها ونشاطها .

وهكذا ، فالقائد العام هو السيد غير المنازع للقوات العسكرية . وله الرأي الأخير والكلمة الفصل ، في كل امر ومشكلة ، مهما كان طرفها الآخر . فعلى أثر الحوادث الدامية التي سببت مقتل كاليغولا ، دون فائـدة تذكر ، والأزمة التي أنشبت اظافرها في البلاد ، عام ٦٨ — ٦٩ للميلاد ، لم يبق احـــد ليخدع نفسه . فالسر الحقيقي لهذه السلطة ، كما يراه المؤرخ الروماني تاسيت *Tacite* ، يكمن في تفاني الجنود والملاكات التي تنتظم عقدهم، لمن نادوا باسمه امبراطوراً.

سلطاته المدنية

وهذه السلطات والصلاحيات العسكرية التي تمت له وتمتع بها ، لا يمكن فصمها او عزلها او تجريدها قط عن الصلاحيات والسلطات المدنية الواسعة ، حسبما يدل عليه مدلول كلمة *Imperium* القديم الاستعمال . وهذا المعنى نفسه بدا مع ذلك ، غير واف بتأدية المراد ، واقتضى ، بالتـــالي ، تضمينه عدداً من السلطات والصلاحيات الخاصة جرى استنباطها من لا شيء ، او جُرّدت اعتباطاً من بعض الوظائف والمراتب التي لم يمكن ان يستقيم لها كيان او قوام بدونها . وأُلبست الامبراطور عن طريق العرف وإطلاق العادة ، او عن طريق قرارات قانونية سوّغت استعمالها ، كالصلاحيات التي نصّت عليها مواد القانون الذي كرّس فسبسيانوس امبراطوراً ، واولاه ما اولى ، من سلطات وصلاحيات ، وقد حفظ لنا التاريخ نصّ هذا القانون مكتوباً على احدى النقائش . وليس في وسعنا ان نستعرض هنـا بالتفصيل والتبسيط الوافيين هذه السلطات ، فلنقف عند بعضها هنيهة .

لما كان الامبراطور من طبقة الاشراف *Patriciens* مولداً، في عهد الاسرة «اليوليو-كلودية»، او شرعاً بقوة القانون ، فيما بعد ، فلا يمكنه ، والحالة هذه ، ان يصبح تريبوناً *Tribun* يتحدر من طبقة الكادحين او الطبقة الشعبية . وقد رؤي ، مع ذلك، ان يُعطى هذا اللقب لاوغسطس ولخلفائه من بعده ، فتتم له ولهم ، بذلـك ، السلطات والصلاحيات الملازمة ، شرعاً وعرفاً ، لهذه الوظيفة *Tribunicia Potestas* التي تُولي صاحبها ، جميع الحقوق التي تمتع بها الـ *Tribuns* في العهد الجمهوري . فالامبراطور على شاكلة التريبون ، شخص مقدّس ، مكرّس ، لا يمكن مسّه . وعلى مثالهم ، يستطيع ان يأمر بتوقيف أي كان وان يقاصص ايا من اعتدى عليه او هزىء به او سخر منه . وعلى شاكلتهم ، له ملء السلطة والحق بأن « يشفع »، أي يعارض كل قرار او مشروع قرار ، يتخذه مجلس الشيوخ او الحاكم . وعلى شاكلتهم ، يستطيع ان يدعو للاجتماع ، اعضاء مجلس الندوة ، في الحال ، وان يرأس اجتماعات مجالس الهيئات الحكومية ، وان يتقدم اليها بما يرى من اقتراحات وتوصيات . فاذا صح النظر ، وكانت هذـه هي بالذات الامتيازات والصلاحيات التي نعم بها ومارسها تريبون الشعب ، فهنالك مع ذلك فروق بعيدة

وبين شعوبه ، ادرك جيداً مـا سيلاقي في هذه المنطقة من امكانات وموارد يفيد منهـا . وباعتماده ، من جهة ثانية ، على مجلس الشيوخ او الندوة الرومانية ، جعل الشرعية والتقاليـد الرومانية المرعية ، الى جانبه ، بقدر ما بقيت هذه التقاليد صحيحة . اما قيصر ، فباعتماده على غاليا، وبما له من نفوذ وسلطان في كل من ايطاليا واسبانيـا ، جعل مقومات قوته وطاقته مرتكزة على الغرب . ومع ذلك ، فقـد تبدى لقيصر انه هو نفسه أقرب من خصمه بمبيوس ، الى طريقة التفكير الهليني ونظرته السياسية لأمور الدولة . فقبل ان نتعرف مباشرة ، على الملكية المصرية المؤلهة ، كان عزم في قرارة نفسه ، ان يقوم بإصلاح جذري في نظـام الدولة السياسي والديني معاً ، هذا النظام المتبع في جميع انحـاء الامبراطورية الرومانية . وهكذا تبدت لنا هذه الامبراطورية منقسمة على نفسها الى شطرين، انتصبا ، بفضل خصومة زعيميها ، الواحد في وجه الآخر ، ونهضا بقضية ، لا كبير شأن لهما بها في الاساس . وهذه المفارقة بالذات عرضت عام ٤٢ ، في الواقعـة الكبرى التي ادت الى انتصار قيصر وورثته الناهضين بامره بعد مقتله ، كما افضت بالتالي الى تصفية الجمهوريين ومن لف لفهم .

وقد سارت ماجريات الأمور على عكس ذلك في الطور الاخير من الأزمـة التي وجدت حلها النهائي في معركة اكتيوم . فإقامـة انطونيوس طويلا في الشرق وتفاهمه مع كليوباترا طرحت من جديد ، وجهاً لوجه ، على بساط البحث اساس الوسائل المادية التي اعتمد اليها وعول عليها ، كل من الخصمين المتنافسين ، كما تناولت بالمثل ، النزعات التي كانا يمثلانها . وقامت الدعاية التي اطلقها المنتصر الفائز تسخر من الشرق ، وتهزأ به ، على أبشع وجه ، هذا الشرق الذي كان شركاؤه ودعاته « لحياة لا مثيل لها » هم أنفسهم زعماء المعسكرين وممثلوهما ؛ وهمـا في نظر فرجيـل : « الإله النبّاح انوبيس *Anubis* » ذو الرأس الذي يشبه رأس الكلب وغيره من مسوخ الآلهة . وقد انتصبوا ، شاكي السلاح، في وجه نبتون وفينوس ومينرفا ، في هجومهم على اوكتافيوس يحف به « اعضاء مجلس الشيوخ والشعب ، وارواح السلف الصالح ، والآلهـة الوطنيون العظام » ، وهو جدل اساسه واقـع صارخ . ففي حال فوز انطونيوس تمسي هذه الامبراطورية التي قامت وارتكزت على سواعد الفيالق الرومانية غير رومانية ، عاصمتهـا الفعلية الاسكندرية ، وليست روما .

نتيجة الصراع

فاذا ما انعمنا النظر في النتائج التي سيفضي اليها، ولا شك، نقل العاصمة واستبدالها، برزت امامنا في الحال ، كلمة باسكال[1]: « انف كليوباترا » . فلو كان هذا الانف اقصر مما كان ، لتغير وجه التاريخ . فاذا مـا تملينا النظر في هذا الانف لبدا لنا بالفعل ، أنه اطول من اللازم . غير ان طابع هـذا الصراع لم يكن ليتوقف على شَوَه أرادته الطبيعية لصاحبة هذا الأنف . ومع ذلك ، فمدلوله يبقى عميقاً بعيد الغور . فبقاء قوات جرارة في حوض البحر المتوسط الشرقي على أهبة الاستعداد وأتمه ، من شأنه ان يزرع الرعب في القلوب لا سيما اذا ما تولى امرها الرومان ، بعد مـا أخذوا بسحر المدنية الهلينية ، ونفخوا فيها من عبقريتهم في التنظيم ، ومدها بالأطُر والملاكات اللازمة ، أمرٌ مجرد التفكير فيـه يهز

(١) باسكال : حياته ، فلسفته ، منتخبات تأليف اندرية كريسون ـ زدني علماً ـ منشورات عويدات

اليه كل فضل او خير ، او نفع او كسب ، مادياً كان او سياسياً ، يؤمنه للامبراطورية ، فوز عسكري ونصر حربي ، يؤتاه قائد من قواد الجيش، حتى في حال بقاء قيادة (*Ductus*) العمليات الحربية الفعلية في ايدي القواد ؛ اذ من المفروض ان يكون الفضل في هـذا النصر للامبراطور نفسه ، لانه هو وحده ، له الحق بترؤس حفلات زجر الطير واستطلاع الطلع ، واستخراج الفأل ، والقيام بالمراسم الطقسية التي تسبق المعركة وتهيء لخوضها . فهو الذي يوحي ، مبدئياً ونظرياً ، البت بالأمور ، والجزم في المعضلات ، لانه هو وحده ، مهبط الوحي والالهام الالهي ، وحامل بركة الآلهة وموضع مسرتها ورضاها . فهو وحده ، ابداً ، ابو النصر ، وسبب كل ظفر . فكل نصر يؤتاه ، وكل ظفر يناله ، فرصة مناسبة « للهتـاف » باسم صاحب الأمر « الامبراطور » . وعلاوة على هـذا ، فهو وحده صاحب الحق الاول بترؤس الاحتفالات التقليدية التي تفتتح حفلات الإبتهاج بالنصر ، وهي عادة لم يسجل التاريخ الروماني المديد ، غير عشرة استثناءات لها لا غير ، وقعت كلها في مطلع عهد الامبراطورية ، يقوم فيها احد اعضاء الاسرة المالكة بترؤس هذه الاحتفالات . اما بعد طيباريوس رأساً ، فالقـادة الذين استحقوا شكر الدولة والوطن ، وكانوا في حظوة من البلاط ، لم يكن ليترك لهم سوى « الطواف » او الفخر الاصغر ، « بالملابس المظفرة » دون ان يرتفعوا الى درجة الابطال الأول في مثل هـذه الحفلات الفخمة . وهذا ما يفسر لنا هذه الارقام التي يباهي اوغسطس بسردها في مذكراته : « امور الحكم » عندما يفخر علانية، وعلى رؤوس الاشهاد: « وقع علي الاختيار » للطواف مرة، ولزياح النصر ثلاث مرات، وأُعطيتُ لقب امبراطور ٢١ مرة ... للانتصارات التي سجلتها في البحر والبر ، انا شخصياً او بواسطة وكلائي ومعتمديّ، وأمر مجلس الشيوخ قيام صلوات شكر عامة للآلهة ، إقراراً برعايتها ، وعرفاناً بجميلها ٥٥ مرة . وهكذا بلغ عدد الأيام التي عيّد فيها الشعب مبتهجاً ، بناءً على اوامر مجلس الشيوخ ٨٩٠ يوماً » .

وهذه الفكرة بعينها يعبّرون عنها ، بصورة مادية او رمزية ، في سلسلة متصلة الحلقات من الوقائع والاحداث. فالامبراطور وحـده يلبس البالوم (*Paludamentum*) او الرداء الارجواني الخاص بقائد الجيش الاعلى ، إلا انه يجانب لبسه وهو في روما او ايطاليا ، وذلك ، ليس تكرماً منه ، بل خشية من ان يمس مشاعر المواطنين وإحساساتهم . فهو قائد حرب في الصميم ، وقائد دائم ، اينما وُجـد ، على عكس القواد في العهد القديم ، اذ كانت صلاحياتهم العسكرية محدودة ، تقتصر فقط على زمان ومكان معينين ، فما ان تنتهي مهمتهم حتى يلفهم النسيان في المناطق التي تولوا امر القيادة فيها تحت امرة حاكم مدني . ومن حقه، وهو في روما ، ان تسير في ركابـه مفرزة خاصة من الجيش الى جانب الحرس الذي يقوم دوماً بحراسته . فالجيوش تنادي باسمه امبراطوراً ، وتؤدي له القسَم المقدس ، قسم الولاء والطاعة ، وبدون موافقة هذه الجيوش وهتافاتها والمناداة باسمه ، فلن يصبح امبراطوراً . فهو الذي يقبل المتطوعة في الجيش ، ويتولى عملية تسريح من يجب تسريحهم من الخدمة العسكرية . وبيت المال الذي

فرائص القوم في روما ، ويخلع قلوبهم هلعاً ، بحيث تحرّج الشاعر الابيقوري هوراتيوس عن اخراج خموره المعتقة من مستودعاته ليستمتع بأطايبها . فقد ذهبت أقدار الحرب ومصائرها الآن بهذا الجزع يعتري روما، واصبح في مقدورها ان تحتفظ لنفسها ، بالصدارة الأولى الى ان يصبح في مكنة القسطنطينية، بعد لأي من الدهر ، تنازعها إياها . وكان يكفي شيء بسيط جداً في الثاني من ايلول ٣١ ق.م ، لتفقد روما كل شيء ، عند ساحل أبيروس ، امام رأس اكتيوم *Actium* .

فبقاء روما « المدينة » الاولى ، لم يحل دون تعرضها لتغييرات جذرية ، بينها أكثر من واحد يحمل في الصميم طابع هذا الشرق الذي تغلبت عليه وفازت بـه . فالاخذ بالنظام الملكي أتاح للأحداث المتتابعة فتح الابواب على مصراعيها امام المؤثرات الهلينية التي تجاوزت بكثير هذه المرة ، وعلى نطاق اوسع ، تلك التي تفاعلت بها في عهد الجمهورية ، ومهدت لها الطريق للتغلغل، والتمطي على شكل لا يقاوَم . وقد اقتضى هذه المؤثرات وقتاً طويلاً لتمكن عروقها وترسخ ، بعد ان صهرتها البوتقة الرومانية وأنضجتها وهيأتها للاستعمال ، قبل ان تنتقل بدورها الى الغرب . فلم يتم هذا كله بعملية تسلم وتسليم ، ولا بنسخ حرفي . فليس بمستغرب قط ان يقتصر المعاصرون لهذه التطورات ، عن التحسس بهذا كله ، او ان يستشعروا مسبقاً بمصائر المستقبل .

السلام الروماني : مقوماته ووسائله

وبالمثل ، فقد تأثروا عميقاً بالنهج الذي سار عليه، منذ البدء ، النظام الجديد، فاتسم منذ اللحظة الاولى من إطلالته ، بالمتانة والمهابة . والذي كان من شأنه ان يبدو غريباً ، بدا ، على عكس ذلك ، لمعظم سكان الامبراطورية ، خيراً لا يثمّن ، تمثل في هذا السلام الذي رفرف فوق رؤوس الجميع ، مشيعاً الطمأنينة في الداخل ، والامن في الخارج . اما نتائجه فلم تكن آنية ولا سطحية . فبمجرد ان استتب هـذا السلام وبُذل في سبيل ترسيخه ما بذل من وسائل وأساليب ، ترك طابعه العميق في هـذه المدنية التي أتاح لها الازدهار مدة قرنين من الزمن . فقـد سميت بحق : « بالسلم الروماني » وهو تعبير من المستحب الاحتفاظ به لما له من المدلول الخاص الذي سنحاول في ما يلي، ان نكشف عما يتضمنه من المعاني والحقائق الأولية . ومثل هذا التحليل ليس بعملية يسيرة ، كما انها ليست من الهنات الهينات هذه المهمة يضطلع بها الضالع بها بتمهل كلي وتؤدة ، وقد لاقى في مقارعة خصمه العنيد انطونيوس أشد المعاناة والجهد في الانتصار عليه ، وفي توفيقه الى حل قضية ، بدت على ضوء المحاولات السابقة ، غير قابلة للحل ، مستعصية له . وقد حافظ خلفاؤه من بعده ، على السمات الاساسية التي ألبسها الحل الذي ارتآه ، وقـد مهد لجميعهم تصميم اصيل قوامه الرغبة الشديدة التي جاشت في صدره ، والوصية التي سلمهم اياها ليتموا الرسالة التي كان بدأها . وهكذا يصح لنا ان ننعت هذا « السلام الروماني » ، بالسلام الاوغسطي ، وقد عرف بهذا الاسم فعلاً ، في اعقاب استتبابه .

توصف رسمياً *Proconsulare Majus* اي السلطة البروقنصلية العظمى . وهـــذا النعت *Proconsulaire* يولي حامله او صاحبه ، السلطة العليا التي يتمتع بها صاحب الولاية او حاكمها ، ويمارس بحكم منصبه هذا ، جميع السلطات والصلاحيـات التي تمارسها روما نفسها . اما الصفة المشبهة « العظمى » او الكبرى فلكي يشدد على ان السلطة الممنوحة تبلغ اعلى درجة وأعظمها ، وتعلو فوق سلطة اي حاكم او قنصل آخر ، مهما بلغ من شأنه .

جاءت الامبراطورية الى الوجود ، واطلت على العالم الروماني ، نتيجة الإختبار والتجربة وليس نتيجة التجريد والنظر الفلسفيين ؛ استدعى وجودها وطلوعهـا ، الرغبةُ الصادقة في قطع الطريق على الحروب الاهلية ، وما تجره في ثناياهـا ومطاويها : من شرور وويلات وأهوال ، والرغبة ، من جهة اخرى ، في توفير الطمأنينة والأمن في الداخل والخارج ، للعالم الروماني عن طريق الاحتفاظ بجيوش رومانية جرارة ، كما يشهد على ذلك ، إنتصار اوغسطس في اكتيوم ، والحوادث الدامية التي وقعت عام ٦٨ — ٦٩ بعد الميـــلاد ، واسفرت عن تغلب فسبسيانوس وتفوقه على خصومه ومنافسيه . فكأن الحل الذي تم على هذا الشكل ، جيء به لاقرار وضع قائم ُوجدت فيه البلاد ، بعد انتهاء هذه الازمات ، ولتكريس ديمومته ، والإبقـــاء على زعيم وحيد اوحد ، على رأس الجيش الروماني ، مهما نأت معسكراته ، وتباعدت مخيماته وحامياته عن العاصمة روما. فبتسليم السلطة اليه وبالقـاء مقاليد الحكم بين يديه ، تأمنت له اسباب السؤدد والسيادة وسلس له الأمر ولان ، بعد ان يكون صاحب هذا الأمر : إما انه لا يستطيع ، وإما انه لا يرغب في تولي قيادة الجيش . اما كل هؤلاء الذين يمارسون جانباً من قيادة الجيش فيوصفون بكونهم : *Praefectus* ، اي والي او متولٍ . وكثيراً ما اطلقوا عليهم وصف *Legatus* اي مندوب او معتمد . امـــا الاول من هذه الالقاب ، فكان يحتفظ به ، وفقـــاً لاعرق التقاليد الرومانية ، لمن يتولى ولايته من الحاكم العام ، وليس من الشعب الروماني نفسه مباشرة . واللقب الثـــاني أبين مدلولاً ، واوضح معنى اذ يراد به او يقصد منه : التفويض والاعتماد . فالوالي والمعتمد يستمدان سلطتهما من مشيئة الإمبراطور وارادته المعبر عنهـا بقرار او مرسوم . ولذا فهو يسحبها منهما ، متى شاء وكيفما شاء . وكلاهما مسؤول امامه عن امور الوظيفة التي يقومان بمهامها ، يؤديان له عنها حساباً ، ويأتمران بأمره وحده دون سواه . هنالك استثناء واحد لا غير على هذه القاعدة العامة الاساسية بدر في مطلع العهد الامبراطوري . وهـــذا الخروج على القاعدة المذكورة يتمثل في منصب افريقيا المشيخي ، وتحت امرة صاحب هذا المنصب فرقـــة رومانية . وهذا الاستثناء الوحيد الذي جرى إلغـــاؤه في عهد كاليغولا ، وانقطع الاخذ به ، واصبح بالتالي ، آمرُ الفرقـــة المذكورة ، خاضعاً رأساً للسيد الاول *Princeps* وتابعـاً له ، بينما حاكم المقاطعة العسكرية يصبح ، بعد انقطاعه عن الولاية المشيخية القديمة ، حاكم ولاية نوميديا الامبراطورية .

فمن نتائج حصر ملء القيادة العليا بصاحب السلطان الاول (الامبراطور) ، أن ُينسب

ولكي يقيم دعائم هذا السلام على أسس وطيدة ، راح اوكتافيوس اوغسطوس يستغل العياء العام الذي تملك الناس بعد ازمة خانقة كانت تخمد منهم الانفاس . إلا ان الافادة من مثل هذا الشعور العابر لم يكن كافياً وحده لتأمين النجاح والاستقرار لهـذا المولود الجديد الذي جاء على يده .

ولكي يوطد عمله هذا ، ويقيمه على أسس ركينة، عهد ، عن سابق قصد وتصميم الى روما ، بمهمة تهذيبية سامية . فالسلام الروماني لم يكن بالطبع غير هذا السلام الذي يصون المدنية التي ظلعت بها روما ، هذه المدنية السامية ، وبعبارة اخرى ، هذه الحضارة المنقطعة النظير ، وراح يضارب بكثير من النجاح والتوفيق ، بما أوتيت من سحر وجاذبية ممثلة بهـذه القوى المادية والروحية التي تشع من كل فجٍ وصوب .

فقد عرفت روما ، قبل وصوله الى الحكم ، ان تتمثل دون ان تكاد تشعر بذلك او حتى تريده ، عدداً من الشعوب البرابرة ، إنما على نطاق ضيق . فقد خطر لقيصر من قبل ، ان وضع خططاً منهجية اوسع وارحب ، قصد بهـا ، ورمى منها الى خدمة روما بالطبع ، وخدمة مصالحه الشخصية في الدرجة الاولى، على شاكلة ما قام به الاسكندر المقدوني، قبل ذلك بقرنين، وبعض الممالك الهلينية التي أطلت من حطام امبراطوريته . وهـذه الخطة التي أورثها قيصر خليفته ، راح هو ، أي اوكتافيوس ، يتدبرها من جديد بحكمة وتؤدة ، في حدود ضيقة وبقوة اقل ، وبسرعة اخف، وبالتالي بصورة أدعى للنجاح واضمن . فقد راح يخفف من سرعة السير، ويباعد بين الخطى والمراحل . وعندما قام بعض خلفائه من بعده ، ولا سيما غاليغولا وكلوديوس يوسّعان : هذا من رقعة الامبراطورية الخاضعة للادارة الرومانية ، وذاك يوزع بسخاء كلي ، الرعوية الرومانية وما تخوله لصاحبها من منافع عريضة وامتيازات ، فقد خرجا على ما كان شرع به اوغسطس وندّا عن الصدد . وقد انفسحت امامها ، والحق يقال ، الامكانات لقطف ثمار الغرس الذي غرس ، والبذور التي بذر . يتحتم علينا ألاّ نأخذ بحرفيـة المصطلح الذي كرّسه الاستعمال، وهو : « مدينة مغلقة » وهو اصطلاح، كثيراً ما استعمل للتعبير عن السياسة التي رمت للتشديد على الصفات التي يجب ان تتوفر في من يُمنحون الرعوية الرومانية . ويقابل هذا، الوضع المعروف : « بالمدينة المفتوحة » للتدليل على السياسة التي انتهجها قيصر وسار عليها خلفاؤه من بعده ، اذ راح يكثر ، حتى في الظروف التي لم تكن تضطره للاكثار من الانصار عن طريق توزيع الرعوية من عدد المواطنين الجدد ، ولكن على نطاق اضيق واصغر ، رافضاً أعطاء الترفيعات القانونية إلا لمن تتوفر لهم الشرائط الثقافية والمناقب الحضارية . وسلك المسلك ذاته مع افريقيا وآسيا ، حيث ابقى ، في حال وجودها ، واعاد الى الوجود ، عندما تسنح له الفرصة المؤاتيـة ، الممالك والدول التي احتلتها جيوشه من قبل ، فجعل منها دولاً توابع له ، بدلاً من ان يتركها ولايات خاصة، رافضاً ضمها وإفراغها في قالب السلطنة إلا بعد ذلك بكثير. وهكذا وفّر لها فترة للانتقال، يتولى خلالها الحكم والادارة امراء عرفوا بولائهم للامبراطورية،

خلفائه من بعده، قام هو الآخر بمثل هذه المسرحية التي اجاد تمثيلها في ٢٧ ك٢ (يناير). وقد يكون قام في عهده او بعده، دسائس وفتن رافقتها محاولات قتل كالفتنة التي وضعت حداً لسخافات كاليغولا ومهاتراته، والتي رمى أصحابها منها الى العودة بالحكم الى النظام الجمهوري. فقد ظل في الامبراطورية أناس غاظهم قيام العهد الجديد، كما بقي في روما خصوم له ألدّاء، راحوا يترصدون الفرص المسعِفة، والظروف المؤاتيـة. أفلَم يضطر اوغسطس نفسه لخنق بعض المؤامرات في المهد! ولكن أنـّى لكل هذه الألاعيب وما اليها من مكايد ودس ان تطرح على بساط البحث، ما تم من هذه المآتي الغر، والانجازات السياسية التي أتاها على مثل هذا النحو من العظمة، وعلى مثل هذا القدر من المجد المؤثـّل، لم تلبث ان استحالت حيالها المقاومة، اسفاً شديداً واعجاباً، كالثناء العاطر لمآتٍ ألهبت الخيال ونالت تقديس الاجيال. فقد قام ابداً، على رأس السلطة « اوّل » لم تبرز ملامحه وتتضح قسماتـه الا بقدر ما اراده طبع هذا « الاول »، وليس القوى المندفعة في خصومته. وعندما قام، لفترة قصيرة، على السلطة، في عهد مارك اوريل، صاحبان ينتسبانها، لم تمسّ ازدواجيةُ الشخصية، مبدأ الأولية، حتى في أحلك عهود الامبراطورية ظلمة، يوم راحت تتخبط في فوضى ماحقة. وهكذا وجـّه اوغسطس الحياة السياسية في روما التوجيه الغـائي الفصل، وراح التطور الذي اخذت سياسة الدولة بأسبابه يُبرز قسمات هـذا النظام الملكي مع اكتماله.

١ ـ الامبراطور

قام على رأس النظام الجديد اوّلٌ او مقدّم *Princeps*، وهو اصطلاح ارادوا به التعبير عن صاحب السلطان الحقيقي، مع ان ليس في صيغة هذه اللفظة واشتقاقها شيء خاص ينم عن هذا او يشير اليه، بل كان للكلمة، على عكس ذلك تماماً، صلة استعمال في النظام الجمهوري. فقـد عرف منذ عهد بعيد، بين نظم الجمهورية ومراتبها، وظيفة معينة يُعرف صاحبها بـ « امير مجلس الشيوخ » كانت ميزته الوحيدة، المبادرة، قبل غيره من اعضاء مجلس الشيوخ، الى ابداء الرأي في امر مطروح على النقاش. وعندما يتنزّى شق القلم عند شيشرون بهذا التعبير، وهو تعبير كثيراً مـا ورد على لسانه، فكلمة *Princeps* عنده، انما تدل على الاولية الادبية في التوجيه المؤثر. فاذا ما ازدادت هـذه الأولية شأناً لصالح الامبراطور، فلم يكن هذا سبباً او علة، بل جاء نتيجة او معلولاً، للسلطات والصلاحيات التي تمتع بممارستها.

١ ـ الحكم

الامبراطور هو القائد الاعلى للجيش

اولى هذه السلطات واخطرها شأناً وأبرزهـا أثراً هي بالطبع السلطة العسكرية، التي آلت اليه قانوناً وشرعاً، ومارسها فعلاً وعملاً. فهي أس او أصل السلطة التي يمنحها الشعب، او بالاحرى، التي تُمنح باسم الشعب، في بدء كل عهد من عهود السلطة، ولمدة السلطة ومدى عهدها. وهذه السلطة (*Imperium*)

واعتنقوا ، قلباً وقالباً ، المثُل الرومانية ، وهو من ورائهم يرشدهم ويبذل لهم النصح في المهمة التي يضطلعون بها ، مهيئاً لهم بذلك ، على مر الزمن ، سبل القبس والتمثيل .

والسلام الذي عرف ان يؤمنه على هذا الشكل ، ويحققه في داخل الامبراطورية وعلى حدودها الخارجية ، عن طريق استمالة الناس لِمُثُل المدنية الرومانية ، شابه شيء من التفاؤل الرخيص . ولكن بعد ان انتهت الحروب الداخلية الى ما انتهت إليه من إقرار السلام، لم يكن أحد ليجهل ان باستطاعة ابناء الوطن الواحد ان يثوروا بعضاً على بعض ، ويتلاحموا بعنف أشد من العنف الذي يقع على البلاد من الأجنبي الغازي . فضرب اوغسطس بهذا الاعتبار عرض الحائط، وراح يدافع عن مذهبه الواقعي ويبحث عن أسباب اخرى وبواعث تزيد النفوس طمأنينة وايماناً .

والنظام السياسي والاداري الذي عرف ان ينشئه أمّن له بالفعل السلطة ، ان لم يكن ليدير بنفسه كل شيء ، فاقله ليشرف على كل شيء ، ولذا كان من خطل الرأي القول بان التشريع الذي استنّ ، كان الحافز اليه شهوة الوصول الى الزعامة الفردية . فمظاهر الاعراض او الترفع الذي بدت عليه ، في اعقاب معركة اكتيوم للإبقاء على هذه الامتيازات اصلاً ، والتوسيع لها فيا بعد ، لا يمكن ان تخدع احداً . ولكن هذه المظاهر الهزلية كانت تخفي وراءها شعوراً صادقاً لا يشوبه اي طمع او طموح شخصي ، اذ انه اعتقد اعتقاداً ثابتاً وطيداً بانه لا بد لروما وللامبراطورية من سيد اعلى . وبالفعل ، فجمعه بين يديه السلطة السياسية والعسكرية ، كان الوسيلة الوحيدة الكفيلة بمنع الويلات والاضرار التي لا بد ان تنزلها بالبلاد ، أطماع الزعماء وجشع المتنافسين على السلطة . ثم ان تنظيمه للجهاز الإداري وإحلاله القانون والعدل في فرض الضرائب ، وجباية الخراج والرسوم – وكلها اصلاحات لا بد منها لوضع حد للابتزازات والاختلاسات التي تبعث على التذمر وتثير الخواطر – كل هذا قضى عليه ان يفرض قبضة قوية، شديدة الوطأة ، لا تراخي فيها ولا تحللا . كان لا بد من امبراطور يفرض نفسه وهيبته على الاحزاب والولايات وقادة الجيش ، ورجال المال واهل الثراء . فلا سلام داخلي الا بهذا الثمن ، وعلى هذا الاساس . وقد استصوب الناس مثل هذا التدبير الحكيم ، بعد الاختبارات المريرة التي مرت بهم وبينوا ما فيه من نفع جزيل لهم .

القوة اساس السلام الداخلي

بعد هذا الذي عرضنا له ، بقي علينا شيء اساسي لا بد من المجاهرة به . فالسلام الروماني الذي نظمه اوغسطس وعرف خلفاؤه من بعده ، ان يصونوه ويحافظوا عليه ، طيلة قرنين كاملين ، لم يكن معنى هذا النوع من السلام الغرّ ، المترهل، المستضعف، « رومانياً » فقد كانه في الصميم ، لان روما نحتت منه القسمات وفرضته ، وقامت تراقبه وتسهر عليه ، ولم تهمل كبيرة او صغيرة حتى يبقى لواؤه مرفرفاً فوق الجميع ، خفاقاً في جميع الارجاء ، مستعدة دوماً لاستعمال القوة لصيانته من عبث العابثين .

الفصل الثاني

الدولة بين النظر والواقع

الثورة السياسية وطابعها النهائي

في مساء ذلك اليوم من عام ٤٢ ق . م ، الذي فيه انتحر قَتَلة يوليوس قيصر بعد الهزائم الشنعاء المتتالية التي لحقت بهم ، كان النظام الجمهوري في روما يلفظ أنفاسه الاخيرة. فالإصطدام الذي وقع في اكتيوم بين اوكتافيوس وبين خصميه انطونيوس وكليوباترا ، كان لا بد ان يؤدي الى ظهور سيّد على روما والعالم الروماني ، اذ لم يكن من المعقول قط ان ينسحب المنتصر ويتوارى متخلياً عما تم له من الامر ، بعد ان قضى على القوى المتمردة ، وعرف كيف يستميل ولاء ما تبقى من جيش منافسه . فالتجرد البشري له حدوده مهما بلغ من بذل الذات . قد يكون اوكتافيوس تلبّس بمظهر الزهد في الحكم ، ورغب عن السلطة فراح يضع ، بعد ثلاث سنوات من موقعة اكتيوم الفاصلة ، خلال الجلسة التي عقدتها ندوة الشيوخ في ١٣ كانون الثاني عام ٢٧ ق . م ، مقاليد السلطة بين يدي « مجلس شيوخ الشعب الروماني » بعد ان آلت كلها الى جماع قبضته . إلا انه عرف كذلك كيف يستجيب ، في اليوم ذاته ، للالتماسات والتوسلات التي انهالت عليه من كل فج وصوب وينزل عند رجاء ورغبات الضارعين اليه بألاّ يتخلى عن الحكم ، بل يرضى منه ببعض الامر . كذلك لم يكن بُدٌّ له ، من الانصياع لقبول لقب : « اوغسطس » هذا الإصطلاح الذي تشدّه الى كلمة « سلطة » *Auctoritas* ، أكثرُ من آصرة اشتقاق وجذر ، بحيث راح خلفاؤه من بعده ، يحملون هذا اللقب الشهرة الذي اصبح رمزاً للسلطة التي تسلموها ونهضوا بأعبائها .

وهكذا فالمظاهر التي تشددوا باحترامها تبدّت مظاهر جمهورية ، وتلبست بالشرعية لينطلي بها الامر على المغفّلين الاغرار السُذّج ، بعد ان اخذ النظام الجديد كل سمات وخصائص الملكية وشاراتها المعلّمة . وقد اخذت سلطات اوغسطس الامبراطور تتسع وتشتد ، وهو بعد في قيد الحياة ، بعد ان رأى ان الظروف العارضة تسمح له بالكشف عن ورقته ، او ان حادث تسلم السلطة جعل من المحتم عليه ان يقبض على الادارة بيد من حديد .

فقد فَعَل الدهر فِعْلته . كان لاوغسطس ، عند انتصاره في معركة اكتيوم ، ٣٢ سنة من العمر ، ومات سنة ١٤ للميلاد ، قبل بضعة اسابيع من بلوغه السابعة والسبعين . وهذه الحياة المديدة النادرة يُقضي معظمها في الحكم وعلى رأس الادارة ، ساعدت النظام الجديد الذي أسسه ، على التوطد والرسوخ ، ومكّنت له الاسباب المستحكِمة ، من الإعراق . قد يكون بعض

كان من الممكن بعد ، ان تهب على البلاد ثورات في الداخل . فالعالم الروماني ، فيه ، هو الآخر ، فريق يعاني الحرمان ، لم تكترث له الحكومة إلا بالقدر الذي يرغمه على احترام القانون والنظام الاجتماعي والتسليمَ بالوضع القائم. ثم ان ما لهذه المدنية من سحر وفتنة يختلف وقعه على الرعايا ، طاقة وقدراً بين الفعل والقوة ، ما يستحسن معه فرض اقل ما يكون من السلبية . ثم إن في استمرار الولايات على تذكر ايام استقلالها ، واستمرار الاهلين على تذكر امجاد السلف ومآتيهم وامجادهم ، كل ذلك يكوّن مرتعاً خصباً للثورات والحركات الانتفاضية . صحيح انه لم يحدث في القرن الاخير من العهد الجمهوري اضطرابات في الولايات اختل لها حبل الامن وتعكر السلام . ولعل اهم حادث من هذا القبيل هو ما حدث في آسيا الصغرى وبلاد اليونان ، في عهد متريدات ، اذ انه غزا البلاد واحتلها ، بعد ان اهاج منها خواطر الاهلين بدعاياته ونداءاته ، وسوّل لهم الانتقاض على الرومان . وباستثناء بعض المناطق الجبلية الصعبة المنال ، والوعرة المسالك ، وبعض القطاعات الجبليـــة في اسبانيا وسردينيا والساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ، أدرك الناس عدم جدوى الانتفاضات التي قاموا بها لزحزحة النير الروماني عنهم ، فاستسلموا صاغرين للمصير الذي انتهوا اليه . وقد اتسعت اطراف الامبراطورية بما ضم اليها من الولايات ، منها غاليا، مثلاً التي تم فتحها قبل نشوب ازمة الحروب الاهلية ، ومنها ايضاً مصر التي دخلت الامبراطورية مقاطعة من مقاطعاتها، عندما كانت جذوة هذه الحروب آخذة في الخمود . فكيف السبيل ، والحالة هذه، الى اطمئنان روما لولاء هذه الاقوام ، بعد ان عانت ، في عهد الجمهورية، الكثير من الحركات الانتفاضية وخروج الولايات عليها ، لعدم اعتصامها بالفطنة والحكمة في تصرفها نحوها ؟

والحل الذي توصلوا اليـــه اخيراً ، لم يكن قط قائماً على إقامة حاميات عسكرية في قلب المقاطعة او الولاية . فاستعيض عن هذا كله بأقل عدد ممكن من شراذم الجند ، وهو امر يبدو لنا غير قابل التصديق. من ذلك ، مثلاً ، فرنسا، هذه البلاد الشاسعة الاطراف ، التي تم فتحها في ايام قيصر ، باستثناء الالزاس واللورين ، فقد كان فيها طابور واحـــد لا يتجاوز عدد افراد رجاله الالف ، يعملون الى جانب سرايا اخرى مخيمة بالقرب من الحدود. والامبراطرة الرومان لم يعرضوا سوى عدد ضئيل من فيالقهم تفادياً لاستمهالها ، اذ انهم كانوا يعوّلون ، بالاحرى ، على الحاميات القوية المرابطة على الحدود ، والتي كان باستطاعتها ان تعود ادراجها الى الوراء ، اذا ما دعت الحاجة الى ذلك .

وبالفعل ، فقـد حدثت بعض حروب داخلية ، بالرغم من التدابير الاحترازية التي اتخذت من قبـل ، منها مثلاً ، الحروب التي نشبت بمناسبة الازمة العسكرية ، التي اندلع لهيبها عام ٦٨ – ٦٩ ، بعـد الميلاد ، ومحاولة اغتصاب السلطة التي قام بها أفيديوس كاسيوس ، في عهد الامبراطور مارك اوريل . فقد وقعت كذلـك انتفاضات في الولايات التي معظم سكانها من الحضر ، إلا انهـا كانت نادرة لم تدم طويلاً . وعندما كانت قوى الامن الموضوعة تحت تصرف

ان تقوم بالدور المترتب عليها . والعالم الذي يخضع للسيطرة الرومانية ، يستطيع ان يستمتع بطمأنينة وامن لا مثيل لهما على الاطلاق ولا كفاء، من الوجهة المادية والادبية . ففي اي قطر أو صقع من الاقطار والاصقاع الخاضعة لهذه السيطرة قد تحدث بعض الأمور: كثورة عسكرية او انتفاضة محلية يقوم بها سكان هذه او تلك من المقاطعات ، او غزوة من قبل البرابرة الغزاة ، او منافسة بين الزعماء الذين يطمحون الى السلطة العليا . الا انها تبقى احداثاً محلية ، فردية ، استثنائية ، لا غير .

ولكن هذا « السلام الروماني » لم يحمل الى المدنية الرومانية في عهد الامبراطورية الاول ، الخير العميم فحسب ، القائم في تجنيبه البلاد ويلات الحروب ، بل ايضاً ساعد كثيراً على تطويرها من حيث المفهوم العام والمناهج المرسومة لسيرها . وبذلك تسبب في بقاء ما نرى من معالم النظام الاجتماعي ليتلاءم وحاجات الطبقات الهانئة وليزيد من سحر واغراء بعض المنافع والخدمات التي من شأنها اجتذاب الناس نحو المثل الرومانية ، ويساعد على الأخص في جعل التطورات التي تمر بها تؤول لتحسين مناطق الحدود فتبعث فيها الحركة والنشاط عن طريق تشجيع الانتاج ، وتنشيط مرافق التجارة فيها ، وبناء الطرق والمدن ، وتثبيت السكان في المدن والارياف ، ومد الجيش بالعناصر البشرية المخشوشنة الطباع والمعروفة بروح المغامرة والتي يمكن ان تتحول الى عناصر شغب وقلق وإزعاج. فاذا بهذه العناصر التي خضعت للانضباط الروماني، وتأثرت به ، وعاشت في ظله ، وتخلقت بالتالي بالاخلاق الرومانية ، وتطبعت بطباع الرومان ، واخذت أعرافهم ، وتبنّت لغتهم ولسانهم ، تباهي وتفخر بما تم لها من صيرورة ومصير ، وبما عادت عليها خدمتها الطويلة في الجيش ، من وضع جعلها على قدم المساواة مع الرومان انفسهم .

فالجيش الروماني بالمفهوم الذي عرضنا له ، وبالعمل الذي حققه في القرنين الاول والثاني للميلاد، هو اداة طيّعة، فعالة لروْمنة وليّتنة هذا القسم الواقع على اطراف العالم الروماني.

الادارات المحلية عاجزة عن اعادة الامن الى نصابه بعد ان تكون الطبقات الاجتماعية مماثلة للحركة الانتفاضية في البلاد، تتولى ، اذ ذاك ، الجيوش المرابطة على الحدود ، مهمة إخماد الفتنة وتتولى الامر بأهون السبل . وعندما راحت الامبراطورية تخمد الثورة التي نشبت ، عام ٦٩ – ٧٠ في الجهة الشمالية الشرقية من غاليا ، او تحاول إخماد « الحرب اليهودية » التي نشبت في اول عهد الاسرة الفلافية في عهد الامبراطور هدريانوس ، لم تضطر للاستنجاد بقواتها كلها لاعادة الأمور الى مجراها الطبيعي . اما البلاد التي اهلها من البدو الرحل، او صعبة المرتقى لطبيعتها الجبلية فالمهمة فيها كانت اشق واصعب ، لأنها كانت تتجدد كل يوم ، فيقتضي ذلك الاكثار من الوحدات الخفيفة التي تتحرك بسرعة ، من مراكز للمراقبة ، للوصول بعد طول جهد وعناء ، لنتائج تكاد لا تذكر .

القوة الخارجية

فاذا كان السلام لم يتوفر ، على أكمله ، في داخل البلاد فهو لم يستتب ابداً ، مع الخارج . انتصب في قلب روما ، على مقربة من الفوروم (الساحة العامة) هيكل على اسم الإله جانوس ، عُرف باسم جانوس كويرينوس ، كانت ابوابه تبقى دوماً مفتوحة على مصراعيها طالما كانت الامبراطورية ، رسمياً ، في حروب مع الخارج . ولعل آخر مرة أُغلقت فيها ابواب هذا الهيكل ، كانت سنة ٢٣٥ ق . م . اما في عهد اوغسطس الذي جعل من السلام قضيته الكبرى ، واناط بها شهرته في الخارج ، فقد أُقفلت ابواب هذا الهيكل ، ثلاث مرات لا غير ، إلا انها لم تكن لتلبث ان تُفتح من جديد ، مع العلم انها كانت مفتوحة عندما حانت ساعته الاخيرة. وبعد وفاته ، أُقفلت ابواب الهيكل مرات معدودات، لم يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة ، حتى مطلع القرن الرابع للميلاد .

فالامبراطورية الرومانية نهضت ، والحالة هذه ، بأعباء حروب عدة متنوعة الاهداف والاتجاهات ، قلّ ان تكون دفاعية ، بالمعنى الحصري ، اي مبعثها تعديات من الخارج . وأهم هذه الحروب هي التي وقعت في عهد الامبراطور مارك اوريل، في منتصف القرن الثاني للميلاد، عندما تجاوبت حدود الامبراطورية ، في الشمال بتحركات الشعوب التي تململ بها عالم البرارة في الشمال والشمال الشرقي من اوروبا ، وتمخض بها ليطلع منها ، في ما بعد ، بتلك الغزوات التي انهالت على العالم الروماني . .وهذه الحروب ، كانت الغاية منها في الغالب الفتح وتلبست وجوهاً متعددة .

قام بعض هذه الحروب بدافع السيطرة وبسط رقعة الامبراطورية رغبة بضم مقاطعات طمعاً بخيراتها الوافرة . فقد رغب الامبراطور كلوديوس بمناجم بريطانيا ، فأرسل الفيالق الرومانية تحتلها . كذلك طمع الامبراطور ترايانوس بمناجم داسيا ، فيمم شطرها وعبر اليها ، مجتازاً نهر الدانوب . وهكذا كانت الاسباب الاقتصادية الباعث الاقوى لهذه الحروب ، يقوم بها ترايانوس في الشرق : فيحتل شبه جزيرة سيناء وما وراء الاردن، وأنشأ منها ولاية رومانية

توفير المهات والمؤن اللازمة له ، كما ان حركة الاسكان تسهل لها امر المتطوعة ، مادة الجيش وذخره ، اذ يجدونهم على مقربة من المعسكرات . ولا يمضي كبير وقت حتى ينضم الى هذه المجتمعات البشرية ، المحاربون الذين يسرحون من الجيش بعد انتهاء خدمتهم او انتهاء الحرب ، فتُقطعهم الدولة من املاكها الاميرية اراضي ينصرفون لإحيائها واستثارها . وهكذا يتألف منهم ومن ذراريهم رديف يستعين به الجيش عند الملمات ، لقربه من مراكز الدفاع اولاً ، ولسهولة الاعتماد عليه والاستعانة به ثانياً . ولكن كل معالم هذا التطور الذي يأخذ الجندي الروماني بأسبابه لا يلبث ان يترك اثره الظاهر في كفاءة هذا الجندي ، وخلخلة مؤهلاته من الوجهتين العسكرية والحربية .

على ضوء الموازنة

وهكذا لا تعتم مناطق الحدود ان تتحول الى عالم خاص قائم بذاته ، عليه ان يؤلف وحدة بل ينصهر في هذا العالم الروماني الذي أنيط به الدفاع عنه والسهر على أمنه وسلامته، بعد ان أمّن له هذا العالم الموارد اللازمة لأوده وعيشه . فاذا ما استمر يتلقى من روما : حكامه وولاته ، ونظامه والأوامر التي عليه ان يتقيد بهـا ، فالجانب الأكبر من رجاله ومن توريداته ، يَرِدُ عليه من المؤخرة ، التي تتقلص رقعتها رويداً وتنكمش . وهذا الجيش الذي يرابط عند الخط الدائري للامبراطورية ، لا يلبث ان يتطبع بطابع السكان العائشين على مقربة منه ويتخلق بإخلاقهم ، وهو طابع يتبدى ، ليس في ما يقوم من فوارق بين الجندي المحترف والمدني المعمر فحسب ، بل ايضاً في ما هو أدهى من هذا بكثير ، في هذا الجهل او نصف الجهل الذي يباعد بين المؤخرة ، اي داخل البلاد ، وبين منطقة الحدود . وعندما تنقل الأزمات الحادة الطارئة الحرب الى داخل البلاد ، الى المؤخرة ، سواءاً اكانت حرباً اهلية او غزواً خارجياً ، يشعر السكان بصدمة عنيفة ، وبشيء من الهلع عندما تتبدى لهم حقيقة الجيش الروماني وواقعه .

ومع ذلك فمنطقة الحدود تلعب اكثر من دور بارز. فهي تقوم ، بدء ذي بدء ، بدور الدرع الواقي والترس الدافع . فقد رأينا المتاعب التي عانت منها ادارة الجيش في وضع خططهـا الستراتيجية وتنفيذها . ومن جهة اخرى ، فمشاهد الحياة العسكرية التي يحدثنا عنها المؤرخون في ما بعد ، تزيد هي الاخرى ، من حدة هذه المتاعب والصعوبات في وجـه الجيش وتضطره للمرابطة على الحدود للاقتباس ، في حياته اليومية العادية مما يراه او ينتصب امـامه في بيئته المادية والبشرية ، فتضعف منه القوة على الحركة والخفة في التنقل. وعندما يحوّل البرابرة الغزاة بضغطهم المتزايد ، طبيعة القتال ، من حرب حركات والتفاف الى حرب دفـاع عن المواقع العسكرية، يذهب ضغطهم هذا بكل العراقيل ويجبر الامبراطورية على ادخال تعديلات اساسية على النظم المتبعة لديهـا في تعبئة جيشها وتنظيمه . غير ان الحاجة لهذه التغييرات لم تكن استبدت بعد ، في القرن الثاني ، ولا يزال في مقدور القوات ، بالشكل الذي ارتضته لها روما ،

جديدة ، عرفت « بالولاية العربية » ، كما راح يحاول تقليم اظافر الفارتيين ويستخلص من ايديهم بلاد ما بين النهرين وبابل ، مسهلاً بذلك التجارة مع بلدان الشرق الأقصى فيرهقها الفارتيون بفرض رسوم باهظة .

وهنالك حروب اخرى قامت بها الامبراطورية لتوسيع رقعتها في الظاهر ، بينما الغاية التي رمت اليها كانت بالفعل تنظيم وسائل الدفاع عن الامبراطورية، على نطاق اقليمي او موضعي ضد خطر قائم ، او محتمل الوقوع . فكانت هذه الحروب تشنها الدولة الرومانية ، دروساً بليغة لجيرانها المشاغبين من جهة ،ومن جهة اخرى تقوية لشبكة دفاعها على الحدود، وذلك بانشائها سلسلة حصون وقلاع تقيها هجماتهم ، او لاحتلال مراكز ستراتيجية جديدة اكثر ملاءمة من القديمة فتوفر بذلك عليها بعض الفرق ، عن طريق حذف نتوءات بارزة او اختصار خط الدفاع الأمامي . فالحروب التي خاضتها الامبراطورية في جرمانيا ، وهي حروب ليس هنا مجال التبسط بها ، تعد خير دليل وشاهد على هذه الستراتيجية الهجومية التي كانت في صميمها ، دفاعية محض ، اذ كانت غاية خطة اوغسطس من الحملة التي عهد بها الى قائده فاروس ، والتي فشلت ايما فشل ، التقدم حتى نهر الإيلب *Elbe* ،فيتم له بذلك ربط البحر الشمالي بنهر الدانوب، عن اخصر الطرق واقومها ، وهو خط الحدود الذي انشأه قيصر . ومن هذه الحروب التي شنها الرومان تحقيقاً لستراتيجيتهم المرسومة ، المعركة المعروفة بحقول الديكومات *Champs Décumates* (راجع الشكل ٨ ص٢٨٣)وهي الأراضي الواقعة تحت سيطرة الرومان بين الغابة السوداء وسلسلة جبال الجورا الصوابية ، وكانوا اقاموا حولها شبكة من القلاع والحصون المنيعة .

لم تؤثر هذه الحروب جدياً على امن البلاد في الداخل، ولم تتضرس بها سوى الولايات الجانبية . فاذا ما اصاب ايطاليا منها بعض الرذاذ ، في عهد الامبراطور مارك اوريل ، فقد اقتصر الضرر على الولايات الشمالية دون سواها ، على اثر اختراق خط الدانوب. وقلما حدث ، باستثناء الحقبة التالية ، حروب تناولت عدة جبهات معاً في وقت واحد ، وهي حروب لم تؤلف ، على ما يظهر ، عبئاً ثقيلاً للامبراطورية . والثابت انها تكاثرت وتواترت ، فاقتضاها النهوض بها جهداً موصولاً ويقظة مستمرة . عرفت روما مصير كل الامبراطوريات الضخمة التي اعتبرت قوتها مصدراً لحقوقها ، هذه الحقوق التي تلزمها ايضاً بواجبات لا محيد عنها . غير ان روما لم تكن في عداد هذه الامبراطوريات التي ارتضت مثل هذا المصير، بل على عكس ذلك ، كانت بالاحرى ممن تتحكم به .

فالحقوق والواجبات هي من صميم رسالتها . فاسمع ما يقوله فرجيل بهذا الصدد : « تذكر جيداً ايها الروماني ان عليك ان تحكم الشعوب، هذه هي فنونك الجميلة: ان تتعرف الى حقوقك وان تنهض بواجباتك . فليس بينهما ما يصدم المثل الرومانية التي أتقنت على السواء،القوة والاخلاق الحربية ، والتي تنسجم على لامثل ما يكون مع المثل الامبراطورية التي لم تكن غير مثل دولة عسكرية .

جهة اخرى ، على النهوض بمشاريع عمرانية لها ادارتها ودوائرها الخاصة ضمن الجيش .

ولكن هـذا الوضع بالذات لم يكن ليخلو من محاذير تلحق بالجندي فتترك اثرها في قدرته الحربية وكفاءته العسكرية . فالأخذ بأسباب المدنية والسير قدماً في معارج التطور ، كان لا بد من ان يترك اثره بارزاً في نفس الجندي ، مهما بلغ من حرص الامبراطرة للحد من فعل هذا التطور . فبين الانشاءات التي اقامها الجيش في معسكراته ومخيماته لتأمين راحة الجندي والترفيه عنه ، والتي تتوفر فيها ، على اقدار وانصبة مختلفة اسباب الطمأنينة ، أين يقع منها النافع اللازم ، وأين يبتدىء الكمالي الزائد ؟ ولذا راح بعض الغيُر من المتشددين على الاخلاق يتهمون هـذه الانشاءات بتمييع وتخنيث من يجب ان يتحلوا بالقوة والشدة والبأس لمواجهة شظف العيش ، وقسوة الحيـاة العسكرية ، وإحن الحرب ومشقاتهـا . وبعد ، فامتداد الخدمة العسكرية واستمرارها مدة طويلة ، أمر لم يكن ليخلو من المحاذير . فبعد ان كانت مدة الخدمـة ١٦سنة للجنود النظاميين ، و ٢٠ سنة للعاملين في الفرق الاضافيـة الأخرى ، و ٢٥ سنة لجند القناصة وغيرهم مـن افراد القوات السيارة ، نرى هـذه المدة تخفّض ٤ سنوات ، في عهد اوغسطس وتخفض لفترات أقصر ايضاً ، في عهد طيباريوس . وكثيراً ما كانت مدة الخدمة العسكرية الفعلية تمتد وتطول اكثر من ذلك بكثير ، إذ ان التسريح من الجيش والصرف من الخدمة ، لا يتمان إلا بأمر رسمي ، قد يتأخر صدوره سنة وربما سنتين . وقد يمضي بعضهم في الخدمة ٣٠سنة وربما اكثر من هذا ، عند تجديدهم لمدة تطوعهم في خدمة العَـلم . ويروي أحد المؤرخين حادثة جندي قضى في الخدمة العسكرية ٤٠ سنة . ومردّ ذلك ، على ما نعتقد ، للصعوبات المالية التي كان يتخبط فيها بيت المال ، فيعجز عن مواجهة ما يترتب عليه من التزامـات نقدية وعَيْنيّة لمن يجري تسريحهم من الجيش . ثم ، فالنظـام العسكري الذي كان ساري المفعول ، إذ ذاك ، كان يحظر على الجندي ، عقد زواج شرعي ، كما ان إقامة هذا الجندي مدة طويلة في المعسكر أو المخيم كان مشجعاً له على التسرّي الخفي . وقد انتشرت العادة وعم استعمالها بعد ان قـام على مقربة من انشاءات الجيش ومخيماته ، مبانٍ مدنية عمّرها المتّجرون مع الجيش والمتعاملون معه ، ومعظمهم من اوساط مشبوهة ، دخل عليهم فيما بعد ، وحلّ بينهم عناصر أقـل شبهة . وعلى كرّ الايام ومر السنين ، زادت هذه الانشاءات المدنيـة الى ان أصبحت مدناً وحواضر ذات شأن . من ذلك مثلاً ، مدينة ستراسبورغ ، ومايانس وبون ، وهي مدن نشأت على مقربة من معسكرات الفرق الرومانية الثلاث التي كانت ترابط على خط الرين . وهكذا لم تلبث ان تجـد اسرة الجندي ، وهي قريبة من ربها ومعيلها ، التسهيلات المادية اللازمة لها . وتغضّ القيادة النظر عن المخالفة في بادىء الأمر ، ثم لا تعتم أن تعترف بالأمر الواقـع وتقره ، لمـا يوفره لها من منافع ولما يجنبها من مصاعب . وعلى هذه الصورة ، تم تحضير البلاد وتمدينها ، وأخذت الاقوام المتخلفة من سكانها بأسباب التمدين والتخلص تدريجيـاً من التأخر الذي كان عليه البرابرة ، فيروح الناس يعمرون الارض ويزرعونها ، فيسهل بالتالي ، على ادارة الجيش ،

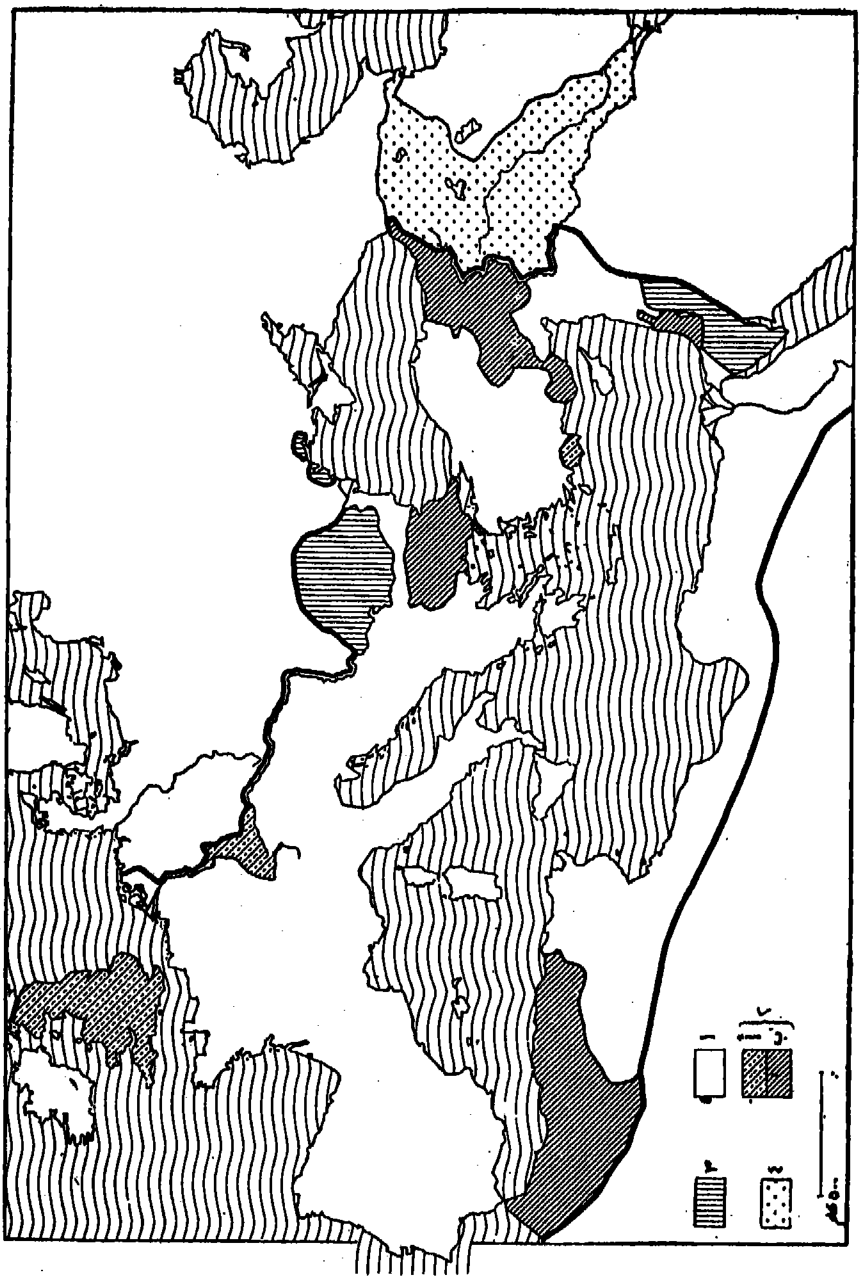

الشكل ٧ – الامبراطورية الرومانية في آخر الدولة الانطونية داخل الحدود .

١ - الامبراطورية عند وفاة أوغسطس ؛ ٢ - ١ - الفتوح الرومانية من أوغسطس الى ترايانوس ؛ ٢-٢- الدول التوابع عند وفاة اوغسطس والتي تم ضمها الى الامبراطورية فيما بعد ، خلال القرن الاول ؛ ٣ - فتوح ترايانوس ؛ ٤ - الولايات التي ألحقها ترايانوس بالامبراطورية ثم عادت فانفصلت عنها بعد وفاته .

عرف الجندي الروماني ان يحافظ ، من الوجهة الحربية ، على ما اشتهر به من كفاءة ومقدرة عسكرية . فالجندي ابن مهنــة وان شئت ، فقل ابن سلك . فهو اختصاصي ، احترف مهنة الحرب . وبالرغم من انه روماني التبعة والرعوية بالتبني ، وروماني التبعـــة لأمد يقصر او يطول ، فهو فخور بهـذا الشرف الذي أُوتيه بانخراطه في الجيش ، وشرف موروث له وقعه في النفوس . تهتز نفسه وتطرب لبريق الأوسمة التي تزين صدره ، على قلة ما سخوا بها في القرن الاول ، ثم راحوا يبخلون في توزيعها ، في القرن الثـــاني حتى بلغوا فيه حدود التقتير ، ناهيك عما كانت توفره للجندي من منافع مادية وادبية اخرى. فالراتب كان يزداد ويرتفع حتى في هذا العهد الذي استقر فيـــه النقد ، كعهدي اوغسطس وفسبسيانوس،ولم ترتفع قيمته إلا في اواخر الدولة الانطونية *Les Antonins*. والجندي الروماني حسن العدة والعتاد والذخيرة ، تؤمنها له مصلحة التوريدات في الجيش ، وهو ينعم كذلك بالتسهيلات والمنافع التي تؤمنها له مصالح الجيش الفنية والهندسية . ولذا فهو يُقبل على الخدمة راضياً مرضياً ، وقـد اتقن المهنة بعد ان تفقـّه بأمورها واسرارها مدة طويلة ، يقبل بنشاط وحماسة على المناورات وينقطع اليها بكليته ، لا سيا في عهود بعض الامبراطرة ، كعهد الامبراطور هدريانوس مثلاً . فالامبراطور خبـــير بأمور الجيش يكثر، من دورات التفتيش ويتشدد بأعمال المراقبـة ، كما يشهد بذلك الامر اليومي الذي اصدره في ناحية لمبيز (الجزائر) *Lambèse* ووجهه الى جميع مفارز الفرقة الافريقية وما اليها من كراديس وأجنحة تعمل معاً في حروب المناوشات .

وهنالك مهام واعمال اخرى غير التي ذكرنا ، تملأ ايام الجندي في اوقات الخدمة ، كالتمارين التي يقوم بها ، وحراسة القلاع والحصون ، واعمال الدوريات بـــين مخفر وآخر . ولكي يجنبوا الجندي اوقات الفراغ ، تفرض عليه القيادة القيام ببعض الاعمال التي لها اتصال بالمنفعة العامة ، كاصلاح مناطق الحدود وتهيئتها ، وشق الطرقات وتعبيدها ، وبنـــاء الجسور والعبّارات ، وتشييد الاسوار حول مواقع الدفاع وتحصينها ، وبنـــاء المساكن الخاصة بالادارة ، والمعابد والمسارح والحمامات ، والقناطر لإسالة المياه ، وإيصالها للمعسكرات ، وغير ذلك من المرات . هنالك عدد من وحدات الجيش لها مقالع خاصة لاستخراج حجارة البنـــاء ، ومعامل لصنع القرميد والطوب ، كما يوجـد ، تحت تصرفها ، الاحراج والغابات والمناجم ، حيث تعمل فرق مختلطة من الجيش والعمال تحت اشراف ضابطصف،واعمال التعمير والبناء وما تقتضيه من اعمال صيانة وحراسة ومحافظة، اعمال اتقنت الاخذ بها وحدات الجيش في العهد الجمهوري ، ورسخت اصولها ، وتوطدت اساليبها ، في العهد الامبراطوري ، مع قيام الجيش واستقرار نظمه ، وقيام معسكراته ومخياته وحامياته بتعمير المقاطعات المتأخرة عن سواها في رقعـــة الامبراطورية وتجهيزها بالانشاءات اللازمة . غير ان الرغبة في التوفير والاقتصاد ، من جهة ، والحاجة الملحة للملاكات الفنية والتقنية في المقاطعات النائية عن مراكز الحضارة ، كل ذلك حمل الجيش ، مـــن

وهكذا ، مهما بدا هـــذا السلام ناقصاً ، مهدداً ، او دوماً في وضع المهدد ، فقد كان « رومانياً » وأوغسطياً ، له وقعه في النفوس واحترامه في القلوب ، ابداً على استعداد لامتشاق الحسام لزرع الخوف وفرض الاحترام ، وهي سياسة لم يكن في مقدوره انتهاج غيرهـــا : فقد كان في اتم سعوده : سلاماً مدججاً .

قصور الحلول العسكرية الجديدة

لنُلق منذ الآن نظرة متملية على الجيش الامبراطوري ، قوام السلام الروماني وأداته الطيّعة ، والتُكأة التي قامت عليهـــا المدنية الرومانية خلال هذين القرنين .

مجرّد تشكيل هذا الجيش لم يكن من الامور البسيطة ، ولا من المهـــام اليسيرة ، يراعى العمل به وفقاً لمقتضيات الوضع القائم . فامتداد رقعة الامبراطورية ، وتباين اقوامهـا : عروقاً وأجناساً واجيالاً ، وامتداد اطرافها ، وقيام شعوب وقبائل مزعجة ، مشوشة بجوارها ، كل هذا وما اليه ، اقتضى حلولاً جديدة . من الامور التي ميزت النظـــام الامبراطوري وأبرزته بوضوح عن العهد الجمهوري الراحل ، قيام جيش دائم لم يتوقف انشاؤه ووجوده عـــلى ظرف طارىء وحادث معين ــ هو حالة الحرب المستمرة ــ كما كان عليـــه الوضع الراهن في العهد الجمهوري . فكيان هـــذا الجيش وقوامه ، انبثقا من صميم النظم الجديدة التي طلعت على الامبراطورية . ولم يخْلُ قيـــام الجيش وبقاؤه من مشكلات عديدة ، معقدة ، لم يتوصلوا الى حل بعضها إلا بتسوية واهية من التوازن المتأرجح .

وهذه الفيالق ، كيف السبيل الى تكتيبها وتعبئتهـــا ؟ وانّى يجب ان ترابط وتقوم ؟ لم يكن من المستطاع الرجوع القهقرى الى الوراء ، الى نظام الخدمة العسكرية الإلزامية العامة التي انتسخ الأخذ بها ، منذ عهد ماريوس ، فكان الرجوع اليهـــا في الحروب الداخلية تدبيراً تعسفياً طالما تذمر منه الناس وتململوا. قد يرضون عن مثل هذا التدبير عندمـــا تتعرض البلاد لاخطار داهية ، دهماء ، توردها الهلكة. ولذا أبقوا عليها من حيث المبدأ ، ولم تطبق الا في الحـــالات القصوى النادرة جداً. ولم يكن في طاقة احد، ولا في مقدور اي انسان كان ، ان يفرض على الناس اجمع، تحت اي سماء عاشوا ، وفي اي مكان حلوا من هذا العالم المتمدين، او كانو في اقاصي اطراف الامبراطورية، حيث تمر الحياة رتيبة ، كئيبة ، ليس ما يميزها في هذه الحصون النائية، حياة تفرغ على نغم واحد في المراكز والقلاع الامامية ، والمناورات الحربية والاشغال اليدوية الاجبارية. ولهذه الاسباب مجتمعة، كان لا بد من جيش محترف ، تضرّس افراده بالانتظـــار الممل ، وألفوا مواجهـة المخاطر والطوارىء . وجيش على هذا النحو لا يمكن ان يقوم الا على متطوعة يقبلون ، طوعاً واختياراً، على الخدمة العسكرية ويتدربون على فنون الحرب والجهاد ويشبون على المهنة ، ويتمرسون بها طويلاً من خلال مزاولة يومية ، وتمارين مستمرة .

وهذا الوجوب ، اقتضى بالطبع ، وجوباً آخر : إلزام بإلزام . فقد كان من المحال اجتذاب

عقب وفاة الامبراطور انطونين ، على تقوية دفاعه ومضاعفة مناعته . ودخل ضمن هـــذا الخط المنطقة المعروفة عندهم بحقول ديكومات *Champs Décumates* ، الممتدة ٥٠٠ كيلومتراً ، بينها ٨٠ كيلومتراً في خط مستقيم ، ثم يبتعد عن نهر الرين على مساواة مدينـــة « بون » ليعود فيدخل بالدانوب ، على ارتفاع مدينة راتسبون . وكأن بهذا الخط الذي شابه سور الصين فبعث الرهبة في النفوس ، شيئاً خارق الطبيعة .

وهنالك مثال آخر لهذه الحدود الحصينة ، انما على نسبة اقل ، من الضخامة والعظمة ، كان مع ذلك ، لا بد من ارادة جبارة وجهد طائل لاقامته وتشييده ، هو هـــذا الخط الذي يقوم الى الشرق من سوريا ، في خط ينحدر جنوباً حتى القارة الافريقية مواجهاً الصحراء. ويتخلل هذا الخط : خنادق ومنحدرات وحصون وقلاع هي ادنى شأناً واهمية من التحصينات الواقعة على الخط الاول . ويستمد هذا الخط قوته ومناعته الاولى من سيطرته على موارد المياه والتحكم بها بواسطة شبكة محكمة من الاستحكامات وما فيها من حصون وقلاع ، يتخللها عدد من الآبار التي تم حفرها واعدادها في المناطق المجدبـــة ، وشبكة جيدة للري وسقاية الأرض ، في منطقة تصلح للزراعة ، يتعاون فيها سكان المزارع والقرى مع افراد الجيش على استثمارها واستغلالها ، وعلى رد غزوات البدو عنها .

وعلى كلا الخطين ، اردف هذه الاعدادات العسكرية والتحصينات الحربية ، شبكة ممتازة من الطرقات الجيدة وما اليها من تفرعات وتشعبات ، تصل مراكز الدفـــاع والحصون بعضها ببعض ، كما تؤمن اتصالهـا بمؤخرة البلاد ، حيث تقوم عـــادة مخيمات الجيش الرئيسية ، اذ لا بد من تأمين وصول الامدادات العسكرية والمؤن اللازمـــة للمرابطين على الحدود والمدافعين عنها .

والبحث العلمي عن معالم هذه الحدود الحصينة لم يجر بعد بصورة دقيقة مرضية ، إلا في بعض الأماكن منها ، كالمانيا وبريطانيا . ثم جاء التصوير الطوبوغرافي من الجو يؤازر هـذه الكشوف العلمية ويصححها ويبرزها للنظر . ومهما كانت النتائج الأخيرة التي ستؤول اليهـــا الحفريات الأثرية عن معالم هذه الحدود الحصينة في مناطق اخرى ، ومهما بلغ من دقتها في المستقبل الطالع ، فلن تبطل او تخلخل النتائج الأكيدة التي توصل اليها العلم حتى الآن . فاننا وجدنا معـــالم بعض الحصون التي قامت في مراكز واماكن معزولة ، وفي قطاعـات بعض الطرق القديمة ، امكننا ان نجزم ، بكل تأكيد ، اننا امام مخيمات لبعض وحدات الجيش الروماني . ففي كل تخم من تخوم الامبراطورية الرومانية ، تبرز بصورة واضحة جلية ، معالم هذا الجهد الطائل الذي بذله المهندسون العسكريون العاملون في خدمة روما وخدمة جيشها ، ليؤمنوا للامبراطورية جمعاء ، ومـــا اليها من ولايات دخلت تحت سيطرتها واشرافها ، اكثر مـــا ترغب فيه من الأمن والطمأنينة والسلام .

مثل هـذه الحشود من المتطوعة ، وعلى القدر الكافي وبالعدد الوافي ، بمثل هذه التعلاّت التافهة التي لوحت بها الجمهورية السالفة . فالولايات التي تعسكر فيها الكتائب الرومانية باستمرار ، كان لا بد من بقائهـا وحفظها سليمة ، فلا تتعرض ، بتشجيع من المسؤولين او بتغاضيهم ، لأعمال الابتزاز والاعتصار . فالحروب لم تعد مورد رزق ورجعة رابحة ، لندرتها من جهة ، ولوقوعها، في أكثر الاحيان ، في بلاد غير ذي خصب ولا عطاء، من جهة اخرى. والتطوع في الجيش يجب ان يُقبِل عليه النـاس لما في السلك من غنم وارباح : كالمرتبات والجرايات، والمكافآت العينية او النقدية التي يصار الى توزيعها في بعض المناسبات، وتعويضات سخية تعطى لهم لدى التسريح من الجيش ، او الترفيع الى مرتبة اجتماعية او قضائية اعلى . كل هذه مسوّغات ومغريات كانت تتبلور بالفعل ، عن نفقات ومصارفات ترزح كاهل الدولة الى جانب ما كانت تُرزح به الخزينة في هذه الدولة ، من اعباء ومسؤوليات يقتضيها تأمين وسائل العيش لأفراد الجند ومدّهم بمـا يلزم من عدة الحرب والسلاح .

ولذا كان لا بد من الاستعانة بمادة بشرية استخدامها يكلف الدولة اقل بكثير من الاستعانة بالعناصر البشرية المتباينة العروق والاجناس التي تألف منها مجموع سكان روما ، الذين اصبحوا ، مع الزمان ، وبفضل المآتي التي حققها السلف الصالح ، الطبقة الارستوقراطية في المدينة بحيث انها اخذت تمج الحياة العسكرية ، وتكره ما فيها من مضايقات ، لا يرضون بتحملها مها لحقهم من منافع وامتيازات في حال قبولهم بالتجنيد . ولهـــذه الاسباب راحت الامبراطورية تدعو للخدمة في جيشها ، سيراً منها مع التقاليد التي تمشت عليها الجمهورية من قبـل ، لتأمين سلامتها وصيانة أمنها ، ليس رعايا احدث عهداً بهذه الرعوية فحسب ، بل ايضاً فرقاء ، دونهم وضعاً اجتماعياً ، تختارهم من بين سكان الولايات ومن بين الاجانب ، فألفوا معاً نصف الجيش المحترف تقريباً . فقـد أغراهم العمل والخدمة في جيش روما الفاتح اغراءاً تجاوز في نظرهم الربح المادي الذي طمعوا في الحصول عليه ومنـّوا النفس به. وهذا ابرز واوقع ما تميزت به المدنية الرومانية من قوة الجذب والاغراء. فبعد ان نشأت السلطنة الرومانية على سواعد حلفائها ودماء رعاياها، اذ بنا نرى روما اليوم ، تتوجه اليهم ، مرة اخرى ، في مهمة الحفاظ على هـــذه الامبراطورية والذود عنها .

فالقضية العسكرية ألـّفت ، الى جانب المادة البشرية التي هي عماد الجيش ، مشكلة مادية لا تقل حدةً عن الاولى . فمنذ عهد اوغسطس ، كان على المواطنين الرومان المعفين من الخدمة العسكرية ، ضريبة بَدَل خدمة، مقدارها واحد في العشرين من اصل التركات المورّثة ، لتغذي صندوق الجيش وتعويضات الصرف من الخدمة . ومهما بلغ مـن غنى الامبراطورية اذ ذاك ، وضخامة فيئها ، فقد كان عليها ان تواجه ، الى جنب الاعباء المالية المترتبة على حشد مثل هذه الحشود الضخمة من الجند ، النقص البشري الذي كانت تعاني منه ، أكـثر من اهتمامها بعجز خزينتها ، اذ كانت تنوي جمع هذه المبالغ من رعاياها ، دون سواهم . وقد لاقت في هذا السبيل

فالجيش الامبراطوري قام ليتدبر وضع الامبراطورية العـادي ، وليؤمن استمراره النظيم وسيره الرتيب ، لا ليعالج ازمات عارضة ، طارئة ، لا سيا ما كان لها صفة الشمول والاتساع . فهو لا يوحي في النفس ، ولا يدخل في الروع سوى طمأنينة زمنية ، آنية ، واهية . فاذا ما نعمت البلاد بشيء من هذا في القرن الثاني ، فبفضل الهدوء النسبي الذي سمحت لها بـه الشعوب المجاورة لهـا ، وليس بفضل تفوق الامبراطورية العسكري او الحربي . فاذا كان من الصعب على قادتها، او كانوا عاجزين عن ان يتصوروا الاخطار التي ستتعرض لها الامبراطورية في المستقبل الطالع ، فمـا فات أكثرهم فطنة وبصيرة ، ان يستشعروا ما هم عليه من وضع لا يوحي قط بالطمأنينة . فالحرص الذي تجلى عند الامبراطرة بالاقتصاد بقواتهم عن طريق اختصار الحدود وإزالة النواتىء ، او عن طريق إقامة الحصون والقلاع الدفاعية على طول خط هذه الحدود، هو الدليل بعينه على انهم لم يكونوا ليغفلوا او ليتجاهلوا، ما هو عليه الوضع من وهن كما ان في هذا ، البرهان على رغبتهم الصادقة في معالجة هذا الوضع وتدبر الامور بشكل يبعث الطمأنينة وتأنس له الخواطر .

الاشراف على الحدود وتنظيمها

ولكي تبقي الامبراطورية ولاياتها الواقعة على الحدود البرانيـة بمعزل عن هجمات البرابرة وتهديداتهم ، راحت تحـاول جهدها ، لتيسير المهمة الموكول الى الوحدات العسكرية تنفيذها ، وهي مهمة عسيرة ، شاقة تقوم بمراقبة الحدود والصمود في الدفاع عنهـا ، عند حدوث ما يهددها . وتحقيقاً لهذه الغـاية ، أخذت الامبراطورية ، في بادىء الأمر ، تقيم الحاميات ، على طول شواطىء الانهر الكبيرة ، القائمة على هذه الحدود او على مقربة منها ، كالفرات في جزء من مجراه ، والدانوب ، والرين ، ان تعذّر اقامتها امام نهر الإيلب . ولكن طمأنينة تقوم على الجيش وحده لم تكن لتكفي او ليقنع بهـا أحد . ولذا اخذت ، خلال القرن الثاني، تقيم لها او تستصلح ، في نقاط عديدة ، خطاً من التخوم والحدود اصطلحوا على تسميته بـ « *Limes* » .

ولعل خير ما يرسم في خاطرنا صورة مثلى للمراكز الدفاعية التي يتألف منها هـذا الخط الحصين ، هو مخيم يحيط به خنـدق ، يليه منحدر يقوم دونه سياج ، ثم يأتي سور خارجي تتقاطعه ابراج للمراقبة ، وحصون تقوم وفقاً لمقتضيات طبيعة الارض ووضعهـا الطوبوغرافي ، او وفقاً لما يخططه لها المهندسون العسكريون . وخير مثال او صورة مثلى لهذه الحدود الحصينة هو هذا الجدار الحصين الذي قام في بريطانيا قديماً وعرف بجدار هدريانوس، فينطلق من نهر التاين *Tyne* ويمتد ليدخل بموقع صولواي فيرث *Solway Firth* . وامعاناً في منعة الخط ، اضيف اليه في القسم الشمالي منه ، جدار آخر عرف بجدار انطونين ، امتد من فيرث الى فورث حتى نهر الكلايد . ومثل هذا الخط الحصين قام كذلك بين نهري الرين والدانوب — وهو الخط المعروف بخط الحدود الجرمانية — هذا الخط الذي حرص امبراطرة الاسرة الفلافية (*Les Flaviens*) ،

الكثير من العنت والازعاج حتى في ابان عزها وأوج ازدهارها . فكان عليها ان تسن وتشرّع ما هو في طاقتها ، اذ لم يكن في وسعها توفير اسباب السياسة التي تمنى بعض امبراطرتها اتباعها والسير عليها .

وتنظيم قيادة الجيش العليا هو نفسه ، لم يلاق عندها الحل الامثل والاكمل ، اذ ان ارتباط هذه القيادة بشكل الدولة والنظام الاجتماعي الذي كانت عليه ، كان يحول دون النظر الى هذا المنصب الخطير بتجرد . ولذا كان لا بد من ان ترتبط قيادة الجيش العليا ، رأساً ، بالامبراطور نفسه . فبقاء الامبراطور واستمراره في الحكم ، ارتبط الى حد كبير ، ببقاء الجيش ، واستمراره هو الآخر ، يتوقف على استمرار الامبراطور نفسه. وهذا الجيش المرابط معظمه على الحدود ، كان يتألف بالفعل من عدة جيوش ، لكل منها قائده. فكيف السبيل ، والحالة هذه الى انتقاء هؤلاء القادة ، وكيف يمكن الحيلولة دون تسخيرهم الانتصارات التي يحققونها لمصلحتهم الخاصة ، واستغلال منزلتهم في الجيش ونفوذهم عليه ، للوصول الى السلطة العليا ؟ ومن جهة اخرى ، فالجنود انفسهم ليسوا بشيء يذكر ما لم تتوفر لهم الأطر والملاكات التي تنتظم سلكهم . فما السبيل ، لعمري ، لتأمين هذه الملاكات ، وتأمين تدريبهم الفني والمسلكي؟ وعلى أي اسس يجب ان تقوم ترقيتهم ، وان تنتسق ترفيعاتهم ، وما هي القاعدة الذهبية لتحقيق هذا كله ، على الوجه الاكمل ؟ وما عسى ان يكون محلهم في السلم الاجتماعي ؟ وكان من مصلحة النظام الجديد الذي طلع على البلاد ، الفصل بين السلطة المدنية والسلطة العسكرية ، وذلك بتحديد إختصاص كل منها وتأمين الانسجام والترابط بينها. كذلك ، كانت المصلحة العامة تقضي ان لا ينظر ، عند الانخراط في الجيش وتقرير الترفيعات ، الا لمن أنسوا منه الميل العميق للسلك العسكري ، ومن توفرت له الاستعدادات الخلقية اللازمة ، وبرهن عن كفاءاته العسكرية في المعارك الحربية ، دون ان يُؤبه الى شيء آخر : كالاصل والفصل ، والحسب والنسب . وسنجهل ابداً ، ما اذا كان الامبراطرة اوضحوا هذه الأمور كلها وحددوا لها الأهداف ، او انهم لم يتمكنوا ، او بالاحرى لم يحاولوا ضرب عرض الحائط بهذه العوامل والتخلص من التقاليد المرعية .

فقد بقيت ابواب مجلس الشيوخ موصدة امام ابناء هؤلاء الاعضاء بينما بقيت كل مراكز القيادة وقفاً على هؤلاء الاعضاء . فالخروج عن هذه التقاليد التي كانت تشد بعضها الى بعض الجهازين الاداري والعسكري ، كان بمثابة خروج على مجلس الشيوخ. فالانتقال من جهاز الى آخر ، لم يكن امراً مستحيلاً ، وإن دقت سبله او ضاقت منافذه. فالوصول الى مجلس الشيوخ ، والتقلب في وظائفه : ترقية وترفيعاً ، هو من هذه المكافآت المحفوظة لخدام الدولة الامناء . وكلها امور يُرجَع بها الى هيئة من المحكمين ، تخضع قراراتها وترتيباتها الانتخابية لمواقف الاحزاب المتنافسة وتأثيراتهم . وقد اوجب رفع عدد ملاكات الجيش ، لعمري ، الاستعانة بطبقات اجتماعية اخرى ، اذ ان اعضاء مجلس الشيوخ ، فقدوا ، لقلة عددهم وضآلته ، هذا الاحتكار الذي مارسوه ، من هذا القبيل ، وتمتعوا به طويلاً ، وحدهم دون سواهم . فأخذنا نشاهد ، على مر

خطة دفاعية بحتة . فكل هجوم ، مهما كان مداه او طبيعته ، كان يعتبر امراً كاليا لا يمكن لها مجابهته إلا ما ندر ، وعند ضغط خارجي يكوّن خطراً على البلاد . وهكذا نستطيع ان نفهم الآن التردد الذي كان عليه الامبراطرة في بعض الأحيان وانثناءهم فجأة ، في بعض الآونة ، عن

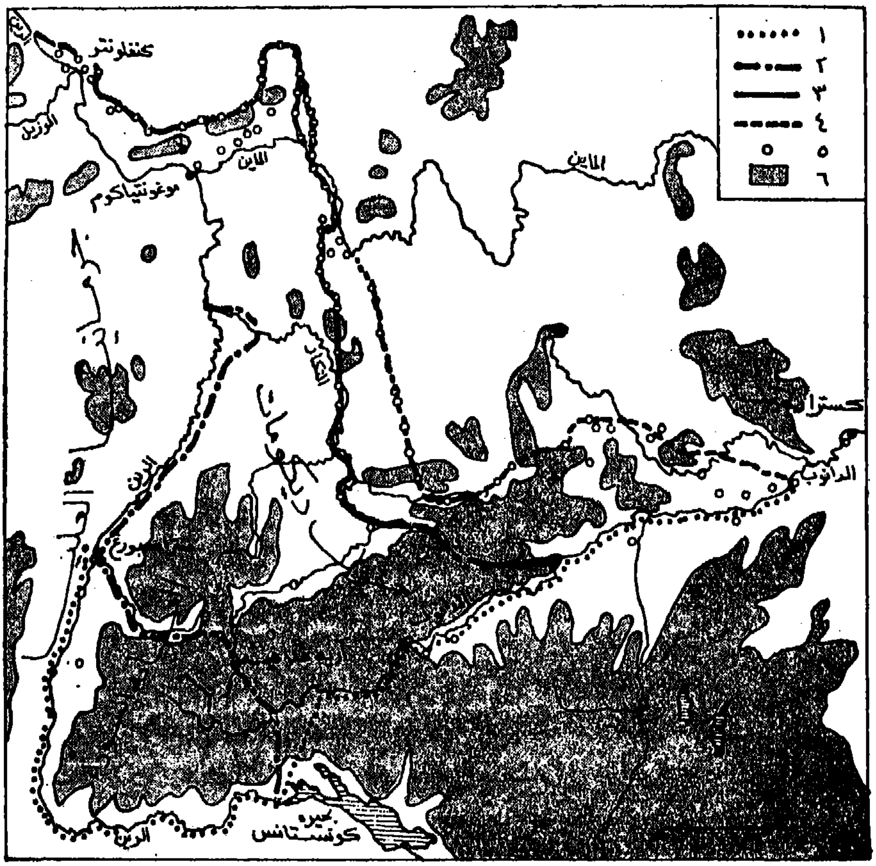

الشكل ٨ ـ الحدود بين الامبراطورية الرومانية وبين جرمانيا ومقاطعة ريتيا
١ ـ الحدود قبل الامبراطور فسبسيانوس ؛ ٢ ـ الحدود في عهد فسبسيانوس ؛ ٣ ـ الحدود في عهد الأسرة الانطونية ؛ ٤ ـ الحدود في آخر عهد الاسرة الانطونية ؛ ٥ ـ بعض الحصون والقلاع الدفاعية ؛ ٦ ـ المراكز الواقعة على اكثر من ٥٠٠ متر .

تجريدات وحملات عسكرية كانوا اخذوا بها وساروا فيها اشواطاً ، ثم مالوا عنها ، على غير توقع وانتظار ، لتكاليفها الباهظة . ولذا كانوا يفضلون القيام بحركات هجومية محدودة ، والفتوح التدريجية يجرونها على مراحل ، قد تمتد عشر سنوات وأكثر ، اذا ما اقتضى الامر . كذلك اعتبروا القيام معاً ، وفي آن واحد ، بالحرب على جبهتين ، وضعاً يتهدد البلاد بكارثة ، يجب تفاديه بأي ثمن .

الزمن، طلوع فرسان وضباط، وضباط صف، من بين افراد الجند. الا ان السعي لاملاء الملاكات لم ينحط ليبلغ ادنى دركات السلّم الاجتماعي. فالوحدات الجديدة افرزت لها قيادات جديدة احتفظت بها واقتصرت عليها وهي، على الغالب، ادنى مرتبة من الاخرى، ودونها جذباً واغراء، بينما بقيت القيادات الاولى تعاني النقص. ولم تقم المنافسة بين الفريقين الا بعد ان خضع ضباط الثانية لتدريب طويل او عند ما راح الملك يغمر برعايته وعطفه، ضباط الشفاليه حتى اوصلهم الى مرتبة المشيخة. كما اوصل ضباط البيادي الى فرقة الخيالة. والتدرج الحكيم في هذه المراتب دعا ابناء الطبقات الى شيء من الحماسة وحملهم بالتالي، على التنافس والمباراة فيما بينهم، فساعد ذلك على صيانة المجتمع من التفسخ والانحلال، كما ساعد الامبراطور على الاحتفاظ بسلطته على الجيش وسيطرته عليه، اذ مكنه من ان يكافىء الاخلاص ويشجع الكفاءة الشخصية. الا ان الامر ألحق بعض الاذى بالقيادة: وانتقص من قيمتها والمؤهلات التي يجب ان تتحلى بها. فقد كان من اثر هذه التدابير ان اقتضت وقتاً اطول لبروز الكفاءات كما اقصرت التجلي والظهور على بعض الظروف والمناسبات كوقوع الازمات، مثلاً.

تنظيم القوة: البحرية

طرأ على تنظيم الجيش وتشكيله، خلال القرنين الاولين من عهد الامبراطورية، تطورات كثيرة يقتضينا تقصي مراحلها استطرادات وتفاصيل لا محل لذكرها هنا. فلنقتصر على نظرة عابرة نلقيها على خير العهود التي قامت فيه القوات الرومانية بدورها العسكري، على الوجه الامثل، باعتبارها حصن العالم الروماني الحصين ودرعه المتين، اي في منتصف القرن الثاني للميلاد، خلال حكم هدريانوس وانطونين.

فالاسطول البحري لم يكن له شأن يذكر. فالبحر المتوسط الذي اصبحت جميع شواطئه وما وراءها من اقطار خاضعة جميعها للسلطة الرومانية، هو نفسه بحاجة للأمن ولبعث الطمأنينة في النفوس. ففي هذه البحيرة الداخلية التي تقع في قلب الامبراطورية، تمر خطوط المواصلات التي تربط روما بجميع الولايات التابعة لها. واعمال القرصنة البحرية التي كان لا بد من ازالة كل خطر لها في القرن الاول، كادت تفقد، الا ما ندر، كل اثر لها. وهذه الاساطيل الحربية التي كانت تمخر عباب اليم في اواخر الحروب الأهلية، فقدت الكثير من شوكتها وشكيمتها. فمنذ ان انتصف القرن الاول اصبح في استطاعة السلطة ان تسحب فرقتين رومانيتين اضافيتين من اصل جيش المشاة الذي عهد اليه العمل على ظهر الاساطيل الحربية، والحقتا نهائياً بالجيش البرّي. ولعل العمارة الوحيدة التي حافظت على قوتها وبأسها، هي العمارة التي عهد اليها بتأمين المواصلات مع بريطانيا، ومراقبة سواحل البحر الشمالي، مؤمنة الاتصال بجيش الرين السفلي. اما الطرق النهرية الواقعة على الحدود، ولا سيا على الرين والدانوب، فقد قامت فيها عمارات اخذت، هي الاخرى، نصيبها في الدفاع عن الامبراطورية متعاونة مع الجيش البري على ذلك. وكل هذه الاساطيل لم تكن لتؤلف شيئاً يذكر في امر الدفاع. فقوة روما هي قوة جيشها البري. فالبحارة والقوى العاملة على هذه السفن الى جانبهم، لم يكن لها من الشأن ما يكن

وألحق بالجيش الروماني ، في القرن الثاني ، فرقـــة اضافية اخرى غير التي اتينا هنا على ذكرها ووصفها من الفرق المساعدة ، عرفت عندهم باسم *Numeri* ، هي على الغالب مـــن نوع القنّاصة تعمل الى جانب الوحدات الرومانية . لأفرادها أسلحتهم وعتادهم وطرقهم الحربية ، هي الطرق الجاري الاخذ بها في بلادهم . وهي على الغالب وحدات خفيفة السلاح ، سريعـــة التحرك والتنقل ، يعهد اليها بمهات تقتضي السرعة والمفاجأة .

الجيوش . فالجيون الرومانية وما اليها من قوى اضافية مساعدة تضاعف عددها ، كانت تؤلف الوحدة العسكرية التي تشبه الى حد بعيد ، فرق الجيوش الحديثة . كان عدد هذه الفرق، عند وفاة أوغسطس، ٢٥ فرقة، تغير قليلاً فيما بعد وفقاً لمقتضيات الظروف ، بين زيادة او نقصان ، او حُل بعضها احياناً ، في حالات التمرد والعصيان مثلاً . فاذا بهذا العدد يرتفع الى ٣٠ فرقة في عهد الامبراطور ترايانوس ثم يهبط الى ٢٨ في عهد هدريانوس. وقد شكل الامبراطور مـــارك اوريل فرقتين اخريين ، كما شكل الامبراطور سبتيموس ساويروس ثلاث فرق جديدة في عهده .

وكانت هذه الفرق توزع على مختلف المناطق والولايات وفقاً لمتطلبات الحاجـة العسكرية ، وضرورات الدفاع والمحافظة على الأمن. فاذا ما رأت الادارة تخفيض قواتها في ولاية ما،او نقل الحامية المرابطة فيها، أجرت هذا التدبير بتمهل كلي وبتحفظ، اذ كثيراً ما يكون استقرار الأمن في البلاد صورياً لا غير. ولعل اكثر جيش روماني استهدفت فرقه للتعديل والتبديل والتغيير هو الجيش المرابط على الرين ، وهي تغييرات استمر الاخذ بها طيلة قرن تقريباً . فبعد ان تألف في عهد اوغسطس من ثمـان فرق، انخفض عددها الى اربع عند وفاة هدريانوس ، بينما كان جيش الدانوب في هـذا الوقت بالذات ، يتألف من ثمان فرق ، وجيش آسيا من ٨ فرق ايضاً ، وقام ثلاث منها في بريطانيا ، بينما رابطت ثلاث في كل من اسبانيا وافريقيا ومصر .

هذه الجيوش ، في معظمها هي جيوش تغطية، وتوسعاً ، جيوش احتلال . فهي تغطي الولاية او المنطقة وترد عنها عوادي الطـامعين من الغزاة وتصون أمنهـــا ، ليس عن طريق الحشد والتكتيب والتأليب ، وكلها امور لم يكن في مقدورها وحدها القيام بها، لولا وحدات اخرى اضافية مرابطة في البلاد . وعلاوة على هذا ، لم يكن هنالك من جيش احتياطي ، ولذا ، كان من العسير جداً ، ان يتحول الى جيش مناور ، متحرك محارب ، الا اذا مـا استنفر وحدات إضافية من جيوش اخرى قريبة او بعيدة ، او صير الى تقوية هذه الجيوش المرابطـة ، وذلك بدعوة المحاربين القدماء، ومثل هذا الاجراء لم يكونوا يرجعون اليه إلا عند خطر مداهم. وكانت الامبراطورية ، بالنسبة للوضع الذي يكتنف جيشها ، وطريقـــة توزعه على البلاد، لا تستطيع الصمود على جبهة معينة إلا باضعاف حاميتها المرابطة في جبهة ثانية ، ولذا كان عليها ان تلزم

مقارنته باقل فرق الجيش البري. ولم تندّ الامبراطورية هنا عن تقاليد روما التي رأيناها دوماً، طوال تاريخها المديد، تعجز عن القيام بجهود بحري حربي استطال اكثر مما اقتضته حرب معينة، الأمر الذي جعلها دوماً تفاجأ بخطر انتصب امامها بغتة، وسبب لها الكثير من المتاعب ووجع الرأس.

الجيش الروماني: اللجيون

استأثر الجيش بعناية الامبراطرة ورعايتهم. فقد بلغت قوةهذا الجيش نحواً من ٣٥٠٠٠٠، وهو لعمري عدد ضئيل جداً بالنسبة لعدد سكان الامبراطورية البالغ ما لا يقل عن ٥٠ مليون نسمة. وهذا العدد الضئيل جداً، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار التسعة آلاف كيلومتر من الحدود البرية، بقطع النظر عن الصحراء الكبرى وبلاد العرب التي تتنقل فيها قبائل البدو الرحل الذين دئبوا على أعمال السلب والنهب. ويجب الا ننسى ما كان يترتب على هذا الجيش من أعباء المراقبة حتى ما تعلق منها بشؤون الادارة الداخلية احياناً، وغيرها من المهام التي كانت تستنفذ جانباً من الجيش العامل، المكلف بأمور الدفاع عن البلاد ضد كل خطر خارجي. من ذلك مثلاً، وضع الحامية الرومانية في روما نفسها، وهو تدبير اجرته الادارة الجديدة في العهد الامبراطوري دون ان يقوم ما يماثله في روما خلال العهد الجمهوري. وكان لا بد من هذه الحامية لأمن السلطة المركزية وسلامتها، وللأمن الداخلي في المدينة. فمن اصل الـ ١٢٠٠٠ جندي الذين كانت تتألف منهم الحامية، في عهد الامبراطور طيباريوس، شكل قسم منهم، بلغ عددهم ٤٥٠٠ جندي، الحرس الامبراطوري الخاص. وتألفت الحامية من ٩ طوابير هي عماد الأمبراطور وعدته في الحملات التأديبية التي كانت تدعو الحاجة اليها من وقت لآخر. وما تبقى من هذه القوة، بين كتائب خاصة بالمدينة وبالحراسة ليلاً، لم يفارق المدينة بحيث يؤمن لها ما تحتاج اليه من قوة بوليسية وسرّيات لمكافحة الحرائق عند نشوبها. وعلى هذا النحو تقريباً كان وضع القوات الرومانية المرابطة في اسبانيا، سواء منها القائمة في شبه الجزيرة الايبيرية او التي كانت منها تعمل في مقاطعة موريتانيا — المغرب اليوم — فلم يكن من مهمتها التصدي للأجنبي.

وهكذا يتضح ان الجيش الامبراطوري كان بحاجة الى كل فرد من افراده، والى كل ما تمتع به من كفاءة عسكرية ومهارة في فنون الحرب، ليقوم على الوجه الاكمل، بالمهمة الموكولة اليه والتي قام بها بشكل مرضي.

اما الوحدة النموذجية الكبرى، سيدة المعارك المعبأة، فلا تزال تحمل الاسم الذي عرفت به من قبل، وهو «اللجيون»، هذا الأسم الذي ارتبط ابداً بالامجاد التي حققتها الفتوحات الكبرى التي عليها نشأت السلطنة الرومانية، وهي فرقة لم تدخل عليها الامبراطورية تعديلات تذكر، باستثناء سريّة من الخيالة ألحقت بها، لم يتعدَّ عدد افرادها ١٢٠ فارساً. واللجيون،

وحدة مشاة في الاساس ، يتراوح عددها بين ٥٠٠٠ — ٦٠٠٠ جندي ، وهو عدد تباين الكتبة والمؤرخون الاقدمون في تحديــــده . وتتألف اللجيون من : طوابير *Cohortes*، وكراديس *Manipules* وسريات *Centuries* ، ينتظمها جميعاً ملاك قيادي ، متين ، يتألف من ٦٠ ضابطاً برتبــة قائد مائة يعرف عندهم بـ : *Centnrion* ، وهم ضباط خرجوا من بين صفوف الجند بمـا أظهروه من كفاءة ومقدرة ، ورقوا تباعاً ، الدرجات العسكرية ، وكانوا يتولون قيادة السريات الاولى في الكراديس . اما ترقيتهم الى درجات أعلى ، فأمر بقي نادراً جداً في القرن الثاني . ولم نرَ بينهم من وصل الى قيادة الفرقة او اللجيون ، هـــذه الوظيفة المحتفظ بها ، اصلاً ، لأعضاء مجلس الندوة او اعضاء مجلس الشيوخ ، إلا في مصر ، حيث كان يتولى قيادة الفرقة ضابط مــن رتبة شفاليه .

على كل افراد الفرقــة ان يكونوا حاصلين على الرعوية الرومانية ، وهو امتياز لم يكن من العسير قط الحصول عليـــه ، اذ كانت الدولة تمنحه بكل طيبة خاطر ، لكل من يتطوع في الجيش ، وقد عرفت الادارة ان تفيد من هذا الامتياز خلال الحروب الاهلية . وقــد اخذت الامبراطورية ، في القرن الثاني ، تعود لهـــذا العُرف وتضعه موضع التنفيذ ، فلا تمنح حق الرعوية إلا لعناصر بشرية ضربت بأسباب الحضارة بسهم كبير ، لدى انخراطها في الجيش . وكانت الفرقــة ، في تشكيلها تعتمد ، الى حد كبير ، على التطوع المحلي ، فتعمل على استكمال وحداتها وتشكيلاتها العسكرية حيث ترابط ، مؤثرة في ذلك ابناء الجنود وتفضيلهم على سواهم ، بعد ان نُشّئوا على شيء من الانضباط العسكري ، وأرضعوا حب الحرب .

الوحدات الاضافية

الفرق الرومانية الصرف لم تكن لتؤلف سوى نصف الجيش ، اذ ان النصف الآخر كان يتألف من كراديس غير نظامية ، افرادها من غــير الرعايا الرومان ، فيشكلون وحدات اضافية مساعدة تنضم الى الفرقة وتؤلف معها وحـــدة تخضع لقيادتها العامة مباشرة .

وكانت هذه الوحدات تضم ما بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ جندي ، مسلحين على الطريقة الرومانية ، وتنهج في الحرب النهج الحربي الروماني ، تحت امرة ضباط يحملون الرعوية الرومانية . فالجناح كان يتألف دوماً من فرسان الخيـــالة ، بينما كانت الكراديس تتألف من المشاة واحياناً من عناصر مختلفة . وكان كل كردوس يحمـــل اسم البلدة او المنطقة التي تشكل من رجالها . غير ان اضطرار هذه الكراديس للخدمة ، احياناً كثيرة ، بعيدة عن مناطق نشأتها وتكوينها ، جعلها تحمل فيما بعد ، اسماء المقاطعات التي كانت ترابط فيها . ومهما يكنْ ، فأفراد هــذه الوحدات الاضافية هم من مستوى اجتماعي وحضاري أدنى من افراد الفرق الرومانيـــة الاصل . ولم يَترومَنوا إلا بعد انتهاء خدمتهم العسكرية ، واذ ذاك فقط ، تسلم اليهم براءة رسمية يمنحون بموجبها حق الرعوية الرومانية .

ألف ليلة وليلة

المجلد الثاني

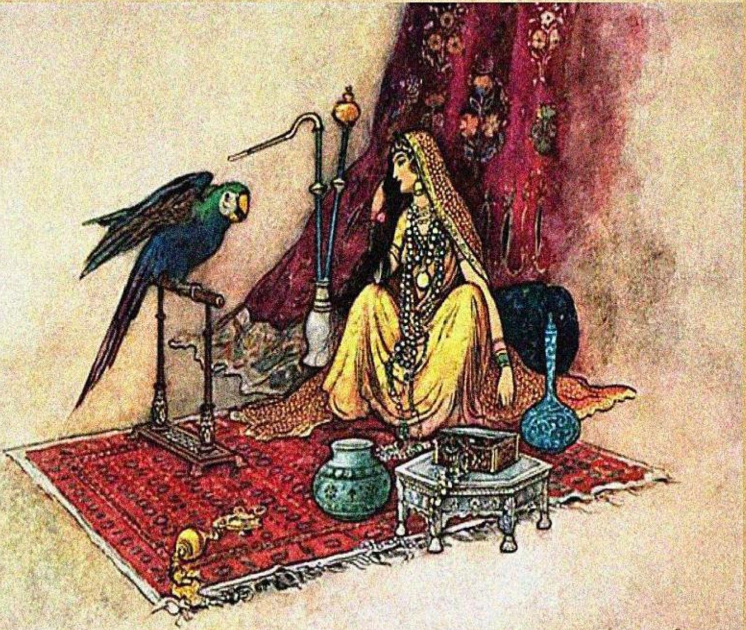

فسمع بعض جيرانها البكاء فسألوا عن حالها فقيل لهم أنه جاءها كتاب بموت زوجها فقال رجل ان هذا كلام كذب لان زوجها أرسل لي مكتوبا بالامس يخبر في فيه أنه طيب بخير وعافية وانه بعد عشرة أيام يكون عندها فقام من ساعته وجاء الى المرأة وقال لها أين الكتاب الذي جاء فجاءت به اليه وأخذه منها وقرأه واذا فيه أما بعد فاني طيب بخير وعافية وبعد عشرة أيام اكون عندكم وقد أرسلت اليكم ملحفة ومكمرة فاخذت الكتاب وعادت به الى الفقيه وقالت له ما حملك على الذي فعلته معي واخبرته بما قاله جارها من سلامة زوجها وانه أرسل اليها ملحفة ومكمرة فقال لها لقد صدقت ولكن يا حرمة اعذريني فاني كنت في تلك الساعة مغتاظا وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤١٣) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان المرأة لما قالت للفقيه ما حملك على الذي فعلته معي فقال لها اني كنت في تلك الساعة مغتاظا مشغول الخاطر ورايت المكمرة ملفوفة في الملحفة فظننت أنه مات وكفنوه وكانت المرأة لا تعرف الحيلة فقالت له أنت معذور وأخذت الكتاب منه وانصرفت (وحكي) ان ملكا من الملوك خرج مستخفيا ليطلع على أحوال الرعية فوصل الى قرية عظيمة فدخلها منفردا وقد عطش فوقف بباب دار من دور القرية وطلب ماء فخرجت اليه امرأة جميلة بكوز ماء فناولته اياه فشرب فلما نظر اليها افتتن بها فراودها عن نفسها وكانت المرأة عارفة به فدخلت به بيتها واجلسته وأخرجت له كتابا وقالت انظر في هذا الكتاب الى ان اصلح امري وارجع اليك فجلس يطالع في الكتاب واذا فيه الزجر عن الزنا وما اعده الله لاهله من العذاب فاقشعر جلده وتاب الى الله وصاح بالمرأة وأعطاها الكتاب وذهب وكان زوج المرأة غائبا فلما حضر اخبرته بالخبر فتحير وقال في نفسه اخاف ان يكون وقع غرض الملك فيها فلم يتجاسر على وطئها بعد ذلك ومكث على ذلك مدة فاعلمت المرأة أقاربها بما حصل لها مع زوجها فرفعوه الى الملك فلما مثل بين يديه قال اقارب المرأة اعز الله الملك ان هذا الرجل استاجر منا أرضا للزراعة فزرعها مدة ثم عطلها فلا هو تركها حتى نؤجرها لمن يزرعها ولا هو يزرعها وقد حصل الضرر للارض فنخاف فسادها بسبب التعطيل لان الارض اذا لم تزرع فسدت فقال الملك ما الذي يمنعك من زرع أرضك فقال أعز الله الملك انه قد بلغني ان الاسد قد دخل الارض فهبته ولم أقدر على الدنو منها لعلمي أنه لا طاقة لي بالاسد واخاف منه ففهم الملك القصة وقال له يا هذا إن أرضك لم يطأها الاسد وأرضك طيبة الزرع فازرعها بارك الله لك فيها فان الاسد لا يعدو عليها ثم أمر له ولزوجته بصلة حسنة وصرفهم (ومما) يحكى ان اسحق بن ابراهيم الموصلي قال اتفق انني ضجرت من ملازمة دار الخليفة والخدمة بها فركبت وخرجت ببكرة النهار وعزمت على أن أطوف الصحراء واتفرج وقلت لغلماني اذا جاء رسول الخليفة أو غيره فعرفوه انني بكرت في بعض مهماتي وانكم لا تعرفون اين ذهبت ثم مضيت وحدي وطفت في المدينة وقد حمي النهار فوقفت في شارع يعرف بالحرم وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤١٤) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن اسحق بن ابراهيم الموصلي قال لما حمي النهار

وقفت فى شارع يعرف بالحرم لاستظل من حر الشمس وكان للدار جناح رحب بارز على الطريق فلم

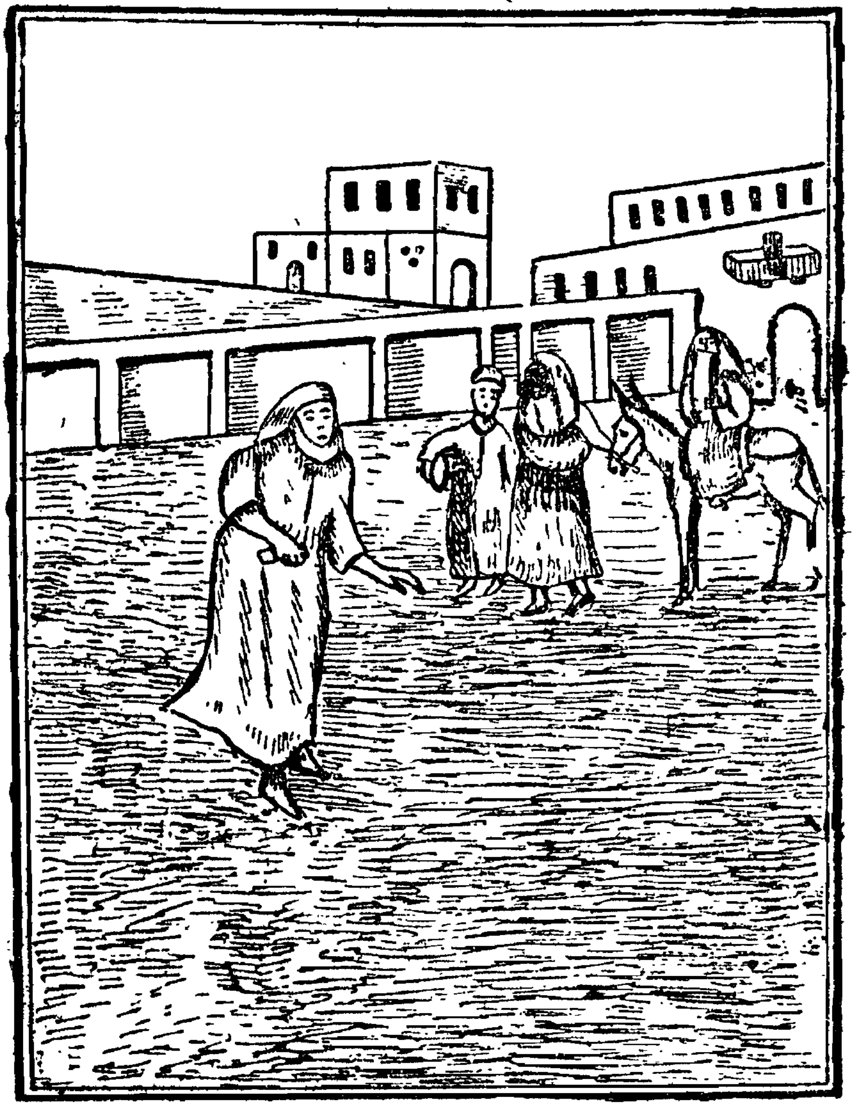

﴿ الجارية التى نظرها اسحق الموصلى وهى راكبة حمار ويقوده عبد اسود ﴾

ألبث حتى جاء خادم اسود يقود حمارا فرأيت عليه جارية راكبة وتحتها منديل مكلل بالجواهر وعليها من اللباس الفاخر ما لا غاية بعده ورأيت لها قواما حسنا وطرفا فاترا وشمائل ظريفة فسألت عنها بعض المارين فقال لى إنها مغنية وقد تعلق بحبها قلبى عند نظرى اليها وما قدرت أن أستقر على ظهر دابتى ثم إنها دخلت الدار التى كنت واقفا على بابها فجعلت أتفكر فى حيلة أتوصل بها اليها فبينما أنا واقف إذ أقبل رجلان شابان جميلان فاستأذنا فاذن لهما صاحب الدار فنزلا ونزلت معهما ودخلت صحبتهما فظنا أن صاحب الدار دعانى فجلسنا ساعة فأتى بالطعام فأكلنا ثم وضع الشراب بين أيدينا

ثم خرجت الجارية وفي يدها عود فغنت وشربنا وقت لاقضي حاجة فسأل صاحب المنزل الرجلين عني فأخبراه أنهما لا يعرفاني فقال هذا طفيلي ولكنه ظريف فأجلوا عشرته ثم جئت فجلست في مكاني فغنت الجارية بلحن لطيف وأنشدت هذين البيتين

قل للغزالة وهي غير غزالة والجؤذر المكحول غير الجؤذر
لمذكر الخلوات غير مؤنث ومؤنث الحطوات غير مذكر

فأدته أداء حسنا وشرب القوم وأعجبهم ذلك ثم غنت طرقا شتى بالحان غريبة وغنت من جملتها طريقة هي لي وأنشدت تقول

الطلول الدوارس فارقتها الاوانس أوحشت بعد أنسها فهي قفراء طامس

فكان أمرها أصلح فيها من الاولى ثم غنت طرقا شتى بالحان غريبة من القديم والحديث وغنت في أثنائها طريقة هي لي وأنشدت تقول

قل لمن صد عاتبا ونأى عنك جانبا قد بلغت الذي بلغت وإن كنت لاعبا

فاستعدته منها لاصححه فأقبل على أحد الرجلين وقال مارأينا طفيليا أصفق وجها منك أما ترضى بالتطفل حتى اقترحت وقد صح فيك المثل طفيلي ومقترح فأطرقت حياء ولم أجبه فجعل صاحبه يكفه عني فلا ينكف ثم قاموا إلى الصلاة فتأخرت قليلا وأخذت العود وشددت طرفيه وأصلحته إصلاحا محكما وعدت إلى موضعي فصليت معهم ولما فرغنا من الصلاة رجع ذلك الرجل إلى اللوم علي والتعنيف ولج في عربدته وأنا صامت فأخذت الجارية العود وجسته فأنكرت حاله وقالت من جس عودي فقالوا ما جسه أحد منا قالت بلى والله لقد جسه حاذق متقدم في الصناعة لانه أحكم أوتاره وأصلحه اصلاح حاذق في صنعته فقلت لها أنا الذي أصلحته فقالت بالله عليك أن تأخذه وتضرب عليه فأخذته وضربت عليه طريقة عجيبة صعبة تكاد أن تميت الاحياء وتحيي الاموات وانشدت عليه هذه الابيات

وكان لي قلب أعيش به فاكتوى بالنار واحترقا
أنا لم أرزق محبتها وانما للعبد مارزقا
ان يكن ماذقت طعم هوى ذاقه لاشك من عشقا

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤١٥) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن اسحق بن ابراهيم الموصلي قال لما فرغت من شعري لم يبق أحد من الجماعة الا وثب من موضعه وجلسوا بين يدي وقالوا بالله عليك ياسيدنا أن تغني لنا صوتا آخر فقلت حبا وكرامة ثم أحكمت الضربات وغنيت بهذه الابيات

ألا من لقلب ذوائب بنوائب أناخت به الاحزان من كل جانب
حرام على رامي فؤادي بسهمه دم صبه بين الحشا والترائب
تبين بين البين ان اقترابه على البين من ضمن الظنون الكواذب
أراق ما لولا الهوى ما أراقه فهل لدمي من ثائر ومطالب

فلما فرغ من شعره لم يبق أحد منهم إلا وقام على قدميه ثم رمى بنفسه على الارض من شدة ما أصابه من الطرب قال فرميت العود من يدي فقالوا بالله عليك أن لا تفعل بنا هذا وزدنا صوتا آخر زادك الله تعالى من نعمته فقلت لهم يا قوم أزيدكم وتا آخر وآخر وآخر وأعرفكم من أنا أنا اسحق بن ابراهيم الموصلى والله إني لأتيه على الخليفة إذا طلبني وأنتم قد أسمعتموني غليظ ما أكره في هذا اليوم فوالله لا نطقت بحرف ولا جلست معكم حتى تخرجوا هذا العربيد من بينكم فقال له صاحبه من هذا حذرتك وخفت عليك ثم أخذوا بيده وأخرجوه فأخذت العود وغنيت الاصوات التي غنتها الجارية من صنعتي ثم أسررت إلى صاحب الدار أن الجارية قد وقعت محبتها في قلبي ولا صبر لى عنها فقال الرجل هي لك بشرط فقلت وما هو قال أن تقيم عندي شهرا فأقمت عنده شهرا ولا يعرف أحد أين أنا والخليفة يفتش علي في كل موضع ولا يعرف لى خبرا فلما انقضى الشهر سلم لي الجارية وما يتعلق بها من الامتعة النفيسة وأعطاني خادما آخر فجئت بذلك إلى منزلى كأني قد حزت الدنيا بأسرها من شدة فرحي بالجارية ثم ركبت إلى المأمون من وقتى فلما حضرت بين يديه قال لى ويحك يا إسحق وأين كنت فأخبرته بخبرى فقال على بذلك الرجل في هذه الساعة فدللتهم على داره فأرسل اليه الخليفة فلما حضر سأله عن القصة فأخبره بها فقال له أنت رجل ذو مروءة والرأى أن تعان على مروءتك فأمر له بمائة الف درهم وقال لى يا اسحق أحضر الجارية فأحضرتها وغنت له وأطربته فحصل له منها سرور عظيم فقال قد جعلت عليها نوبة في كل يوم خميس فتحضر وتغني من وراء الستارة ثم أمر لها بخمسين الف درهم فوالله لقد ربحت في تلك الركبة

(ومما يحكى) أن القاسم بن عدى حكى عن رجل من بنى تميم انه قال خرجت في طلب ضالة فوردت على مياه بنى طي فرأيت فريقين احدهما قريب من الآخر واذا في احد الفريقين كلام مثل كلام اهل الفريق الآخر فتأملت فرأيت في احد الفريقين شابا قد انهكه المرض وهو مثل الشن البالى فبينما أنا اتامله واذا هو ينشد هذه الابيات

ألا للمليحة ما تعود ابخل بالمليحة ام صدود
مرضت فعادنى أهلى جميعا فمالك لا ترى فيمن يعود
فلو كنت المريضة جئت أسعى اليك ولم ينهنى الوعيد
عدمتك منهم فبقيت وحدى وفقد الالف يا سكنى شديد

فسمعت كلامه جارية من الفريق الآخر فبادرت نحوه وتبعها أهلها وجعلت تضاربهم فأحس بها الشاب فوثب نحوها فبادر اليه أهل فريقه وتعلقوا به فجعل يجذب نفسه وهي تجذب نفسها من فريقها حتى تخلصا وقصد كل واحد منهما صاحبه حتى التقيا بين الفريقين وتعانقا وخرا إلى الارض ميتين . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٠١٦) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أنه (مما يحكى) أن أبا بكر محمد الانبارى قال خرجت من الانبار في بعض الاسفار الى عمورية من بلاد الروم فنزلت في أثناء الطريق بدير الانوار في

قرية من قرى عمورية فخرج إلى صاحب الدير الرئيس على الرهبان وكان اسمه عبد المسيح فدخلت الدير فوجدت فيه أربعون راهبا فاكرموني في تلك الليلة بضيافة حسنة ثم رحلت عنهم في الغد وقد رأيت من كثرة اجتهادهم وعبادتهم مالم أره من غيرهم فقضيت إربي من عمورية ثم رجعت إلى الانبار فلما كان في العام المقبل حججت إلى مكة فبينما أنا أطوف حول البيت إذ رأيت عبد المسيح الراهب يطوف أيضا ومعه خمسة أنفار من أصحابه الرهبان فلما تحققت معرفته تقدمت اليه وقلت له هل أنت عبد المسيح الراهب قال بل أنا عبد الله الراغب فجعلت أقبل شيبته وأبكي ثم أخذت بيده وملت إلى جانب الحرم وقلت له أخبرني عن سبب إسلامك فقال إنه من أعجب العجائب وذلك أن جماعة من زهاد المسلمين مروا بالقرية التي فيها ديرنا فارسلوا شابا يشتري لهم طعاما فرأى في السوق جارية نصرانية تبيع الخبز وهي من أحسن النساء صورة فلما نظر اليها افتتن بها وسقط على وجهه مغشيا عليه فلما أفاق رجع الى أصحابه وأخبرهم بما أصابه وقال امضوا إلى شأنكم فلست بذاهب معكم فعذلوه ووعظوه فلم يلتفت اليهم فانصرفوا عنه ودخل القرية وجلس عند باب حانوت تلك المرأة فسألته عن حاجته فأخبرها أنه عاشق لها فأعرضت عنه فمكث في موضعه ثلاثة أيام لم يطعم طعاما بل صار شاخصا إلى وجهها فلما رأته لا ينصرف عنها ذهبت إلى أهلها وأخبرتهم بخبره فسلطوا عليه الصبيان فرموه بالحجارة حتى رضوا أضلاعه وشجوا رأسه وهو مع ذلك لا ينصرف فعزم أهل القرية على قتله فجاءني رجل منهم وأخبرني بحاله فخرجت اليه فرأيته طريحا فمسحت الدم عن وجهه وحملته إلى الدير وداويت جراحاته وأقام عندي أربعة عشر يوما فلما قدر على المشي خرج من الدير

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤١٧) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان الراهب عبد الله قال فحملته إلى الدير وداويت جراحاته واقام عندي اربعة عشر يوما فلما قدر على المشي خرج من الدير إلى باب حانوت الجارية وجلس ينظر اليها فلما ابصرته قامت اليه وقالت له والله لقد رحمتك فهل لك ان تدخل في ديني وانا اتزوجك فقال معاذ الله ان انسلخ من دين التوحيد وادخل في دين الشرك فقالت قم وادخل معي داري واقض مني إربك وانصرف راشدا فقال لا ما كنت لاذهب عبادة اثنى عشرة سنة بشهوة لحظة واحدة فقالت انصرف عني حينئذ قال لا يطاوعني قلبي فأعرضت عنه بوجهها ثم فطن به الصبيان فأقبلوا عليه يرمونه بالحجارة فسقط على وجهه وهو يقول إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين فخرجت من الدير وطردت عنه الصبيان ورفعت راسه عن الارض فسمعته يقول اللهم اجمع بيني و بينها في الجنة فحملته إلى الدير فمات قبل ان اصل به اليه فخرجت به عن القرية وحفرت له قبرا ودفنته فلما دخل الليل وذهب نصفه صرخت تلك المراة وهي في فراشها صرخة فاجتمع اليها اهل القرية وسألوها عن قصتها فقالت بينما انا نائمة إذ دخل على هذا الرجل المسلم فأخذ بيدي وانطلق بي إلى الجنة فلما صار بي الي بابها منعني خازنها من دخولها وقال إنها محرمة على الكافرين فأسلمت على يديه ودخلت معه فرأيت فيها من القصور والاشجار مالم يمكن ان اصفه

ويضمنني قال عمر رضى الله تعالى عنه يا أباذر أسمعت هذا الكلام وتضمن لى حضوره هذا الغلام فقال نعم يا أمير المؤمنين اضمنه الى ثلاثة أيام فرضى بذلك واذن للغلام في الانصراف فلما انقضت مدة الامهال وكاد وقتها أن يزول أو يزول ولم يحضر الشاب الى مجلس عمر والصحابة حوله كالنجوم حول القمر وابو ذر قد حضر والخصمان ينتظران فقالا اين الغريم يا أباذر كيف رجوع من فر ولكن نحن لا نبرح من مكاننا حتى تأتينا به للأخذ بثارنا فقال أبو ذر وحق الملك العلام ان انقضت الثلاثة ايام ولم يحضر الغلام وفيت بالضمان وسلمت نفسى للامام فقال عمر رضى الله عنه والله ان تأخر الغلام لاقضين فى أبى ذر ما اقتضته شريعة الاسلام فهملت عبرات الحاضرين وارتفعت زفرات الناظرين وعظم الضجيج فعرض أكابر الصحابة على الشابين أخذ الدية واغتنام الاثنية فابيا ولم يقبلا شيئا الا الاخذ بالثار فبينما الناس يموجون و يضجون تأسفا على أبى ذر اذ اقبل الغلام ووقف بين يدى الامام وسلم عليه باحسن سلام ووجهه مشرق يتهلل وبالعرق يتكلل وقال له قد اسلمت الصبى الى أخواله وعرفتهم بجميع أحواله وأطلعتهم على مكان ماله ثم اقتحمت هاجرة الحر ووفيت فاء الحر فتعجب الناس من صدقه ووفائه واقدامه على الموت واجترائه فقال له بعضهم ما أكرمك من غلام واوفاك بالعهد والزمام فقال الغلام أما تحققتم ان الموت اذا حضر لا ينجو منه أحد وانما وفيت كيلا يقال ذهب الوفاء من الناس فقال ابو ذر والله يا امير المؤمنين لقد ضمنت هذا الغلام ولم أعرفه من أى قوم ولا رأيته قبل ذلك اليوم ولكن لما أعرض عمن حضر وقصدنى وقال هذا يضمنني و يكلفنى لم أستحسن رده وأبت المروءة ان تخيب قصده اذ ليس فى اجابة القصد من باس كيلا يقال ذهب الفضل من الناس فعند ذلك قال الشابان يا أمير المؤمنين قد وهبنا لهذا الشاب دم أبينا حيث بدل الوحشة بالايناس كيلا يقال ذهب المعروف من الناس فاستبشر الامام بالعفو عن الغلام وصدقه ووفائه بالذمام واستكبر مروءة ابى ذر دون جلسائه واستحسن اعتماد الشابين فى اصطناع المعروف واثنى عليهما ثناء الشاكر وتمثل بقول الشاعر

من يصنع الخير بين الورى يجز به ... لا يذهب الخير بين الله والناس

ثم عرض عليهما ان يصرف اليهما دية أبيهما من بيت المال فقالا انما عفونا عنه ابتغاء وجه الله الكريم المتعال ومن نيته كذا لا يتبع احسانه منا ولا اذي

(ومما يحكى) ان أمير المؤمنين هرون الرشيد كان له ولد قد بلغ من العمر ستة عشر عاما وكان معرضا عن الدنيا وسالكا طريقة الزهاد والعباد فكان يخرج الى المقابر ويقول قد كنتم تملكون الدنيا فما ذلكم بمنجيكم وقد صرتم الى قبوركم فياليت شعرى ما قلتم وما قيل لكم و يبكى بكاء الخائف الوجل وينشد قول القائل

تروعنى الجنائز فى كل وقت ... ويحزننى بكاء النائحات

فاتفق ان أباه مر عليه في بعض الايام وهو فى موكبه وحوله وزرائه وكبراء دولته وأهل مملكته فرأوا ولد أمير المؤمنين وعلى جسده جبة من صوف وعلى رأسه مئزر من صوف فقال بعضهم لبعض

لقد فضح هذا الولد أمير المؤمنين بين الملوك فلو عاتبه لرجع عما هو فيه فسمع أمير المؤمنين كلامهم فكلمه في ذلك وقال له لقد فضحتني بما أنت عليه فنظر اليه ولم يجبه ثم نظر الى طائر على شرفة من شرفات القصر فقال له أيها الطائر بحق الذي خلقك ان تسقط على يدي فانقض الطائر على يد الغلام ثم قال له ارجع الى موضعك فرجع الى موضعه ثم قال له اسقط على يد أمير المؤمنين فابى ان يسقط على يده فقال الغلام لابيه أمير المؤمنين أنت الذي فضحتني بين الاولياء بحبك الدنيا وقد عزمت على مفارقتك مفارقة لا اعود اليك بعدها الا في الآخرة ثم انحدر الى البصرة فكان يعمل مع الفعلة في الطين وكان لا يعمل في كل يوم الا بدرهم ودانق فيتقوت بالدانق ويتصدق بالدرهم قال أبو عامر البصري وكان قد وقع في داري حائط فخرجت الى موقف الفعلة لانظر رجلا يعمل لي فيه فوقعت عيني على شاب مليح ذي وجه صبيح فجئت اليه وسلمت عليه وقلت له يا حبيبي اتريد الخدمة فقال نعم فقلت قم معي الى بناء حائط فقال لي بشروط اشترطها عليك قلت يا حبيبي ماهي قال الاجرة درهم ودانق واذا اذن المؤذن تتركني حتى أصلي مع الجماعة قلت نعم ثم أخذته وذهبت به الى المنزل فخدم خدمة لم أرى مثلها وذكرت له الغداء فقال لا فعلمت انه صائم فلما سمع الاذان قال لي قد علمت الشرط فقلت نعم فحل حزامه وتفرغ للوضوء وتوضأ وضوءا لم أر أحسن منه ثم خرج الى الصلاة فصلى مع الجماعة ثم رجع الى خدمته فلما أذن العصر توضأ وذهب الى الصلاة ثم عاد الى الخدمة فقلت له يا حبيبي قد انتهى وقت الخدمة فان خدمة الفعلة الى العصر فقال سبحان الله انما خدمتي الى الليل ولم يزل يخدم الى الليل فاعطيته درهمين فلما رآهما قال ماهذا قلت والله ان هذا بعض اجرتك لاجتهادك في خدمتي فرمى بهما الي وقال لا أريد زيادة على ما كان بيني وبينك فرغبته فلم أقدر عليه فاعطيته درهما ودانقا وسار فلما أصبح الصباح بكرت الى الموقف فلم اجده فسألت عنه فقيل لي انه لا يأتي ههنا الا في يوم السبت فقط فلما كان يوم السبت الثاني ذهبت الى ذلك المكان فوجدته فقلت له باسم الله تفضل الى الخدمة فقال لي على الشروط التي تعلمها قلت نعم فذهبت به الى داري ووقفت انظره وهو لا يراني فاخذ كفا من الطين ووضعه على الحائط فاذا الحجارة يتركب بعضها على بعض فقلت هكذا أولياء الله فخدم يومه ذلك وزاد فيه على ماتقدم فلما كان الليل دفعت له اجرته فأخذها وصار فلما جاء يوم السبت الثالث أتيت الى الموقف فلم أجده فسألت عنه فقيل لي هو مريض وراقد في خيمة فلانة وكانت تلك المرأة عجوز مشهورة بالصلاح ولها خيمة من قصب في الجبانة فسرت الى الخيمة ودخلتها فاذا هو مضطجع على الارض وليس تحته شيء وقد وضع رأسه على لبنة ووجهه يتهلل نورا فسلمت عليه فرد على السلام فجلست عند رأسه ابكي على صغر سنه وغربته وتوفيقه لطاعة ربه ثم قلت له الك حاجة قال نعم قلت وماهي قال اذا كان الغد تجيء الي في وقت الضحى فتجدني ميتا فتغسلني وتحفر قبري ولا تعلم بذلك احدا وتكفنني في هذه الجبة التي علي بعد ان تفتقها وتفتش جيبها وتخرج مافيه وتحفظه عندك فاذا صليت علي وواريتني في التراب فاذهب الى بغداد وارتقب الخليفة هرون الرشيد حتى

يخرج وادفع له ما يجده في جيبي واقرئه مني السلام ثم تشهد واثنى على ربه بأبلغ الكلمات وانشد هذه الأبيات

بلغ أمانة من وافت منيته ... الى الرشيد فان الاجر فى ذاكا
وقل غريب له شوق لرؤيتكم ... على تمادى الهوى والبعد لباكا
ما صده عنك لا بغض ولا ملل ... لان قربته من لثم يمناكا
وانما ابعدته عنك يا أبتى ... نفس لها عفة عن نيل دنياكا

ثم ان الغلام بعد ذلك اشتغل بالاستغفار وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٤١١) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان الغلام بعد ذلك اشتغل بالاستغفار والصلاة والسلام على سيد الابرار وتلاوة بعض الآيات ثم أنشد هذه الابيات

يا والدى لا تغتر بتنعم ... فالعمر ينفد والنعيم يزول
واذا علمت بحال قوم ساءهم ... فاعلم بانك عنهم مسؤل
واذا حملت الى القبور جنازة ... فاعلم بانك بعدها محمول

قال أبو عامر البصرى فلما فرغ الغلام من وصيته وأنشاده ذهبت عنه وتوجهت الى بيتى فلما أصبح الصباح ذهبت اليه من الغد وقت الضحى فوجدته قد مات رحمة الله عليه فغسلته وفتقت جبته فوجدت فى جيبه ياقوتة تساوى آلافا من الدنانير فقلت فى نفسى والله ان هذا الفتى لقد زهد فى الدنيا غاية الزهد ثم بعد أن دفنته توجهت الى بغداد ووصلت الى دار الخلافة وصرت اترقب خروج الرشيد الى ان خرج فتعرضت له فى بعض الطرق ودفعت اليه الياقوتة فلما رآها عرفها فخر مغشيا عليه فقبض على الخدمة فلما أفاق قال للخدمة افرجوا عنه وأرسلوه برفق الى القصر ففعلوا ما أمرهم به فلما دخل قصره طلبنى وأدخلنى محله وقال لى ما فعل صاحب هذه الياقوتة فقلت قد مات ووصفت له حاله فجعل يبكى ويقول انتفع الولد وخاب الوالد ثم نادى يا فلانة فخرجت امرأة فلما رأتنى أرادت أن ترجع فقال لها تعالى وما عليك منه فدخلت وسلمت فرمى اليها الياقوتة فلما رأتها صرخت صرخة عظيمة ووقعت مغشيا عليها فلما أفاقت من غشيتها قالت يا أمير المؤمنين ما فعل الله بولدى فقال لى اخبرها بشأنه وأخذته العبرة فأخبرتها بشأنه فجعلت تبكى وتقول بصوت ضعيف ما اشوقنى الى لقائك يا قرة عينى ليتنى كنت اسقيك اذا لم تجد ليتنى كنت اؤانسك اذا لم تجد مؤانسا ثم سكبت العبرات وانشدت هذه الابيات

ابكى غريبا اتاه الموت منفردا ... لم يلق الفا له يشكوا الذى وجدا
من بعد عز وشمل كان مجتمعا ... اضحى فريدا وحيدا لا يرى احدا
يبين للناس ما الايام تضمره ... لم يترك الموت منا واحدا أبدا
يا غائبا قد قضى ربى بغربته ... وصار منى القرب مبتعدا
ان ايأس الموت من لقياك يا ولدى ... فاننا نلتقى يوم الحساب غدا

فقلت يا أمير المؤمنين أهو ولدك قال نعم وقد كان قبل ولايتى هذا الامر يزو رالعلماء ويجالس الصالحين فلما وليت هذا الامر تفرمني وباعد نفسه عنى فقلت لامه ان هذا الولد منقطع الى الله تعالى وربما تصيبه الشدائد ويكابد الامتحان فادفعي اليه هذه الياقوتة ليجدها وقت الاحتياج اليها فدفعتها اليه وعزمت اليه ان يمسكها فامتثل أمرها وأخذها منها ثم ترك لنا دنيانا وغاب عنا ولم يزل غائبا عنا حتى لقى الله عز وجل تقيا نقيا ثم قال قم فأرنى قبره فخرجت معه وجعلت أسير الى ان اريته اياه فجعل يبكى وينتحب حتى وقع مغشيا عليه فلما افاق من غشيته استغفر الله وقال انا لله وانا اليه راجعون ودعا له بخير ثم سألنى الصحبة فقلت له يا أمير المؤمنين ان لى فى ولدك اعظم العظات ثم انشدت هذه الابيات

انا الغريب فلا آوى الى أحد   انا الغريب وان امسيت فى بلدى
انا الغريب فلا أهل ولا ولد   وليس لى أحد يأوى الي أحد
الى المساجد آوي بل وأعمرها   فما يفارقها قلبي مدى الابد
فالحمد لله رب العالمين على   افضاله ببقاء الروح فى الجسد

(ومما يحكى) عن بعض الفضلاء انه قال مررت بفقيه فى كتاب وهو يقريء الصبيان فوجدته فى هيئة حسنة وقماش مليح فاقبلت عليه فقام لى وأجلسنى معه فمارسته فى القراءات والنحو والشعر واللغة فاذا هو كامل فى كل ما يراد منه فقلت له قوى الله عزمك فانك عارف بكل ما يراد منك ثم عاشرته مدة وكل يوم يظهر فيه حسن فقلت فى نفسى ان هذا شىء عجيب من فقيه يعلم الصبيان مع ان العقلاء اتفقوا على نقص عقل معلم الصبيان ثم فارقته وكنت كل أيام قلائل اتفقده وأزوره فأتيت اليه فى بعض الايام على عادتى من زيارته فوجدت الكتاب مغلقا فسألت جيرانه فقالوا أنه مات عنده ميت فقلت فى نفسى وجب علينا أن نعزيه فجئت الى بابه وطرقته فخرجت لى جارية وقالت ما تريد فقلت أريد مولاك فقالت ان مولاى قاعدا في العزاء وحده فقلت لها قولى له ان صديقك فلانا يطلب ان يعزيك فراحت واخبرته فقال لها دعيه يدخل فاذنت لى في الدخول فدخلت اليه فرأيته جالسا وحده ومعصبا راسه فقلت له عظم الله أجرك وهذا سبيل لا بد لكل أحد منه فعليك بالصبر ثم قلت له من الذى مات لك فقال اعز الناس على واحبهم الى فقلت لعله والدك فقال لا قلت والدتك قال لا قلت اخوك قال لا قلت احد من أقاربك قال لا قلت فما نسبته اليك قال حبيبتى فقلت في نفسى هذا اول المباحث فى قلة عقله ثم قلت له قد يوجد غيرها مما هو أحسن منها فقال أنا ما رأيتها حتى اعرف ان كان غيرها احسن منها أولا فقلت في نفسى وهذا مبحث ثان فقلت له وكيف عشقت من لا تراها فقال اعلم انى كنت جالسا فى الطاقة واذا برجل عابر طريق يغنى هذا البيت

يا أم عمرو وجزاك الله مكرمة   ردى على فؤادى اينما كانا

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(و فى ليلة ٤١٢) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أن الفقيه قال لما غنى الرجل المار فى

الطريق بالشعر الذي سمعته منه قلت في نفسي لولا ان أم عمر وهذه مافي الدنيا مثلها ما كان الشعراء يتغزلون فيها فتعلقت بحبها فلما كان بعد يومين عبر ذلك الرجل وهو ينشد هذا البيت

اذا ذهب الحمار بام عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت انها ماتت فحزنت عليها ومضى لى ثلاثة ايام وانا في العزاء فتركته وانصرفت بعدما تحققت قلة عقله (ومما يحكى) من قلة عقل معلم الصبيان انه كان رجل فقيه في مكتب فدخل عليه رجل ظريف وجلس عنده ومارسه فرآه فقيها نحويا لغويا شاعرا أديبا فهيما لطيفا فتعجب من ذلك وقال ان الذين يعلمون الصبيان في المكاتب ليس لهم عقل كامل فلما هم بالانصراف من عند الفقيه قال له أنت ضيفي في هذه الليلة فأجابه الي الضيافة وتوجه صحبته الى منزله فاكرمه وأتى له بالطعام فاكلا وشربا ثم جلسا بعد ذلك يتحدثان الى ثلث الليل وبعد ذلك جهز له الفراش وطلع الى حريمه فاضطجع الضيف واراد النوم واذا بصراخ كثير ثار في حريمه فسأل ما الخبر فقالوا له ان الشيخ حصل له أمر عظيم وهو في آخر رمق فقال اطلعوني له فطلعوه له ودخل عليه فرآه مغشيا عليه ودمه سائل فرش الماء على وجهه فلما أفاق قال له ما هذا الحال أنت طلعت من عندي في غاية ما يكون من الحظ وأنت صحيح البدن فما أصابك فقال له يا أخي بعد ما طلعت من عندك جلست اتذكر في مصنوعات الله تعالى وقلت في نفسي كل شيء خلقه الله للانسان فيه نفع لان الله سبحانه وتعالى خلق اليدين للبطش والرجلين للمشي والعينين للنظر والاذنين للسماع والذكر للجماع وهلم جرا الا هاتين البيضتين ليس لهما نفع فاخذت موسا كان عندي وقطعتهما فحصل لى هذا الامر فنزل من عنده وقال صدق من قال ان كل فقيه يعلم الصبيان ليس له عقل كامل ولو كان يعرف جميع العلوم (وحكي) أيضا ان بعض المجاورين كان لا يعرف الخط ولا القراءة وانما يحتال على الناس بحيل يأكل منها الخبز فخطر بباله يوما من الايام انه يفتح له مكتبا ويقرىء فيه الصبيان فجمع ألواحا وأوراقا مكتوبة وعلقها في مكان وكبر عمامته وجلس على باب المكتب فصار الناس يمرون عليه وينظرون الى عمامته والى الالواح والاوراق فيظنون أنه فقيه جيد فيأتون اليه باولادهم فصار يقول لهذا اكتب ولهذا اقرأ فصار الاولاد يعلم بعضهم بعضا فبينما هو ذات يوم جالس على باب المكتب على عادته واذا بامرأة مقبلة من بعيد وبيدها مكتوب فقال في باله لا بد ان هذه المرأة تقصدني لاقرأ لها المكتوب الذي معها فكيف يكون حالي معها وانا لا اعرف قراءة الخط وهم بالنزول ليهرب منها فلحقته قبل أن ينزل وقالت له الى أين فقال لها أريد أن أصلي الظهر وأعود فقالت له الظهر بعيد فاقرأ لي هذا الكتاب فاخذه منها وجعل أعلاه أسفله وصار ينظر اليه ويهز عمامته تارة ويرقص حواجبه تارة أخرى ويظهر غيظا وكان زوج المرأة غائبا والكتاب مرسل اليها من عنده فلما رأت الفقيه على تلك الحالة قالت في نفسها لا شك ان زوجي مات وهذا الفقيه يستحي ان يقول لي أنه مات فقالت له يا سيدي ان كان مات فقل لي فهز رأسه وسكت فقالت له المرأة هل أشق ثيابي فقال لها اشقي فقالت له هل ألطم على وجهي فقال لها الطمي فاخذت الكتاب من يده وعادت الى منزلها وصارت تبكي هي وأولادها

فهنونى باسبوع وقولوا أدام الله وصلك بالحبيب

فلما فرغت من شعرها قبلها أنس الوجود ما ينوف عن المئات ثم أنشد هذه الابيات

أتي يوم السرور مع التهاني وجاء الحب من صدوفانى
فآنسنى بطيب الوصل منه ونادمنى بالطاف المعانى
وأسقاني شراب الانس حتى ذهلت عن الوجود بما سقانى
طربنا وانشرحنا واضطجعنا وصرنا فى شراب مع أغانى
ومن فرط السرور فليس ندرى من الايام أولها وثانى
هنيئا للمحب بطيب وصل ووافاه السرور كما وافانى
ولا يدرى لمر الصد طعما وربى قد حباه كما حبانى

فلما فرغ من شعره قاما وخرجا من مكانهما وأنعما على الناس بالمال والخلع وأعطيا ووهبا الى ان أتاهم هازم اللذات ومفرق الجماعات فسبحان من لا يحول ولا يزول واليه كل الامور تؤول

(ومما) يحكى أن الخليفة هرون الرشيد كان يحب السيدة زبيدة محبة عظيمة و بنى لها مكانا للتنزه وعمل فيه بحيرة من الماء وعمل لها سياجا من الاشجار وأرسل اليها الماء من كل جانب فالتفت عليها الاشجار حتى لو دخل أحد يغتسل فى تلك البحيرة لم يره أحد من كثرة أوراق الشجر فاتفق ان السيدة زبيدة دخلت ذلك المكان يوما وأتت الى البحيرة وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٤٠٦) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أن السيدة زبيدة لما دخلت ذلك المكان يوما وأتت إلى البحيرة وتفرجت على حسنها فاعجبها رونقها والتفاف الاشجار عليها وكان ذلك فى يوم شديد الحر فقلعت أثوابها ونزلت في البحيرة ووقفت وكانت البحيرة لا تستر من يقف فيها فجعلت تملأ الماء بابريق من لجين وتصب الماء على بدنها فعلم الخليفة بذلك فنزل من قصره يتجسس عليها من خلف أوراق الاشجار فرآها عريانة وقد بان منها ما كان مستورا فلما أحست بامير المؤمنين خلف أوراق الاشجار وعرفت أنه رآها عريانة التفتت اليه ونظرته فاستحست منه ووضعت يديها على فرجها ففاض من بين يديها لفرط كبره وغلظه فولى من ساعته وهو يتعجب من ذلك وينشد هذا البيت

نظرت عينى لحينى وزكا وجدى لبينى

ولم يدر بعد ذلك ما يقول فارسل خلف أبى نواس يحضره فلما حضر بين يديه قال له الخليفة أنشدني شعرا في أوله نظرت عينى لحينى وزكا وجدى لبينى

فقال ابو نواس سمعا وطاعة وارتجل فى أقرب اللحظات وانشد هذه الابيات

نظرت عينى لحينى وزكا وجدى لبينى
من غزال قد سبانى تحت ظل السدرتين
سكب الماء عليه بابار يق اللجين

نظرتني مسترته قاص من بين البدين
ليتني كنت عليه ساعه أو ساعتين

فتبسم أمير المؤمنين من كلامه وأحسن اليه وانصرف من عنده مسرورا
(ومما يحكى) ان الملك العادل كسرى أنوشروان ركب يوما الى الصيد فانفرد عن عسكره خلف ظبي فبينما هو ساع خلف الظبي اذ رأى ضيعة قريبة منه وكان قد عطش عطشا شديدا فتوجه الى تلك الضيعة وقصد دار باب قوم فى طريقه فطلب ماء ليشرب فخرجت له صبية فابصرته ثم عادت الى البيت وعصرت له عودا واحدا من قصب السكر ومزجت ما عصرته منه بالماء ووضعته في قدح ووضعت عليه شيئا من الطيب يشبه التراب ثم سلمته الى انوشروان فنظر فى القدح فرأى فيه شيئا يشبه التراب فجعل يشرب منه قليلا حتى انتهى الى آخره ثم قال للصبية ايتها الصبية نعم الماء ما احلاه لولا ذلك القذى الذى فيه فانه كدره فقالت الصبية ايها الضيف أنا عمدا القيت فيه ذلك القذى الذي كدره فقال الملك ولم فعلت ذلك فقالت لانى رأيتك شديد العطش وخفت أن تشربه نهلة واحدة فيضرك فلولم يكن فيه قذى لكنت شربته بسرعة نهلة واحدة وكان يضرك شربه على هذه الطريقة فتعجب الملك العادل أنوشروان من كلامها وذكاء عقلها وعلم ان ما قالته ناشىء عن ذكاء وفطنة وجودة عقل فقال لها من عود عصرت ذلك الماء فقالت من عود واحد فتعجب أنوشروان وطلب جريدة الخراج الذى يحصل من تلك القرية فرأى خراجها قليلا فاضمر فى نفسه انه اذا عاد الى تخته يزيد في خراج تلك القرية وقال قرية يكون فى عود واحد منها هذا الماء كيف يكون خراجها هذا القدر القليل ثم انصرف عن تلك القرية الي الصيد وفي آخر النهار رجع اليها واجتاز على ذلك الباب منفردا وطلب الماء ليشرب فخرجت تلك الصبية بعينها فرأته فعرفته ثم عادت لتخرج له الماء فابطأت عليه فاستعجلها أنوشروان وقال لاى شىء أبطأت وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٤٠٧) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان الملك أنوشروان لما استعجل الصبية قال لها لاى شيء أبطأت فقالت له لانه لم يخرج من عود واحد قدر حاجتك فعصرت ثلاثة أعواد ولم يخرج منها مثل ما كان يخرج من عود واحد فقال الملك أنوشروان ما سبب ذلك فقالت سببه ان نية السلطان قد تغيرت فقال لها من أين جاءك قالت سمعنا من العقلاء انه اذا تغيرت نية السلطان على قوم زالت بركتهم وقلت خيراتهم فضحك أنوشروان وازال من نفسه ما كان أضمر لهم عليه وتزوج بتلك الصبية حالا حيث أعجبه فرط ذكائها وفطنتها وحسن كلامها
(ومما يحكي) انه كان بمدينة بخارى رجل سقا يحمل بالماء الى دار رجل صائغ ومضى له على تلك الحالة ثلاثون سنة وكان لذلك الصائغ زوجة فى غاية الحسن والجمال والبهاء والكمال موصوفة بالديانة والحفظ والصيانة فجاء السقا على عادته يوما وصب الماء فى الحباب وكانت قائمة فى وسط الدار فدنا منها السقا وأخذ بيدها وفركها وعصرها ثم مضى وتركها فلما جاء زوجها من السوق قالت له انى أريد ان تعرفنى

أي شيء صنعت هذا اليوم في السوق ما يغضب الله تعالى فقال الرجل ما صنعت شيئا يغضب الله تعالى فقالت المرأة بلى والله انك فعلت شيئا يغضب الله تعالى وان لم تحدثني بما صنعت وتصدقني في حديثك لا اقعد في بيتك ولا تراني ولا أراك فقال أخبرك بما فعلته في يومي هذا على وجه الصدق اتفق لي اني جالس في الدكان على عادتي اذ جاءت امرأة الى دكاني وامرتني ان أصوغ لها سوارا وانصرفت فصغت لها سوارا من ذهب ورفعته فلما حضرت اتيتها به فاخرجت يدها ووضعت السوار في ساعدها فتحيرت من بياض يدها وحسن زندها الذي يسبي الناظر وتذكرت قول الشاعر

وسواعد تزهو بحسن أساور كالنار تضرم فوق ماء جار
فكأنما والتبر محتاط بها ماء تمنطق معجبا بالنار

فاخذت يدها وعصرتها ولويتها فقالت له المرأة الله اكبر لم فعلت هذا الجرم ان ذلك الرجل السقا الذي كان يدخل بيتنا منذ ثلاثين سنة ولم نر فيه خيانة أخذ اليوم يدي وعصرها ولواها فقال الرجل نسأل الله الامان ايتها المرأة انى تائب مما كان منى فاستغفري الله لي فقالت المرأة غفر الله لي ولك ورزقنا حسن العاقبة فلما كان الغد جاء الرجل السقا والقى نفسه بين يدي المرأة وتمرغ على التراب واعتذر اليها وقال ياسيدتي اجعليني في حل مما اغراني به الشيطان حيث أضلني واغواني فقالت له المرأة امض الى حال سبيلك فان ذلك الخطأ لم يكن منك وانما كان سببه من زوجي حيث فعل ما فعل في الدكان فاقتص الله منه في الدنيا وقيل ان الرجل الصائغ لما اخبرته زوجته بما فعل السقا معها قال دقة بدقة ولو زدت لزاد السقا فصار هذا الكلام مثلا سائرا بين الناس فينبغي للمرأة ان تكون مع زوجها ظاهرا وباطنا وتقنع منه بالقليل ان لم يقدر على الكثير وتقتدي بعائشة الصديقة وفاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنهما لتكون مع حواشي السلف

(ومما يحكي) انه كان في قديم الزمان وسالف العصر والاوان امرأة صالحة في بني اسرائيل وكانت تلك المرأة دينة عابدة تخرج كل يوم الى المصلى وكان بجانب تلك المصلى بستان فاذا خرجت الى المصلى تدخل ذلك البستان وتتوضأ منه وكان في البستان شيخان يحرسانه فتعلق الشيخان بتلك المرأة وراوداها عن نفسها فابت فقالا لها ان لم تمكنينا من نفسك لنشهدن عليك بالزنا فقالت لهما الجارية الله يكفيني شركما ففتحا باب البستان وصاحا فاقبل عليهما الناس من كل مكان وقالوا ما خبركما فقالا انا وجدنا هذه الجارية مع شاب يفجر بها وانفلت الشاب من ايدينا وكان الناس في ذلك الوقت ينادون بفضيحة الزاني ثلاثة أيام ثم يرجمونه فنادوا عليها ثلاثة أيام من أجل الفضيحة وكان الشيخان في كل يوم يدانون منها ويضعان أيديهما على رأسها ويقولان لها الحمد لله الذي انزل بك نقمته فلما أرادوا رجمها اتبعهم دانيال وهو ابن اثنتي عشرة سنة وهذه أول معجزة له على نبينا وعليه الصلاة والسلام ولم يزل تابعا لهم حتى لحقهم وقال لا تعجلوا عليها بالرجم حتى اقضي بينهم فوضعوا له كرسيا ثم جلس وفرق بين الشيخين وهو أول من فرق بين الشهود فقال لاحدهما ما رأيت فذكر له ما جرى فقال له حصل ذلك في أي مكان في البستان فقال في الجانب الشرقي تحت شجرة كمثرى ثم سأل

الثاني عمارأى فاخبره بما جرى فقال له في أى مكان في البستان فقال في الجانب الغربي تحت شجرة تفاح هذا والجارية واقفة رافعة رأسها ويديها الى السماء وهى تدعو الله بالخلاص فأنزل الله تعالى صاعقة من العذاب فأحرقت الشيخين واظهر الله تعالى براءة الجارية وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٠٨) قالت بلغني ايها الملك السعيد ان الصاعقة نزلت على الشيخين فاحرقتهما وأظهر الله براءة الجارية وهذا أول ماجرى من المعجزات لنبي الله دانيال عليه السلام

(ومما يحكى) ان أمير المؤمنين هرون الرشيد خرج يوما من الايام هو وابو اسحق النديم وجعفر البرمكي وأبو نواس وساروا في الصحراء فرأوا شيخا متكئا على حمار له فقال هرون الرشيد لجعفر اسأل هذا الشيخ من أين هو فقال له جعفر من أين جئت فقال له من البصرة فقال له جعفر والى أين سيرك قال الى بغداد قال وما تصنع فيها قال التمس دواء لعيني فقال هرون الرشيد ياجعفر مازحه فقال اذا مازحته أسمع منه ما أكره فقال بحقي عليك أن تمازحه فقال جعفر للشيخ ان وصفت لك دواء ينفعك ما الذى تكافئني به فقال له الله تعالى يكافئك عني ماهو خير لك من مكافئتي فقال انصت الى حتى أصف لك هذا الدواء الذى لا اصفه لاحد غيرك فقال له وماهو قال جعفر خذ لك ثلاث أواق من هبوب الريح وثلاث أواق من شعاع الشمس وثلاث أواق من زهر القمر وثلاث أواق من نور السراج واجمع الجميع وضعها في الريح ثلاثة أشهر ثم بعد ذلك ضعها في هون بلا قعر ودقها ثلاثة أشهر فاذا دققتها تضعها في جفنة مشقوقة وضع الجفنة في الريح ثلاثة أشهر ثم استعمل من هذا الدواء في كل يوم ثلاثة دراهم عند النوم واستمر على ذلك ثلاثة أشهر فانك تعافى ان شاء الله تعالى فلما سمع الشيخ كلام جعفر انسطح على حماره وضرط ضرطة منكرة وقال خذ هذه الضرطة مكافأة لك على وصفك هذا الدواء فاذا استعملته ورزقني الله العافية أعطيتك جارية تخدمك في حياتك خدمة يقطع الله بها أجلك فاذا مت وعجل الله بروحك الى النار وسخمت وجهك بخراها من حزنها عليك وتندب وتلطم وتنوح وتقول في نياحها ياساقع الذقن ما أسقع ذقنك فضحك هرون حتى استلقى على قفاه وأمر لذلك الرجل بثلاثة آلاف درهم

(وحكى) الشريف حسين بن ريان أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان جالسا في بعض الايام للقضاء بين الناس والحكم بين الرعايا وعنده أكابر أصحابه من أهل الرأى والاصابة فبينما هو جالس اذ أقبل عليه شاب من أحسن الشباب نظيف الثياب وقد تعلق به شابان من أحسن الشباب وقد جذبه الشابان من طوقه وأوقفاه بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فنظر أمير المؤمنين اليهما واليه فأمرهما بالكف عنه وادناه منه وقال للشابين ماقصتكما معه فقالا يا أمير المؤمنين نحن اخوان شقيقان وباتباع الحق حقيقان كان لنا أب شيخ كبير حسن التدبير معظم في القبائل منزه عن الرذائل معروف بالفضائل ربانا صغارا وأولانا كبارا وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٠٩) قالت بلغني ايها الملك السعيد ان الشابين قالا لامير المؤمنين عمر بن الخطاب

ان ابانا كان معظما فى القبائل منزه عن الرذائل معروفا بالفضائل ربانا صغارا وأولانا كبارا جم المناقب والمفاخر حقيقا بقول الشاعر

قالوا ابو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمري ولكن منه شيبان
فكم أب قد علا بابن ذرى شرف كما علت برسول الله عدنان

فخرج يوما الى حديقة له ليتنزه فى أشجارها و يقطتف يانع أثمارها فقتله هذا الشاب وعدل عن طريق الرشاد ونسألك القصاص بما جناه والحكم فيه بما أمرك الله فنظر عمر الى الشاب نظرة مرهبة وقال له قد سمعت من هذين الغلامين الخطاب فما تقول أنت في الجواب وكان ذلك الغلام ثابت الجنان جرىء الاسان قد خلع ثياب الهلع ونزع لباس الجزع فتبسم وتكلم بافصح لسان وحيا أمير المؤمنين بكلمات حسان ثم قال والله يا أمير المؤمنين لقد وعيت ما أدعوا وصدقا فيما قالاه حيث أخبرا بما جرى وكان امر الله قدرا مقدورا ولكن ساذكر قصتي بين يديك والامر فيها اليك اعلم يا أمير المؤمنين انى من صميم العرب العرباء الذين هم أشرف من تحت الجرباء نشأت فى منازل البادية فاصابت قومي سود السنين العادية فاقبلت الى ظاهر هذا البلد بالاهل والمال والولد وسلكت بعض طرائقها الى المسير بين حدائقها بنياق كريمة لدى عزيزات على بينهن فحل كريم الاصل كثير النسل مليح الشكل به يكثر منهن النتاج و يمشي بينهن كأنه ملك عليه تاج فندت بعض النياق الى حديقة أبيهم وقد ظهر من الحائط أشجارها فتناولته بمشفرها فطردتها عن تلك الحديقة واذا بشيخ من الحائط قد ظهر وزفير غيظه يرمى الشرر وفى يده اليمنى حجر وهو يتهادى كالليث اذا حضر فضرب الفحل بذلك الحجر فقتله لانه اصاب مقتله فلما رأيت الفحل قد سقط بجانبي آنست ان قلبي قد توقدت فيه جمرات الغضب فتناولت ذلك الحجر بعينه وضربته به فكان سببا لحينه ولقي سوء مقلبه والمرء مقتول بما قتل به وعند اصابته الحجر صاح صيحة عظيمة وصرخ صرخة اليمة فاسرعت بالسير من مكانى فاسرع هذان الشابان وامسكاني واليك أحضرانى و بين يديك أوقفانى فقال عمر رضى الله تعالى عنه قد اعترفت بما اقترفت وتعذر الخلاص ووجب القصاص ولات حين مناص فقال الشاب سمعا وطاعة لما حكم به الامام ورضيت بما اقتضته شريعة الاسلام ولكن لى أخ صغير كان له أب كبير خصه قبل وفاته بمال جزيل وذهب جليل وسلم امره الى واشهد الله على وقال هذا لاخيك عندك فاحفظه جهدك فاخذت ذلك المال منه ودفنته ولا أحد يعلم به الا انا فان حكمت الآن بقتلى ذهب المال وكنت أنت السبب فى ذهابه وطالبك الصغير بحقه يوم يقضى الله بين خلقه وان أنت انظرتنى ثلاثة أيام اقمت من يتولى أمر الغلام وعدت وافيا بالذمام ولى من يضمننى على هذا الكلام فاطرق امير المؤمنين رأسه ثم نظر الى من حضر وقال من يقوم بضمانه والعود الى مكانه فنظر الغلام الى وجوه من فى المجلس واشار الى ابى ذر دون الحاضرين وقال هذا يكفلنى ويضمننى وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٤١٠) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان الشاب لما أشار الي أبي ذر وقال هذا يكفلني

وكانت البنت نائمة والصياد مشغول بربط المركب فايقظها الملك من منامها فاستيقظت وهي تبكى فقال لها الملك من اين انت وابنة من انت وما سبب مجيئك هنا فقالت له الورد فى الاكمام انا ابنة ابراهيم وزير الملك شامخ وسبب مجيئى هنا امر عجيب وشأن غريب وحكت له جميع قصتها من اولها الى آخرها ولم تخف عنه شيئا ثم صعدت الزفرات وانشدت هذه الابيات

قد قرح الدمع جفنى فاقتضى عجبا ... من التكدر لما فاض وانسكبا
من أجل خل سوى فى مهجتى ابدا ... ولم انل فى الهوي من وصله اربا
له محيا جميل باهر نضر ... وفى الملاحة فاق الترك والعربا
والشمس والبدر قد مالا لطاعته ... كالصب والترما فى حبه الادبا
وطرفه يعجيب السحر مكتحل ... يريك قوسا لرمى السهم منتصبا
يامن له حالتى اوضحت معتذرا ... ارحم محبا به صرف الهوى لعبا
ان الهوى قد رمانى فى وسط ساحتكم ... ضعيف عزم ومنكم ارتجى حسبا
ان الكرام اذا ماحل ساحتهم ... مستحسب حماهم يرفع الحسبا
فاستر فضائح اهل العشق ياأملى ... وكن لوصلتهم ياسيدى سببا

فلما فرغت من شعرها حكت للملك قصتها من أولها الى آخرها فقال لها لا خوف عليك ولا فزع قد وصلت الى مرادك فلا بد ان أبلغك ماتريدينه وأوصل اليك ماتطلبينه فاسمعى منى هذه الكلمات ثم أنشد هذه الابيات

بنت الكرام بلغت القصد والاربا ... لك البشارات لا تخشى هنا نصبا
اليوم أجمع أموالا وارسلها ... لشامخ صحبة الفرسان والنجبا
نوافج المسك والديباج أرسلها ... وارسل الفضة البيضاء والذهبا
نعم وتخبره عنى بمكاتبتى ... انى مريدا له صهرا ومنتسبا
وأبذل اليوم جهدى فى معاونة ... حتى يكون الذى تهوين مقتربا
قد ذقت طعم الهوى دهرا واعرفه ... واعذر اليوم من كاس الهوى شربا

فلما فرغ من شعره خرج الى عسكره ودعا بوزيره وحزم له مالا لا يحصى وامره ان يذهب بذلك الى الملك شامخ وقال له لا بد ان تأتينى بشخص عنده اسمه أنس الوجود وقل له انه يريد مصاهرتك بالديز وج ابنته لانس الوجود تابعك فلا بد من ارساله معى حتى نعقد عقده عليها فى مملكة أبيها ثم ان الملك درباس كتب مكتوبا للملك شامخ بمضمون ذلك واعطاه لوزيره وأكد عليه فى الاتيان بانس الوجود وقال له ان لم تأتنى به تكون معزولا عن مرتبتك فقال له سمعا وطاعة ثم توجه بالهدية الى الملك شامخ فلما وصل اليه بلغه السلام عن الملك درباس واعطاه المكاتبة والهدية التى معه فلما رآه الملك شامخ وقرأ المكاتبة ونظر اسم انس الوجود بكى بكاء شديدا وقال للوزير المرسل اليه واين أنس الوجود فانه ذهب ولا نعلم مكانه فاتنى به وأنا أعطيك أضعاف ماجئت به من الهدية

ثم بكى وان واشتكى وافاض العبرات وانشد هذه الابيات

ردوا على حبيبي لا حاجة لي بمال ولا أريد هدايا من جوهر ولآلي
قد كان عندي بدرا سما بافق جمال وفاق حسنا ومعنى ولم يقس بغزال
وقد غصن بان اثماره من دلال وليس في الغصن طبع يسبي عقول الرجال
ربيته وهو طفل على مهاد الدلال واننى لحزين عليه مشغول بال

ثم التفت الى الوزير الذي جاء بالهدية والرسالة وقال له اذهب الى سيدك واخبره ان أنس الوجود مضى عام وهو غائب رشيده ثم يدر أين ذهب ولا يعرف له خبر فقال له الوزير يامولاي ان سيدى قال لى ان لم تأتني به تكن معزولا عن الوزارة ولا تدخل مدينتي فكيف اذهب اليه بغيره فقال الملك شامخ لوزيره ابراهيم اذهب معه صحبة جماعة وفتشوا على انس الوجود في سائر الاماكن فقال له سمعا وطاعة ثم أخذ جماعة من اتباعه واستصحب وزير الملك درباس وساروا في طلب انس الوجود وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٤٠٤) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان ابراهيم وزير الملك شامخ أخذ جماعة من أتباعه واستصحب وزير الملك درباس وساروا في طلب انس الوجود فكانوا كلما مروا بعرب أو قوم يسألونهم عن أنس الوجود فيقولون لهم هل مر بكم شخص اسمه كذا وصفته كذا وكذا فيقولون لا نعلمه ومازالوا يسألون في المدائن والقرى ويفتشون في السهول والاوعار والبراري والقفار حتى وصلوا الى شاطىء البحر وطلعوا في مركب ونزلوا فيها وساروا بها حتى أقبلوا على جبل الثكلى فقال وزير الملك درباس لوزير الملك شامخ لاى شىء سمي هذا الجبل بذلك الاسم فقال له لانه نزلت به جنية في قديم الزمان وكانت تلك الجنية من جن الصين وقد أحبت انسانا ووقع لها معه غرام وخافت على نفسها من أهلها فلما زادبها الغرام فتشت في الارض على مكان تخفيه فيه عن أهلها فوجدت هذا الجبل منقطعا عن الانس والجن بحيث لا يهتدي الى طريقه أحد من الانس والجن فاختطفت محبوبها ووضعته فيه وصارت تذهب الى أهلها وتأتيه في خفية ولم تزل على ذلك زمنا طويلا حتي ولدت منه في ذلك الجبل اطفالا متعددة وكان كل من يمر على هذا الجبل من التجار والمسافرين في البحر يسمع بكاء الاطفال كبكاء المرأة التي ثكلت أولادها أي فقدتهم فيقول هل هنا ثكلى فتعجب وزير الملك درباس من هذا الكلام ثم انهم ساروا حتى وصلوا الى القصر وطرقوا الباب فانفتح الباب وخرج لهم خادم فعرف ابراهيم وزير الملك شامخ فقبل يده ثم دخل القصر فوجد في فسحته رجلا فقيرا بين الخدامين وهو انس الوجود فقال لهم من أين هذا فقالوا له انه رجل تاجر غرق ماله ونجا بنفسه وهو مجذوب فتركه ثم مشى الى داخل القصر فلم يجد لابنته أثرا فسأل الجواري التي هناك فقلن له ما عرفنا كيف راحت ولا أقامت معنا سوى مدة يسيرة فسكب العبرات وأنشد هذه الابيات

أيها الدار التي أطيارها قد تغنت وازدهت أعتابها
فاتاها الصب ينعى شوقه ورآها فتحت أبوابها

ليت شعري أين ضاعت مهجتي عند دار قد نأت أربيها
كان فيها كل شيء فاخر واستطالت واعتلت حجابها
وكسوها حلل من سندس ياترى أين غدت أصحابها

فلما فرغ من شعره بكى وان واشتكى وقال لا حيلة في قضاء الله ولا مفر مما قدره وقضاه ثم طلع الى سطح القصر فوجد الثياب البعلبكية مربوطة في شراريف القصر واصلة الى الارض فعرف انها نزلت من ذلك المكان وراحت كالهائم الولهان والتفت فرأى هناك طيرين غرابا وبومة فتشاءم من ذلك وصعد الزفرات وأنشد هذه الابيات

أتيت إلى دار الأحبة راجيا بآثارهم اطفاء وجدي ولوعتي
فلم أجد الاحباب فيها ولم أجد بها غير مشؤمي غراب و بومة
وقال لسان الحال قد كنت ظالما وفرقت بين المغرمين الاحبة
فذق طعم ماذاقوه من ألم الجوى وعش كمدا ما بين دمع وحرقة

ثم نزل من فوق القصر وهو يبكي وقد أمر الخدام ان يخرجوا إلى الجبل و يفتشوا على سيدتهم ففعلوا ذلك فلم يجدوها هذا ما كان من أمرها (وأما) ما كان من أمر أنس الوجود فانه لما تحقق أن الورد في الاكمام قد ذهبت صاح صيحة عظيمة ووقع مغشيا عليه واستمر في غشيته فظنوا أنه أخذته جذبة من الرحمن واستغرق في جمال هيبة الديان ولما يئسوا من وجود أنس الوجود واشتغل قلب الوزير ابراهيم بفقد بنته الورد في الاكمام أراد وزير الملك درباس أن يتوجه إلى بلاده وان لم يفز من سفره بمراده فلما أخذ يودعه الوزير ابراهيم والد الورد في الاكمام فقال له وزير الملك درباس إني أريد أن آخذ هذا الفقير معي عسى الله تعالى أن يعطف على الملك ببركته لانه مجذوب ثم بعد ذلك أرسله إلى بلاد أصبهان لانها قريبة من بلادنا فقال له افعل ما تريد ثم انصرف كل منهما متوجها إلى بلاده وقد أخذ وزير الملك درباس أنس الوجود معه وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٠٥) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن وزير الملك درباس أخذ أنس الوجود وهو مغشي عليه وسار ثلاثة أيام وهو في غشيته محمول على البغال ولا يدري هل هو محمول أو لا فلما أفاق من غشيته قال في أي مكان أنا فقالوا له أنت صحبة وزير الملك درباس ثم ذهبوا الى الوزير وأخبروه أنه قد أفاق فأرسل اليه ماء الورد والسكر فسقوه وأنعشوه ولم يزالوا مسافرين حتى قربوا من مدينة الملك درباس فأرسل الملك إلى الوزير يقول له ان لم يكن أنس الوجود معك فلا تأتني أبدا فلما قرأ مرسوم الملك عسر عليه ذلك وكان الوزير لا يعلم أن الورد في الاكمام عند الملك ولا يعلم ما سبب ارسال الملك اياه إلى أنس الوجود ولا يعلم ما سبب رغبته في مصاهرته وأنس الوجود لا يعلم أين يذهبون به ولا يعلم أن الوزير مرسل في طلبه والوزير لا يعلم أن هذا هو أنس الوجود فلما رأى الوزير أن أنس الوجود قد استفاق قال له ان الملك أرسلني في حاجة وهي لم تقض ولما علم

بقدومى أرسل إلى مكتوبا يقول لى فيه ان لم تكن الحاجة قد قضيت فلا تدخل مدينتى فقال له وما حاجة الملك فحكى له جميع الحكاية فقال له أنس الوجود لا تخف واذهب الى الملك وخذنى معك وأنا أضمن بمجىء أنس الوجود ففرح الوزير بذلك وقال له أحق ماتقول فقال نعم فركب وأخذه معه وسار به إلى الملك فلما وصلا إلى الملك قال له أين أنس الوجود فقال له أنس الوجود أيها الملك أنا أعرف مكان أنس الوجود فقربه اليه وقال له في أى مكان هو قال فى مكان قريب جدا ولكن أخبرنى ماذا تريد منه وأنا أحضره بين يديك فقال له حبا وكرامة ولكن هذا الامر يحتاج الى خلوة ثم أمر الناس بالانصراف ودخل معه خلوة وأخبره الملك بالقصة من أولها إلى آخرها فقال له أنس الوجود ائتنى بثياب فاخرة والبسنى إياها وأنا آتيك بأنس الوجود سريعا فأتاه ببدلة فاخرة فلبسها وقال أنا أنس الوجود وكمد الحسود ثم رمى القلوب باللحظات وانشد هذه الابيات

يؤانسنى ذكر الحبيب بخلوتى ... ويطرد عنى فى التباعد وحشتى
ومالى غير الدمع عين وانما ... اذا فاض من عينى يخفف زفرتى
وشوقى شديد ليس يوجد مثله ... وأمري عجيب فى الهوى والمحبة
فأقطع ليلى ساهر الجفن لم أنم ... وفى العشق أسعى بين نار وجنة
وقد كان لى صبر جميل عدمته ... وما منحنى فى الحب إلا بمحنتى
وقد رق جسمي من أليم بعادهم ... وغيرت الاشواق وصفى وصورتي
وأجفان عينى بالدموع تقرحت ... ولم أستطع أنى أرجع دمعتى
وقد قل حيلى والفؤاد عدمته ... وكم ذا ألاقى لوعة بعد لوعة
وقلبي ورأسي بالمشيب تشابها ... على سادة فى الحسن أحسن سادة
على زعمهم كان التفرق بيننا ... وما قصدهم الا لقائى ووصلتى
فياهل ترى بعد التقاطع والنوى ... يمتعنى دهرى بوصل أحبتى
ويطوى كتاب البعد من بعد نشره ... وتمحى براحات الوصال مشقتى
ويبقى حبيبى فى الديار منادمى ... وتبدل أحزانى بصفو سريرتى

فلما فرغ من شعره قال له الملك والله انكما لمحبان صادقان وفى سماء الحسن كوكبان نيران وأمركما عجيب وشأنكما غريب ثم حكى له حكاية الوردفي الاكمام إلى آخرها فقال له وأين هي ياملك الزمان قال هي عندى الآن ثم أحضر الملك القاضى والشهود وعقد عقدها عليه وأكرمه وأحسن اليه ثم أرسل الملك درباس إلى الملك شامخ وأخبره بجميع مااتفق له من امر أنس الوجود والورد فى الاكمام ففرح الملك شامخ بذلك غاية الفرح وأرسل اليه مكتوبا مضمونه حيث حصل عقد العقد عندك ينبغى أن يكون الفرح والدخول عندى ثم جهز الجمال والخيل والرجال وأرسل فى طلبهما فلما وصلت الرسالة إلى الملك درباس أمدهما بمال عظيم وأرسلهما مع جملة عسكره فساروا بهما حتى دخلوا مدينتهما وكان يوما مشهودا لم ير أعظم منه وجمع الملك شامخ سائر المطربات من

آلات المغاني وعمل الولائم ومكثوا على ذلك سبعة أيام وفي كل يوم يخلع الملك شامخ على الناس الخلع السنية ويحسن اليهم ثم ان انس الوجود دخل على الورد في الاكمام فعانقها وجلسا يبكيان من فرط الفرح والمسرات فأنشد هذه الابيات

جاء السرور أزال الهم والحزنا ثم اجتمعنا وأكمدنا حواسدنا
ونسمة الوصل قد هبت معطرة فأحيت القلب والاحشاء والبدنا
وبهجة الانس قد لاحت مخلقة وفي الخوافق قد دقت بشائرنا
لا تحسبوا اننا باكون من حزن لكن من فرح فاضت مدامعنا
فكم راينا من الاهوال وانصرفت وقد صبرنا على ما هيج الشجنا
فساعة من وصال قد نسيت بها ما كان من شدة الاهوال شيبنا

فلما فرغ من شعره تعانقا ولم يزالا متعانقين حتى وقعا مغشيا عليهما . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٠٥) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان أنس الوجود والورد في الاكمام لما اجتمعا تعانقا ولم يزالا متعانقين حتى وقعا مغشيا عليهما من لذة الاجتماع فلما أفاقا من غشيتهما أنشد أنس الوجود هذه الابيات

ما أحلاها ليلات الوفا حيث أمسى لي حبيبي منصفا
وتوالى الوصل فيما بيننا وانفصال الهجر عنا قد وفى
والينا الدهر يسعى مقبلا بعد ما مال وعنا انحرفا
نصب السعد لنا أعلامه وشربنا منه كأسا قد صفا
واجتمعنا وتشاكينا الاسى ولييلات تقضت بالجفا
ونسينا ما مضى ياسادتي وعفا الرحمن عما سلفا
ما ألذ العيش ما أطيبه لم يزدني الوصل الا شغفا

فلما فرغ من شعره تعانقا واضطجعا في خلوتهما ولم يزالا في منادمة واشعار ولطف حكايات واخبار حتى غرقا في بحر الغرام ومضت عليهما سبعة أيام وهما لا يدريان ليلا من نهار لفرط ما هما فيه من لذة وسرور وصفو وحبور فكأن السبعة أيام يوم واحد ليس له ثاني وما عرفا يوم الاسبوع إلا بمجيء آلات المغاني فأكثرت الورد في الاكمام التعجبات وأنشدت هذه الابيات

على غيظ الحواسد والرقيب بلغنا ما نريد من الحبيب
وأسعفنا التوصل باعتناق على الديباج والقز القشيب
وفرش من أديم قد حشونا بريش الطير من شكل غريب
وعن شرب المدام قد اغتنينا بريق الحب جل عن الضريب
ومن طيب الوصال فليس ندري باوقات البعيد من القريب
ليالي سبعة مرت علينا ولم نشعر بها كم من عجيب

وسلم على العابد فرد عليه السلام وقال له ما اسمك قال اسمي انس الوجود فقال له ما سبب مجيئك الى هذا المكان فقص عليه قصته من أولها الى آخرها واخبره بجميع ماجرى له فبكى العابد وقال له يا انس الوجود ان لى في هذا المكان عشرين عاما مارأيت فيه أحدا إلا بالامس فانى سمعت بكاء وغواشا فنظرت إلى جهة الصوت فرأيت ناسا كثيرين وخياما منصوبة على شاطىء البحر وأقاموا مركبا ونزل فيها قوم منهم وساروا بها فى البحر ثم رجع بالمركب بعض من نزل فيها وكسروها وتوجهوا الى حال سبيلهم وأظن ان الذين ساروا على ظهر البحر ولم يرجعوا هم الذين أنت فى طلبهم يا انس الوجود وحينئذ همك عظيم وأنت معذور ولكن لا يوجد محب الا وقد قاسى الحسرات ثم انشد العابد هذه الابيات

انس الوجود خلي البال تحسبني والشوق والوجد يطويني وينشرني
أني عرفت الهوى والعشق من صغرى من حين كنت صبيا راضع اللبن
مارسته زمنا حتى عرفت به ان كنت تسأل عنى فهو يعرفني
شربت كأس الجوى من لوعة وضنى فصرت محوا به من رقة البدن
قد كنت ذاقوة لكن وهي جلدى وجيش صبرى بأسياف اللحاظ فنى
لا ترتجي فى الهوي وصلا بغير جفا فالضد بالضد مقرون مدى الزمن
قضى الغرام على العشاق اجمعهم ان السلو حرام بدعة الفتن

فلما فرغ العابد من انشاد شعره قام إلى انس الوجود وعانقه . وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٤٠٠) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أن العابد لما فرغ من انشاد شعره قام الى انس الوجود وعانقه وتباكيا حتي دوت الجبال من بكائهما ولم يزالا يبكيان حتى وقعا مغشيا عليهما ثم افاقا وتعاهدا على انهما اخوان فى عهد الله تعالى ثم قال العابد لانس الوجود انا فى هذه الليلة أصلى واستخير الله لك على شيء تعمله فقال له انس الوجود سمعا وطاعة هذا ما كان من أمر انس الوجود (وأما) ما كان من أمر الورد في الاكمام فانهم لما وصلوا بها الى الجبل وادخلوها القصر ورأته ورأت ترتيبه بكت وقالت والله انك مكان مليح غير انك ناقص وجود الحبيب فيك ورأت فى تلك الجزيرة أطيارا فامرت بعض اتباعها أن ينصب لها فخا ويصطاد به منها وكل ما اصطاده يضعه فى اقفاص من داخل القصر ففعل ما أمرته به ثم انها قعدت فى شباك القصر وتذكرت ماجرى لها وزادبها الغرام والوجد والهيام فسكبت العبرات وانشدت هذه الابيات

يالمن اشتكي الغرام الذى بى وشجوني وفرقتي عن حبيبي
ولهيبا بين الضلوع ولكن لست أبديه خيفة من رقيب
ثم أصبحت رق عود خلال من بعاد وحرقة ونحيب
أين عين الحبيب حتى ترانى كيف أصبحت مثل حال السليب

قد تعدوا على اذ حجبوني ... في مكان لم يستطعه حبيبي
اسأل الشمس حمل الف سلام ... عند وقت الشروق ثم الغروب
لحبيب قد أخجل البدر حسنا ... مذ تبدى وفاق قد القضيب
ان حكى الورد خده قلت فيه ... لست تحكي ان لم تكن من نصيبي
ان في ثغره لسلسال ريق ... يجلب البرد عند حر اللهيب
كيف أسلوه وهو قلبي وروحي ... مسقمي ممرضي حبيبي طبيبي

هذا ما كان من أمر الورد في الاكمام (وأما) ما كان من أمر أنس الوجود فان العابد قال له انزل الى الوادي وائتني من النخيل بليف فنزل وجاءه بليف فاخذه العابد وفتله وجعله شنفاً مثل أشناف التبن وقال له يا أنس الوجود أن في جوف الوادي فرعا يطلع وينشف على أصوله فانزل اليه واملأ هذا الشنف منه واربطه وارمه في البحر واركب عليه واتوجه به الى وسط البحر لعلك تبلغ قصدك فان من لم يخاطر بنفسه لم يبلغ المقصود فقال سمعا وطاعة ثم ودعه وانصرف من عنده الى ما أمره به بعد أن دعا له العابد ولم يزل انس الوجود سائرا إلى جوف الوادي وفعل كما قال له العابد ولما وصل بالشنف الى وسط البحر هبت عليه ريح فزقه بالشنف حتى غاب عن عين العابد ولم يزل سابحا في لجة البحر ترفعه موجة وتحطه أخرى وهو يرى ما في البحر من العجائب والاهوال إلى أن رمته المقادير على جبل الثكلى بعد ثلاثة أيام فنزل إلى البر مثل الفرخ الدايخ لهفان من الجوع والعطش فوجد في ذلك المكان أنهارا جارية وأطيارا مغردة على الاغصان وأشجارا مثمرة صنوانا وغير صنوان فأكل من الاثمار وشرب من الانهار وقام يمشي فرأى بياضا على بعد فمشى جهته حتى وصل اليه فوجده قصرا منيعا حصينا فأتي إلى باب القصر فوجده مقفولا فجلس عنده ثلاثة أيام فبينما هو جالس واذا بباب القصر قد فتح وخرج منه شخص من الخدم فرأى انس الوجود قاعدا فقال له من أين أتيت ومن أوصلك إلى هنا فقال من اصبهان وكنت مسافرا في البحر بتجارة فانكسرت المركب التي كنت فيها فرمتني الامواج على ظهر هذه الجزيرة فبكى الخادم وعانقه وقال حياك الله يا وجه الاحباب أن اصبهان بلادي ولي فيها بنت عم كنت أحبها وأنا صغير وكنت مولعا بها فغزى بلادنا قوم أقوى منا وأخذوني في جملة الغنائم وكنت صغيرا فقطعوا احليلي ثم باعوني خادما وها أنا في تلك الحالة وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٠١) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن الخادم الذي خرج من قصر الورد في الاكمام حدث أنس الوجود بجميع ما حصل له وقال له ان القوم الذين اخذوني قطعوا احليلي وباعوني خادما وها أنا في تلك الحالة وبعد ما سلم عليه وحياه أدخله ساحة القصر فلما دخل رأي بحيرة عظيمة وحولها أشجار وأغصان وفيها أطيار في أقفاص من فضة وأبوابها من الذهب وتلك الاقفاص معلقة على الاغصان والاطيار فيها تناغي وتسبح الملك الديان فلما وصل الى أولها تأمله فاذا هو قمري فلما رآه الطير مد صوته وقال يا كريم فغشي على انس الوجود فلما أفاق من غشيته مد الزفرات وانشد هذه

الابيات

أيها القمرى هل بمثلى تهيم	فاسأل المولى وغرد يا كريم
ياترى نوحك هذا طرب	أو غرام منك فى القلب مقيم
أن تنح وجدا الأحباب مضوا	أو تخلفت بهم مضنى سقيم
أوفقدت الحب مثلى فى الهوى	فالتجافى يظهر الوجد القديم
ياراعى الله محبا صادقا	لست أسلوه ولو عظمى رميم

فلمافرغ من شعره بكى حتى وقع مغشيا عليه وحين أفاق من غشيته مشى حتى وصل الى ثانى قفص فوجده فاختا فلما رآه الفاخت غرد وقال يادائم أشكرك فصعد أنس الوجود الزفرات وأنشد هذه الابيات

وفاخت قد طال فى نوحه	يادائما شكرا على بلوتى
عسى لعل الله من فضله	يقضى بوصل الحب فى سفرتي
ورب معسول اللمي زارنى	فزادنى عشقا على صبوتى
قلت والنيران قد اضرمت	فى القلب حتي أحرقت مهجتى
والدمع مسفوك يحاكى دما	قد فاض جارية على وجنتي
ماثم مخلوق بلا محنة	لكن لى صبرا على محنتي
بقدرة الله متى لمنى	وقت الصفا يوما على سادتى
جعلت للعشاق مالى قرى	لانهم قوم على سنتي
واطلق الأطيار من سجنها	واترك الاحزان من فرحتي

فلمافرغ من شعره تمشى الى ثالث قفص فوجده هزارافزعق الهزار عندرؤيته فلماسمعه أنشد هذه الابيات

ان الهزار لطيف الصوت يعجبنى	كأنه صوت صب فى الغرام فنى
وارحمتاه على العشاق كم قلقوا	من ليلة بالهوى والشوق والمحن
كأنهم من عظيم الشوق قد خلقوا	بلا صباح ولا نوم من الشجن
لما جننت بمن أهواه قيدنى	فيه الغرام ولما فيه قيدنى
تسلسل الدمع من عينى فقلت له	سلاسل الدمع قد طالت فسلسلنى
زاد اشتياقى وطال البعد وانعدمت	كنوز صبرى وفرط الوجد اتلفنى
ان كان الدهر انصاف ويجمعنى	بمن أحب وستر الله يشملنى
قلعت ثوبى لحبى كى يرى جسدى	بالصد والبعد والهجران كيف ضنى

فلما فرغ من شعره تمشى الى رابع قفص فرآه بلبلافناح وغردعند رؤية انس الوجود فلما سمع تغريده سكب العبرات وانشدهذه الابيات

ان للبلبل صوتا فى السحر　　شغل العاشق من حسن الوتر
فى الهوى انس الوجود لمشتكى　　من غرام قد محا منه الاثر
كم سمعنا صوت الحان محت　　طربا صلد حديد وحجر
ونسيم الصبح قد يروى لنا　　عن رياض يانعات بالزهر
فطربنا بسماع وشذا　　من نسيم وطيور في السحر
وتذكرنا حبيبا غائبا　　فجري الدمع سيولا ومطر
ولهيب النار فى احشائنا　　مضمر ذاك كجمر بالشرر
متع الله محبا عاشقا　　من حبيب بوصال ونظر
ان للعشاق عذرا واضحا　　ليس يدرى العذر الاذو النظر

فلما فرغ من شعره مشى قليلا فرأى قفصا حسنا لم يكن هناك أحسن منه فلما قرب منه وجده حمام الايك وهو اليمام المشهور من بين الطيور ينوح الغرام وفى عنقه عقد من جوهر بديع النظام وتأمله فوجده ذاهلا باطلا باهتا فى قفصه فلما رآه بهذا الحال أفاض العبرات وانشد هذه الابيات

يا حمام الايك أقريك السلام　　يا أخا العشاق من أهل الغرام
إننى أهوى غزالا أهيفا　　لحظه أقطع من حد الحسام
فى الهوى أحرق قلبي والحشى　　وعلا جسمى نحول وسقام
ولذيذ الزاد قد أحرمته　　مثل ما أحرمت من طيب المنام
واصطباري وسلوي رحلا　　والهوى بالوجد عندى قد أقام
كيف يهنا العيش لى من بعدهم　　وهموا روحى وقصدى والمرام

فلما فرغ أنس الوجود من شعره وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٢٠٤) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان أنس الوجود لما فرغ من شعره التفت الى صاحبه الاصبهانى وقال له ماهذا القصر ومن هو من بناه قال له بناه وزير الملك الفلانى لابنته خوفا عليها من عوارض الزمان وطوارق الحدثان وأسكنها فيه هي واتباعها ولا تفتحه الا فى كل سنة مرة لما تأتى فيه مؤنتهم فقال فى نفسه قد حصل المقصود ولكن المدة طويلة هذا ما كان من أمر انس الوجود وأما ما كان من أمر الورد فى الاكمام فانها لم يهنأ لها شراب ولا طعام ولا قعود ولا منام فقامت وقد زاد بها الغرام والوجد والهيام ودارت فى أركان القصر فلم تجد لها مصرفا فسكبت العبرات وأنشدت هذه الابيات

حبسونى عن حبيبي قسوة　　واذاقونى بسجني لوعتى
احرقوا قلبي بنيران الهوى　　حيث ردوا عن حبيبي نظرتى
حبسونى فى قصور شيدت　　فى جبال خلقت فى لجة
أن يكونوا قد أرادوا سلوتي　　لم تزد فى الحب الا محنتى

كيف أسلو والذى بى كله ... أصله فى وجه حبى نظرتى
فنهارى كله فى أسف ... اقطع الليل بهم فى فكرتى
وانيـى ذكرهم فى وحدتى ... حين الق من لقاهم وحشتى
ياترى هل بعد هـذا كله ... يسمح الدهر بلقيا منيتى

فلما فرغت من شعرها طلعت الى سطح القصر وأخذت أثوابا بعلبكية. وربطت نفسها فيها وتدلت حتى وصلت الى الأرض وقـد كانت لابسة أفخر ما عنـدها من اللباس وفى عنقها عقد من الجواهر وسارت فى تلك البرارى والقفار حتى وصلت الى شاطىء البحر فرأت صيادا فى مركب دائر فى البحر يصطاد فرماه الريح علي تلك الجزيرة فالتفت فرأى انورد فى الاكام فى تلك الجزيرة فلما رآها فزع منها وخـرج بالمركب هاربا فادته وأكثرت اليه الاشارات وانشدت هـذه الابيات

يا أيها الصياد لاتخشى الـكدر ... انني انسية مثل البشر
أريد منك ان تجيب دعوتى ... وتسمعن قولى باسناد الخبر
فارحم وقاك الله حر صبوتى ... ان أبصرت عيناك محبوبا نفر
فاننى أهوى مليحا وجهه ... فاق وجـه الشمس نور القمر
والظبي لما ان رأى الحاظه ... قد قال انى عبده ثم اعتذر
قد كتب الحسن على وجنته ... سطرا بديعا فى المعانى مختصر
فمن رأى نور الهوى قـد اهتدى ... اما الذى ضل تعدي وكفر
ان شاء تعذيبى به ياحبذا ... فـكل ما القاه اجـرأ واجر
ومن يواقيت وما أشبهها ... ولؤلؤ رطب وأنواع الدرر
عسى حبيبى ان يوي بالمنى ... فان قلبى ذاب شوقا وانفطر

فلما سمع الصياد كلامها ارسى مركبه على البر وقال لها انزلى في المركب حتى أعدى بك الى اى موضع تريدين فنزلت في المركب وعوم بها فلما فارق البر بقليل هبت على المركب ريح من خلفها فسارت المركب بسرعة حتى غاب البر عن اعينهما وصار الصياد لا يعرف اين يذهب ومكث اشتداد الريح مدة ثلاثة أيام ثم سكن الريح باذن الله تعالي ولم تزل المركب تسير بهما حتى وصلت الى مدينة على شاطىء البحر وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

(وفى ليلة ٣٠٤) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان المركب لما وصلت بالصياد والورد فى الأكمام الى مدينة على شاطىء البحر أراد الصياد ان يرسى مركبه على تلك المدينة وكان فيها ملك عظيم السطوة يقال له درباس وكان فى ذلك الوقت جالسا هو وابنه فى قصر مملكته وصار ينظران من شباك القصر فالتفتا الى جهة البحر فرأيا تلك المركب فتأملاها فوجدا فيها صبية كأنها البدر فى أفق السماء وفى اذنيها حلق من البلخش الغالى وفى عنقها عقد من الجوهر النفيس فعرف الملك انها من بنات الاكابر والملوك فنزل الملك من قصره وخرج من باب القيطون فراي المركب قد رست على الشاطىء

كلفت بها فتانة الترك والعرب تجادلنى فى الفقه والنحو والادب
تقول انا المفعول بى وخفضتنى لماذا وهذا فاعل فلم انتصب
فقلت لها نفسى وروحى لك الفدا الم تعلمى ان الزمان قد انقلب
وان كنت يوما تنكرين انقلابه فها فانظري ماعقدة الرأس فى الذنب

وكان اسمها الوردفى الأكمام وسبب تسميتها بذلك فرط رقتها وكمال بهجتها وكان الملك محبا لمنادمتها لكمال ادبها ومن عادة الملك أنه فى كل عام يجمع أعيان مملكته ويلعب بالكرة فلما كان ذلك اليوم الذى يجمع فيه الناس للعب الكرة جلست ابنة الوزير فى الشباك لتتفرج فبينماهم فى اللعب اذ لاحت منها التفاتة فرأت بين العسكر شابا لم يكن أحسن منه منظرا ولا ابهى طلعة نير الوجه ضاحك السن طويل الباع واسع المنكب فكررت فيه النظر مرارا فلم تشبع منه النظر فقالت لدايتها ما اسم هذا الشاب المليح الشمائل الذى بين العسكر فقالت لها يابنتى الكل ملاح فمن هو فيهم فقالت لها اصبرى حتى أشير لك عليه ثم أخذت تفاحة ورمتها عليه فرفع رأسه فرأى ابنة الوزير فى الشباك كأنها البدر فى الافلاك فلم يرد اليه طرفه الا وهو بعشقها مشغول الخاطر فانشد قول الشاعر

أرمانى القواس أم جفناك فتكا بقلب الصب حين رآك
وأتانى السهم المفوق برهة من جحفل أم جاء من شباك

فلما فرغ اللعب قالت لدايتها مااسم هذا الشاب الذى وريته لك قالت اسمه أنس الوجود فهزت رأسها ونامت فى مرتبتها وقدحت فكرتها ثم صعدت الزفرات وانشدت هذه الابيات

ماخاب من سماك انس الوجود ياجامعا مابين انس وجود
ياطلعة البدر الذى وجهه قد نور الكون وعم الوجود
ماأنت الا مفرد فى الورى سلطان ذى حسن وعنده شهود
حاجبك النون التى حررت ومقلتاك الصاد صنع الودود
وقدك الغصن الرطيب الذى اذا دعى فى كل شىء يجود
قد فقت فرسان الورى سطوة ولم تزل بفرط حسنك تسود

فلما فرغت من شعرها كتبته فى قرطاس ولفته فى خرقة من الحرير مطرزة بالذهب ووضعته تحت المخدة وكانت واحدة من داياتها تنظر اليها فجاءتها وصارت تمارسها حتى نامت وسرقت الورقة من تحت المخدة وقرأتها فعرفت إنها حصل لها وجد بأنس الوجود وبعد أن قرأت الورقة وضعتها فى مكانها فلما استفاقت سيدتها الوردفى الأكمام من نومها قالت لها ياسيدتى انى لك من الناصحات وعليك من الشفيقات اعلمى ان الهوى شديد وكتمانه يذيب الحديد ويورث الامراض والاسقام وما على من يبوح بالهوى ملام فقالت لها الوردفى الأكمام يادايتى ومادواء الغرام قالت دواؤه الوصال قالت وكيف يوجد الوصال قالت ياسيدتى يوجد بالمراسلة ولين الكلام واكثار التحية والسلام فهذا يجمع بين الاحباب وبه تسهل الامور الصعاب وان كان لك أمر يامولاتى فانا أولى بكتم سرك

وقضاء حاجتك وحمل رسائلك فلما سمعت منها الورد فى الاكمام هذا الكلام طار عقلها من الفرح لكن أمسكت نفسها عن الكلام حتى تنظر عاقبة أمرها وقالت فى نفسها ان هذا الامر ما عرفه أحد منى فلا أبوح به لهذه المرأة الا بعد ان اختبرها فقالت المرأة ياسيدتى انى رأيت فى منامى كأن رجلا جاءنى وقال لى ان سيدتك وانس الوجود متحابان فمارسى أمرهما واحملى رسائلهما واقضى حوائجهما واكتمى أمرهما واسرارهما يحصل لك خير كثير وها انا قد قصصت ما رأيت عليك والامر اليك فقالت الورد فى الاكمام لدايتها لما أخبرتها بالمنام وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٩٦) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان الورد فى الاكمام قالت لدايتها لما أخبرتها بالمنام الذى رأته هل تكتمين الاسرار يادايتى فقالت كيف لا اكتم الاسرار وانا من خلاصة الاحرار فأخرجت لها الورقة التى كتبت فيها الشعر وقالت لها اذهبي برسالتى هذه الى انس الوجود وائتيني بجوابه فاخذتها وتوجهت بها الى أنس الوجود فلما دخلت عليه قبلت يديه وحيته بألف سلام ثم أعطته القرطاس فقرأه وفهم معناه ثم كتب في ظهره هذه الابيات

اعلل قلبي فى الغرام واكتم ... ولكن حالى عن هواى يترجم

وان فاض دمعى قلت جرح بمقلتي ... لئلا يرى حالى العذول فيفهم

وكنت خليا لست اعرف ما الهوى ... فأصبحت صبا والفؤاد متيم

رفعت اليكم قصتى اشتكى بها ... غرامي ووجدى كى ترقوا وترحموا

وسطرتها من دمع عينى لعلها ... بما حل بي منكم اليكم تترجم

رعى الله وجها بالجمال مبرقا ... له البدر عبد والكواكب تخدم

على حسن ذات ما رأيت مثيلها ... ومن ميلها الاغصان عطفا تتعلم

واسألكم من غير حمل مشقة ... زيارتنا ان الوصال معظم

وهبت لكم روحى عسى تقبلونها ... فلى الوصل خلد والصدود جهنم

ثم طوى الكتاب وقبله وأعطاه لها وقال لها يادايه استعطفى خاطر سيدتك فقالت له سمعا وطاعة ثم أخذت منه المكتوب ورجعت الى سيدتها وأعطتها القرطاس فقبلته ورفعته فوق رأسها ثم فتحته وقرأته وفهمت معناه وكتبت فى أسفله هذه الابيات

يامن تولع قلبه بجمالنا ... اصبر لعلك فى الهوى تحظى بنا

لما علمنا ان حبك صادق ... وأصاب قلبك ما أصاب فؤادنا

زدناك فوق الوصل وصلا مثله ... لكن منع الوصل من حجابنا

واذا تجلى الليل من فرط الهوى ... تتوقد النيران فى أحشائنا

وجفت مضاجعنا الجنوب وربما ... قد برح التبريح فى أجسامنا

الفرض فى شرع الهوى كتم الهوى ... لا ترفعوا المسبول من أستارنا

وقد انحشى منى الحشا بهوى الرشا ... ياليته ما غاب عن أوطاننا

فلما فرغت من شعرها طوت القرطاس وأعطته للداية وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٩٧) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان الورد في الاكمام طوت القرطاس واعطته للداية فأخذته وخرجت من عند الورد في الاكمام بنت الوزير فصادفها الحاجب وقال لها أين تذهبين فقالت الى الحمام وقد انزعجت منه فوقعت منها الورقة حين خرجت من الباب وقت انزعاجها هذا ما كان من أمرها (وأما) ما كان من أمر الورقة فان بعض الخدم رآها مرمية في الطريق فأخذها ثم ان الوزير خرج من باب الحريم وجلس على سريره فقصد الخادم الذي التقط الورقة فبينما الوزير جالس على سريره واذا بذلك الخادم تقدم اليه وفي يده الورقة وقال له يامولاي اني وجدت هذه الورقة مرمية في الدار فأخذتها فتناولها الوزير من يده وهي مطوية ففتحها فرأى مكتوبا فيها الاشعار التي تقدم ذكرها فقرأها وفهم معناها ثم تأمل كتابتها فرآها بخط ابنته فدخل على أمها وهو يبكي بكاء شديدا حتى ابتلت لحيته فقالت له زوجته ما أبكاك يامولاي فقال لها خذي هذه الورقة وانظري مافيها فأخذت الورقة وقرأتها فوجدتها مشتملة على مراسلة من بنتها الورد في الاكمام الى انس الوجود فجاءها البكاء لكنها غلبت على نفسها وكفكفت دموعها وقالت للوزير يامولاى ان البكاء لافائدة فيه وانما الرأى الصواب ان تتبصر في أمر يكون فيه صون عرضك وكتمان أمر بنتك وصارت تسليه وتخفف عنه الاحزان فقال لها اني خائف على ابنتي من العشق أما تعلمين ان السلطان يحب أنس الوجود محبة عظيمة ولخوفي من هذا الامر سببان الاول من جهتي وهو انها ابنتي والثاني من جهة السلطان وهو ان أنس الوجود محظي عند السلطان وربما يحدث من هذا أمر عظيم فما رأيك في ذلك وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٩٨) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان الوزير لما أخبر زوجته بخبر بنته وقال لها فما رأيك في ذلك قالت له اصبر علي حتي اصلي صلاة الاستخارة ثم انها صلت ركعتين سنة الاستخارة فلما فرغت من صلاتها قالت لزوجها ان في وسط بحر الكنوز جبلا يسمى جبل الثكلى وسبب تسميته بذلك سيأتي وذلك الجبل لا يقدر على الوصول اليه أحد الا بالمشقة فاجعل لها موضعا هناك فاتفق الوزير مع زوجته على أنه يبني فيه قصرا منيعا ويجعلها فيه ويضع عندها مؤونتها عاما بعد عام ويجعل عندها من يؤنسها ويخدمها ثم جمع النجارين والبنائين والمهندسين وأرسلهم الى ذلك الجبل فبنوا لها قصرا منيعا لم ير مثله الراؤن ثم هيأ الزاد والراحلة ودخل على ابنته في الليل وأمرها بالمسير فحس قلبها بالفراق فلما خرجت ورأت هيئة الاسفار بكت بكاء شديدا وكتبت على الباب تعرف أنس الوجود بما جرى لها من الوجد الذي تقشعر منه الجلود ويذيب الجلمود ويجري العبرات والذي كتبته هذه الابيات

بالله يادار ان مر الحبيب ضحى ❊ مسلما باشارات يحيينا

أهديه مناسلاما زاكيا عطرا ... لانه ليس يدرى أين امسينا
ولست أدرى الى أين الرحيل بنا ... لماامضوا بي مريعا مستخفينا
في جنح ليل وطير الايك قدعكفت ... على الغصون تباكينا وتنعينا
وقال عنها لسان الحال واحرباه ... من التفرق مابين المحبينا
لمارأيت كؤس البعدقد ملئت ... والدهر من صرفها بالقهر يسقينا
مزجتها بجميل الصبر معتذرا ... وعنكم الآن ليس الصبر يسلينا

فلمافرغت من شعرها ركبت وساروا بها يقطعون البرارى والقفار والسهول والاوعار حتى وصلوا الى بحر الكنوز ونصبوا الخيام على شاطىء البحر ومدوا الهامر كباعظيمة وانزلوها فيها هي وعائلتها وقد أمرهم انهم اذا وصلوا الى الجبل وادخلوها فى القصر هي وعائلتها يرجعون بالمركب و بعد أن يطلعوا من المركب يكسرونها فذهبوا وفعلوا جميع ماأمرهم به ثم رجعوا وهم يبكون على ماجرى هذا ما كان من أمرهم (واما) ما كان من أمرانس الوجود فانه قام من نومه وصلى الصبح ثم ركب وتوجه الى خدمة السلطان فمرفى طريقه على باب الوزير على جرى العادة لعله يرى أحدا من اتباع الوزير الذين كان يراهم ونظر الى الباب فرأى الشعر المتقدم ذكره مكتوبا عليه فلمارآه غاب عن وجوده واشتعلت النارفى احشائه ورجع الى داره ولم يقرله قرار ولم يزل فى قلق و وجد الى ان دخل فكتم أمره وتنكر وخرج فى جوف الليل هائما على غير طريق وهو لايدرى أين يسير فسار الليل كله وثانى يوم الى ان اشتد حر الشمس وتلهبت الجبال واشتد عليه العطش فنظر الى شجرة فوجد بجانبها جدول ماء يجرى فقصد تلك الشجرة وجلس فى ظلها على شاطىء ذلك الجدول واراد أن يشرب فلم يجد للماء طعم فى فمه وقد تغير لونه واصفر وجهه وتورمت قدماه من المشى والمشقة فبكى بكاء شديدا وسكب العبرات وأنشد هذه الابيات

سكر العاشق فى حب الحبيب ... كلما زاد غراما ولهيب
هائم فى الحب صب تائه ... ماله مأوى ولا زاد يطيب
كيف يهنا العيش للصب الذى ... فارق الاحباب ذاشيء عجيب
ذبت لماان ذكا وجدى بهم ... وجرى دمعي على خدى صبيب
هل أراهم أوأرى من ربعهم ... أحدا يبرى به القلب الكئيب

فلمافرغ من شعره بكى حتى بل الترى ثم قام من وقته وساعته وسار من ذلك المكان فبينما هو سائر فى البرارى والقفار اذ خرج عليه سبع رقبته مختنقة بشعره و رأسه قدر القبة وفمه أوسع من الباب وأنيابه مثل أنياب الفيل فلمارآه أنس الوجود أيقن بالموت واستقبل القبلة وتشهد واستعد للموت وكان قدقرأ في الكتب ان من خادع السبع انخدع له لانه ينخدع بالكلام الطيب وينتحى بالمديح فشرع يقول له ياسد الغابة ياليث الفضاء ياضرغام ياأباالفتيان ياسلطان الوحوش انني عاشق مشتاق وقدا تلفني العشق والفراق وحين فارقت الاحباب غبت عن الصواب فاسمع كلامي وارحم

لوعتي وغرامي فلما سمع الاسد مقالته تأخر عنه وجلس مقعياً على ذنبه ورفع رأسه اليه وصار يلعب بذنبه ويديه فلما رأى انس الوجود هذه الحركات انشد هذه الابيات

أسد البيداء هل تقتلني ... قبل مالقى الذى تيمني
لست صيد الاولا بي سمن ... فقد من أهواه قد أسقمني
وفراق المحب أضنى مهجتي ... فمثالي صورة فى كفن
ياأبا الحرث ياليث الوغى ... لاتشمت عاذلي فى شجني
أنا صب مدمعي غرقني ... وفراق الحب قد أقلقني
واشتغالى فى دجى الليل بها ... عن وجودي فى الهوى غيبني

فلما فرغ من شعره قام الاسد ومشى نحوه وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٩٩) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن أنس الوجود لما فرغ من شعره قام الاسد ومشى نحوه بلطف وعيناه مغرغرتان بالدموع ولما وصل اليه لحسه بلسانه ومشى قدامه وأشار اليه ان اتبعني فتبعه ولم يزل سائراً وهو خلفه ساعة من الزمان حتى طلع به فوق جبل ثم نزل به من فوق ذلك الجبل فرأى اثر المشي فى البراري فعرف ان ذلك اثر مشي القوم بالورد فى الاكمام فتبع الاثر ومشى فيه فلما رآه الاسد تبع الاثر وعرف انه اثر مشي محبوبته رجع الاسد الى حال سبيله وأما أنس الوجود فانه لم يزل ماشياً فى الاثر اياما وليالي حتى أقبل على بحر عجاج متلاطم بالامواج ووصل الاثر الى شاطىء البحر وانقطع فعلم انهم ركبوا البحر وساروا فيه وانقطع رجاؤه منهم والتفت يميناً وشمالا فلم ير أحداً فى البرية فخشى على نفسه من الوحوش فصعد على جبل عال فبينما هو فى الجبل اذ سمع صوت آدمي يتكلم فى مغارة فصغى اليه واذا هو عابد قد ترك الدنيا واشتغل بالعبادة فطرق عليه المغارة ثلاث مرات فلم يجبه العابد ولم يخرج اليه فصعد الزفرات وانشد هذه الابيات

كيف السبيل الى أن أبلغ الاربا ... واترك الهم والتكدر والتعبا
وكل هول من الاهوال شيبني ... قلباً ورأساً مشيباً فى زمان صبا
ولم أجد لى معيناً فى الغرام ولا ... خلا يخفف عني الوجد والنصبا
وكم أكابد فى الاشواق من وله ... كأن دهري على الآن قد قلبا
وارحمتاه لصب عاشق قلق ... كأس التفرق والهجران قد شربا
فالنار فى القلب والاحشاء قد محيت ... والعقل من لوعة التفريق قد سلبا
ما كان أعظم يوم جئت منزلهم ... وقد رأيت على الأبواب ما كتبا
بكيت حتي سقيت الارض من حرق ... لكن كتمت على الدانين والغربا
ياعابداً قد تغاضى فى مغارته ... كأن ذاك طعم العشق وانسلبا
وبعد هذا وهذا كله واذا ... بلغت قصدى فلا هما ولا تعبا

فلما فرغ من شعره واذا بباب المغارة قد انفتح وسمع قائلا يقول وارحمتاه فدخل الباب

يصلح لمثلي ومن طلب مالا يصلح له وقع في مثل ماوقعت فيه فلما سمع ابن الملك كلام الحكيم كلمه بالفارسية وقال له الى كم هذا البكاء والعويل هل ترى انه أصابك مالم يصب غيرك فلما سمع الحكيم كلامه انس به وشكا اليه حاله ومايجده من المشقة فلما أصبح الصباح أخذ البوابون ابن الملك وأتوا به الى ملكهم وأعلموه انه وصل الى المدينة بالامس في وقت لا يمكن الدخول فيه على الملك فسأله الملك وقال له من أي البلاد انت وما اسمك وما صنعتك وما سبب مجيئك الى هذه المدينة فقال ابن الملك اما اسمي فانه بالفارسية حرجة وأما بلادي فهي بلاد فارس وأنا من أهل العلم وخصوصا علم الطب فاني أداوي المرضى والمجانين ولهذا أطوف في الاقاليم والمدن لاستفيد علما على علمي واذا رأيت مريضا فاني أداويه فهذه صنعتي فلما سمع الملك كلامه فرح به فرحا شديدا وقال له أيها الحكيم الفاضل لقد وصلت الينا في وقت الحاجة اليك ثم أخبره بخبر الجارية وقال له أن داويتها وأبرأتها من جنونها فلك عندي جميع ماتطلبه فلما سمع كلام الملك قال له أعز الله الملك صف لي كل شيء رأيته من جنونها وأخبرني منذ كم يوم عرض لها هذا الجنون وكيف اخذتها هي والفرس والحكيم فأخبره بالخبر من أوله الى آخره ثم قال له ان الحكيم في السجن فقال له ايها الملك السعيد مافعلت بالفرس التي كانت معهما فقال له باقية عندي الى الآن محفوظة في بعض المقاصير فقال ابن الملك في نفسه أن من الرأي عندي أن تفقد الفرس وانظرها قبل كل شيء فان كانت سالمة لم يحدث فيها أمر فقد تم لي كل ما اريد وان رأيتها قد بطلت حركاتها تحيلت بحيلة في خلاص مهجتي ثم التفت الى الملك وقال له ايها الملك ينبغي أن انظر الفرس المذكورة لعلي أجد شيئا يعينني على برء الجارية فقال له الملك حبا وكرامة ثم قام الملك واخذ بيده ودخل معه الى الفرس فجعل ابن الملك يطوف حول الفرس ويتفقدها وينظر أحوالها فوجدها سالمة لم يعبها شيء ففرح ابن الملك بذلك فرحا شديدا وقال اعز الله الملك اني أريد الدخول على الجارية حتى انظر مايكون منها وأرجو الله أن يكون برؤها على يدي بسبب الفرس ان شاء الله تعالى ثم أمر بالمحافظة علي الفرس ومضى به الملك الى البيت الذي فيه الجارية فلما دخل عليها ابن الملك وجدها تختبط وتنصرع على عادتها ولم يكن بها جنون وانما تفعل ذلك حتى لا يقربها أحد فلما رآها ابن الملك على هذه الحالة قال لها لا بأس عليك يافتنة العالمين ثم انه جعل يرفق بها ويلاطفها الى أن عرفها بنفسه فلما عرفته صاحت صيحة عظيمة حتى غشي عليها من شدة ماحصل لها من الفرح فظن الملك ان هذه الصرعة من فزعها منه ثم ان ابن الملك وضع فمه على اذنها وقال لها يافتنة العالمين احقني دمي ودمك واصبري وتجلدي فقالت له سمعا وطاعة ثم انه خرج من عندها وتوجه الى الملك فرحا مسرورا وقال أيها الملك السعيد قد عرفت بسعادتك داءها ودواءها وقد داويتها لك فقم الآن وادخل اليها ولين كلامك لها وترفق بها وعدها بما يسرها فانه يتم لك كل ماتريد منها وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٩٢) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان ابن الملك لما جعل نفسه حكيما ودخل على الجارية وأعلمها بنفسه واخبرها بالتدبير الذي يدبره فقالت له سمعا وطاعة ثم خرج من عندها

وتوجه الى الملك وقال له قم أدخل عليها ولين لها الكلام وعدها بما يسرها فانه يتم لك كل ما تريد منها فقام الملك ودخل عليها فلما رأته قامت اليه وقبلت الارض بين يديه ورحبت به ففرح الملك

بنت ملك صنعاء اليمن وهى فى الحمام وحواليها جوارى ملك الروم

بذلك فرحا شديدا ثم أمر الجوارى والخدم أن يقوموا بخدمتها ويدخلوها الحمام ويجهزوا لها الحلى والحلل فدخلوا اليها وسلموا عليها فردت عليهم السلام بألطف منطق وأحسن كلام ثم البسوها حللا من ملابس الملوك ووضعوا فى عنقها عقدا من الجواهر وساروا بها الى الحمام وخدموها ثم اخرجوها من الحمام كأنها بدر التمام ولما وصلت الى الملك سلمت عليه وقبلت الارض بين يديه فحصل للملك بها سرور عظيم وقال لابن الملك كل ذلك ببركتك زادنا الله من نفحاتك فقال له ابن الملك ان تمام برئها وكمال أمرها انك تخرج أنت وكل من معك من أعوانك وعسكرك الى المحل الذى كنت

وجدتها فيه وتكون صحبتك الفرس الآبنوس التى كانت معها لاجل أن أعقد عنها العارض هناك وأسجنه واقتله فلا يعود اليها أبدا فقال له الملك حبا وكرامة ثم أخرج الفرس الآبنوس الى المرج الذى وجدها فيه هى والجارية والحكيم الفارسى وركب الملك مع جيشه وأخذ الجارية صحبته وهم لا يدرون ما يريد أن يفعل فلما وصلوا الى ذلك المرج أمر ابن الملك الذى جعل نفسه حكيما أن

بنت ملك صنعاء اليمن وهى راكبة الفرس الآبنوس مع ابن الملك
(عند ما حرك لولب الصعود وطارت بهما من وسط المرج)

تضع الجارية والفرس بعيدا عن الملك والعساكر بمقدار مد البصر وقال للملك دستور عن اذنك

أنا أريد أن اطلق البخور واتلو العزيمة واسجن العارض هنا حتى لا يعود اليها أبدا ثم بعد ذلك اركب الفرس الآبنوس واركب الجارية خلفي فاذا فعلت ذلك الفرس تضطرب وتمشي حتى تصل اليك . وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٩٣) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان ابن الملك لما قال لملك الروم حتى تصل اليك فعند ذلك يتم الأمر فافعل بها بعد ذلك ما تريد فلما سمع الملك كلامه فرح فرحا شديدا ثم ان ابن الملك ركب الفرس ووضع الصبية خلفه وصار الملك وجميع عسكره ينظرون اليه ثم انه ضمها اليه وشد وثاقها وبعد ذلك فرك ابن الملوك لولب الصعود فصعدت بهما الفرس فى الهواء والعساكر تنظر اليه حتى غاب عن اعينهم ومكث الملك نصف يوم ينتظر عودته اليه فلم يعد فيئس منه وندم ندما عظيما وتأسف على فراق الجارية ثم أخذ عسكره وعاد الى مدينته هذا ما كان من أمره (وأما) ما كان من أمر ابن الملك فانه قصد مدينة أبيه فرحا مسرورا ولم يزل سائرا الى أن نزل على قصره وانزل الجارية فى القصر وأمن عليها ثم ذهب الى أبيه وأمه فسلم عليهما واعلمهما بقدوم الجارية ففرحا بذلك فرحا شديدا هذا ما كان من أمر ابن الملك والفرس والجارية (وأما) ما كان من أمر ملك الروم فانه لما عاد الى مدينته احتجب فى قصره حزينا كئيبا فدخل عليه وزراؤه وجعلوا يسلونه ويقولون له ان الذى أخذ الجارية ساحر والحمد لله الذى أنجاك من سحره ومكره وما زالوا به حتى تسلى عنها وأما ابن الملك فانه عمل الولائم العظيمة لاهل المدينة . وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٩٤) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أن ابن الملك عمل الولائم العظيمة لاهل المدينة وأقاموا فى الفرح شهرا كاملا ثم دخل على الجارية وفرحا ببعضهما فرحا شديدا هذا ما كان من أمره (وأما) ما كان من أمر والده فانه كسر الفرس الآبنوس وابطل حركاتها ثم ان ابن الملك كتب كتابا الى ابى الجارية وذكر له فيه حالها واخبره انه تزوجها وهى عنده فى أحسن حال وأرسله اليه مع رسول وصحبته هدايا وتحفا نفيسة فلما وصل الرسول الى مدينة ابى الجارية وهى صنعا اليمن أوصل الكتاب والهدايا الى ذلك الملك فلما قرأ الكتاب فرح فرحا شديدا وقبل الهدايا واكرم الرسول ثم جهز هدية سنية لصهره ابن الملك وأرسلها اليه مع ذلك الرسول فرجع بها الى ابن الملك وأعلمه بفرح الملك ابي الجارية حين بلغه خبر ابنته فحصل له سرور عظيم وصار ابن الملك فى كل سنة يكاتب صهره ويهاديه ولم يزالوا كذلك حتى توفى الملك ابو الغلام وتولى هو بعده في المملكة فعدل فى الرعية وسار فيهم بسيرة مرضية فدانت له البلاد واطاعته العباد واستمروا على هذه الحالة فى ألذ عيش واهناه وأرغده واسراه الى أن اتاهم هازم اللذات ومفرق الجماعات ومخرب القصور ومعمر القبور فسبحان الحى الذى لا يموت وبيده الملك والملكوت

حكاية أنس الوجود مع محبوبته الورد فى الاكمام

(ومما) يحكى أيضاً انه كان في قديم الزمان وسالف العصر والآوان ملك عظيم الشان ذو عز

وسلطان وكان له وزير يسمى ابراهيم وكانت له ابنة بديعة فى الحسن والجمال فائقة فى البهجة والكمال وادرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٩٤) قالت بلغنى أيها الملك السعيد بان بنت الملك كانت فائقة في البهجة والكمال ذات عقل وافر وادب باهر الا انها تهوى المنادمة والراح والوجوه الملاح ورقائق الاشعار ونوادر الاخبار تدعو العقول الى الهوى رقة معانيها كما قال فيها بعض واصفيها

﴿الورد فى الاكمام بنت الوزير وفى يدها تفاحة وهى ترميها على أنس الوجود﴾

عظيم قد نجاك الله منه فاحمد الله تعالى على خلاصك من يده فرجع الملك الى قصره بعدما رأى من ابن الملك ما رأى ولما وصل الى قصره ذهب الى ابنته وأخبرها بما جرى له مع ابن الملك في الميدان فوجدها كثيرة التأسف عليه وعلى فراقها له ثم انها مرضت مرضا شديدا ولزمت الوساد فلما رآها أبوها على تلك الحالة ضمها الى صدره وقبلها بين عينيها وقال لها يا ابنتى احمدي الله تعالى واشكريه حيث خلصنا من هذا الساحر الماكر وجعل يكرر عليها ما رآه من ابن الملك ويذكر لها صفة صعوده في الهواء وهي لا تصغى الى شيء من قول أبيها واشتد بكاؤها ونحيبها ثم قالت في نفسها والله لا آكل طعاما ولا أشرب شرابا حتى يجمع الله بيني وبينه فحصل لأبيها الملك هم عظيم من أجل ذلك وشق عليه حال ابنته وصار حزين القلب عليها وكلما يلاطفها لا تزداد الا شغفا به وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٨٥) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان الملك صار حزين القلب على ابنته وكلما يلاطفها لا تزداد الا شغفا به هذا ما كان من أمر الملك وابنته (وأما) ما كان من أمر ابن الملك فانه لما صعد في الجو اختلى بنفسه وتذكر حسن الجارية وجمالها وكان قد سأل أصحاب الملك عن اسم المدينة واسم الملك واسم ابنته وكانت تلك المدينة مدينة صنعاء ثم أنه جد في السير حتى أشرف على مدينة أبيه ودار حول المدينة ثم توجه الى قصر أبيه ونزل فوق السطح وترك فرسه هناك ونزل الى والده ودخل عليه فوجده حزينا كئيبا لاجل فراقه فلما رآه والده قام اليه واعتنقه وضمه الى صدره وفرح به فرحا شديدا ثم انه لما اجتمع بوالده وسأله عن الحكيم الذى عمل الفرس وقال يا والدى ما فعل الدهر به فقال له والده لا بارك الله في الحكيم ولا في الساعة التي رأيته فيها لانه هو الذى كان سببا لفراقك منا وهو مسجون يا ولدى من يوم غبت عنا فأمر ابن الملك بالافراج عنه واخراجه من السجن واحضاره بين يديه فلما حضر بين يديه خلع عليه وأحسن اليه غاية الاحسان الا انه لم يزوجه ابنته فغضب الحكيم من أجل ذلك غضبا شديدا وندم على ما فعل وعلم ان ابن الملك قد عرف سر الفرس وكيفية سيرها ثم ان الملك قال لابنه الرأى عندى انك لا تقرب هذا الفرس بعد ذلك ولا تركبها أبدا بعد يومك هذا لانك لا تعرف أحوالها فانت منها على غرور وكان ابن الملك حدث أباه بما جرى له مع ابنة الملك صاحب تلك المدينة وما جرى له مع أبيها فقال له أبوه لو أراد الملك قتلك لقتلك ولكن في أجلك تأخير ثم ان ابن الملك هاجت بلابله بحب الجارية ابنة الملك صاحب صنعاء فقام الى الفرس وركبها وفرك لولب الصعود فطارت به في الهواء وعلت به الى عنان السماء فلما أصبح الصباح افتقده ابوه فلم يجده فطلع الى أعلى القصر وهو ملهوف فنظر الى ابنه وهو صاعد في الهواء فتأسف على فراقه وندم كل الندم حيث لم يأخذ الفرس ويخفى أمره ثم قال في نفسه والله ان رجع الى ولدى ما بقيت اخلى هذا الفرس لاجل ان يطمئن قلبي على ولدي ثم انه عاد الى بكائه ونحيبه وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٨٦) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان

ولده هذا ما كان من أمره (وأما) ما كان من امر إبنه فانه لم يزل سائرا فى الجو حتى وقف على مدينة صنعاء ونزل فى المكان الذى كان فيه أولا ومشى مستخفيا حتى وصل الى محل ابنة الملك فلم يجدها لا هى ولا جواريها ولا الخادم الذى كان محافظا عليها فعظم ذلك عليه ثم أنه دار يفتش عليها في القصر فوجدها في مجلس آخر غير محلها الذى اجتمع معها فيه وقد لزمت الوساد وحولها الجوارى والدايات فدخل عليهن وسلم عليهن فلما سمعت الجارية كلامه قامت اليه واعتنقته وجعلت تقبله بين عينيه وتضمه الى صدرها فقال لها ياسيدتى أوحشتينى هذه المدة فقالت له أنت الذى أوحشتنى ولو طالت غيبتك عنى لكنت هلكت بلا شك فقال لها ياسيدتي كيف رأيت حالى مع أبيك وماصنع بى ولولا محبتك يافتنة العالمين لقتلته وجعلته عبرة للناظرين ولكن أحبه من أجلك فقالت له كيف تغيب عنى وهل تطيب حياتى بعدك فقال لها أتطعيني وتصغي الي قولى فقالت له قل ماشئت فانى اجيبك الى ماتدعوني اليه ولا أخالفك فى شىء فقال لها سيرى معى الي بلادى وملكى فقالت له حبا وكرامة فلما سمع ابن الملك كلامها فرح فرحا شديدا وأخذ بيدها وعاهدها بعهد الله تعالى على ذلك ثم صعد بها الى أعلى سطح القصر وركب فرسه واركبها خلفه ثم ضمها اليه وشدها شدا وثيقا وحرك لولب الصعود الذي فى كتف الفرس فصعدت بهما الى الجو فعند ذلك زعقت الجوارى واعلمن الملك أباها وأمها فصعدا مبادرين الى سطح القصر والتفت الملك الي الجو فرأى الفرس الآبنوس وهى طائرة بهما فى الهواء فعند ذلك انزعج الملك وزاد انزعاجه وقال يا ابن الملك سألتك بالله أن ترحمنى وترحم زوجتى ولا تفرق بيننا وبين بنتنا فلم يجبه ابن الملك ثم ان ابن الملك ظن فى نفسه أن الجارية ندمت على فراق أمها وأبيها فقال لها يافتنة الزمان هل لك أن اردك الي أمك وأبيك فقالت له ياسيدى والله مامرادى ذلك انما مرادى أن أكون معك اينما تكون لانني مشغولة بمحبتك عن كل شىء حتى أبي وأمى فلما سمع ابن الملك كلامها فرح بذلك فرحا شديدا وجعل يسير الفرس بهما سيرا لطيفا لكيلا يزعجها ولم يزل يسير بها حتي نظر الى مرج أخضر وفيه عين جارية فنزلا هناك وأكلا وشربا ثم ان ابن الملك ركب فرسه واردفها خلفه واوثقها بالرباط خوفا عليها وسار بها ولم يزل فى الهواء حتى وصل الى مدينة أبيه فاشتد فرحه ثم أراد أن يظهر للجارية محل سلطانه وملك أبيه ويعرفها أن ملك أبيه أعظم من ملك أبيها فانزلها فى بعض البساتين التى يتفرج فيها والده وأدخلها فى المقصورة المعدة لابيه واوقف الفرس الآبنوس على باب تلك المقصورة واوصى الجارية بالمحافظة على الفرس وقال لها اقعدى ههنا حتي أرسل اليك رسولى فاني متوجه الى أبى لاجل أن أهيىء لك قصرا واظهر لك ملكى ففرحت الجارية عندما سمعت منه هذا الكلام وقالت له افعل ماتريد . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٨٧) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان الجارية فرحت عندما سمعت من ابن الملك هذا الكلام وقالت له افعل ماتريد ثم خطر ببالها انها لا تدخل الا بالتبجيل والتشريف كما يصلح لامثالها ثم ان ابن الملك تركها وسار حتي وصل الي المدينة ودخل على أبيه فلما رآه أبوه فرح

بقدومه وتلقاه ورحب به ثم ان ابن الملك قال لوالده اعلم انني قد أتيت ببنت الملك التي كنت أعلمتك بها وقد تركتها خارج المدينة في بعض البساتين وجئت أعلمك بها لأجل ان تهيئ الموكب وتخرج لملاقاتها وتظهر لها ملكك وجنودك وأعوانك فقال له الملك حبا وكرامة ثم أمر من وقته وساعته أهل المدينة أن يزينوا المدينة احسن زينة وركب في أكمل هيبة واحسن زينة هو وجميع عساكره وأكابر دولته وسائر مملكته وخدمه واخرج ابن الملك من قصره الحلي والحلل وما تدخره الملوك وهيأ لها عمارة من الديباج الاخضر والاحمر والاصفر واجلس على تلك العمارة الجواري الهنديات والروميات والحبشيات واظهر من الذخائر شيئا عجيبا ثم ان ابن الملك ترك العمارة بمن فيها وسبق الي البستان ودخل المقصورة التي تركها فيها وفتش عليها فلم يجدها ولم يجد الفرس فعند ذلك لطم على وجهه ومزق ثيابه وجعل يطوف في البستان وهو مدهوش العقل ثم بعد ذلك رجع الى عقله وقال في نفسه كيف علمت بسر هذا الفرس وانا لم اعلمها بشيء من ذلك ولعل الحكيم الفارسي الذي عمل الفرس قد وقع عليها وأخذها جزاء بما عمله والدي معه ثم ان ابن الملك طلب حراس البستان وسالهم عمن مر بهم وقال لهم هل نظرتم أحدا مر بكم ودخل هذا البستان فقالوا ما رأينا أحدا دخل البستان سوى الحكيم الفارسي فانه دخل ليجمع الحشائش النافعة فلما سمع كلامهم صح عنده ان الذي أخذ الجارية هو ذلك الحكيم وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٨٨) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان ابن الملك لما سمع كلامهم صح عنده ان الذي أخذ الجارية هو ذلك الحكيم وكان بالامر المقدر ان ابن الملك لما ترك الجارية في المقصورة التي في البستان وذهب الى قصر أبيه ليهيىء أمره دخل الحكيم الفارسي البستان ليجمع شيئا من الحشيش النافع فشم رائحة المسك والطيب التي عبق منها المكان وكان ذلك الطيب من رائحة ابنة الملك فقصد الحكيم صوب تلك الرائحة حتى وصل الى تلك المقصورة فرأى الفرس التي صنعها بيده واقفا على باب المقصورة فلما رأى الحكيم الفرس امتلأ قلبه فرحا وسرورا لانه كان كثير التأسف على الفرس حيث خرجت من يده فتقدم الى الفرس وافتقد جميع أجزائها فوجدها سالمة ولما أراد أن يركبها ويسير قال في نفسه لا بد أن انظر الى ما جاء به ابن الملك وتركه مع الفرس ههنا فدخل المقصورة فوجد الجارية جالسة وهي كالشمس الضاحية في السماء الصافية ثم توجه الى المدينة ليجيء لها بموكب ويدخلها المدينة فقالت له من أنت فقال لها ياسيدتي أنا رسول ابن الملك قد أرسلني اليك وأمرني أن أنقلك الى بستان آخر قريب من المدينة فلما سمعت الجارية منه ذلك الكلام دخل في عقلها وصدقته وقامت معه وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٨٩) قالت بلغني ايها الملك السعيد ان الحكيم الفارسي لما أخبر الجارية بأحوال ابن الملك صدقت كلامه ودخل في عقلها وقامت معه ووضعت يدها في يده ثم قالت له ياوالدي ما الذي جئت لي به معك حتى أركبه فقال ياسيدتي الفرس التي جئت عليها تركبينها فقالت له انا لا أقدر على ركوبها وحدي فتبسم الحكيم عندما سمع منها ذلك وعلم أنه قد ظفر بها فقال لها أنا أركب معك

بنفسي ثم ركب واركب الجارية خلفه وضمها اليه وشدوثاقها وهي لا تعلم ما يريد بها ثم انه حرك لولب الصعود فامتلأ جوف الفرس بالهواء وتحركت وماجت ثم ارتفعت صاعدة الى الجو ولم تزل سائرة بهما حتى غابت عن المدينة فقالت له الصبية ياهذا اين الذى قلته عن ابن الملك حيث زعمت أنه أرسلك الى فقال لها الحكيم قبح الله ابن الملك فانه خبيث لئيم فقالت له ياويلك كيف تخالف أمر مولاك فيما أمرك به فقال لها ليس هو مولاى فهل تعرفين من أنا فقالت له لا أعرفك الا بما عرفتنى به عن نفسك فقال لها انما كان اخبارى لك بهذا الخبر حيلة منى عليك وعلى ابن الملك ولقد كنت متأسفا طول عمرى على هذه الفرس التي تحتك فانها صناعتي وكان استولى عليها والآن قد ظفرت بها وبك ايضا وقد أحرقت قلبه كما أحرق قلبي ولا يتمكن منها بعد ذلك أبدا فطيبي قلبا وقرى عينا فانا لك أنفع منه فلما سمعت الجارية كلامه لطمت على وجهها ونادت يا أسفاه لا حصلت حبيبي ولا بقيت عند أبي وأمي وبكت بكاء شديدا على ماحل بها ولم يزل الحكيم سائرا بها الى بلاد الروم حتى نزل بها فى مرج اخضر ذى أنهار واشجار وكان ذلك المرج بالقرب من مدينة وفى تلك المدينة ملك عظيم الشأن فاتفق فى ذلك اليوم ان ملك تلك المدينة خرج الى الصيد والنزهة فجاز على ذلك المرج فرأى الحكيم واقفا والفرس والجارية بجانبه فلم يشعر الحكيم الا وقد هجم عليه عبيد الملك واخذوه هو والجارية والفرس واوقفوا الجميع بين يدى الملك فلما نظر الى قبح منظره و شناعته ونظر الي حسن الجارية وجمالها قال لها ياسيدتى ما نسبة هذا الشيخ منك فبادر الحكيم بالجواب وقال هى زوجتي وابنة عمى فكذبته الجارية عند ما سمعت قوله وقالت ايها الملك والله لا أعرفه ولا هو بعلى بل أخذنى قهرا بالحيلة فلما سمع الملك مقالها أمر بضربه فضربوه حتى كاد أن يموت ثم أمر الملك أن يحملوه الى المدينة و يطرحوه فى السجن ففعلوا به ذلك ثم ان الملك أخذ الجارية والفرس منه ولكنه لم يعلم بأمر الفرس ولا بكيفية سرها هذا ما كان من أمر الحكيم والجارية (وأما) ما كان من أمر ابن الملك فانه لبس ثياب السفر وأخذ ما يحتاج اليه من المال وسافر وهو فى اسوأ حال وسار مسرعا يقتص الاثر في طلبهما من بلد الى بلد ومن مدينة الى مدينة و يسأل عن الفرس الآبنوس وكل من سمع منه خبر الفرس الآبنوس يتعجب و يستعظم ذلك منه فاقام على هذا الحال مدة من الزمان ومع كثرة السؤال والتفتيش عليهما لم يقع لهما على خبر ثم انه سار الى مدينة أبى الجارية وسال عنها هناك فلم يسمع لها بخبر ووجد أباها حزينا على فقدها فرجع وقصد بلاد الروم وجعل يقتص اثرهما و يسال عنهما وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٩٠)قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان ابن الملك قصد بلاد الروم وجعل يقتص اثرهما ويسال عنهما فاتفق انه نزل فى خان من الخانات فرأى جماعة من التجار جالسين يتحدثون فجلس قريبا منهم فسمع احدهم يقول يااصحابى لقد رأيت عجبا من العجائب فقالوا وما هو قال انى كنت فى بعض الجهات فى مدينة كذا وذكر اسم المدينة التي فيها الجارية فسمعت أهلها يتحدثون بحديث غريب وهو ان ملك المدينة خرج يوما

من الايام الى الصيد والقنص ومعه جماعة من أصحابه وأكابر دولته فلما طلعوا الى البرية جازوا على مرج أخضر فوجدوا هناك رجلا واقفا والى جانبه امرأة جالسة ومعه فرس من آبنوس فأما الرجل فانه قبيح المنظر مهول الصورة جدا وأما المرأة فانها صبية ذات حسن وجمال وبهاء وكمال وقد واعتدال وأما الفرس الآبنوس فانها من العجائب التى لم يرا الراؤن أحسن منها ولا أجمل من صنعتها فقال له الحاضرون فما فعل الملك بهم فقال أما الرجل فانه أخذه الملك وسأله عن الجارية فادعى انها زوجته وابنة عمه وأما الجارية فانها كذبته فى قوله فاخذها الملك منه وأمر بضربه وطرحه فى السجن وأما الفرس الآبنوس فما لى به علم فلما سمع ابن الملك هذا الكلام من التاجر دنا منه وصار يسأله برفق وتلطف حتى أخبره باسم المدينة واسم ملكها فلما عرف ابن الملك اسم المدينة واسم مالكها بات ليلته مسرورا فلما أصبح الصباح خرج وسافر ولم يزل مسافرا حتى وصل الى تلك المدينة فلما أراد أن يدخلها أخذه البوابون وأرادوا احضاره قدام الملك ليسأله عن حاله وعن سبب مجيئه الى تلك المدينة وعما يحسنه من الصنائع وكانت هذه عادة الملك من سؤال الغرباء عن أحوالهم وصنائعهم وكان وصول ابن الملك الى تلك المدينة فى وقت المساء وهو وقت لا يمكن الدخول فيه على الملك ولا المشاورة عليه فاخذه البوابون وأتوا به الى السجن ليضعوه فيه فلما نظر السجانون الى حسنه وجماله لم يهن عليهم أن يدخلوه السجن بل أجلسوه معهم خارج السجن فلما جاءهم الطعام أكل معهم بحسب الكفاية فلما فرغوا من الاكل جعلوا يتحدثون ثم أقبلوا على ابن الملك وقالوا له من أى البلاد أنت فقال أنا من بلاد فارس بلاد الاكاسرة فلما سمعوا كلامه ضحكوا وقال بعضهم يا كسروى لقد سمعت حديث الناس وأخبارهم وشاهدت أحوالهم فما رأيت ولا سمعت أكذب من هذا الكسروى الذى عندنا فى السجن فقال آخر ولا رأيت أقبح من خلقته ولا أبشع من صورته فقال لهم ما الذى بان لكم من كذبه فقالوا انه يزعم انه حكيم وكان الملك قد رآه فى طريقه وهو ذاهب الى الصيد ومعه امرأة بديعة الحسن والجمال والبهاء والكمال والقد والاعتدال ومعه أيضا فرس من الآبنوس الاسود ما رأينا قط أحسن منها فأما الجارية فهى عند الملك وهو لها محب ولكن تلك المرأة مجنونة ولو كان ذلك الرجل حكيما كما يزعم لداواها والملك مجتهد فى علاجها وغرضه مداواتها مما هى فيه وأما الفرس الآبنوس فانها فى خزانة الملك وأما الرجل القبيح المنظر الذى كان معها فانه عندنا فى السجن فاذا جن عليه الليل يبكى وينتحب اسفا على نفسه ولا يدعنا ننام . وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٩١) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أن الموكلين بالسجن لما أخبروه بخبر الحكيم الفارسى الذى عندهم فى السجن وبما هو فيه من البكاء والنحيب خطر بباله أن يدبر تدبيرا ليبلغ غرضه فلما أراد البوابون النوم ادخلوه السجن واغلقوا عليه الباب فسمع الحكيم يبكى وينوح على نفسه بالفارسية ويقول فى نوحه الويل لى بما جنيت على نفسى وعلى ابن الملك وبما فعلت بالجارية حيث لم اتركها ولم اظفر بمرادى وذلك كله من سوء تدبيرى فانى طلبت لنفسى ما لا استحقه وما لا

وقد صرف الله عنها تلك الحالة وتعجبت من ذلك وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٧٨) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان الشاب قال وقد صرف الله عنها تلك الحالة وتعجبت من ذلك فاخبرتها بالقصة واستمرت معه فى أرغد عيش وأحسن لذة واتخذت عندها العجوز مكان والدتها ومازالت هى وزوجها والعجوز فى هناء وسرور الى أن أتاهم هازم اللذات ومفرق الجماعات فسبحان الحي الذى لا يموت وبيده الملك والملكوت

(حكاية الحكماء أصحاب الطاووس والبوق والفرس)

ومما يحكى انه كان فى قديم الزمان ملك عظيم ذو خطر جسيم وكان له ثلاث بنات مثل البدور السافرة والرياض الزاهرة وولد ذكر كأنه القمر فبينما الملك جالس على كرسى مملكته يوما من الايام اذ دخل عليه ثلاثة من الحكماء مع أحدهم طاووس من ذهب ومع الثانى بوق من نحاس ومع الثالث فرس من عاج وآبنوس فقال لهم الملك ما هذه الاشياء وما منفعتها فقال صاحب الطاووس ان منفعة هذا الطاووس انه كلما مضت ساعة من ليل أو نهار يصفق باجنحته ويزعق وقال صاحب البوق انه اذا وضع هذا البوق على باب المدينة يكون كالمحافظ عليها فاذا دخل فى تلك المدينة عدو يزعق عليه هذا البوق فيعرف ويمسك باليد وقال صاحب الفرس يا مولاى ان منفعة هذا الفرس انه اذا ركبها انسان توصله الى أى بلاد أراد فقال الملك لا أنعم عليك حتى أجرب منافع هذه الصور ثم انه جرب الطاووس فوجده كما قال صاحبه وجرب البوق فوجده كما قال صاحبه فقال الملك للحكيمين تمنيا على فقالا تتمنى عليك أن تزوج كل واحد منا بنتا من بناتك ثم تقدم الحكيم الثالث صاحب الفرس وقبل الارض بين يدي الملك وقال له يا ملك الزمان انعم على كما أنعمت على أصحابي فقال له الملك حتى أجرب ما أتيت به فعند ذلك تقدم ابن الملك وقال يا والدى أنا أركب هذه الفرس وأجربها واختبر منفعتها فقال الملك يا ولدي جربها كما تحب فقام ابن الملك وركب الفرس وحرك رجليه فلم يتحرك من مكانها فقال يا حكيم أين الذى ادعيته من سيرها فعند ذلك جاء الحكيم الى ابن الملك وأراه لولب الصعود وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٧٩) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان الحكيم عرف ابن الملك لولب الصعود وقال له افرك هذا اللولب ففركه ابن الملك واذا بالفرس قد تحرك وطار بابن الملك الى عنان السماء ولم يزل طائرا به حتى غاب عن الاعين فعند ذلك احتار ابن الملك فى أمره وندم على ركوبه الفرس ثم قال ان الحكيم قد عمل حيلة على هلاكى فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ثم انه جعل يتأمل فى جميع أعضاء الفرس فبينما هو يتأمل فيها اذ نظر لشىء مثل رأس الديك على كتف الفرس الايمن وكذلك الايسر فقال ابن الملك ما أرى فيه أثرا غير هذين الزرين ففرك الزر الذى على الكتف الايمن فازدادت به الفرس طيرانا طالعة الى الجو فتركه ثم نظر الى الكتف الايسر فرأى ذلك الزر ففركه فتناقصت حركات الفرس من الصعود الى الهبوط ولم تزل هابطة به الى الارض قليلا قليلا وهو محترس على نفسه وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٨٠) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان ابن الملك لما فرك الزر الايسر تناقصت حركات الفرس من الصعود الى الهبوط ولم تزل هابطة الى الارض قليلا قليلا وهو محترس على نفسه فلما نظر ابن الملك ذلك وعرف منافع الفرس امتلأ قلبه فرحا وسرورا وشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه حيث أنقذه من الهلاك ولم يزل هابطا طول نهاره لانه كان حال صعوده بعدت عنه الارض وجعل يدير وجه الفرس كما يريد وهي هابطة به واذا شاء نزل بها واذا شاء طلع بها فلما تم له من الفرس ما يريد أقبل بها الى جهة الارض وصار ينظر الى ما فيها من البلاد والمدن التي لا يعرفها لانه لم يرها طول عمره وكان من جملة ما رآه مدينة مبنية بأحسن البنيان وهي في وسط أرض خضراء ناضرة ذات أشجار وانهار فتفكر في نفسه وقال ياليت شعري ما اسم هذه المدينة وفي أي الاقاليم هي ثم انه جعل يطوف حول تلك المدينة ويتاملها يمينا وشمالا وكان النهار قد ولى ودنت الشمس للمغيب فقال في نفسه اني لا أجد موضعا للمبيت أحسن من هذه المدينة فانا أبيت فيها هذه الليلة وعند الصباح أتوجه الى أهلي ومحل ملكي واعلم اهلي ووالدي بما جرى لي واخبره بما نظرت عيناي وصار يفتش على موضع يأمن فيه على نفسه وعلى فرسه ولا يراه أحد فبينما هو كذلك واذا به قد نظر في وسط المدينة قصرا شاهقا في الهواء وقد أحاط بذلك القصر سور متسع بشرافات عاليات فقال ابن الملك في نفسه ان هذا الموضع مليح وجعل يحرك الزر الذي يهبط به الفرس ولم يزل هابطا به حتى نزل مستويا على سطح القصر ثم نزل من فوق الفرس وحمد الله تعالى وجعل يدور حول الفرس ويتاملها ويقول والله ان الذي عملك بهذه الصفة لحكيم ماهر فان مد الله تعالى في أجلي وردني الى بلادي وأهلي سالما وجمع بيني وبين والدي لاحسنن الى هذا الحكيم كل الاحسان ولانعمن عليه غاية الانعام ثم جلس فوق سطح القصر حتى علم ان الناس قد ناموا وكان قد أضر به الجوع والعطش لانه منذ فارق والده لم يأكل طعاما فقال في نفسه ان مثل هذا القصر لا يخلو من الرزق فترك الفرس في مكان ونزل يتمشى لينظر شيئا يأكله فوجد سلما فنزل منه الى أسفل فوجد ساحة مفروشة بالرخام فتعجب من ذلك المكان ومن حسن بنيانه لكنه لم يجد في ذلك القصر حس حسيس ولا انس أنيس فوقف متحيرا وصار ينظر يمينا وشمالا وهو لا يعرف أين يتوجه ثم قال في نفسه ليس لي أحسن من ان أرجع الى المكان الذي فيه فرسي وأبيت عندها فاذا أصبح الصباح ركبتها وسرت وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٨١) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان ابن الملك قال في نفسه ليس لي أحسن من المبيت عند فرسي فاذا أصبح الصباح ركبتها وسرت فبينما هو واقف يحدث نفسه بهذا الكلام اذ نظر الى نور مقبل الى ذلك المحل الذي هو فيه فتأمل ذلك النور فوجده مع جماعة من الجواري وبينهن صبية الفية بهية تحاكي البدر الزاهر كما قال فيها الشاعر

جاءت بلا موعد في ظلمة الغسق ... كأنها البدر في داج من الافق
هيفاء ما في البرايا من يشابهها ... في بهجة الحسن أو في رونق الخلق

ناديت لما رأت عيني محاسنها سبحان من خلق الانسان من علق
أعيذها من عيون الناس كلهم بقل أعوذ برب الناس والفلق

وكانت تلك الصبية بنت ملك هـذه المدينة وكان أبوها يحبها حبا شديدا ومن محبته اياها بنى لها هذا القصر فكانت كلما ضاق صدرها تجيء اليه وجواريها تقيم فيه يوما أو يومين أو أكثر ثم تعود الى سرايتها فاتفق انها قد أتت تلك الليلة من أجل الفرجة والانشراح وصارت ماشية بين الجواري ومعها خادم مقلد بسيف فلما دخلوا ذلك القصر فرشوا الفرش وطلقوا مجامر البخور ولعبوا وانشرحوا فبينما هم في لعب وانشراح اذ هجم ابن الملك على ذلك الخادم ولطمه لطمة فبطحه وأخذ السيف من يده وهجم على الجواري اللاتي مع ابنة الملك فشتتهم يمينا وشمالا فلما نظرت ابنة الملك الى حسنه وجماله قالت لعلك أنت الذي خطبتني من والدي بالامس ورد ك وزعم انك قبيح المنظر والله لقد كذب أبي كيف قال ذلك الكلام فما أنت الا مليح وكان ابن ملك الهند قد خطبها من أبيها فرده لانه كان بشع المنظر فظنت انه هو الذي خطبها ثم أقبلت عليه وعانقته وقبلته ورقدت هي واياه فقالت لها الجواري ياسيدتي هذا ما هو الذي خطبك من أبيك لان ذاك قبيح وهـذا مليح وما يصلح الذي خطبك من أبيك ورده أن يكون خادما لهذا ولكن ياسيدتي ان هذا الفتى له شأن عظيم ثم توجهت الجواري الى الخادم المبطوح وأيقظته فوثب مرعوبا وفتش على سيفه فلم يجده بيده فقالت له الجواري الذي أخذ سيفك وبطحك جالس مع ابنة الملك وكان ذلك الخادم قد وكله الملك بالمحافظة على ابنته خوفا عليها من نوائب الزمان وطوارق الحدثان فقام ذلك الخادم وتوجه الى الستر ورفعه فرأى ابنة الملك جالسة مع ابن الملك وهما يتحدثان فلما نظرهما الخادم قال لابن الملك ياسيدي هل أنت انسي أو جني فقال له ابن الملك ويلك يا أنجس العبيد كيف تجعل أولاد الملوك الا كاسرة من الشياطين الكافرة ثم انه أخذ السيف بيده وقال له أنا صهر الملك وقد زوجني بابنته وأمرني بالدخول عليها فلما سمع الخادم منه ذلك الكلام قال له ياسيدي ان كنت من الانس كما زعمت فانها ما تصلح الا لك وأنت أحق بها من غيرك ثم ان الخادم توجه الى الملك وهو صارخ وقد شق ثيابه وحثا التراب على رأسه فلما سمع الملك صياحه قال له ما الذي دهاك فقد أرجفت فؤادي اخبرني بسرعة وأوجز في الكلام فقال له أيها الملك ادرك ابنتك فانها قد استولى عليها شيطان من الجن في زي الانس مصور بصورة أولاد الملوك فدونك وإياه فلما سمع الملك منه هذا الكلام هم بقتله وقال له كيف تغافلت عن ابنتي حتى لحقها هذا العارض ثم ان الملك توجه الى القصر الذي فيه ابنته فلما وصل اليه وجد الجواري قائمات فقال لهن ما الذي جرى لابنتي قلن له ايها الملك بينما نحن جالسات معها فلم نشعر الا وقد هجم علينا هذا الغلام الذي كأنه بدر التمام ولم نر أحسن منه وجها وبيده سيف مسلول فسألناه عن حاله فزعم انك قد زوجته ابنتك ونحن لا نعلم شيئا غير هذا ولا نعرف هل هو انسي أو جني ولكنه عفيف أديب لا يتعاطى القبيح فلما سمع الملك مقالتهن برد ما به ثم انه رفع الستر قليلا قليلا ونظر فرأى ابن الملك جالسا مع ابنته يتحدثان وهو في أحسن التصوير

ووجهه كالبدر المنير فلم يقدر الملك ان يمسك نفسه من غيرته على ابنته فرفع الستر ودخل وبيده سيف مسلول وهجم عليهما كانه الغول فلما نظره ابن الملك قال لها أهذا أبوك قالت نعم . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٨٢) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان ابن الملك لما رأى الملك بيده سيف مسلول وقد هجم عليهما كانه الغول قال لها أهذا أبوك قالت نعم فعند ذلك وثب قائما على قدميه وتناول سيفه بيده وصاح على الملك صيحة منكرة فادهشته وهم ان يحمل عليه بالسيف فعلم الملك انه أوثب منه فاغمد سيفه ثم وقف حتى انتهى اليه ابن الملك فقابله بملاطفة وقال يافتى هل أنت انسي أم جني فقال له ابن الملك لولا انى أرعى ذمامك وحرمة ابنتك لسفكت دمك كيف تنسبني الى الشياطين وأنا من أولاد الملوك الاكاسرة الذين لو شاءوا أخذوا ملكك وزلزلوك عن عزك وسلطانك وسلبوا عنك جميع ما في أوطانك فلما سمع الملك كلامه هابه وخاف على نفسه منه وقال له ان كنت من أولاد الملوك كما زعمت فكيف دخلت قصري بغير اذني وهتكت حرمتي ووصلت الى بنتي وزعمت انك بعلها وادعيت انى قد زوجتك بها وأنا قد قتلت الملوك وأبناء الملوك حين خطبوها مني ومن ينجيك من سطوتي وانا ان صحت على عبيدي وغلماني وأمرتهم بقتلك قتلوك في الحال فمن يخلصك من يدي فلما سمع ابن الملك منه ذلك الكلام قال للملك اني لأعجب منك ومن قلة بصيرتك هل تطمع لابنتك في بعل أحسن مني وهل رأيت أحدا أثبت جنانا وأكثر مكافأة وأعز سلطانا وجنودا وأعوانا مني فقال له الملك لا والله ولكن وددت يافتى ان تكون خاطبا لها على رؤوس الاشهاد حتى أزوجك بها وأما اذا زوجتك بها خفية فانك تفضحني فيها فقال له ابن الملك لقد أحسنت في قولك ولكن أيها الملك اذا اجتمعت عبيدك وخدمك وجنودك علي وقتلوني كما زعمت فانك تفضح نفسك وتبقى الناس فيك بين مصدق ومكذب ومن الرأي عندي ان ترجع أيها الملك الى ما اشير به عليك فقال له الملك هات حديثك فقال له ابن الملك الذي أحدثك به أما أن تبارزني أنا وأنت خاصة فمن قتل صاحبه كان أحق وأولى بالملك واما ان تتركني في هذه الليلة واذا كان الصباح فاخرج الى عسكرك وجنودك وغلمانك وأخبرني بعدتهم فقال له الملك ان عدتهم أربعون الف فارس غير العبيد الذين لي وغير أتباعهم وهم مثلهم في العدد فقال ابن الملك اذا كان طلوع النهار فاخرجهم الى وقل لهم، وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٨٣) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان ابن الملك قال له اذا كان طلوع النهار فاخرجهم الى وقل لهم هذا خطب مني ابنتي على شرط أن يبارزكم جميعا وادعى انه يغلبكم ويقهركم وانكم لاتقدرون عليه ثم اتركني معهم أبارزهم فاذا قتلوني فذلك أخفى لسرك وأصون لعرضك وان غلبتهم وقهرتهم فمثلي يرغب الملك في مصاهرته فلما سمع الملك كلامه استحسن رأيه وقبل رأيه مع ما استعظمه من قوله وما هاله من أمره في عزمه على مبارزة جميع عسكره الذين وصفهم له ثم جلسا يتحدثان وبعد ذلك دعا الملك بالخادم وأمره ان يخرج من وقته وساعته الى وزيره ويأمره

ان يجمع العساكر ويأمرهم بحمل اسلحتهم وان يركبوا خيولهم فسار الخادم الى الوزير وأعلمه بما أمره به الملك فعند ذلك طلب الوزير نقباء الجيش وأكابر الدولة وامرهم ان يركبوا خيولهم ويخرجوا لابسين آلات الحرب هذا ما كان من امرهم (واما) ما كان من امر الملك فانه ما زال يتحدث مع الغلام حيث اعجبه حديثه وعقله وادبه فبينماهما يتحدثان واذا بالصباح قد اصبح فقام الملك وتوجه الى تخته وأمر جيشه بالركوب وقدم لابن الملك فرساجيدا من خيار خيله فقال له لا يعجبني شيء من خيلك ولا اركب الا الفرس التي جئت راكبا عليها فقال له الملك واين فرسك فقال له هي فوق قصرك فقال له في اي موضع في قصري فقال على سطح القصر فلما سمع كلامه قال له هذا أول ما ظهر من خبالك ياويلك كيف تكون الفرس فوق السطح ولكن في هذا الوقت يظهر صدقك من كذبك ثم ان الملك التفت الى بعض خواصه وقال له امض الى قصري واحضر الذي تجده فوق السطح فصار الناس متعجبين من قول الفتي ويقول بعضهم لبعض كيف ينزل هذا الفرس من سلالم السطح ان هذا شيء ما سمعنا بمثله ثم ان الذي أرسله الملك الى القصر صعد الى أعلاه فرأى الفرس قائما ولم ير أحسن منه فتقدم اليه وتامله فوجده من الآبنوس والعاج وكان بعض خواص الملك طلع معه أيضا فلما نظر وا الى الفرس تضاحكوا وقالوا اوعلى مثل هذا الفرس يكون ماذكره الفتى فما نظنه الا مجنونا ولكن سوف يظهر لنا أمره وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٨٤) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان خواص الملك لما نظروا الفرس تضاحكوا وقالوا اوعلى مثل هذه الفرس يكون ماذكره الفتي فما أظنه الا مجنونا ولكن سوف يظهر لنا أمره وربما يكون له شان عظيم ثم انهم رفعوا الفرس على أيديهم ولم يزالوا حاملين لها حتى وصلوا الى قدام الملك وأوقفوها بين يديه فاجتمع عليها الناس ينظرون اليها ويتعجبون من حسن صنعتها وحسن سرجها ولجامها واستحسنها الملك أيضا وتعجب منها غاية العجب ثم قال لابن الملك يافتى أهذه فرسك فقال نعم أيها الملك هذه فرسي وسوف ترى منها العجب فقال له الملك خذ فرسك واركبها قال لا أركبها الا اذا بعد عنها العساكر فامر الملك العسكر الذين حوله ان يبعدوا عنها مقدار رمية السهم فقال له أيها الملك ها أنا رائح أركب فرسي واحمل على جيشك فافرقهم يمينا وشمالا وأصدع قلوبهم فقال له الملك افعل ما تريد ولا تبق عليهم فانهم لا يبقون عليك ثم ان ابن الملك توجه الى فرسه وركبها واصطفت له الجيوش وقال بعضهم لبعض اذا وصل الغلام بين الصفوف نأخذه باسنة الرماح وشفار الصفاح فقال واحد منهم والله انها مصيبة كيف نقتل هذا الغلام صاحب الوجه المليح والقد الرجيح فقال واحد آخر والله لن تصلوا اليه الا بعد أمر عظيم وما فعل الفتى هذه الفعال الا لما علم من شجاعة نفسه وبراعته فلما استوى ابن الملك على فرسه فرك لولب الصعود فتطاولت اليه الابصار لينظروا ماذا يريد ان يفعل فماجت فرسه واضطربت حتى عملت أغرب حركات تعملها الخيل وامتلأ جوفها بالهواء ثم ارتفعت وصعدت الى الجو فلما رآه الملك قد ارتفع وصعد نادى على جيشه وقال ويلكم خذوه قبل أن يفوتكم فعند ذلك قال له وزراؤه ونوابه أيها الملك هل أحد يلحق الطير الطائر وما هذا الا ساحر

جوهر ان دخلت الخلاء يتغير لونك وان خرجت ازددت قبحا على قبحك فلا أنت سوداء فتعرفى ولا أنت بيضاء فتوصفى وليس لك شىء من المآثر كما قال فيك الشاعر

لون الهباب لون فغبرتها كالتراب تدهس فى أقدام قصاد
فما نظرت لها بالعين أرمقها الا تزايد همى وانكادى

فقال لها سيدها اجلسى ففى هذا القدر كفاية فجلست ثم أشار الى السمراء وكانت ذات حسن وجمال وقد واعتدال وبهاء وكمال لها جسم ناعم وشعر فاحم معتدلة القد موردة الخد ذات طرف كحيل وخد أسيل ووجه مليح ولسان فصيح وخصر نحيل وردف ثقيل فقالت الحمد لله الذى خلقنى لا سمينة مذمومة ولا هزيلة مهضومة ولا بيضاء كالبرق ولا صفراء كالمغص ولا سوداء بلون الهباب بل جعل لونى معشوقا لاولى الالباب وسائر الشعراء يمدحون السمر بكل لسان ويفضلون ألوانهم على سائر الالوان فاسمر اللون حميد الخصال ولله در من قال

وفى السمر معنى لو علمت بيانه لما نظرت عيناك بيض ولا حمرا
لباقة ألفاظ وغنج لواحظ يعلمن هاروت الكهانة والسحرا

فشكلي مليح وقدي رجيح ولونى ترغب فيه الملوك ويعشقه كل غنى وصعلوك وأنا لطيفة خفيفة مليحة ظريفة ناعمة البدن غالية الثمن وقد كملت فى الملاحة والادب والفصاحة مظاهرى ولسانى فصيح ومزاجي خفيف ولعبي ظريف وأما أنت فمثل ملوخية باب اللوق صفراء وكلها عروق فتعسالك يا قدرة الرواس ويا صدأ النحاس وطلعة البوم وطعام الزقوم فضجيعك يضيق الانفاس مقبور فى الارماس وليس لك فى الحسن مآثر وفى مثلك قال الشاعر

عليها اصفرار زاد من غير علة يضيق له صدرى وتوجعنى راسى
اذا لم تتب نفسى فانى أذلها بلثم محياها فتقلع أضراسى

فلما فرغت من شعرها قال لها سيدها اجلسى ففى هذا القدر كفاية ثم بعد ذلك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٧٥) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أن الجارية لما فرغت من شعرها قال لها سيدها اجلسى ففى هذا القدر كفاية ثم أن بعد ذلك أصلح بينهن وألبسهن الخلع السنية ونقطهن بنفيس الجواهر البرية والبحرية فما رأيت يا أمير المؤمنين فى مكان ولا زمان أحسن من هؤلاء الجوارى الحسان فلما سمع المأمون هذه الحكاية من محمد البصرى أقبل عليه وقال له يا محمد هل تعرف لهؤلاء الجوارى وسيدهن محلا وهل يمكنك أن تشتريهن لنا من سيدهن فقال له محمد يا أمير المؤمنين قد بلغنى أن سيدهن مغرم بهن ولا يمكنه مفارقتهن فقال المأمون خذ معك الى سيدهن فى كل جارية عشرة آلاف دينار فيكون مبلغ ذلك الثمن ستين ألف دينار فاحملها صحبتك وتوجه الى منزله واشترهن منه فاخذ محمد البصرى منه ذلك القدر وتوجه به فلما وصل الى سيد الجوارى أخبره بان أمير المؤمنين يريد اشتراءهن منه بذلك المبلغ فسمح ببيعهن لاجل خاطر أمير

المؤمنين أرسلهن اليه فلما وصلت الجوارى الى أمير المؤمنين هيأ لهن مجلسا لطيفا وصار يجلس فيه معهن وينادمنه وقد تعجب من حسنهن وجمالهن واختلاف ألوانهن وحسن كلامهن وقد استمر على ذلك مدة من الزمان ثم أن سيدهن الاول الذى باعهن لما لم يكن له صبر على فراقهن أرسل كتابا الى أمير المؤمنين المأمون يشكو اليه فيه ماعنده للجوارى من الصبابات ومن ضمنه هذه الابيات

سلبتني ست ملاح حسان ... فعلى الستة الملاح سلامي
هن سمعي وناظرى وحياتى ... وشرابي ونزهتي وطعامي
لست أسلو من حسنهن وصالا ... ذاهب بعدهن طيب منامي
آه ياطول حسرتى وبكائى ... ليتنى ما خلقت بين الانام
من عيون قد زانهن جفون ... كقسى رمينني بسهام

فلما وقع ذلك الكتاب فى يد الخليفة المأمون كسا الجوارى من الملابس الفاخرة وأعطاهن ستين الف دينار وأرسلهن الى سيدهن فوصلن اليه وفرح بهن غاية الفرح أكثر مما أتى اليه من المال وأقام معهن فى أطيب عيش وأهناه الى أن أتاهم هازم اللذات ومفرق الجماعات

حكاية وردان الجزار

(ومما) يحكى انه كان فى زمن الحاكم بامر الله رجل بمصر يسمى وردان وكان جزارا فى اللحم الضانى وكانت امرأة تأتيه كل يوم بدينار يقارب وزنه وزن دينارين ونصف من الدنانير المصرية وتقول له اعطنى خروفا وتحضر معها حمالا بقفص فيأخذ منها الدينار ويعطيها خروفا فيحمله الحمال وتأخذه وتروح به الى مكانها وفي ثانى يوم وقت الضحى تأتى وكان ذلك الجزار يكتسب منها كل يوم دينارا وأقامت مدة طويلة على ذلك فتفكر وردان الجزار ذات يوم فى أمرها وقال فى نفسه هذه المرأة كل يوم تشترى منى بدينار ولم تغلط يوما واحدا وتشترى منى بدراهم فهذا أمر عجيب ثم ان وردان سأل الحمال فى غيبة المرأة فقال له أنا فى غاية العجب منها فانها كل يوم تحملنى الخروف من عندك وتشترى حوائج الطعام والفاكهة والشمع والنقل بدينار آخر وتاخذ من شخص نصرانى مروقتين نبيذا وتعطيه دينارا وتحملنى الجميع وأسير معها الى بساتين الوزير ثم تعصب عينى بحيث انى لا انظر موضعا من الارض أحط فيه قدمى وتأخذ بيدى فما أعرف أين تذهب بى ثم تقول حط هنا وعندها قفص آخر فتعطينى الفارغ ثم تمسك يدى وتعود بى الى الموضع الذى شدت عينى فيه بالعصابة فتحلها وتعطينى عشرة دراهم فقال له الجزار كان الله فى عونها ولكن ازداد فكرا فى أمرها وكثرت عنده الوساوس وبات فى قلق عظيم ثم قال وردان الجزار فلما أصبحت أتتنى على العادة واعطتنى الدينار وأخذت الخروف وحملته للحمال وراحت فاوصيت صبيى على الدكان وتبعتها بحيث لا ترانى وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٧٥) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان وردان الجزار قال فاوصيت صبيى على الدكان

وتبعتها بحيث لا تراني ولم أزل أعاينها الى ان خرجت من مصر وأنا أتوارى خلفها حتى وصلت الى بساتين الوزير فاختفيت حتى عصبت عيني الحمال وتبعتهما من مكان الى مكان الى ان أتت الجبل فوصلت الى مكان فيه حجر كبير وحطت القفص عن الحمال فصبرت الى ان عادت بالحمال ورجعت ونزعت جميع ما كان في القفص وغابت ساعة فاتيت الى ذلك الحجر فزحزحته ودخلت فوجدت خلفه طابقا من نحاس مفتوحا ودرجا نازلة فنزلت في تلك الدرج قليلا قليلا حتى وصلت الى دهليز طويل كثير النور فمشيت فيه حتى رأيت هيئته باب قاعة فاز تسكنت في زوايا الباب فوجدت صفة بها سلالم خارج باب القاعة فتعلقت فيها فوجدت صفة صغيرة بها طاقة تشرف على قاعة فنظرت في القاعة

﴿ المرأة وهي تقدم اللحم الى الدب ليأكله ﴾

وجدت المرأة قد أخذت الخروف وقطعت منه مطايبه وعملته في قدر ورمت الباقي قدام دب كبير

عظيم الخلقة فأكله عن آخره وهي تطبخ فلما فرغت أكلت كفايتها ووضعت الفاكهة والنقل وحطت النبيذ وصارت تشرب بقدح وتسقي الدب بطاسة من ذهب حتى حصل لها نشوة السكر فنزعت لباسها ونامت فقام الدب وواقعها وهي تعاطيه من أحسن ما يكون لبني آدم حتى فرغ وجلس ثم وثب اليها وواقعها ولما فرغ جلس واستراح ولم يزل كذلك حتي فعل ذلك عشر مرات ثم وقع كل منهما مغشيا عليه وصارا لا يتحركان فقلت في نفسي هذا وقت انتهاز الفرصة فنزلت ومعي سكين تبري العظم قبل اللحم فلما صرت عندهما وجدتهما لا يتحرك فيهما عرق لما حصل لهما من المشقة فجعلت السكين في منحر الدب واتكأت عليه حتي خلصته وانعزلت رأسه عن بدنه فصار له شخير عظيم مثل شخير الرعد فانتبهت المرأة مرعوبة فلما رأت الدب مذبوحا وانا واقف والسكين في يدي زعقت زعقة عظيمة حتى ظننت أن روحها قد خرجت وقالت لي ياوردان أيكون هذا جزاء الاحسان فقلت لها ياعدوة نفسها هل عدمت الرجال حتي تفعلي الفعل الذميم فاطرقت رأسها الى الارض لا ترد جوابا وتاملت الدب وقد نزعت رأسه عن جثته ثم قالت ياوردان أي شيء أحب اليك ان تسمع الذي أقوله لك ويكون سببا لسلامتك وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٧٦) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن المرأة قالت ياوردان أي شيء أحب اليك ان تسمع الذي أقوله لك ويكون سببا لسلامتك وغناك الى آخر الدهر أو تخالفني ويكون سببا لهلاكك فقلت اختار أن أسمع كلامك فحدثيني بما شئت فقالت اذبحني كما ذبحت هذا الدب وخذ من هذا الكنز حاجتك وتوجه الى حال سبيلك فقلت لها أنا خير من هذا الدب فارجعي الى الله تعالى وتوبي واتزوج بك ونعيش باقي عمرنا بهذا الكنز قالت ياوردان ان هذا بعيد كيف أعيش بعده والله ان لم تذبحني لاتلفن روحك فلا تراجعني تتلف وهذا ما عندي من الرأي والسلام فقلت اذبحك وتروحين الى لعنة الله ثم جذبتها من شعرها وذبحتها وراحت الي لعنة الله والملائكة والناس اجمعين وبعد ذلك نظرت في المحل فوجدت فيه من الذهب والفصوص واللؤلؤ ما لا يقدر على جمعه أحد من الملوك فاخذت قفص الحمال وملأته على قدر ما أطيق ثم سترته بقماشي الذي كان علي وحملته وطلعت من الكنز وسرت ولم أزل سائرا الى باب مصر واذا بعشرة من جماعة الحاكم بامر الله مقبلون والحاكم خلفهم فقال ياوردان قلت لبيك أيها الملك قال هل قتلت الدب والمرأة قلت نعم قال حط عن رأسك وطب نفسا فجميع ما معك من المال لك لا ينازعك أحد فحطيت القفص بين يديه فكشفه ورآه وقال حدثني بخبرهما وان كنت أعرفه كأني حاضر معكم فحدثته بجميع ما جرى وهو يقول صدقت فقال ياوردان قم سر بنا فتوجهت اليه معه فوجدت الطابق مغلقا فقال ارفعه ياوردان فان هذا الكنز لا يقدر أحد أن يفتحه غيرك فانه مرصود باسمك وصفتك فقلت والله لا أطيق فتحه فقال تقدم أنت على بركة الله فتقدمت اليه وسميت الله تعالى ومددت يدي الى الطابق فارتفع كأنه أخف ما يكون فقال الحاكم انزل واطلع ما فيه فانه لا ينزله الا من هو باسمك وصورتك وصفاتك من حين وضع وقتل هذا الدب وهذه المرأة على يديك وهو عندي مؤرخ وكنت أنتظر وقوعه حتى وقع قال وردان فنزلت

ونقلت له جميع ما فى المكنز ثم دعا بالدواب وحمله واعطانى قفصى بما فيه فاخذته وعمدت الى بيتى وفتحت لى دكانا فى السوق وهذا السوق موجود الى الآن ويعرف بسوق وردان

(حكاية تتضمن داء غلبة الشهوة فى النساء ودواءها)

(ومما) يحكى أيضا انه كان لبعض السلاطين ابنة وقد تعلق قلبها بحب عبد اسود فافتض بكارتها وأولعت بالنكاح فكانت لا تصبر عنه ساعة واحدة فكشفت أمرها الى بعض القهرمانات فاخبرتها انه لا شىء ينكح أكثر من القرد فاتفق ان قردا تيامر تحت طاقتها بقرد كبير فاسفرت عن وجهها ونظرت الى القرد وغمزته بعيونها فقطع القرد وثاقه وسلاسله وطلع لها فخبأته فى مكان عندها وصار ليلا ونهارا على أكل وشرب وجماع ففطن أبوها بذلك وأراد قتلها وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٧٧) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أن السلطان لما فطن بامر ابنته وأراد قتلها شعرت بذلك فتزيت بزى المماليك وركبت فرسا وأخذت لها بغلا وحملته من الذهب والمعادن والقماش مالا يوصف وحملت القرد معها وسارت حتى وصلت الى مصر فنزلت فى بعض بيوت الصحراء وصارت كل يوم تشترى لحما من شاب جزار ولكن لا تأتيه الا بعد الظهر وهى مصفرة اللون متغيرة الوجه فقال الشاب فى نفسه لا بد لهذا المملوك من سبب عجيب فلما جاءت على العادة وأخذت اللحم تبعها من حيث لا تراه قال ولم أزل خلفها من حيث لا ترانى من محل الى محل حتى وصلت الى مكانها الذى بالصحراء ودخلت هناك فنظرت اليها من بعض جهاته فرأيتها استقرت بمكانها وأوقدت النار وطبخت اللحم وأكلت كفايتها وقدمت باقيه الى القرد الذى معها فاكل كفايته ثم انها نزعت ما عليها من الثياب ولبست أفخر ما عندها من ملابس النساء فعلمت أنها انثى ثم انها أحضرت خمرا وشربت منه وسقت القرد ثم واقعها القرد نحو عشر مرات حتى غشى عليها وبعد ذلك نشر القرد عليها ملاءة من حرير وراح الى محله فنزلت الى وسط المكان فاحس بى القرد وأراد افتراسى فبادرته بسكين كانت معى ففريت بها كرشه فانتبهت الصبية فزعة مرعوبة فرأت القرد على هذه الحالة فصرخت صرخة عظيمة حتى كادت أن تزهق روحها ثم وقعت مغشيا عليها فلما أفاقت من غشيتها قالت لى ما حملك على ذلك ولكن بالله عليك أن تلحقنى به فلا زلت ألاطفها وأضمن لها أنى أقوم بما قام القرد من كثرة النكاح الى ان سكن روعها وتزوجت بها فعجزت عن ذلك ولم أصبر عليه فشكوت حالى الى بعض العجائز وذكرت لها ما كان من أمرها فالتزمت لى بتدبير هذا الامر وقالت لى لا بد أن تأتينى بقدر وتملأه من الخل البكر وتأتينى بقدر رطل من العود القرح فاتيت لها بما طلبته فوضعته فى القدر ووضعت القدر على النار وغلته غليا ناقويا ثم أمرتنى بنكاح الصبية فنكتها الى ان غشى عليها فحملتها العجوز وهى لا تشعر وألقت فرجها على فم القدر فصعد دخانه حتى دخل فرجها فنزل منه شىء فتأملته فاذا هو دودتان أحداهما سوداء والاخرى صفراء فقالت العجوز الاولى تربت من نكاح العبد والثانية من نكاح القرد فلما أفاقت من غشيتها استمرت معى مدة وهى لا تطلب النكاح

محمد البصري فالتفت اليه المأمون وقال له يا محمد أريد منك في هذه الساعة أن تحدثني بشيء ما سمعته قط قال له يا أمير المؤمنين تريد أن أحدثك بحديث سمعته باذني أو بأمر عاينته ببصري فقال المأمون حدثني يا محمد بالاغرب منهما فقال اعلم يا أمير المؤمنين انه كان في الايام الماضية رجل من ارباب النعم وكان موطنه باليمن ثم انه ارتحل من اليمن الى مدينة بغداد هذه فطاب له مسكنها فنقل أهله وماله وعياله اليها وكان له ست جوار كأنهن الاقمار الاولى بيضاء والثانية سمراء والثالثة سمينة والرابعة هزيلة والخامسة صفراء والسادسة سوداء وكن حسان الوجوه كاملات الادب عارفات بصناعة الغناء وآلات الطرب فاتفق أنه أحضر هؤلاء الجوارى بين يديه يوما من الايام وطلب الطعام والمدام فأكلوا وشربوا وتلذذوا وطربوا ثم ملأ الكاس وأخذه في يده وأشار للجارية البيضاء وقال لها يا وجه الهلال أسمعينا من لذيذ المقال فأخذت العود وأصلحته ورجعت عليه الالحان حتى رقص المكان ثم أطربت بالنغمات وأنشدت هذه الابيات

لى حبيب خياله نصب عيني واسمه في جوارحي مكنون
ان تذكرته فكلى قلوب أو تأملته فكلى عيون
قال لى عاذلى أتسلو هواه قلت مالا يكون كيف يكون
يا عاذلي امض عني ودعني لا تهون على مالا يهون

فطرب مولاهن وشرب قدحه وسقى الجوارى ثم ملأ الكاس وأخذه في يده وأشار الى الجارية السمراء وقال لها يا نور المقباس وطيبة الانفاس أسمعينا صوتك الحسن الذى من سمعه افتتن فأخذت العود ورجعت عليه الالحان حتى طرب المكان وأخذت القلوب باللفتات وأنشدت هذه الابيات

وحياة وجهك لا أحب سواكا حتى اموت ولا أخون هواكا
يا بدر تم بالجميل مبرقعا كل الملاح تسير تحت لواكا
أنت الذى فقت الملاح اطافة والله رب العالمين حباكا

فطرب مولاهن وشرب كأسه وسقى الجوارى ثم ملأ القدح وأخذه في يده وأشار الى الجارية السمينة وامرها بالغناء وتقايب الاهواء فأخذت العود وضربت عليه ضربا يذهب الحسرات وانشدت هذه الابيات

ان صح منك الرضا يامن هو الطلب فلا أبالى بكل الناس ان غضبوا
وان تبدي محياك الجميل فلم اعبأ بكل ملوك الارض ان حجبوا
قصدى رضاك من الدنيا باجمعها يامن اليه جميع الحسن ينتسب

فطرب مولاهن واخذ الكاس وسقى الجواري ثم ملأ الكاس واخذه بيده واشار الى الجارية الهزيلة وقال يا حور الجنان اسمعينا الالفاظ الحسان فأخذت العود واصلحته ورجعت عليه الالحان وانشدت هذين البيتين

الا فى سبيل الله ماحل بى منكما بصدكما عنى حيث لا صبر عنكما
الا حاكم في الحب يحكم بيننا فيأخذ لى حقى وينصفنى منكما

فطرب مولاهن وشرب القدح واخذه بيده واشار الى الجارية الصفراء وقال يا شمس النهار اسمعينا من لطيف الاشعار فأخذت العود وضربت عليه احسن الضربات وانشدت هذه الابيات

لى حبيب اذا ظهرت اليه سل سيفا على من مقلتيه
اخذ الله بعض حقى منه اذ جفانى ومهجتى فى يديه
كلما قلت يا فؤادى دعه لا يميل الفؤاد الا اليه
هو سؤلى من الانام ولكن حسدتنى عين الزمان عليه

فطرب مولاهن وشرب وسقى الجوارى ثم ملأ الكاس واخذه فى يده واشار الى الجارية السوداء وقال ياسوداء العين اسمعينا ولو كلمتين فأخذت العود واصلحته وشدت اوتاره وضربت عليه عدة طرق ثم رجعت الى الطريقة الاولى واطربت بالنغمات وانشدت هذه الابيات

الا ياعين بالعبرات جودى فوجدى قد عدمت به وجودى
اكابد كل وجدى من حبيب الفت به ويشمت بى حسودى
وتمنعنى العواذل ورد خد ولى قلب يحن الى الورود
لقد دارت هناك كؤوس راح بافراح لدى ضرب وعود
ووافانى الحبيب فهمت فيه واشرق بالوفا نجم السعود
تقصدى للصدود بغير ذنب وهل شيء امر من الصدود
وفى وجناته ورد جنى فيالله من ورد الخدود
فلو ان السجود يحل شرعا لغير الله كان له سجودى

ثم بعد ذلك قامت الجوارى وقبلن الارض بين يدي مولاهن وقلن له انصف بيننا ياسيدنا فنظر مولاهن الي حسنهن وجمالهن واختلاف ألوانهن فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال لهن مامنكن الا وقد قرأت القرآن وتعلمت الالحان وعرفت أخبار المتقدمين واطلعت على سير الامم الماضين وقد اشتهيت أن تقوم كل واحدة منكن وتشير بيدها الى ضرتها يعنى تشير البيضاء الى السوداء والسمينة الى الهزيلة والصفراء الى السوداء وتمدح كل واحدة منكن نفسها وتذم ضرتها ثم تقوم ضرتها وتفعل معها مثلها ولكن يكون ذلك بدليل من القرآن الشريف وشيء من الاخبار والاشعار لننظر أدبكن وحسن ألفاظكن فقلن سمعا وطاعة وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٧٢) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن الرجل اليمنى قالت له جواريه سمعا وطاعة ثم قامت أولاهن وهى البيضاء وأشارت الى السوداء وقالت لها ويحك ياسوداء فقد ورد أن البياض قال أنا النور اللامع أنا البدر الطالع لونى ظاهر وجبينى زاهر وفى حسنى قال الشاعر

بيضاء مصقولة الخدين ناعمة   كأنها لؤلؤة فى الحسن مكنون
فقدها الف يزهو ومبسمها   ميم وحاجبها من فوقه نون
كأن ألحاظها نبل وحاجبها   قوس على أنه بالموت مقرون
بالخد والقدان تبدو فوجنتها   ورد وآس وريحان ونسرين
والغصن يمهد فى البستان مغرسه   وغصن قدك كم فيه بساتين

فلونى مثل النهار المنى والزهر الجنى والكوكب الدرى وقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز لنبيه موسى عليه السلام وادخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء وقال الله تعالى وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون فلونى آية وجمالى غاية وحسنى نهاية وعلى مثلى يحسن الملبوس واليه تميل النفوس وفى البياض فضائل كثيرة منها أن الثلج ينزل من السماء أبيض وقد وردان احسن الالوان البياض وتفتخر المسلمون بالعمائم البيض ولو ذهبت أذكر مافيه من المدح لطال الشرح ولكن ماقل وكفى خير مما كثر ووفى وسوف أبتدىء بذمك ياسوداء يالون المداد وهباب الحداد ووجه الغراب المفرق بين الاحباب وفى المثل يقول القائل كيف يوجد اسود عاقل فقال لها سيدها اجلسى ففى هذا القدر كفاية فقد أسرفت ثم أشار الى السوداء فقامت وأشارت بيدها إلى البيضاء وقالت أماعلمت أنه ورد فى القران المنزل على نبى الله المرسل قوله تعالى والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ولولا أن الليل أجل لما أقسم الله به وقدمه على النهار وقبلته أولوا البصائر والابصار أماعلمت أن السواد زينة الشباب فاذا نزل المشيب ذهبت اللذات ودنت أوقات الممات ولو لم يكن أجل الاشياء ماجعله الله فى حبة القلب والناظر وما أحسن قول الشاعر

لم أعشق السمر الامن حيازتهم   لون الشباب وحب القلب والحدق
ولا سلوت بياض البيض عن غلط   انى مع الشيب والاكفان فى فرق

وقول الآخر

السمر دون البيض هم   أولى بعشق وأحق
السمر فى لون اللمى   والبيض فى لون البهق

وقول الآخر

سوداء بيضاء الفعال كأنها   مثل العيون تخص بالاضواء
أنا ان جننت بحبها لا تعجبوا   أصل الجنون يكون بالسوداء
فكان لونى فى الدياجى غيهب   لولاه ما قمر آتى بضياء

وأيضا فلا يحسن اجتماع الاحباب الا فى الليل فيكفيك هذا الفضل والنيل فما ستر الاحباب عن الواشين واللوام مثل سواد الظلام ولا خوفهم من الافتضاح مثل بياض الصباح فكم للسواد من مآثر وما أحسن قول الشاعر

أزورهم وسواد الليل يشفع لى   وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

وقول الآخر

وكم ليلة بات الحبيب مؤانسى   وقد سترتنا من دجاه ذوائب

فلما بدا نور الصباح أخافني ... فقلت له ان المجوس كواذب

ولو ذهبت أذكر فى السواد من المدح لطال الشرح ولكن ما قل وكفى خير مما كثر وما وفى وأما أنت يا بيضاء فلونك لون البرص ووصالك من النصص وقد ورد أن البرد والزمهرير فى جهنم لعذاب أهل التكبير ومن فضيلة السواد أن منه المداد الذي يكتب به كلام الله ولولا سواد المسك والعنبر ما كان الطيب يحمل للملوك ولا يذكر وكم للسواد من مفاخر وما أحسن قول الشاعر

ألم تر أن المسك يعظم قدره ... وان بياض الجير حمل بدرهم

وان بياض العين يقبح بالفتى ... وان سواد العين يرمي باسهم

فقال لها سيدها اجلسي ففي هذا القدر كفاية فجلست ثم أشار الى السمينة فقامت وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٧٣) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أن اليمنى سيد الجوارى أشار الى الجارية السمينة فقامت وأشارت بيدها الى الهزيلة وكشفت سيقانها ومعاصمها وكشفت عن بطنها فبانت طياته وظهر تدوير سرتها ثم لبست قميصا رفيعا فبان منه جميع بدنها وقالت الحمد لله الذي خلقنى فأحسن صورتى وسمننى فأحسن سمنتى وشبهنى بالاغصان وزاد فى حسنى وبهجتى فله الحمد على ما أولانى وشرفنى اذ ذكر فى كتابه العزيز فقال تعالى وجاء بعجل سمين وجعلنى كالبستان المشتمل على خوخ ورمان وأهل المدن يشتهون الطير السمين فيأكلون منه ولا يحبون طيرا هزيلا وبنو آدم يشتهون اللحم السمين ويأكلونه وكم للسمن من مفاخر وما أحسن قول الشاعر

ودع حبيبك ان الركب مرتحل ... وهل تطيق وداعا أيها الرجل

كأن مشيتها فى بيت جارتها ... مشى السمينة لا عيب ولا ملل

وما رأيت أحدا يقف على الجزار الا ويطلب منه اللحم السمين وقالت الحكماء اللذة فى ثلاثة أشياء أكل اللحم والركوب على اللحم ودخول اللحم فى اللحم وأما أنت يا رفيعة فسيقانك كسيقان العصفور ومحراك التنور وأنت خشبة المصلوب ولحم المعيوب وليس فيك شىء يسر الخاطر كما قال فيك الشاعر

أعوذ بالله من أشياء تحوجنى ... الى مضاجعة كالدلك بالمسد

فى كل عضو لها قرن يناطحنى ... عند المنام فأمسى واهى الجلد

فقال سيدها اجلسى ففى هذا القدر كفاية فجلست ثم أشار الى الهزيلة فقامت كأنها غصن بان أو قضيب خيزران أو عود ريحان وقالت الحمد لله الذى خلقنى فأحسننى وجعل وصلى غاية المطلوب وشبهنى بالغصن الذى تميل اليه القلوب فان قمت قمت خفيفة وان جلست جلست ظريفة فانا خفيفة الروح عند المزاح طيبة النفس من الارتياح وما رأيت أحدا يصف حبيبه فقال حبيبى قدر الفيل ولا مثل الجبل العريض الطويل وانما حبيبى له قد أهيف وقوام مهفهف فاليسير من الطعام يكفينى والقليل من الماء يرويني [illegible] خفيف ومزاحى ظريف فانا انشط من العصفور وأخف حركة من الزرزور ووصلى منية الراغب ونزهة الطالب وأنا مليحة القوام حسنة الابتسام كأنى

لغصن بان أو قضيب خيزران أو عود ريحان وليس لي في الجمال مماثل كما قال في القائل

شبهت قـدك بالقضيب وجعلت شكك من نصيبي
وغـدوت خلفك هائما خوفا عليك من الرقيب

وفي مثلي تهيم العشاق ويتوله المشتاق وان جذبني حبيبي انجذبت اليه وان استمالني ملت له لا عليه وها أنت ياسمينة البدن فان أكلك أكل الفيل ولا يشبعك كثير ولا قليل وعند الاجتماع لا يستريح معك خليل ولا يوجد لراحته معك سبيل فكبر بطنك يمنعه من جماعك وعند التمكن من فرجك يمنعه غلظ أفخاذك أي شيء في غلظك من الملاحة أو في فظاظتك من اللطف والسماحة ولا يليق باللحم السمين غير الذبح وليس فيه شيء من موجبات المدح ان مازحك أحد غضبت وان لاعبك حزنت فان غنجت شخرت وان مشيت لهثت وان أكلت ماشبعت وأنت أثقل من الجبال وأقبح من الخبال والوبال مالك حركة ولا فيك بركة وليس لك شغل الا الاكل والنوم وان بلت شرشرت وان تغوطت بطبطت كأنك زق منفوخ أو فيل ممسوخ ان دخلت بيت الخلاء تريدين من يغسل لك فرجك وينتف من فوقه شعرك وهذا غاية الكسل وعنوان الخبل وبالجملة ليس فيك شيء من المفاخر وقد قال الشاعر

ثقيلة مثل زق البول منتفخ أوراكها كعواميد من الجبل
إذا مشت في بلاد الغرب أوخطرت سرى الى الشرق ماتبدى من الهبل

فقال لهما سيدها اجلسي ففي هذا القدر كفاية فجلست ثم أشار الى الصفراء فقامت على قدميها وحمدت الله تعالى وأثنت عليه وأتت بالصلاة والسلام على خيار خلقه لديه ثم أشارت بيدها الى السمراء وقالت . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٧٤) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية الصفراء قامت على قدميها فحمدت الله تعالى وأثنت عليه ثم أشارت بيدها الى السمراء وقالت لها أنا المنعوتة في القرآن ووصف لوني الرحمن وفضله على سائر الالوان بقوله تعالى في كتابه المبين صفراء فاقع لونها تسر الناظرين فلوني آية وجمالي غاية وحسني نهاية لان لوني لون الدينار ولون النجوم والاقمار ولون التفاح وشكلي شكل الملاح ولون الزعفران يزهو على سائر الالوان فشكلي غريب ولوني عجيب وأنا ناعمة البدن غالية الثمن وقد حويت كل معنى حسن ولوني في الوجود عزيز مثل الذهب الابريز وكم من مآثر وفي مثلي وقال الشاعر

لها اصفرار كلون الشمس مبتهج وكالدنانير في حسن من النظر
ما الزعفران تحاكي بعض بهجتها كلا ومنظرها يعلو عن القمر

وسوف أبتدىء بذمك ياسمراء اللون فانك في لون الجاموس تشمئز عند رؤيتك النفوس ان كان لونك في شيء فهو مذموم وان كان في طعام فهو مسموم فلونك لون الذباب وفيه بشاعة الكلاب وهو محير بين الالوان ومن علامات الاحزان وماسمعت قط بذهب أسمر ولا در ولا

وشربت كأس مراره متجرعا   وخضعت فيه لعبده ولحره
وكم ليلة بات الحبيب منادمى   ورشفت حلو رضابه من ثغره
ما كان اقصر عمر ليل وصالنا   قد جاء وقت عشائه مع فجره
نذر الزمان بان يفرق شملنا   والآن قد أوفى الزمان بنذره
حكم الزمان فلا مرد لحكمه   من ذا يعارض سيدا فى أمره

فلما فرغت الجارية من شعرها صرخ سيدها صرخة عظيمة و وقع مغشيا عليه فقالت الجارية لا آخذك الله أيها الشيخ ان لنا مدة ونحن نشرب بلا سماع مخافة على سيدنا من مثل هذه الصرعة ولكن اذهب الى المقصورة و نم فيها فتوجهت الى المقصورة التي اشارت اليها ونمت فيها الى الصباح واذا انا بغلام أتاني ومعه كيس فيه خمسمائة دينار وقال هذا الذى وعدك به سيدى ولكنك لا تعد الى هذه الجارية التي ارسلتك وكأنك ما سمعت بهذا الخبر ولا سمعنا فقلت له سمعا وطاعة ثم أخذت الكيس ومضيت الى حال سبيلي وقلت فى نفسى ان الجارية فى انتظارى من امس والله لا بد ان ارجع اليها واخبرها بما جرى بيني و بينه لانى ان لم أعد اليها ربما تشتمنى وتشتم كل من طلع من بلادى فمضيت اليها فوجدتها واقفة فلما رأتني قالت يا ابن منصور انك ما قضيت لى حاجة فقلت لها من أعلمك بهذا فقالت يا ابن منصور ان معى مكاشفة أخرى وهى انك لما ناولته الورقة مزقها و رماها وقال لك يا ابن منصور مهما كان لك من الحوائج قضيناه لك الا حاجة صاحبة هذه الورقة فانها ليس لها عندى جواب فقمت انت من عنده مغضبا فتعلق باذيالك وقال يا ابن منصور اجلس عندى اليوم فانك ضيفي فكل واشرب والتذ واطرب وخذ لك خمسمائة دينار فجلست عنده واكلت وشربت وتلذذت وطربت وسامرته وغنت الجارية بالصوت الفلانى والصوت الفلانى فوقع مغشياً عليه فقلت لها ياأمير المؤمنين هل أنت كنت معنا فقالت لى ياابن منصور أما سمعت قول الشاعر

قلوب العاشقين لها عيون   ترى ما لا يراه الناظرونا

ولكن يا ابن منصور ما تعاقب الليل والنهار على شىء الا وغيراه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٦٨) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان الجارية قالت يا ابن منصور ما تعاقب الليل والنهار على شىء الا وغيراه ثم رفعت طرفها الى السماء وقالت الهي وسيدي ومولاى كما بليتنى بمحبة جبير بن عمير أن تبليه بمحبتى وان تنقل المحبة من قلبى الى قلبه ثم انها اعطتني مائة دينار حق طريقى فاخذتها ومضيت الى سلطان البصرة فوجدته قد جاء من الصيد فاخذت رسمي منه ورجعت الى بغداد فلما أقبلت السنة الثانية توجهت الى مدينة البصرة لاطلب رسمى على عادتى ودفع السلطان الى رسمي ولما أردت الرجوع الى بغداد تفكرت فى نفسى أمر الجارية بدور وقلت والله لا بد ان اذهب اليها وانظر ما جرى بينها وبين صاحبها فجئت دارها فرأيت على بابها كنسا ورشا وخدما وحشما وغلمانا

فقلت لعل الجارية طفح الهم على قلبها فماتت ونزل فى دارها أمير من الامراء فتركتها ورجعت الى دار جبير بن عمير الشيبانى فوجدت مصاطبها قد هدمت ولم أجد على بابه غلما تامثل العادة فقلت فى نفسى لعله مات ثم وقفت على باب داره وجعلت أفيض العبرات وأندبه بهذه الابيات

ياسادة رحلوا والقلب يتبعهم عودوا تعدلى اعيادى بعودكم
وقفت فى داركم أنعى مساكنكم والدمع يدفق والاجفان تلتطم
أسائل الدار والاطلال باكية أين الذى كان منه الجود والنعم
اقصدسبيلك فالاحباب قد رحلوا من الربوع وتحت الترب قد ردموا
لاأوحش الله من رؤيا محاسنهم طولا وعرضا ولا غابت لهم شيم

فبينما أنا أندب أهل هذه الدار بهذه الابيات يا أمير المؤمنين واذا بعبد اسود قد خرج على من الدار فقال ياشيخ اسكت ثكلتك أمك مالى أراك تندب هذه الدار بهذه الابيات فقلت له انى كنت أعهدها لصديق من اصدقائي فقال وما اسمه فقلت جبير بن عمير الشيبانى قال وأى شىء جرى له الحمد لله هاهو على حاله من الغنى والسعادة والملك لكن ابتلاه بمحبة جارية يقال لها السيدة بدور وهو فى محبتها مغمور من شدة الوجد والتبريح فهو كالحجر الجلمود الطريح فان جاع لا يقول لهم اطعمونى وان عطش لا يقول اسقونى فقلت استأذن لى فى الدخول عليه فقال ياسيدى أتدخل على من يفهم أو على من لا يفهم فقلت لا بد أن ادخل اليه على كل حال فدخل الدار مستأذنا ثم عاد الى آذنا فدخلت عليه فوجدته كالحجر الطريح لا يفهم باشارة ولا بصريح وكلمته فلم يكلمنى فقال لى بعض أتباعه ياسيدى ان كنت تحفظ شيئا من الشعر فأنشده اياه وارفع صوتك به فانه ينتبه لذلك ويخاطبك فانشدت هذين البيتين

اسلوت حب بدور أم تتجلد وسهرت ليلك ام جفونك ترقد
ان كان دمعك سائلا مهمولة فاعلم بانك في الجنان مخلد

فلما سمع هذا الشعر فتح عينيه وقال لي مرحبا يا ابن منصور قد صار الهزل جدا فقلت له ياسيدى ألك بى حاجة قال نعم أريد ان اكتب لها ورقة وأرسلها معك اليها فان اتيتنى بجوابها فلك على ألف دينار وان لم تأتنى بجوابها فلك عندى حق مشيك مائة دينار فقلت له افعل مابدالك وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٦٩) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان ابن منصور قال فقلت له افعل مابدالك فنادي بعض جواريه وقال ائتينى بدواة وقرطاس فأتته بما طلبه فكتب هذه الابيات

سألتكم بالله ياسادتى مهلا على فان الحب لم يبق لى عقلا
تمكن منى حبكم وهواكم فالبسنى سقما وأورثنى ذلا
لقد كنت قبل اليوم استصغر الهوي واحسبه ياسادتى هينا سهلا
فلما ارانى الحب أمواج بحره رجعت لحكم الله اعذر من يبلى

فان شئتم أن ترحمونى بوصلكم وان شئتم قتلى فلا تنسوا الفضلا

جبير بن عمير الشيبانى
(وهو يعطى أبامنصور الخطاب ليوصله الى السيدة بدور)

ثم ختم الكتاب وناولنى اياه فأخذته ومضيت به الى دار بدور وجعلت ارفع الستر قليلا قليلا على العادة واذا انا بعشر جوار نهد ابكار كأنهن الاقمار والسيدة بدور جالسة فى وسطهن كأنها البدر فى وسط النجوم أو الشمس اذا دخلت على الغيوم وليس بها الم ولا وجع فبينما انا انظر اليها واتعجب من هذا الحال اذ لاحت منها التفاتة لى فرأتنى واقفا

الباب فقالت لى أهلا وسهلا ومرحبا بك يا ابن منصور ادخل فدخلت وسلمت عليها وناولتها الورقة فلما قرأتها وفهمت مافيها ضحكت وقالت يا ابن منصور ما كذب الشاعر حيث قال

فلاصبرن على هواك تجلدا   حتى يجيء الى منك رسول

يا ابن منصور ها انا اكتب لك جوابا حتى يعطيك الذى وعدك به فقلت لها جزاك الله خيرا فنادت بعض جواريها وقالت ائتينى بدواة وقرطاس فلما أتتها بما طلبت كتبت اليه هذه الابيات

مالى وفيت بعهدكم فغدرتم   ورأيتمونى منصفا فظلمتم
باديتمونى بالقطيعة والجفا   وغدرتم والغدر باد منكم
مازلت احفظ فى البرية عهدكم   واصون عرضكم واحلف عنكم
حتى رأيت بناظري ماساءنى   وسمعت أخبار القبائح عنكم
ايهون قدرى حين ارفع قدركم   والله لو اكرمتم لكرمتم
فلاصرفن القلب عنكم سلوة   ولانفضن يدى يأسا منكم

فقلت لها والله ياسيدتى أنه مايقرأ هذه الابيات الا وتفارق روحه من جسده فقالت لى يا ابن منصور قد بلغ بى الوجد الى هذا الحد حتى قلت ماقلت فقلت لها لو قلت اكثر من ذلك الحق لك ولكن العفو من شيم الكرام فلما سمعت كلامي تغرغرت عيناها بالدموع وكتبت اليه رقعة والله ياأمير المؤمنين مافى ديوانك من يحسن أن يكتب مثلها وكتبت فيها هذه الابيات

إلى كم ذا الدلال وذا التجنى   شفيت وحقك الحساد منى
لعلى قد أسأت ولست أدرى   فقل لى ماالذى بلغت عنى
مرادي لو وضعتك ياحبيبي   مكان النوم من عينى وجفنى
شربت كؤس حبك مترعات   فان ترنى سكرت فلا تلمنى

فلما فرغت من كتابة المكتوب وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٧٠) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أن بدور لما فرغت من كتابة المكتوب وختمته ناولتنى إياه فقلت لها ياسيدتي ان هذه الرقعه تداوى العليل وتشفى الغليل ثم أخذت المكتوب وخرجت فنادتنى بعد ماخرجت من عندها وقالت لى يا ابن منصور قل له انها فى هذه الليلة ضيفتك ففرحت أنا بذلك فرحا شديدا ومضيت بالكتاب الي جبير بن عمير فلما دخلت عليه وجدت عينه شاخصة الى الباب ينتظر الجواب فلما ناولته الورقة فتحها وقرأها وفهم معناها فصاح صيحة عظيمة ووقع مغشيا عليه فلما أفاق قال يا ابن منصور هل كتبت هذه الرقعة بيدها ولمستها بأناملها قلت ياسيدى وهل الناس يكتبون بارجلهم فوالله ياأمير المؤمنين ما استتم كلامى أنا واياه الا وقد سمعنا شن خلاخلها فى الدهليز وهى داخلة فلما رآها قام على أقدامه كأنه لم يكن به ألم قط وعانقها عناق اللام للالف وزالت عنه علته التي لا تنصرف ثم جلس ولم تجلس هى فقلت لها ياسيدتى لاى شيء لم تجلسى قالت يا ابن منصور لا أجلس الا بالشرط الذى بيننا فقلت لها وما

ذلك الشرط الذى بينـكما قالت ان العشاق لا يطلع أحد على أسرارهم ثم وضعت فمها على أذنه وقالت له كلاما سرا فقال سمعا وطاعة ثم قام جبير ووشوش بعض عبيده فغاب العبد ساعة ثم أتى ومعه قاض وشاهدان فقام جبير وأتى بكيس فيه مائة ألف دينار وقال أيها القاضي اعقد عقدي على هذه الصبية بهذا المبلغ فقال لها القاضي قولي رضيت بذلك فقالت رضيت بذلك فعقدوا العقد ثم فتحت الـكيس وملأت يدها منه وأعطت القاضي والشهود ثم ناولته بقية الـكيس فانصرف القاضي والشهود وقعدت أنا وإياهما في بسط وانشراح الى أن مضى من الليـل أكثره فقلت في نفسي انهما عاشقان ومضت عليهما مدة من الزمان وهما متهاجران فانا أقوم في هذه الساعة لانام في مكان بعيد عنهما وأتركهما يختليان ببعضهما ثم قمت فتعلقت باذيالي وقالت ما الذى حدثتك به نفسك فقلت ما هو كذا وكذا فقالت اجلس فاذا أردنا انصرافك صرفناك فجلست معهما الى أن قرب الصبح فقالت يا ابن منصور امض الى تلك المقصورة لانا فرشناها لك وهي محل نومك فقمت ونمت الى الصباح فلما أصبحت جاءني غلام بطشت وابريق فتوضأت وصليت الصبح ثم جلست فبينما أنا جالس واذا بجبير ومحبوبته خرجا من حمام في الدار وكل منهما يعصر ذوائبه فصبحت عليهما وهنيتهما بالسلامة وجمع الشمل ثم قلت له الذي أوله شرط آخره رضا فقال لي صدقت وقد وجب لك الاكرام ثم نادى خازنداره وقال له ائتني بثلاثة آلاف دينار فأتاه بكيس فيه ثلاثة آلاف دينار فقال لي تفضل علينا بقبول هذا فقلت له لا أقبله حتى تحكي لي ما سبب انتقال المحبة منها اليك بعد ذلك الصد العظيم قال سمعا وطاعة اعلم أن عندنا عيدا يقال له عيد النوارز يخرج الناس فيه وينزلون في الزورق ويتفرجون في البحر فخرجت أتفرج أنا وأصحابي فرأيت زورقا فيه عشر جوار كأنهن الاقمار والسيدة بدور هذه في وسطهن وعودها معها فضربت عليه احدى عشر طريقة ثم عادت الى الطريقة الاولى وانشدت هذين البيتين

النار أبرد من نيران أحشائي والصخر ألين من قلبي لمولائي

انى لاعجب من تأليف خلقته قلب من الصخر في جسم من الماء

فقلت لها أعيدي البيتين والطريقة فما رضيت . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الـكلام المباح

(وفي ليلة ٣٧١) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن جبير قال فقلت لها أعيدي البيتين فما رضيت فامرت النوتية أن يرجموها فرجموها بالنارنج حتى خشينا الغرق على الزورق الذى هي فيه ثم مضت الى حال سبيلها وهذا سبب انتقال المحبة من قلبها الي قلبي فهنيتهما بجمع الشمل وأخذت الـكيس بما فيه وتوجهت الى بغداد فانشرح صدر الخليفة وزال عنه ما كان يجده من الارق وضيق الصدر

حكاية الجواري المختلفة الالوان وما وقع بينهن من المحاورة

(ومما) يحكى أن أمير المؤمنين المأمون جلس يوما من الايام في قصره وأحضر رؤساء دولته وأكابر مملكته جميعا وكذلك أحضر الشعراء والندماء بين يديه وكان من جملة ندمائه نديم يسمى

فلما أتى الليل دخلت محل بيتها وأظهرت انه غلب عليها النوم ولم يكن لها عادة بأن ينام عندها أحد غير الخادمين برسم الخدمة فلما استقرت فى ذلك المحل أرسلت إلى محبوبها علي شار وقد جلست على السرير والشمع يضيء فوق رأسها وتحت رجليها والتعاليق الذهب مشرقة فى ذلك المحل فلما سمع الناس بارسالها اليه تعجبوا من ذلك وصار كل واحد منهم يظن ظنا ويقول مقالة وقال بعضهم ان الملك على كل حال تعلق بهذا الغلام وفى غد يجعله قائد عسكر فلما دخلوا به عليها قبل الارض بين يديها ودعا لها فقالت فى نفسها لا بد أن امزح معه ساعة ولا أعلمه بنفسى ثم قالت يا على هل ذهبت الى الحمام قال نعم يا مولاي قالت قم كل من هذا الدجاج واللحم واشرب من هذا السكر الشراب فانك تعبان و بعد ذلك تعال هنا فقال سمعا وطاعة ثم فعل ما أمرته به ولما فرغ من الاكل والشرب قالت له اطلع عندى على السرير وكبسنى فشرع يكبس رجليها وسيقانها فوجدها أنعم من الحرير فقالت له اطلع بالتكبيس إلى فوق فقال العفو يا مولاي من عند الركبة ما تعدي قالت أتخالفنى فتكون ليلة مشؤومة عليك وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٦٤) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أن زمرد قالت لسيدها علي شار أتخالفنى فتكون ليلة مشؤومة عليك بل ينبغى لك أن تطاوعنى وأنا أعملك معشوقى وأجعلك أميراً من امرائى فقال على شار يا ملك الزمان ما الذي أطيعك فيه قالت حل لباسك ونم علي وجهك فقال هذا شيء عمرى ما فعلته وان قهرتنى على ذلك فانى اخاصمك فيه عند الله يوم القيامه فخذ كل شيء أعطيتنى اياه ودعنى أروح من مدينتك ثم بكى وانتحب فقالت حل لباسك ونم علي وجهك والا ضربت عنقك ففعل فطلعت على ظهره فوجد شيئا ناعما أنعم من الحرير والين من الزبد فقال فى نفسه ان هذا الملك خير من جميع النساء ثم انها صبرت ساعة وهى على ظهره و بعد ذلك انقلبت على الارض فقال علي شار الحمد لله كان ذكره لم ينتصب فقالت ان من عادة ذكرى لم ينتصب الا اذا عركوه بأيديهم فقم اعركه بيدك حتى ينتصب والا قتلتك ثم رقدت على ظهرها وأخذت بيده و وضعتها على فرجها فوجد فرجاً أنعم من الحرير وهو أبيض مربرب كبير يحكى فى السخونة حرارة الحمام أوقلب صب اضناه الغرام فقال على شار فى نفسه ان الملك له كس فهذا من العجب العجاب وادركته الشهوة فصار ذكره فى غاية الانتصاب فلما رأت منه ذلك ضحكت وقهقهت وقالت له يا سيدى قد حصل هذا كله وما عرفتنى فقال ومن أنت أيها الملك قال انا جاريتك زمرد فلما علم ذلك قبلها وعانقها وانقض عليها مثل الاسد على الشاة وتحقق انها جاريته بلا اشتباه فاغمد قضيبه فى جرابها ولم يزل بوابا لبابها واماما لمحرابها وهى معه فى ركوع وسجود وقيام وقعود الا أنها صارت تتبع التسبيحات بغنج فى ضمنه حركات حتى سمع الطواشية فجاءوا ونظروا من خلف الاستار فوجدوا الملك راقدا وفوقه علي شار وهو يرصع ويرهز وهى تشخر و تغنج فقالت الطواشية ان هذا الغنج ما هو غنج رجل لعل هذا الملك امرأة ثم كتموا أمرهم ولم يظهروه على أحد فلما أصبحت زمرد أرسلت الى كامل العسكر وأرباب الدولة وأحضرتهم وقالت لهم أنا أريد أن أسافر إلى بلد هذا الرجل فاختاروا لكم نائبا

بحكم بينكم حتى أحضر عندكم فاجابوا زمرد بالسمع والطاعة ثم شرعت فى تجهيز آلة السفر من زاد وأموال وأرزاق وتحفة وجمال وبغال وسافرت من المدينه ولم تزل مسافرة إلى أن وصلت إلى بلد على شار ودخل منزله وأعطى وتصدق ووهب ورزق منها الاولاد وعاشا فى أحسن المسرات إلى أن أتاهما هازم اللذات ومفرق الجماعات فسبحان الباقى بلا زوال والحمد لله على كل حال

﴿ حكاية بدور بنت الجوهرى مع جبير بن عمير الشيبانى ﴾

(ومما) يحكى أن أمير المؤمنين هرون الرشيد أرق ليلة من الليالى وتعذر عليه النوم ولم يزل يتقلب من جنب الى جنب لشدة أرقه فلما أعياه ذلك أحضر مسرورا وقال يامسرور انظر الى من يسليني على هذا الارق فقال له يامولاى هل لك أن تدخل البستان الذى فى الدار وتتفرج على مافيه من الازهار وتنظر الى الكواكب وحسن ترصيعها والقمر بينها مشرف على الماء قال له يامسرور أن نفسى لاتهفو الي شيء من ذلك قال يامولاى ان فى قصرك ثلثمائة سرية لكل سرية مقصورة فامر كل واحدة منهن أن تختلى بنفسها فى مقصورتها وتدور أنت تتفرج عليهن وهن لايدرين قال يامسرور القصر قصرى والجوارى ملكى غير أن نفسى لاتهفو إلى شيء من ذلك قال يامولاى مر العلماء والحكماء والشعراء أن يحضروا بين يديك ويفيضوا فى المباحث وينشدون الاشعار ويقصون عليك الحكايات والاخبار قال ماتهفو نفسى إلى شيء من ذلك قال يامولاى مر العلماء والندماء والظرفاء أن يحضروا بين يديك ويتحفوك بغريب النكات قال يامسرور ان نفسى ماتهفو الى شيء من ذلك قال يامولاى فاضرب عنقى . وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٦٥) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أن مسرورا قال للخليفة يامولاى فاضرب عنقى لعله يزيل أرقك ويذهب القلق عنك فضحك الرشيد من قوله وقال يامسرور انظر من بالباب من الندماء فخرج مسرور ثم عاد وقال يامولاى الذى على الباب على بن منصور الخليع الدمشقى قال على به فذهب واتى به فلما دخل قال السلام عليك ياأمير المؤمنين فرد عليه السلام وقال ياابن منصور حدثنى بشيء من أخبارك فقال ياأمير المؤمنين هل أحدثك بشيء رأيته عيانا أو شيء سمعت به فقال أمير المؤمنين ان كنت عاينت شيئا غريبا فحدثنا به فانه ليس الخبر كالعيان قال ياأمير المؤمنين أخل لى سمعك وقلبك قال ياابن منصور ها أنا سامع لك باذنى ناظر لك بعينى مصغ لك بقلبى قال ياأمير المؤمنين اعلم ان لى كل سنة رسما على محمد بن سليمان الهاشمى سلطان البصرة فمضيت اليه على عادتى فلما وصلت اليه وجدته متهيئا للركوب الى الصيد والقنص فسلمت عليه وسلم على وقال لى ياابن منصور اركب معنا الى الصيد فقلت له يامولاى مالى قدرة على الركوب فاجلسنى فى دار الضيافة وأوصى على الحجاب والنواب ففعلوا ثم توجه إلى الصيد فاكرمونى غاية الاكرام وضيفونى أحسن الضيافة فقلت فى نفسى ياالله العجب لى مدة أقدم من بغداد الى البصرة ولم اعرف فى البصرة سوى من القصر الي البستان ومن البستان إلى القصر ومتى يكون لى فرصة انتهزها فى الفرجة على جهات البصرة مثل هذه النوبة فانا أقوم هذه الساعة واتمشى وحدى لاتفرج بينهم

عني الاكل فلبست أخر ثيابي وتمشيت في جانب البصرة ومعلومك ياأمير المؤمنين أن فيها سبعين دربا طول كل درب سبعين فرسخا بالعراقي فتهت في أزقتها ولحقني العطش فبينما أنا ماش ياأمير المؤمنين واذا بباب كبير له حلقتان من النحاس الاصفر ومرخى عليه ستور من الديباج الاحمر وفي جانبه مصطبتان وفوقه مكعب لدوالي العنب وقد ظللت على ذلك الباب فوقفت اتفرج على هذا المكان فبينما أنا واقف اذ سمعت صوت أنين ناشىء عن قلب حزين يقلب النغمات وينشد هذه الابيات

جسمي غدا منزل الاسقام والمحن من أجل ظبي بعيد الدار والوطن
فيانسيمي زرود هيجا شجني بالله ربكما عوجا عن سكني
وعاتباه لعل العتب يعطفه
وحسنا القول اذ يصغي لقولكما واستدرجا خبر العشاق بينكما
وأولياني جميلا من صنيعكما وعرضا بي وقولا في حديثكما
مابال عبد بالهجران تتلفه

فقلت في نفسي ان كان صاحب النغمة مليحا فقد جمع بين الملاحة والفصاحة وحسن الصوت ثم دنوت من الباب وجعلت أرفع الستر قليلا قليلا واذا بجارية بيضاء كأنها البدر اذا بدر في ليلة أربعة عشر بحاجبين مقرونين وجفنين ناعسين ونهدين كرمانتين ولها شفتان رقيقتان كأنهما اقحوانتان وفم كأنه خاتم سليمان ونضيد أسنان يلعب بعقل الناظم والناثر كما قال فيه الشاعر

يادر ثغر الحبيب من نظمك واودع الراح والاقاح فمك
ومن أعار الصباح مبتسمك ومن بقفل العقيق قد ختمك
اصبح من قد رآك من طرب يتيه عجبا فكيف من لثمك

وبالجملة قد حازت انواع الجمال وصارت فتنة للنساء والرجال لا يشبع من رؤية حسنها الناظر وهي كما قال فيها الشاعر

ان أقبلت قتلت وان هي ادبرت جعلت جميع الناس من عشاقها
شمسية بدرية لكنها ليس الجفا والصد من أخلاقها

فبينما أنا انظر اليها من خلال الستارة واذا هي التفتت فرأتني واقفا على الباب فقالت لجاريتها انظري من بالباب فقامت الجارية وأتت الى وقالت ياشيخ اليس عندك حياء وهل شيب وعيب فقلت لها ياسيدتي اما الشيب فقد عرفناه واما العيب فما أظن اني أتيت بعيب فقالت سيدتها وأي عيب أكثر من تهجمك على دار غير دارك ونظرك الى حريم غير حريمك فقلت لها ياسيدتي الى عذر في ذلك فقالت وما عذرك فقلت لها اني رجل غريب عطشان وقد قتلني العطش فقالت قبلنا عذرك وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٦٦) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية قالت قبلنا عذرك ثم نادت بعض جواريها وقالت يالطف اسقيه شربة بالكوز الذهب فجاءتني بكوز من الذهب الاحمر مرصع

بالدر والجوهر ملآن ماء ممزوج بالمسك الاذفر وهو مغطى بمنديل من الحرير الاخضر فجعلت أشرب وأطيل فى شربى وأنا أسارق النظر اليها حتى طال وقوفى ثم رددت الكوز على الجارية ووقفت فقالت ياشيخ امض الى حال سبيلك فقلت لها ياسيدتى أنا مشغول الفكر فقالت فيماذا فقلت فى تقلب الزمان وتصرف الحدثان قالت يحق لك لان الزمان ذو عجائب ولكن ما الذى رأيت من عجائبه حتى تفكر فيه فقلت لها أفكر فى صاحب هذه الدار لانه كان صديقى فى حال حياته فقالت لى ما اسمه فقلت محمد بن على الجوهرى وكان ذا مال جزيل فهل خلف أولادا قالت نعم خلف بنتا يقال لها بدور وقد ورثت أمواله جميعها فقلت لها كانك ابنته قالت نعم وضحكت ثم قالت ياشيخ قد أطلت الخطاب فاذهب الى حال سبيلك فقلت لها لا بد من الذهاب ولكنى أرى محاسنك متغيرة فاخبرينى بشأنك لعل الله يجعل لك على يدى فرجا فقالت لى ياشيخ ان كنت من أهل الاسرار كشفنا لك سرنا فاخبرنى من أنت حتى أعرف هل أنت محل للسر أولا فقد قال الشاعر

لا يكتم السر الا كل ذى ثقة　　والسر عند خيار الناس مكتوم

قد صنت سرى فى بيت له غلق　　وقد ضاع مفتاحه والبيت مختوم

فقلت لها ياسيدتى ان كان قصدك أن تعلمى من أنا فانا على بن منصور الخليع الدمشقى نديم أمير المؤمنين هرون الرشيد فلما سمعت باسمى نزلت من على كرسيها وسلمت على وقالت لى مرحبا بك يا ابن منصور الآن أخبرك بحالى واستأمنك على سرى انا عاشقة مفارقة فقلت ياسيدتى انت مليحة وما تعشقين الا كل مليح فمن الذى تعشقينه قالت اعشق جبير بن عمير الشيبانى أمير بنى شيبان وقد وصفت لى شابا لم يكن بالبصرة أحسن منه فقلت لها ياسيدتى هل جرى بينكما مواصلة أو مراسلة قالت نعم الا انه قد عشقنا عشقا باللسان لا بالقلب والجنان لانه لم يوف بوعد ولم يحافظ على عهد فقلت لها ياسيدتى وما سبب الفراق بينكما قالت سببه انى كنت يوما جالسة وجاريتى هذه تسرح شعرى فلما فرغت من تسريحه جدلت ذوائبى فاعجبها حسنى وجمالى فطأطأت على وقبلت خدى وكان فى ذلك الوقت داخلا على غفلة فرأى ذلك فلما رأى الجارية تقبل خدى ولى من وقته غضبان عازما على دوام البين وانشد هذين البيتين

اذا كان لى فيمن احب مشارك　　تركت الذى أهوى وعشت وحيدا

فلا خير فى المعشوق ان كان فى الهوى　　لغير الذى يرضى المحب مريدا

ومن حين ولى معرضا الى الآن لم يأتنا منه كتاب ولا جواب يا ابن منصور فقلت لها فما تريدين قالت أريد أن ارسل اليه معك كتابا فان أتيتنى بجوابه فلك عندى خمسمائة دينار وان لم تأتنى بجوابه فلك حق مشيك مائة دينار فقلت لها افعلى ما بدا لك فقالت سمعا وطاعة ثم نادت بعض جواريها وقالت ائتينى بدواة وقرطاس فأتتها بدواة وقرطاس فكتبت هذه الابيات

حبيبى ماهذا التباعد والقلا　　فاين التغاضى بيننا والتعطف

ومالك بالهجران عنى معرضا　　فاوجهك الوجه الذى كنت أعرف

نعم نقل الواشون عنى باطلا ⁂ فملت لما قالوا فزادوا واسرفوا
فان تك قد صدقتهم فى حديثهم ⁂ فحاشاك من هذا ورأيك أعرف
بعيشك قل لى ماالذى قد سمعته ⁂ فانك تدرى مايقال وتنصف
فان كان قولا صح انى قلته ⁂ فللقول تاويل وللقول مصرف
وهب أنه قول من الله منزل ⁂ فقد بدل التوراة قوم وحرفوا
وبالزور كم قد قيل فى الناس قبلنا ⁂ فها عند يعقوب تلوم يوسف
وها أنا والواشى وأنت جميعا ⁂ يكون لنا يوم عظيم موقف

ثم بعد ذلك ختمت الكتاب وناولتنى اياه فاخذته ومضيت الى دار جبير بن عمير الشيبانى فوجدته فى الصيد فجلست أنتظره فبينما أنا جالس واذا به قد أقبل من الصيد فلما رأيته ياأمير المؤمنين على فرسه ذهل عقلى من حسنه وجماله فالتفت فرآنى جالسا بباب داره فلما رآنى نزل عن جواده وأتى الى واعتنقنى وسلم على فخيل لى أنى اعتنقت الدنيا ومافيها ثم دخل بى الى داره واجلسنى على فراشه وأمر بتقديم المائدة فقدموا مائدة من الخولنج الخراسانى وقوائمها من الذهب عليها جميع الاطعمة وأنواع اللحم من مقلى ومشوى ومأشبه ذلك فلما جلست على المائدة وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٦٧) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أن على بن منصور قال لما جلست على مائدة جبير بن عمير الشيبانى قال مد يدك الى طعامنا واجبر خاطرنا بأكل زادنا فقلت له والله ما آكل من طعامك لقمة واحدة حتى تقضى حاجتى قال فما حاجتك فاخرجت اليه الكتاب فلما قرأه وفهم مافيه مزقه ورماه فى الارض وقال لى يا ابن منصور مهما كان لك من الحوائج قضيناه الا هذه الحاجة التى تتعلق بصاحبة هذا الكتاب فان كتابها ليس له عندنا جواب فقمت من عنده غضبان فتعلق باذيالى وقال لى يا ابن منصور انا أخبرك بالذى قالته لك وان لم أكن حاضرا معكما فقلت له ما الذي قالته لى قال أما قالت لك صاحبة هذا الكتاب ان اتيتنى بجوابه فلك عندى خمسمائة دينار وان لم تاتنى بجوابه فلك حق مشيك مائة دينار قلت نعم قال اجلس عندى اليوم وكل واشرب وتلذذ واطرب وخذ لك خمسمائة دينار فجلست عنده واكلت وشربت وتلذذت وطربت وسامرته ثم قلت ياسيدى مافى دارك سماع قال لى ان لنا مدة نشرب من غير سماع ثم نادى بعض جواريه وقال ياشجرة الدر فاجابته جارية من مقصورتها ومعها عود من صنع الهنود ملفوف فى كيس من الابريسم ثم جاءت وجلست ووضعته فى حجرها وضربت عليه احدى وعشرين طريقة ثم عادت الى الطريقة الاولى واطربت بالنغمات وانشدت هذه الابيات

من لم يذق حلو الهوى مع مره ⁂ لم يدر وصل حبيبه من هجره
وكذاك من قد حاد عن سنن الهوى ⁂ لم يدر سهل طريقه من وعره
مازلت معترضا على أهل الهوى ⁂ حتى بليت بحلوه وبمره

طعام أمثاله فقال واحد انا قنعت بهذا الكشك الذى قدامي فقال الحشاش الحمد لله الذى منعنى ان آكل من الصحن الارز الحلو شيئا لانى كنت أنتظر ان يستقر قدامه و يتهنى عليه ثم آكل معه فحصل له ما رأينا فقال الناس لبعضهم اصبر واحتى ننظر ما يجرى عليه فلما قدموه بين يدى الملكة زمرد قالت له ويلك يا أزرق العينين ما اسمك وماسبب قدومك الى بلادنا فانكر الملعون اسمه وكان متعمما بعمامة بيضاء فقال يا ملك اسمى على وصنعتى حباك وجئت الى هذه المدينة من اجل التجارة فقالت زمرد ائتونى بتخت رمل وقلم من نحاس فجاؤا بما طلبته فى الحال فاخذت التخت الرمل والقلم وضربت تخت رمل وخطت بالقلم صورة مثل صورة قرد ثم بعد ذلك رفعت رأسها وتأملت فى برسوم ساعة زمانية وقالت له يا كلب كيف تكذب على الملوك أما أنت نصرانى واسمك برسوم وقد أتيت الى حاجة تفتش عليها فاصدقنى الخبر والا وعزة الربوبية لاضرب عنقك فتلجلج النصرانى فقال الامراء والحاضرون ان هذا الملك يعرف ضرب الرمل سبحان من أعطاه ثم صاحت على النصرانى وقالت له اصدقنى الخبر والا أهلكتك فقال النصرانى العفو يا ملك الزمان انك صادق فى ضرب الرمل فان الابعد نصرانى وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٥٨) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان النصرانى قال العفو يا ملك الزمان انك صادق فى ضرب الرمل فان الابعد نصرانى فتعجب الحاضرون من الامراء وغيرهم من اصابة الملك فى ضرب الرمل وقالوا ان هذا الملك منجم مافى الدنيا مثله ثم ان الملكة أمرت بان يسلخ النصرانى ويحشى جلده تبنا ويعلق على باب الميدان وان يحفروا حفرة فى خارج البلد ويحرق فيها لحمه وعظمه وترمى عليه الاوساخ والاقذار فقالوا سمعا وطاعة وفعلوا جميع ما أمرتهم به فلما نظر الخلق ما حل بالنصرانى قالوا جزاؤه ما حل به فما كان أشأمها لقمة عليه فقال واحد منهم على البعيد الطلاق عمرى ما بقيت آكل أرزا حلوا فقال الحشاش الحمد لله الذى عافانى مما حل بهذا حيث حفظنى من أكل ذلك الارز ثم خرج الناس جميعهم وقد حرموا الجلوس على الارز الحلو فى موضع ذلك النصرانى ولما كان الشهر الثالث مدوا السماط على جرى العادة وملؤوه بالاصحن وقعدت الملكة زمرد على الكرسي ووقفت العسكر على جري العادة وهم خائفون من سطوتها ودخلت الناس من أهل المدينة على العادة وداروا حول السماط ونظروا الى موضع الصحن فقال واحد منهم للاخر يا حج خلف قال له لبيك يا حج خالد قال تجنب الصحن الارز الحلو واحذر ان تأكل منه وان أكلت منه تصبح مشنوقا ثم انهم جلسوا حول السماط للاكل فبينما هم يأكلون والملكة زمرد جالسة اذحانت منها التفاتة الى رجل داخل يهرول من باب المدينة فتأملته فوجدته جوان الكردى اللص الذى قتل الجندي وسبب مجيئه انه كان ترك امه ومضى الى رفقائه وقال لهم انى كسبت البارحة كسبا طيبا وقتلت جنديا وأخذت فرسه وحصل لى فى تلك الليلة خرج ملآن ذهبا وصبية قيمتها أكثر من الذهب الذى فى الخرج ووضعت جميع ذلك فى الغار عند والدتى ففرحوا بذلك وتوجهوا الى الغار فى آخر النهار ودخل جوان الكردى قدامهم وهم خلفه وأراد أن يأتى لهم بما قال لهم عليه فوجد المكان قفرا فسأل أمه عن حقيقة الامر

فاخبرته بجميع ماجرى فعض على كفيه ندما وقال والله لادورن على هذه الفاجرة وآخذها من المكان الذى هى فيه ولو كانت فى قشور الفستق واشفى غليلى منها وخرج يفتش عليها ولم يزل دائرا فى البلاد حتى وصل الى مدينة الملكة زمرد فلما دخل المدينه لم يجد فيها أحدا فسأل بعض النساء الناظرات من الشبابيك فاعلمنه ان أول كل شهر يمد السلطان سماطا وتروح الناس وتأكل منه ودلوه على الميدان الذى يمد فيه السماط فجاء وهو يهرول فلم يجد مكانا خاليا يجلس فيه الا عند الصحن المتقدم ذكره فقعد وصار الصحن قدامه فمد يده اليه فصاحت عليه الناس وقالوا له يا أخانا اتريد أن تعمل قال اريد أن آكل من هذا الصحن حتى أشبع فقال له واحد ان أكلت تصبح مشنوقا فقال له اسكت ولا تنطق بهذا الكلام ثم مد يده الى الصحن وجره قدامه وكان الحشاش المتقدم ذكره جالسا فى جنبه فلما رآه جر الصحن قدامه هرب من مكانه وطارت الحشيشه من رأسه وجلس بعيدا وقال أنا مالى حاجه بهذا الصحن ان جوان الكردى مد يده الى الصحن وهى فى صورة رجل الغراب وغرف بها واطلعها منه وهى فى صورة خف الجمل وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٥٩) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان جوان الكردي أطلع يده من الصحن وهى فى صورة خف الجمل ودور اللقمة فى كفه حتى صارت مثل النارنجه الكبيرة ثم رماها فى فمه بسرعه فانحدرت في حلقه ولها قرقعة مثل الرعد وبان قعر الصحن من موضعها فقال له من بجانبه الحمد لله الذى لم يجعلنى طعاما بين يديك لانك خسفت الصحن بلقمة واحدة فقال الحشاش دعوه يأكل فانى تخيلت فيه صورة المشنوق ثم التفت اليه وقال له على لاهناك الله فمد يده الى اللقمة الثانية وأراد أن يدورها فى يده مثل اللقمة الاولى واذا بالملكة صاحت على بعض الجند وقالت لهم هاتوا ذلك الرجل بسرعة ولا تدعوه يأكل اللقمة التى فى يده فتجارت عليه العساكر وهو مكب على الصحن وقبضوا عليه وأخذوه قدام الملكة زمرد فشمتت الناس فيه وقالوا لبعضهم انه يستاهل لاننا نصحناه فلم ينتصح وهذا المكان موعود بقتل من جلس فيه وذلك الارز مشؤم على كل من يأكل منه ثم ان الملكة زمرد قالت له ما اسمك وما صنعتك وما سبب مجيئك مدينتنا قال يا مولانا السلطان اسمى عثمان وصنعتى خولى بستان وسبب مجيىء الى هذه المدينة اننى دائر أفتش على شى ضاع منى فقالت الملكة على بتخت الرمل فاحضروه بين يديها فأخذت القلم وضربت تخت رمل ثم تأملت فيه ساعة وبعد ذلك رفعت رأسها وقالت له ويلك ياخبيث كيف تكذب على الملوك هذا الرمل يخبرني أن اسمك جوان الكردى وصنعتك انك لص تأخذ أموال الناس بالباطل وتقتل النفس التي حرم الله قتلها الا بالحق ثم صاحت عليه وقالت له ياخنزير اصدقنى بخبرك والا قطعت رأسك فلما سمع كلامها اصفر لونه واصطكت اسنانه وظن انه ان نطق بالحق ينجو فقال صدقت أيها الملك ولكننى أتوب على يديك من الآن وارجع الى الله تعالى فقالت له الملكة لا يحل لى أن أترك آفة فى طريق المسلمين ثم قالت لبعض أتباعها خذوه واسلخوا جلده وافعلوا به مثل ما فعلتم بنظيره فى الشهر الماضى ففعلوا ما أمرتهم به ولما رأى الحشاش العسكر حين قبضوا على ذلك الرجل أدار ظهره الى الصحن

الارز وقال ان استقبالك بوجهى حرام ولما فرغوا من الاكل تفرقوا وذهبوا الى أماكنهم وطلعت الملكة قصرها وأذنت للمماليك بالانصراف ولما هل الشهر الرابع نزلوا الى الميدان على جرى العادة واحضروا الطعام وجلس الناس ينتظرون الاذن واذا بالملكة قد أقبلت وجلست على الكرسى وهى تنظر اليهم فوجدت موضع الصحن الارز خاليا وهو يسع أربعة أنفس فتعجبت من ذلك فبينما هى تجول بنظرها اذحانت منها التفاتة فنظرت انسانا داخلا من باب الميدان يهرول ومازال يهرول حتى وقف على السماط فلم يجد مكانا خاليا الا عند الصحن فجلس فتأملته فوجدته الملعون النصرانى الذي سمي نفسه رشيد الدين فقالت فى نفسها ما أبرك هذا الطعام الذى وقع فى حبائله هذا الكافر وكان لمجيئه سبب عجيب وهو انه لما رجع من سفره وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٦٠) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان الملعون الذى سمي نفسه رشيد الدين لما رجع من سفره أخبره أهل بيته ان زمرد اقد فقدت ومعها خرج مال فلما سمع ذلك الخبر شق أثوابه ولطم على وجهه ونتف لحيته وأرسل أخاه برسوما يفتش عليها فى البلاد فلما أبطأ عليه خبره خرج هو بنفسه ليفتش على اخيه وعلى زمرد فى البلاد فرمته المقادير الى مدينة زمرد ودخل تلك المدينة فى أول يوم من الشهر فلما مشى فى شوارعها وجدها خالية ورأى الدكاكين مقفولة ونظر النساء فى الطبقان فسأل بعضهن عن هذا الحال فقلن له ان الملك يعمل سماطا لجميع الناس فى أول كل شهر وتأكل منه الخلق جميعا وما يقدر أحد أن يجلس فى بيته ولا فى دكانه ودلوه على الميدان فلما دخل الميدان وجد الناس مزدحمين على الطعام ولم يجد موضعا خاليا الا الموضع الذى فيه الصحن الارز المعهود فجلس فيه ومد يده ليأكل فصاحت الملكة على بعض العسكر وقالت لهم هاتوا الذي قعد على الصحن الارز فعرفوه بالعادة وقبضوا عليه وأوقفوه قدام الملكة زمرد فقالت له ويلك ما اسمك وما صنعتك وما سبب مجيئك الى مدينتنا فقال يا ملك الزمان اسمى رستم ولا صنعة لى لانى فقير درويش فقالت لجماعتها هاتوا الى تخت الرمل والقلم النحاس فاتوها بما طلبته على العادة فاخذت القلم وخطت به تخت رمل ومكثت تتأمل فيه ساعة ثم رفعت رأسها اليه وقالت له يا كلب كيف تكذب علي الملوك أنت اسمك رشيد الدين النصراني وصنعتك انك تنصب الحيل لجوارى المسلمين وتأخذهن وأنت مسلم في الظاهر ونصراني في الباطن فانطق بالحق وان لم تنطق بالحق فانى أضرب عنقك فتلجلج فى كلامه ثم قال صدقت يا ملك الزمان فامرت به أن يمدو يضرب على كل رجل مائة سوط وعلى جسده الف سوط وبعد ذلك يسلخ ويحشى جلده سلسا ثم تحفر له حفرة فى خارج المدينة ويحرق وبعد ذلك يضعون عليه الاوساخ والاقذار ففعلوا ما أمرتهم به ثم أذنت للناس بالاكل فاكلوا ولما فرغ الناس من الاكل وانصرفوا الى حال سبيلهم طلعت الملكة زمرد الى قصرها وقالت الحمد لله الذى أراح قلبي من الذين آذونى ثم انها شكرت فاطر السموات والارض وأنشدت هذه الابيات

تحكموا فاستطالوا فى تحكمهم ... وبعد حين كان الحكم لم يكن
لو انصفوا أنصفوا لكن بغوا فبغى ... عليهم الدهر بالآفات والمحن

فاصبحوا ولسان الحال ينشدهم   هذا بذاك ولا عتب على الزمن

فلما فرغت من شعرها خطر ببالها سيدها علي شار فبكت بالدموع الغزار وبعد ذلك رجعت الى عقلها وقالت في نفسها لعل الله الذي مكنني من اعدائي يمن علي برجوع أحبائي فاستغفرت الله عز وجل وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٦١) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان الملكة استغفرت الله عز وجل وقالت لعل الله يجمع شملي بحبيبي علي شار قريبا انه على ما يشاء قدير وبعباده لطيف خبير ثم حمدت الله ووالت الاستغفار وسلمت لمواقع الاقدار وايقنت انه لا بد لكل أول من آخر وأنشدت قول الشاعر

كن حليم اذا ابتليت بغيظ   وصبورا اذا أتتك مصيبة

فالليالي من الزمان حبالى   مثقلات يلدن كل عجيبة

وقول الآخر

اصبر ففي الصبر خير لو علمت به   لطبت نفسا ولم تجزع من الالم

واعلم بانك لو لم تصطبر كرما   صبرت رغما على ماخط بالقلم

فلما فرغت من شعرها مكثت بعد ذلك شهرا كاملا وهي بالنهار تحكم بين الناس وتأمر وتنهى وبالليل تبكي وتنتحب على فراق سيدها علي شار ولما هل الشهر الجديد أمرت بمد السماط في الميدان على جري العادة وجلست فوق الناس وصاروا ينتظرون الاذن في الاكل وكان موضع الصحن الارز خاليا وجلست هي على رأس السماط وجعلت عينها قبال باب الميدان لتنظر كل من يدخل وصارت تقول في سرها يامن رد يوسف على يعقوب وكشف البلاء عن أيوب امنن علي برد سيدي علي شار بقدرتك وعظمتك انك على كل شيء قدير يارب العالمين ياهادي الضالين ياسامع الاصوات يامجيب الدعوات استجب مني يارب العالمين فلم يتم دعاؤها الا وشخص داخل من باب الميدان كأن قوامه غصن بان الا انه نحيل البدن يلوح عليه الاصفرار وهو أحسن ما يكون من الشباب كامل العقل والآداب فلما دخل لم يجد موضعا خاليا الا الموضع الذي عند الصحن الارز فجلس فيه ولما رأته زمرد خفق قلبها فحققت النظر فيه فتبين لها انه سيدها علي شار فارادت ان تصرخ من الفرح فثبتت نفسها وخشيت من الفضيحة بين الناس ولكن تقلقلت أحشاؤها واضطرب قلبها فكتمت مابها وكان السبب في مجيء علي شار انه لما رقد على المصطبة ونزلت زمرد وأخذها جوان الكردي استيقظ بعد ذلك فوجد نفسه مكشوف الرأس فعرف ان انسانا تعدى عليه وأخذ عمامته وهو نائم فقال الكلمة التي لا يخجل قائلها وهي انا لله وانا اليه راجعون ثم انه رجع الى العجوز التي كانت أخبرته بمكان زمرد وطرق عليها الباب فخرجت اليه فبكى بين يديها حتى وقع مغشيا عليه فلما أفاق أخبرها بجميع ماحصل له فلامته وعنفته على ماوقع منه وقالت له ان مصيبتك وداهيتك من نفسك ولا زالت تلومه حتى طفح الدم من منخريه ووقع مغشيا عليه فلما أفاق من غشيته وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٦٢) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان علي شار لما أفاق من غشيته رأى العجوز تبكي من

أجله وتفيض دمع العين فتضجر وانشد هذين البيتين

ما أمر الفراق للاحباب … وألذ الوصال للعشاق

جمع الله شمل كل محب … ورعاني لانني في السياق

فحزنت عليه العجوز وقالت ياولدي هذا الذي أنت فيه من الكآبة والحزن لا يرد عليك محبوبتك فقم وشد حيلك وفتش عليها في البلاد لعلك ان تقع على خبرها ولم تزل تجلده وتقويه حتي نشطته وأدخلته الحمام وسقته الشراب وأطعمته الدجاج وصارت كل يوم تفعل معه كذلك مدة شهر حتى تقوى وسافر ولم يزل مسافرا الي ان وصل الى مدينة زمرد ودخل الميدان وجلس على الطعام ومد يده ليأكل فحزنت عليه الناس وقالوا له ياشاب لا تأكل من هذا الصحن لان من أكل منه يحصل له ضرر فقال دعوني اكل منه ويفعلون بي ما يريدون لعلي أستريح من هذه الحياة المتعبة ثم أكل أول لقمة وأرادت زمرد أن تحضره بين يديها فخطر ببالها أنه جائع فقالت في نفسها المناسب أني أدعه يأكل حتى يشبع فصار يأكل والخلق باهتة ينتظرون الذي يجري له فلما أكل وشبع قالت لبعض الطواشية امضوا الى ذلك الشاب الذي يأكل من الارز وهاتوه برفق وقولوا له كلم الملك لسؤال لطيف وجواب فقالوا سمعا وطاعة ثم ذهبوا اليه حتى وقفوا علي رأسه وقالوا له ياسيدي تفضل كلم الملك وأنت منشرح الصدر فقال سمعا وطاعة ثم مضى مع الطواشية وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٦٣) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان علي شار قال سمعا وطاعة ثم ذهب مع الطواشية فقال الخلق لبعضهم لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ياترى ما الذي يفعله به الملك فقال بعضهم لا يفعل به الا الخير لانه لو كان يريد ضرره ما كان تركه يأكل حتى يشبع فلما وقف قدام زمرد سلم عليها وقبل الأرض بين يديها فردت عليه السلام وقابلته بالاكرام وقالت له ما اسمك وما صنعتك وما سبب مجيئك الى هذه المدينة فقال لها ياملك اسمي علي شار وأنا من أولاد التجار وبلدي خراسان وسبب مجيئي إلى هذه المدينة التفتيش على جارية ضاعت مني وكانت عندي أعز من سمعي وبصري فروحي متعلقة من حين فقدتها وهذه قصتي ثم بكى حتى غشي عليه فأمرت أن يرشوا على وجهه ماء الورد فرشوا على وجهه ماء الورد حتى أفاق فلما أفاق من غشيته قالت علي بتخت الرمل والقلم النحاس فجاءوا به فاخذت القلم وضربت تخت رمل وتأملت فيه ساعة من الزمان ثم بعد ذلك قالت صدقت في كلامك الله يجمعك عليها قريبا فلا تقلق ثم أمرت الحاجب أن يمضي به إلى الحمام ويلبسه بدلة حسنة من ثياب الملوك ويركبه فرساً من خواص خيل الملك ويمضي به بعد ذلك إلى القصر في آخر النهار فقال الحاجب سمعاً وطاعة ثم أخذه من قدامها وتوجه به فقال الناس لبعضهم ما بال السلطان لاطف الغلام هذه الملاطفة وقال بعضهم اما قلت لكم انه لا يسيئه فان شكله حسن ومن حين صبر عليه لما شبع عرفت ذلك وصار كل واحد منهم يقول مقالة ثم تفرق الناس إلى حال سبيلهم وما صدقت زمرد أن الليل أقبل حتى تختلي بمحبوب قلبها

ما أفارق دين الاسلام ولعل الله تعالى يأتيني بالفرج القريب انه على ما يشاء قدير وقد قالت العقلاء مصيبة فى الابدان ولا مصيبة فى الاديان فعند ذلك صاح على الخدم والجواري وقال لهم اطرحوها فطرحوها وما زال يضرب بها ضربا عنيفا وصارت تستغيث فلا تغاث ثم أعرضت عن الاستغاثة وصارت تقول حسبي الله وكفى الي أن انقطع نفسها وخفي أنينها واشتفى قلبه منها ثم قال للخدم اسحبوها من رجليها وارموها فى المطبخ ولا تطعموها شيئا ثم بات الملعون تلك الليلة ولما أصبح الصباح طلبها وكرر عليها الضرب وأمر الخدم أن يرموها فى مكانها ففعلوا فلما برد عليها الضرب قالت لا اله الا الله محمد رسول الله حسبي الله ونعم الوكيل ثم استغاثت بسيدنا محمد ﷺ وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٥٢) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أن زمرد استغاثت بالنبى ﷺ هذا ما كان من أمرها (وأما) ما كان من أمر على شار فانه لم يزل راقدا الى ثانى يوم ثم طار البنج من رأسه ففتح عينيه وصاح قائلا يازمرد فلم يجبه أحد فدخل القاعة فوجد الجو قفرا والمزار بعيد فعلم انه ما جرى عليه هذا الامر الامن النصرانى فحن وبكى وأن واشتكى وافاض العبرات وانشد هذه الابيات

يا وجد لا تبقى على ولا تذر ... ها مهجتى بين المشقة والخطر
يا سادتى رقوا لعبد ذل فى ... شرع الهوى وغنى قوم افتقر
ما حيلة الرامى اذا التقت العدا ... واراد يرمى السهم فانقطع الوتر
واذا تكاثرت الهموم على الفتى ... وتراكمت أين المفر من القدر
ولكم احاذر من تفرق شملنا ... ولكن اذا نزل القضاء عمي البصر

وندم حيث لا ينفعه الندم وبكى ومزق أثوابه وأخذ بيديه حجرين ودار حول المدينة وصار يدق بهما فى صدره ويصيح قائلا يازمرد فدارت الصغار حوله وقالوا مجنون مجنون فكل من عرفه يبكى عليه ويقول هذا فلان ما الذى جرى له ولم يزل على هذه الحالة الى آخر النهار فلما جن عليه الليل نام فى بعض الازقة الى الصباح ثم أصبح دائرا بالاحجار حول المدينة الى آخر النهار وبعد ذلك رجع الى قاعته ليبيت فيها فنظرته جارته وكانت امرأة عجوز من اهل الخير فقالت له ياولدى سلامتك متى جننت فأجابها بهذين البيتين

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم ... ما لذة العيش الا للمجانين
دعوا جنونى وهاتوا من جننت به ... ان كان يشفى جنونى لا تلوموني

فعلمت جارته العجوز أنه عاشق مفارق فقالت لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ياولدى أشتهى منك ان تحكى لى خبر مصيبتك عسى الله أن يقدرنى على مساعدتك عليها بمشيئته فحكى لها جميع ما وقع له مع برسوم النصراني اخي الكاهن الذي سمي نفسه رشيد الدين فلما علمت ذلك قالت له ياولدى انك معذور ثم افاضت دمع العين وانشدت هذين البيتين

كفى المحبين فى الدنيا عذابهم تالله لا عذبتهم بعدها سقر
لانهم هلكوا عشقا وقد كتموا مع العفاف بهذا يشهد الخبر

فلما فرغت من شعرها قالت له يا ولدى قم الآن واشتر قفصا مثل اقفاص اهل الصاغه واشتر اساور وخواتم وحلقا ناوحليا يصلح للنساء ولا تبخل بالمال وضع جميع ذلك فى القفص وهات القفص وانا اضعه على راسي فى صورة دلالة وادور أفتش عليها فى البيوت حتى اقع على خبرها ان شاء الله تعالى ففرح على شار بكلامها وقبل يدها ثم ذهب بسرعة واتي لها بما طلبته فلما حضر ذلك عندها قامت ولبست مرقعه ووضعت على رأسها آزارا عسليا واخذت فى يدها عكازا وحملت القفص ودارت فى العطف والبيوت ولم تزل دائرة من مكان الى مكان ومن حارة الى حارة ومن درب الى درب الى ان دلها الله تعالى على قصر الملعون رشيد الدين النصرانى فسمعت من داخله انينا فطرقت الباب وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٥٣) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أن العجوز لما سمعت من داخل البيت أنينا طرقت الباب فنزلت لها جارية ففتحت لها الباب وسلمت عليها فقالت لها العجوز معى هذه الحويجات للبيع هل عندكم من يشترى منها شيئا فقالت لها الجارية نعم ثم أدخلتها الدار واجلستها وجلس الجواري حولها وأخذت كل واحدة شيئا منها وصارت العجوز تلاطف الجوارى وتتساهل معهن في الثمن ففرح بها الجواري بسبب معروفها ولين كلامها وهى تتأمل من جهات المكان على صاحب الانين فلاحت منها التفاتة اليها فحابتهم وأحسنت اليهم وتأملت فوجدت زمرد مطروحة فعرفتها فبكت وقالت لهم يا أولادى ما بال هذه الصبية فى هذا الحال فحكى لها الجوارى جميع القصة وقلن لها الامر ليس باختيارنا ولكن سيدنا أمر بهذا وهو مسافر الآن فقالت لهم يا أولادى لى عندكم حاجة وهى أنكم تحلون هذه المسكينة من الرباط الى أن تعلموا بمجىء سيدكم فتربطوها كما كانت وتكسبوا الاجر من رب العالمين فقلن لها سمعا وطاعة ثم انهم حلوها وأطعموها وأسقوها ثم قالت العجوز ياليت رجلى انكسرت ولا دخلت لكم وبعد ذلك ذهبت إلى زمرد وقالت لها يا بنتى سلامتك سيفرج الله عنك ثم ذكرت لها انها جاءت من عند سيدها على شار وواعدتها أنها فى ليلة غد تكون حاضرة وتلقى سمعها للحس وقالت لها ان سيدك يأتى اليك تحت مصطبة القصر و يصفر لك فاذا سمعت ذلك فاصفرى له وتدلى له من الطاقة بحبل وهو يأخذك و يمضى فشكرتها على ذلك ثم خرجت العجوز وذهبت الى على شار وأعلمته وقالت له توجه فى الليلة القابلة نصف الليل الى الحارة الفلانية فان بيت الملعون هناك وعلامته كذا وكذا فقف تحت قصره وصفر فانها تتدلى اليك فخذها وامض بها إلى حيث شئت فشكرها على ذلك ثم انه صبر الى أن جن الليل وجاء وقت الميعاد فذهب الى تلك الحارة التى وصفتها له جارته ورأى القصر فعرفه وجلس على مصطبة تحته وغلب عليه النوم فنام وجل من لا ينام وكان له مدة لم ينم من الوجد الذى به فصار كالسكران فبينما هو نائم وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٥٤) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أنه بينما هو نائم واذا بلص من اللصوص خرج تلك الليلة فى اطراف المدينة ليسرق شيئا فرمته المقادير تحت قصر ذلك النصرانى فدار حوله فلم يجد له سبيلا الى الصعود اليه فصار دائرحوله الى أن وصل الى المصطبة فرأى على شار نائما فأخذ عمامته و بعد أن أخذها لم يشعر الا وزمرد طلعت فى ذلك الوقت فرأته واقفا فى الظلام فحسبته سيدها فصفرت له فصفرلها الحرامى فتدلت له بالحبل وصحبتها خرج ملآن ذهبا فلما رآه اللص قال فى نفسه ماهذا الأمر عجيب له سبب غريب ثم حمل الخرج وحملها على أكتافه وذهب بهما مثل البرق الخاطف فقالت له ان العجوز أخبرتنى أنك ضعيف بسببى وها أنت أقوى من الفرس فلم يرد عليها جوابا فحسبت على وجهه فوجدت لحيته مثل مقشة الحمام كأنه خنزيرا ابتلع ريشا فطلع زغبه من حلقه ففزعت منه وقالت له أى شىء أنت فقال لها ياعاهرة أنا الشاطر جوان الكردى من جماعة احمد الدنف ونحن أربعون شاطرا وكلهم في هذه الليله يفسقون في رحمك من العشاء الى الصباح فلما سمعت كلامه بكت ولطمت على وجهها وعلمت أن القضاء غلب عليها وانه لا حيلة لها الا التفويض الى الله تعالى فصبرت وسلمت الحكم لله تعالى وقالت لا اله الا الله كلما خلصنا من هم وقعنا فى هم أكبر وكان السبب فى مجىء جوان الى هذا المحل انه قال لاحمد الدنف ياشاطر انا دخلت هذه المدينة قبل الآن وأعرف فيها غارا خارج البلد يسع اربعين نفسا وانا اريد ان اسبقكم اليه واخلى امى فى ذلك الغار ثم ارجع الى المدينة واسرق منها شيئا على بختكم واحفظه على اسمكم الي ان تحضروا فتكونوا ضيافتكم فى هذا النهار من عندى فقال له احمد الدنف افعل ماتريد فخرج قبلهم وسبقهم الى ذلك المحل ووضع امه فى ذلك الغار ولما خرج من الغار وجد جنديا راقدا وعنده فرس مربوط فذبحه واخذ فرسه وسلاحه وثيابه واخفاها فى الغار عند امه وربط الحصان هناك ثم رجع المدينة ومشى الي حتى وصل الى قصر النصرانى وفعل ماتقدم ذكره من اخذ عمامة على شار ومن اخذ زمرد جاريته ولم يزل يجرى بها الي ان احطها عند امه وقال لها احتفظي عليها الى حين ارجع اليك فى بكرة النهار ثم ذهب وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٥٥) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أن جوان الكردى قال لامه احتفظي عليها حتى أرجع اليك فى بكرة النهار ثم ذهب فقالت زمرد فى نفسها وماهذه الغفلة عن خلاص روحى بالحيلة كيف أصبر الى أن يجىء هؤلاء الاربعون رجلا فيتعاقبون علىّ حتى يجعلونى كالمركب الغريقة في البحر ثم انها التفتت الى العجوز ام جوان الكردى وقالت لها ياخالتى أما تقومين بنا الى خارج الغار حتى أفليك فى الشمس فقالت اى والله يا بنتى فان لى مدة وأنا بعيدة عن الحمام لان هؤلاء الخنازير لم يزالوا دائرين بي من مكان الى مكان فخرجت معها فصارت تفليها وتقتل القمل من رأسها الى أن استلذت بذلك ورقدت فقامت زمرد ولبست ثياب الجندى الذى قتله جوان الكردى وشدت سيفه فى وسطها وتعممت بعمامته حتى صارت كأنها رجل وركبت الفرس

واخذت الخرج الذهب معها وقالت يا جميل الستر استرني بجاه محمد صلى الله عليه وسلم ثم انها قالت في نفسها اذ رحت الى البلد بما ينظرني احد من اهل الجندي فلا يحصل لي خير ثم اعرضت عن دخول المدينة وسارت في البر الاقفر ولم تزل سائرة بالخرج والفرس وتأكل من نبات الارض وتطعم الفرس منه وتشرب وتسقيها من الانهار مدة عشرة ايام وفي اليوم الحادي عشر اقبلت على مدينة طيبة امينة بالخير مكينة قد ولى عنها فصل الشتاء ببرده واقبل عليها فصل الربيع بزهره وورده فزهت ازهارها وتدفقت أنهارها وغردت اطيارها فلما وصلت الى المدينة وقربت من بابها وجدت العساكر والامراء واكابر اهل المدينة فتعجبت لما نظرتهم على هذه الحالة وقالت في نفسها ان اهل هذه المدينة كلهم مجتمعون ببابها ولا بد لذلك من سبب ثم انها قصدتهم فلما قربت منهم تسابق العساكر وترجلوا وقبلوا الارض بين يديها وقالوا الله ينصرك يا مولانا السلطان واصطفت بين يديها ارباب المناصب فصارت العساكر يرتبون الناس ويقولون لها الله ينصرك ويجعل قدومك مباركا على المسلمين يا سلطان العالمين ثبتك الله يا ملك الزمان يا فريد العصر والاوان فقالت لهم زمرد ما خبركم يا اهل هذه المدينة فقال الحاجب انه اعطاك من لا يبخل بالعطاء وجعلك سلطانا على هذه المدينة وحاكما على رقاب جميع من فيها واعلم ان عادة أهل هذه المدينة اذا مات ملكهم ولم يكن له ولد تخرج العساكر الى ظاهر المدينة ويمكثون ثلاثة أيام فاي انسان جاء من طريقك التي جئت منها يجعلونه سلطانا عليهم والحمد لله الذي ساق لنا انسانا من أولاد الترك جميل الوجه فلو طلع علينا أقل منك كان سلطانا وكانت زمرد صاحبة رأي في جميع أفعالها فقالت لا تحسبوا أنني من أولاد عامة الاتراك بل أنا من اولاد الاكابر لكنني غضبت من أهلي فخرجت من عندهم وتركتهم وانظروا الى هذا الخرج الذهب الذي جئت به تحتي لاتصدق منه على الفقراء والمساكين طول الطريق فدعوا لها وفرحوا بها غاية الفرح وكذلك زمرد فرحت بهم ثم قالت في نفسها بعد ان وصلت الى هذا الامر وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٥٦) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان زمردا قالت في نفسها بعد ان وصلت الى هذا الأمر لعل الله يجمعني بسيدي في هذا المكان انه على ما يشاء قدير ثم سارت فسارت العسكر بسيرها حتى دخلوا المدينة وترجل العسكر بين يديها حتى أدخلوها القصر فنزلت وأخذها الأمراء والاكابر من تحت أبطيها حتى أجلسوها على الكرسي وقبلوا الأرض جميعا بين يديها فلما جلست على الكرسي أمرت بفتح الخزائن ففتحوا وانفقت على جميع العسكر فدعوا لها بدوام الملك واطاعها العباد وسائر أهل البلاد واستمرت على ذلك مدة من الزمان وهي تأمر وتنهى وقد صار لها في قلوب الناس هيبة عظيمة من أجل الكرم والعفة وأبطلت المكوس واطلقت من في الحبوس ورفعت المظالم فاحبها جميع الناس وكلما تذكرت سيدها تبكي وتدعو الله ان يجمع بينها وبينه واتفق انها تذكرته في بعض الليالي وتذكرت أيامها التي مضت لها معه فافاضت دمع العين وأنشدت هذين البيتين

شوقي اليك على الزمان جديد . والدمع قرح مقلتي ويزيد
واذا بكيت بكيت من الم الجوى . ان الفراق على المحب شديد

فلما فرغت من شعرها مسحت دموعها وطلعت القصر ودخلت الحريم وافردت للجواري والسراري منازل ورتبت لهن الرواتب والجرايات وزعمت انها تريد أن تجلس في مكان وحدها عاكفة على العبادة وصارت تصوم وتصلي حتى قالت الامراء ان هذا السلطان له ديانة عظيمة ثم انها لم تدع عندها أحدا من الخدم غير طواشين صغيرين لاجل الخدمة وجلست في تخت الملك سنة وهي لم تسمع لسيدها خبرا ولم تقف له على أثر فقلقت من ذلك فلما اشتد قلقها دعت بالوزراء والحجاب وأمرتهم أن يحضروا لها المهندسين والبنائين وان يبنوا لها تحت القصر ميدانا طوله فرسخ وعرضه فرسخ ففعلوا ما أمرتهم به في اسرع وقت فجاء الميدان على طبق مرادها فلما تم ذلك الميدان نزلت فيه وضربت لها فيه قبة عظيمة وصفت فيه كراسي الامراء وامرت أن يمدوا سماطا من سائر الاطعمة الفاخرة في ذلك الميدان ففعلوا ما أمرتهم به ثم أمرت أرباب الدولة ان يأكلوا فأكلوا ثم قالت للامراء أريد اذا هل الشهر الجديد ان تفعلوا هكذا وتنادوا في المدينة ان لا يفتح أحد دكانه بل يحضرون جميعا ويأكلون من سماط الملك وكل من خالف منهم يشنق على باب داره فلما هل الشهر الجديد فعلوا ما أمرتهم به واستمروا على هذه العادة الى ان هل أول الشهر في السنة الثانية فنزلت الى الميدان ونادى المنادي يامعشر الناس كافة كل من فتح دكانه أو حاصله أو منزله شنق في الحال علي باب دكانه بل يجب عليكم أن تحضروا جميعا لتأكلوا من سماط الملك فلما فرغت المناداة ووضع السماط جاءت الخلق أفواجا أفواجا فأمرتهم بالجلوس على السماط ليأكلوا حتى يشبعوا من سائر الالوان فجلسوا يأكلون كما أمرتهم وجلست على كرسي المملكة تنظر اليهم فصار كل من جلس على السماط يقول في نفسه ان الملك لا ينظر الا الي وجعلوا يأكلون وصار الامراء يقولون للناس كلوا ولا تستحوا فان الملك يحب ذلك فأكلوا حتى شبعوا وانصرفوا داعين للملك وصار بعضهم يقول لبعض عمرنا ما رأينا سلطانا يحب الفقراء مثل هذا السلطان ودعوا له بطول البقاء وذهبت الى قصرها وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٥٧) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان الملكة زمرد ذهبت الى قصرها وهي فرحانة بما رتبته وقالت في نفسها ان شاء الله تعالى بسبب ذلك أقع على خبر سيدي علي شار ولما هل الشهر الثاني فعلت ذلك الامر على جري العادة ووضعوا السماط ونزلت زمرد وجلست على كرسيها وأمرت الناس ان يجلسوا ويأكلوا فبينما هي جالسة على رأس السماط والناس يجلسون عليه جماعة بعد جماعة وواحدا بعد واحد اذ وقعت عينها على برسوم النصراني الذي كان اشترى الستر من سيدها فعرفته فصاحت على بعض الجند وقالت لهم هاتوا هذا الذي قدامه الصحن الارز الحلو ولا تدعوه يأكل اللقمة التي في يده بل ارموها من يده فجاء أربعة من العساكر وسحبوه على وجهه بعد ان رموا اللقمة من يده ووقفوه قدام زمرد فامتنعت الناس عن الاكل وقال بعضهم لبعض والله انه ظالم لانه لم يأكل من

وكانت تلك الجارية اسمها زمرد فلما نظرها على شار تعجب من حسنها وجمالها وقال والله لا ابرح حتى انظر القدر الذي يبلغه ثمن هذه الجارية واعرف الذي يشتريها ثم وقف بجملة التجار فظنوا انه يشترى لما يعلمون من غناه بالمال الذي ورثه من والده ثم ان الدلال وقف على رأس الجارية وقال يا تجار يا أرباب الاموال من يفتح باب السعر فى هذه الجارية سيدة الاقمار الدرة السنية زمرد السنورية بغية الطالب ونزهة الراغب فافتحوا الباب فليس على من فتحه لوم ولا عتاب فقال بعض التجار على بخمسمائة دينار وقال آخر وعشرة فقال شيخ يسمى رشيد الدين وكان ازرق العين قبيح المنظر ومائة وقال آخر وعشرة قال الشيخ بألف دينار فحبس التجار السنتهم وسكتوا فشاور الدلال سيدها فقال انا حالف انى ما ابيعها الا لمن تختاره فشاورها فجاء الدلال اليها وقال يا سيدة الاقمار ان هذا التاجر يريد ان يشتريك فنظرت اليه فوجدته كما ذكرنا فقالت للدلال انا لا اباع لشيخ اوقعته الهموم فى أسوأ حال ولله در من قال

سألتها قبلة يوما وقد نظرت — شيبي وقد كنت ذا مال وذا نعم
فأعرضت عن مرامى وهى قائلة — لا والذى خلق الانسان من عدم
ما كان لى فى بياض الشيب من أرب — أفى الحياة يكون القطن حشو فمى

فلما سمع الدلال قولها قال لها والله انك معذورة وقيمتك عشرة آلاف دينار ثم اعلم سيدها انها ما رضيت بذلك الشيخ فقال شاورها فى غيره فتقدم انسان آخر وقال على بما اعطى فيها الشيخ الذى لم ترض به فنظرت الى ذلك الرجل فوجدته مصبوغ اللحية فقالت ما هذا العيب والريب وسواد وجه الشيب وانشدت هذين البيتين

قالت اراك خضبت الشيب قلت لها — سترته عنك يا سمعى ويا بصرى
فقهقهت ثم قالت ان ذا عجب — تكاثر الغش حتى صار فى الشعر

فلما سمع الدلال شعرها قال لها والله انك صدقت فقال التاجر ما الذى قالت فأعاد عليه الابيات فعرف ان الحق على نفسه وامتنع من شرائها فتقدم تاجر آخر وقال شاورها على الثمن الذى سمعته فشاورها فنظرت اليه فوجدته أعور فقالت هذا أعور فقال لها الدلال يا سيدتى انظرى من يعجبك من الحاضرين وقولى عليه حتى ابيعك له فنظرت الى حلقة التجار وتفرستهم واحدا بعد واحد فوقع نظرها على على شار . وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٤٨) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان الجارية لما وقع نظرها على على شار نظرته نظرة أعقبتها الف حسرة وتعلق قلبها به لانه كان بديع الجمال والطف من نسيم الشمال فقالت يا دلال انا لا اباع الا لسيدي صاحب هذا الوجه المليح والقد الرجيح الذى قال فيه بعض واصفيه

أبرزوا وجهك الجميل — ولاموا من افتتن
لو ارادوا صيانتى — ستروا وجهك الحسن

فلا يملكنى الا هو لان خده أسيل ورضابه سلسبيل وريقه يشفى العليل ومحاسنه تحير الناظم والناثر كما قال فيه الشاعر

فريقه خمر وأنفاسه مسك وذاك الثغر كافور اخرجه رضوان من داره
مخافة ان تفتن الحور يلومه الناس على تيهه والبدر مهما تاه معذور

صاحب الشعر الاجعد والخد المورد واللحظ الساحر الذي قال فيه الشاعر

وشادن بوصال منه واعدني فالقلب فى قلق والعين منتظره
أجفانه ضمنت لى صدق موعده فكيف توفى ضمانا وهى منكسره

فلما سمع الدلال ما انشدته من الاشعار في محاسن على شار تعجب من فصاحتها واشراق بهجتها فقال له صاحبها لا تعجب من بهجتها التى تفضح شمس النهار ولا من حفظها رقائق الاشعار فانها مع ذلك تقرأ القرآن العظيم بالسبع قراآت وتروى الحديث بصحيح الروايات وتكتب بالسبعة أقلام وتعرف العلوم مالا يعرفه العالم العلام ويداها أحسن من الذهب والفضة فانها تعمل الستور الحرير وتبيعها فتكسب فى كل واحدة خمسين دينارا وتشتغل الستر فى ثمانية أيام فقال الدلال ياسعادة من تكون هذه في داره ويجعلها من ذخائر اسراره ثم قال له سيدها بعها لكل من ارادته فرجع الدلال الى على شار وقبل يديه وقال ياسيدى اشتري هذه الجارية فانها اختارتك وذكر له صفتها وما تعرفه وقال له هنيأ لك اذا اشتريتها فانه قد أعطاك من لا يبخل بالعطاء فاطرق على شار برأسه ساعة الى الارض وهو يضحك على نفسه ويقول في سره انا الى هذا الوقت من غير افطار ولكن اختشى من التجار ان أقول ما عندى مال اشتريها به فنظرت الجارية الى اطرافه وقالت للدلال خذ بيدى وامض بى اليه حتى اعرض نفسى عليه وارغبه فى أخذى فانى ما اباع الا له فاخذها الدلال واوقفها قدام على شار وقال له ما رأيك ياسيدى فلم يرد عليه جوابا فقالت الجارية ياسيدى وحبيب قلبي مالك لا تشترينى فاشترنى بما شئت واكون سبب سعادتك فرفع رأسه اليها وقال هل الشراء بالغصب انت غالية بألف دينار فقالت له ياسيدي اشترنى بتسعمائة قال لا قالت بثمانمائة قال لا فما زالت تنقص من الثمن الي أن قالت له بمائة دينار قال ما معى مائة كامله فضحكت وقالت له كم تنقص مائتك قال ما معى لا مائة ولا غيرها انا والله ما املك لا ابيض ولا احمر من درهم ولا دينار فانظرى لك زبونا غيرى فلما علمت انه ما معه شيء قالت له خذ بيدي على انك تقبلنى فى عطفة ففعل ذلك فاخرجت من جيبها كيسا فيه الف دينار وقالت زن منه تسعمائة فى ثمنى وابق المائة معك تنفعنا ففعل ما امرته به واشتراها بتسعمائة دينار ودفع ثمنها من ذلك الكيس ومضى بها الى الدار فلما وصلت الى الدار وجدتها قاعا صفصفا لا فرش بها ولا أوانى فاعطته الف دينار وقالت له امض الى السوق واشتر لنا بثلثمائة دينار فرشا وأوانى للبيت ففعل ثم قالت له اشتر لنا مأكولا ومشروبا وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٤٩) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان الجارية قالت له اشتر لنا مأكولا ومشروبا بثلاثة دنانير ففعل ثم قالت له اشتر لنا خرقة حرير قدر ستر واشتر قصبا اصفر وأبيض وحريرا ملونا سبعة الوان ففعل ثم انها فرشت البيت وأوقدت الشمع وجلست تأكل وتشرب هى واياه وبعد

ذلك قاموا الى الفرش وقضوا الغرض من بعضهما ثم باتا متعانقين خلف الستائر وكان كما قال الشاعر

زر من تحب ودع كلام الحاسد ۞ ليس الحسود على الهوى بمساعد
انى نظرتك فى المنام مضاجعى ۞ ولثمت من شفتيك احلى بارد
حق صحيح كل ما عاينته ۞ ولسوف ابلغه برغم الحاسد
لم تنظر العينان أحسن منظرا ۞ من عاشقين على فراش واحد
متعانقين عليهما حلل الرضا ۞ متوسدين بمعصم و بساعد
واذا تألفت القلوب على الهوى ۞ فالناس تضرب فى حديد بارد
يامن يلوم على الهوى أهل الهوى ۞ هل تستطيع صلاح قلب فاسد
واذا صفا لك من زمانك واحد ۞ فهو المراد وعش بذاك الواحد

واستمرا متعانقين الى الصباح وقد سكنت محبة كل واحد منهما فى قلب صاحبه ثم أخذت الستر وطرزته بالحرير الملون وزركشته بالقصب وجعلت فيه منطقة بصور طيور وصورت فى دائرها صور الوحوش ولم تترك وحشا فى الدنيا الا وصورت صورته فيه ومكثت تشتغل فيه ثمانية أيام فلما فرغ صقلته وطوته ثم أعطته لسيدها وقالت له اذهب به الى السوق وبعه بخمسين دينارا للتاجر واحذر ان تبيعه لاحد عابر طريق فان ذلك يكون سببا للفراق بينى و بينك لان لنا أعداء لا يغفلون عنا فقال سمعا وطاعة ثم ذهب به الى السوق وباعه لتاجر كما امرته و بعد ذلك اشترى الخرقة والحرير والقصب على العادة وما يحتاجان اليه من الطعام وأحضر لها ذلك واعطاها بقية الدراهم فصارت كل ثمانية أيام تعطيه سترا يبيعه بخمسين دينارا ومكثت على ذلك سنة كاملة و بعد السنة راح الى السوق بالستر على العادة واعطاه للدلال فعرض له نصرانى فدفع له ستين دينارا فامتنع فما زال يزيده حتى عمله بمائة دينار و برطل الدلال بعشرة دنانير فرجع الدلال على على شار واخبره بالثمن وتحيل عليه فى أن يبيع الستر للنصرانى بذلك المبلغ وقال له ياسيدى لا تخف من هذا النصرانى وماعليك منه بأس وقامت التجار عليه فباعه للنصرانى وقلبه مرعوب ثم قبض المال ومضى الى البيت فوجد النصرانى ماشيا خلفه فقال له يانصرانى مالك ماشيا خلفى فقال له ياسيدى ان لى حاجه فى صدر الزقاق الله لا يحوجك فما وصل على شار الى منزله الا والنصرانى لاحقه فقال ياملعون مالك تتبعنى اينما أسير فقال ياسيدى اسقنى شربة ماء فانى عطشان واجرك على الله تعالى فقال على شار فى نفسه هذا رجل ذمى وقصدنى فى شربة ماء فوالله لا اخيبه وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٥٠) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أن على شار قال فى نفسه هذا رجل ذمى وقصدنى فى شربة ماء فوالله لا اخيبه ثم دخل البيت وأخذ كوز ماء فرأته جاريته زمرد فقالت ياحبيبى هل بعت الستر قال نعم قالت لتاجر اولعابر سبيل قد أحس قلبى بالفراق قال ما بعته الا لتاجر قالت اخبرنى بحقيقة الامر حتى اتدارك شأنى ومابالك أخذت كوز الماء قال لاسقى الدلال

فقالت لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم انشدت هذين البيتين

يا طالبا للفراق مهلا فلا يغرنك العناق

مهلا فطبع الزمان غدر وآخر الصحبة الفراق

ثم خرج بالكوز فوجد النصراني داخلا في دهليز البيت فقال له هل وصلت إلى هنا يا كلب كيف تدخل بغير اذني فقال يا سيدي لا فرق بين الباب والدهليز وما بقيت انتقل من مكاني هذا إلا للخروج وأنت لك الفضل والاحسان والجود والامتنان ثم انه تناول كوز الماء وشرب منه وبعد ذلك ناوله الى علي شار فأخذه وانتظره أن يقوم فما قام فقال له لاي شيء لم تقم وتذهب إلى حال سبيلك فقال يا مولاي اني قد شربت ولكن أريد منك أن تطعمني مهما كان من البيت حتى اذا كان كسرة قرقوشه وبصلة فقال له قم بلا مماحكة ما في البيت شيء فقال يا مولاي أن لم يكن في البيت شيء فخذ هذه المائة دينار وائتني بشيء من السوق ولو برغيف واحد ليصير بيني وبينك خبز وملح فقال علي شار في سره أن هذا النصراني مجنون فانا آخذ منه المائة دينار وآتي له بشيء يساوي درهمين واضحك عليه فقال النصراني يا سيدي إنما أريد شيئا يطرد الجوع ولو رغيفا واحدا أو بصلة فخير الزاد مادفع الجوع فقال علي شار اصبر هنا حتى أقفل القاعه وآتيك بشيء من السوق فقال له سمعا وطاعة ثم خرج وقفل القاعة وحط على الباب كيلونا وأخذ المفتاح معه وذهب إلى السوق واشترى جبنا مقليا وعسلا أبيض وموزا وخبزا وأتي به اليه فلما نظر النصراني الى ذلك قال يا مولاي هذا شيء كثير يكفي عشرة رجال وأنا وحدي فلعلك تأكل معي فقال له كل وحدك فاني شبعان فقال له يا مولاي قالت الحكماء من لم يأكل مع ضيفه فهو ولد زنا فلما سمع علي شار من النصراني هذا الكلام جلس وأكل معه شيئا قليلا وأراد أن يرفع يده وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٥١) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن علي شار جلس وأكل معه شيئا قليلا وأراد أن يرفع يده فأخذ النصراني موزة وقشرها وشقها نصفين وجعل في نصفها بنجا مكررا ممزوجا بأفيون الدرهم منه يرمي الفيل ثم غمس نصف الموزة في العسل وقال يا مولاي وحق دينك أن تأخذ هذه فاستحي علي شار أن يحنثه في يمينه فأخذها منه وابتلعها فما استقرت في بطنه حتى سبقت رأسه رجليه وصار كأنه له سنة وهو راقد فلما رأى النصراني ذلك قام على قدميه كأنه ذئب معط أو قضاء مساط وأخذ منه مفتاح القاعه وتركه مرميا وذهب يجري إلى أخيه وأخبره بالخبر وسبب ذلك أن أخا النصراني هو الشيخ الهرم الذي أراد أن يشتريها بالف دينار فلم ترض به وهجته بالشعر وكان كافرا في الباطن ومسلما في الظاهر وسمي نفسه رشيد الدين ولما هجته ولم ترض به شكا الى أخيه النصراني الذي تحيل في أخذها من سيدها علي شار وكان اسمه برسوم فقال له لا تحزن من هذا الامر فانا أتحيل لك في أخذها بلا درهم ولا دينار لانه كان كاهنا ماكرا مخادعا فاجرا ثم انه لم يزل يمكر ويتحيل حتى عمل الحيلة التي ذكرناها وأخذ المفتاح وذهب إلى أخيه وأخبره بما حصل وركب بغلته وأخذ غلمانه وتوجه مع أخيه إلى بيت علي شار وأخذ معه كيسا فيه الف دينار

ذا صادفه الوالى فيعطيه اياه ففتح القاعة وهجمت الرجال الذين معه على زمرد وأخذوها قهرا وهددوها بالقتل ان تكلمت وتركوا المنزل على حاله ولم ياخذوا منه شيئا وتركوا على شار راقدا فى الدهليز ثم ردوا الباب عليه وتركوا مفتاح القاعة فى جانبه ومضى بها النصرانى الى قصره ووضعها

(برسوم النصرانى عندما أتى بزمرد من منزل على شار ووضعها أمام أخيه الكاهن)

بين جواريه وسراريه وقال لها يا فاجرة أنا الشيخ الذى ما رضيت بى وهجوتينى وقد أخذتك بلا درهم ولا دينار فقالت له وقد تغرغرت عيناها بالدموع حسبك الله يا شيخ السوء حيث فرقت بينى وبين سيدى فقال لها يا فاجرة يا عشاقة سوف تنظرين ما أفعل بك من العذاب وحق المسيح والعذراء ان لم تطاوعينى وتدخلى فى دينى لأعذبنك بانواع العذاب فقالت له لو قطعت لحمى قطعا

يقضيها فقلت له ان لى حاجة عظيمة لانى أصبت بمصيبة جسيمة ومن الذى حصل له مثل مصيبتى فقال لعلك ابو محمد الكسلان فقلت نعم فقال يا أبا محمد انا اخو الحية البيضاء التى قتلت انت عدوها ونحن اربع اخوة من أم واب وكلنا شاكرون فضلك واعلم ان الذى كان على صورة القرد وفعل معك المكيدة مارد من مردة الجن ولولا انه تحيل بهذه الحيلة ما كان يقدر على أخذها أبدا لان له مدة طويلة وهو يريد أخذها فيمنعه من ذلك هذا الطلسم ولو بقى ذلك الطلسم ما كان يمكنه الوصول اليها ولكن لا تجزع من هذا الامر فنحن نوصلك اليها ونقتل المارد فان جميلك لا يضيع عندنا ثم أنه صاح صيحة عظيمة وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

﴿ أبا محمد الكسلان وهو راكب على ظهر المارد وهو طائر به ﴾
(تحت ما انزل عليهما الشهب وقاله قول لا إله الا الله محمد رسول الله)

(وفى ليلة ٣٤٣) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان العفريت قال فان جميلك لا يضيع عندنا ثم انه صاح صيحة عظيمة بصوت هائل واذا بجماعة قد أقبلوا عليه فسألهم عن القرد فقال واحد منهم أنا أعرف مستقره قال أين مستقره قال فى مدينة النحاس التى لا تطلع عليها الشمس فقال يا أبا محمد خذ عبدا من عبيدنا وهو يحملك على ظهره ويعلمك كيف تأخذ الصبية واعلم ان ذلك العبد مارد من المردة فاذا حملك لا تذكر اسم الله وهو حاملك فانه يهرب منك فتقع وتهلك فقلت سمعا وطاعة وأخذت عبدا من عبيدهم فانحنى وقال اركب فركبت ثم طار بى فى الجو حتى غاب عن الدنيا ورأيت النجوم كالجبال الرواسي وسمعت تسبيح الملائكة فى السماء كل هذا والمارد يحدثنى ويفرجنى ويلهينى عن ذكر الله تعالى فبينما انا كذلك واذا بشخص عليه لباس اخضر وله ذوائب شعر ووجه منير وفى يده حربة يطير منها الشرر قد اقبل على وقال لى يا أبا محمد قل لا إله الا الله محمد رسول الله والا ضربتك بهذه الحربة وكانت مهجتي قد تقطعت من سكوتى عن ذكر الله تعالى فقلت لا اله الا الله محمد رسول الله ثم ان ذلك الشخص ضرب المارد بالحربة فذاب وصار رمادا فسقطت من فوق ظهره فصرت أهوى الى الارض حتى وقعت فى بحر عجاج متلاطم بالامواج واذا بسفينة فيها خمسة اشخاص بحرية فلما رأونى أتوا الي وحملونى فى السفينة وصاروا يكلمونى بكلام لا اعرفه فأشرت لهم انى لا أعرف كلامكم فساروا الى آخر النهار ثم رموا شبكة واصطادوا حوتا وشووه واطعمونى ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا بى الى مدينتهم فدخلوا بي الى ملكهم واوقفونى بين يديه فقبلت الارض فخلع على خلعة وكان ذلك الملك يعرف اللغة العربية فقال قد جعلتك من أعوانى فقلت ما اسم هذه المدينة قال اسمها هناد وهى من بلاد الصين ثم ان الملك سلمنى الى وزير المدينة وأمره أن يفرجنى فى المدينة وكان اهل تلك المدينة فى الزمن الاول كفارا فمسخهم الله تعالى حجارة فتفرجت فيها فلم أرى اكثر من اشجارها واثمارها فاقمت فيها مدة شهر ثم اتيت الى نهر وجلست على شاطئه فبينما أنا جالس واذا بفارس قد أتى وقال هل أنت أبو محمد الكسلان فقلت له نعم قال لا تخف فان جميلك وصل الينا فقلت له من أنت قال انا اخو الحية وأنت قريب من مكان الصبية التى تريد الوصول اليها ثم خلع أثوابه والبسنى اياها وقال لى لا تخف فان العبد الذي هلك من تحتك بعض عبيدنا ثم ان ذلك الفارس أردفنى خلفه وسار بى الي برية وقال انزل من خلفى وسر بين هذين الجبلين حتي ترى مدينة النحاس فقف بعيدا عنها ولا تدخلها حتى أعود اليك واقول لك كيف تصنع فقلت له سمعا وطاعة ونزلت من خلفه ومشيت حتى وصلت الى المدينة فرأيت سورها فجعلت أدور حولها لعلى أجد لها بابا فما وجدت لها بابا فبينما انا أدور حولها واذا بأخ الحية قد اقبل على واعطانى سيفا مطلسما حتي لا يرانى أحد ثم انه مضى الى حال سبيله فلم يغب عنى وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٤٤) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان أبا محمد الكسلان قال لم يغب عنى الا قليلا واذا بصياح قد علا ورأيت خلقا كثيرا وأعينهم فى صدورهم فلما رأونى قالوا من أنت وما الذي رماك في هذا المكان فاخبرتهم بالواقعة فقالوا ان الصبية التى ذكرتها مع المارد

فى هذه المدينة وما ندرى ما نفعل بها ونحن اخوة الحيه ثم قالوا امض الي تلك العين وانظر من أين يدخل الماء وادخل معه فانه يوصلك الى المدينة ففعلت ذلك ودخلت مع الماء فى سرداب تحت الارض ثم طلعت معه فرايت نفسى فى وسط المدينة ووجدت الصبية جالسة على سرير من ذهب وعليها ستارة من ديباج وحول الستارة بستان فيه اشجار من الذهب واثمارها من نفيس الجواهر كالياقوت والزمرجد واللؤلؤ والمرجان فلما رآتني تلك الصبية عرفتنى وابتدأتنى بالسلام وقالت لى ياسيدى من اوصلك الى هذا المكان فاخبرتها بما جرى فقالت لي اعلم ان هذا الملعون من كثرة محبته لى اعلمنى بالذى يضره والذى ينفعه واعلمنى ان فى هذه المدينة طلسما ان شاء هلاك جميع من فى المدينة اهلكهم به ومهما امر العفاريت فانهم يمتثلون امره وذلك الطلسم فى عمود فقلت لها واين العمود فقالت فى المكان الفلاني فقلت وأى شىء يكون ذلك الطلسم قالت هو صورة عقاب وعليه كتابة لا اعرفها فخذه بين يديك وخذ مجمرة نار وارم فيه شيئا من المسك فيطلع دخان يجذب العفاريت فاذا فعلت ذلك فانهم يحضرون بين يديك كلهم ولا يغيب منهم أحد ويمتثلون أمرك ومهما أمرتهم فانهم يفعلونه فقم وافعل ذلك على بركة الله تعالى فقلت لها سمعا وطاعة ثم قمت وذهبت الى ذلك العمود وفعلت جميع ما امرتنى به فجاءت العفاريت وحضرت بين يدي وقالوا لبيك ياسيدي فمهما أمرتنا به فعلناه فقلت لهم قيدوا المارد الذى جاء بهذه الصبية من مكانها فقالوا سمعا وطاعة ثم ذهبوا الى ذلك المارد وقيدوه وشدوا وثاقه ورجعوا الى وقالوا قد فعلنا ما أمرتنا به فامرتهم بالرجوع ثم رجعت الى الصبية واخبرتها بما حصل وقلت يازوجتي هل تروحين معى فقالت نعم ثم إنى طلعت بها من السرداب الذى دخلت منه وسرنا حتي وصلنا الى القوم الذى كانوا دلونى عليها وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٤٥) قالت بلغنى أيها الملك السعيد انه قال وسرنا حتى وصلنا الى القوم الذين كانوا دلونى عليها ثم قلت دلونى على طريق توصلنى الى بلادى فدلونى ومشوا معى الى ساحل البحر وانزلونى فى مركب وطاب لنا الريح فسارت بنا تلك المركب حتى وصلنا الى مدينة البصرة فلما دخلت الصبية دار أبيها رأوها أهلها ففرحوا فرحا شديدا ثم انى بخرت العقاب بالمسك واذا بالعفاريت قد اقبلوا من كل مكان وقالوا لبيك فما تريد ان نفعل فامرتهم أن ينقلوا كل ما فى مدينة النحاس من المال والمعادن والجواهر الى داري التى فى البصرة ففعلوا ذلك ثم أمرتهم أن يأتوا بالقرد فأتوا به ذليلا حقيرا فقلت له ياملعون لأى شىء غدرت بي ثم أمرتهم أن يدخلوه في قمقم نحاس فادخلوه فى قمقم ضيق من نحاس وسدوا عليه بالرصاص واقمت أنا وزوجتي فى هناء وسرور وعندى الآن ياأمير المؤمنين من نفائس الذخائر والجواهر وكثير الاموال مالا يحيط به عد ولا يحصره حد واذا طلبت شيئا من المال وغيره أمرت الجن أن يأتوا لك به فى الحال وكل ذلك من فضل الله تعالى فتعجب أمير المؤمنين من ذلك غاية العجب ثم أعطاه مواهب الخلافة عوضا عن هديته وانعم عليه انعاما يليق به

﴿ حكاية على شار مع زمرد الجارية ﴾

(وحكى) انه كان فى قديم الزمان وسالف العصر والاوان تاجر من التجار فى بلاد خراسان اسمه مجد وله مال كثير وعبيد ومماليك وغلمان الا انه بلغ من العمر ستين سنة ولم يرزق ولدا وبعد ذلك رزقه الله تعالى ولدا فسماه عليا فلما نشأ ذلك الغلام صار كالبدر ليلة التمام ولما بلغ مبلغ الرجال وحاز صفات الكمال ضعف والده بمرض الموت فدعا بولده وقال له يا ولدى أنه قد قرب وقت المنية وأريد أن أوصيك بوصية فقال له وماهى ياوالدى فقال له أوصيك انك لا تعاشر أحدا من الناس وتجنب ما يجلب الضر والباس واياك وجليس السوء فانه كالحداد ان لم تحرقك ناره يضرك دخانه وما أحسن قول الشاعر

ما فى زمانك من ترجوا مودته ... ولا صديق إذا خان الزمان وفى
فعش فريدا ولا تركن الى أحد ... ها قد نصحتك فيما قلته وكفى

فقال يا أبى سمعت واطعت ثم ماذا افعل فقال افعل الخير اذا قدرت ودم على صنع الجميل مع الناس واغتنم بذل المعروف فما فى كل وقت ينجح الطلب وما أحسن قول الشاعر

ليس في كل ساعة واوان ... تأتى صنائع الاحسان
فاذا امكنتك بادر اليها ... حذر من تعذر الامكان

فقال سمعت وأطعت وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٤٦) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان الصبي قال لابيه سمعت وأطعت ثم ماذا قال له يا ولدى احفظ الله يحفظك وصن مالك ولا تفرط فيه فانك ان فرطت فيه تحتاج الى اقل الناس واعلم ان قيمة المرء ما ملكت يمينه وما أحسن قول الشاعر

ان قل مالى فلا خل يصاحبنى ... وان زاد مالى فكل الناس خلانى
فكم عدو لاجل المال صاحبنى ... وكم صديق لفقد المال عادانى

فقال ثم ماذا قال ياولدى شاور من هو اكبر منك سنا ولا تعجل فى الامر الذى تريده وارحم من هو دونك يرحمك من هو فوقك ولا تظلم احدا فيسلط الله عليك من يظلمك وما أحسن قول الشاعر

اقرن برأيك رأى غيرك واستشر ... فالرأى لا يخفى على الاثنين
فالمرء مرآة تريه وجهه ... ويرى قفاه بجمع مرآتين

وقول الآخر

تأن ولا تعجل لامر تريده ... وكن راحما للناس تبلى براحم
فما من يد الا يد الله فوقها ... ولا ظالم الا سيبلى بظالم

وقول الآخر

لا تظلمن اذا ما كنت مقتدرا ... ان الظلوم على حد من النقم
تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

واياك وشرب الخمر فهو راس كل شر وشربه مذهب العقول ويزرى بصاحبه وما أحسن قول الشاعر

تالله لاخامرتنى الخمر ماعلقت روحى بجسمي واقوالى بافصاحى
ولا صبوت الى مشمولة ابدا يوماولا اخترت ندماناسوى الصاحي

فهذه وصيتى لك فاجعلها بين عينيك والله خليفتى عليك ثم غشى عليه فسكت ساعة واستفاق فاستغفر الله وتشهد وتوفى الى رحمة الله تعالى فبكى عليه ولده وانتحب ثم أخذ فى تجهيزه على مايجب ومشيت فى جنازته الاكابر والاصاغر وصار القراء يقرؤن حول تابوته وماترك من حقه شيئاً الا وفعله ثم صلوا عليه وواروه فى التراب وكتبوا على قبره هذين البيتين

خلقت من التراب فصرت حيا وعلمت الفصاحة فى الخطاب
وعدت الى التراب فصرت ميتا كأنك مابرحت من التراب

حزن عليه ولده شار حزناً شديداً وعمل عزاءه على عادة الاعيان واستمر حزيناً على ابيه الى ان ماتت أمه بعده بمدة يسيرة ففعل بوالدته مثل مافعل بابيه ثم بعد ذلك جلس فى الدكان يبيع ويشترى ولا يعاشر أحداً من خلق الله تعالى عملا بوصية ابيه واستمر على ذلك مدة سنه و بعد السنة دخلت عليه النساء الزوانى بالحيل وصاحبوه حتى مال معهم الى الفساد واعرض عن طريق الرشاد وشرب الراح بالاقداح والى الملاح غدا وراح وقال فى نفسه ان والدى جمع لى هذا المال وانا ان لم اتصرف فيه فلمن اخليه والله لاأفعل لا كما قال الشاعر

ان كنت دهره كله تحوى اليك تجمع فمتى بما حصلته وحويته تتمتع

ومازال على شار يبذل فى المال آناء الليل واطراف النهار حتى اذهب ماله كله وافتقر فساء حاله وتكدر باله وباع الدكان والاماكن وغيرها ثم بعد ذلك باع ثياب بدنه ولم يترك لنفسه غير بدلة واحدة فلما ذهبت السكرة وجاءت الفكرة وقع فى الحسرة وقعد يوما من الصبح الى العصر بغير افطار فقال فى نفسه انا ادور على الذين كنت انفق مالى عليهم لعل أحداً منهم يطعمنى فى هذا اليوم فدار عليهم جميعا وكلما طرق باب أحد منهم ينكر نفسه ويتوارى منه حتى احرقه الجوع ثم ذهب الى سوق التجار وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٤٧) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أن على شار احرقه الجوع فذهب الى سوق التجار فوجد حلقة ازدحام والناس مجتمعون فيها فقال فى نفسه يا ترى ماسبب اجتماع هؤلاء الناس والله لا انتقل من هذا المكان حتى اتفرج على هذه الحلقة ثم تقدم فوجد جارية خماسية معتدلة القد موردة الخد قاعدة النهد قد فاقت أهل زمانها فى الحسن والجمال والبهاء والكمال كما قال بعض واصفيها

كما اشتهت خلقت حتى اذا كملت فى قالب الحسن لاطول ولا قصر
والحسن اصبح مشغوفا بصورتها والصد ابعد لها والتيه والخفر
فالبدر طلعتها والغصن قامتها والمسك نكهتها مامثلها بشر
كأنها افرغت من ماء لؤلؤة فى كل جارحة من حسنها قمر

فاعطاهم التجار دراهم اجرة على الغطاس فغطسوا فرآهم القرد يفعلون ذلك فحل نفسه من رباطه ونط من المركب وغطس معهم فقال أبو المظفر لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم قد عدم القرد منا ببخت هذا المسكين الذى أخذناه له ويأسوا على القرد ثم طلع جماعة من الغطاسين واذا بالقرد طلع معهم وفي يده نفائس الجواهر فرماها بين يدى ابى المظفر فتعجب من ذلك وقال ان هذا القرد فيه سر عظيم ثم حلوا وسافروا الى ان وصلوا الى جزيرة تسمي جزيرة الزنوج وهم قوم من السودان يأكلون لحم بنى آدم فلما رآوهم السود اذ ركبوا عليهم في القوارب وأتوا اليهم وأخذوا كل من في المركب وكتفوهم وأتوا بهم الى الملك فامر بذبح جماعة من التجار فذبحوهم وأكلوا لحومهم ثم ان بقية التجار باتوا محبوسين وهم في نكد عظيم فلما كان وقت الليل قام القرد الى ابى المظفر وحل قيده فلما رأى التجار ابا المظفر قد انحل قالوا عسى الله ان يكون خلاصنا على يديك يا ابا المظفر فقال لهم اعلموا انه ماخلصني بارادة الله تعالى الا هذا القرد . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٣٨) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان أبا المظفر قال ما خلصني بارادة الله تعالى الا هذا القرد وقد خرجت له عن الف دينار فقال التجار ونحن كذلك كل واحد منا خرج له عن الف دينار ان خلصنا فقام القرد اليهم وصار يحل واحدا بعد واحد حتى حل الجميع من قيودهم وذهبوا الى المركب وطلعوا فيها فوجدوها سالمة ولم ينقص منها شيء ثم حلوا وسافروا فقال ابو المظفر يا تجار أوفوا بالذى قلتم عليه للقرد فقالوا سمعا وطاعة ودفع له كل واحد منهم الف دينار وأخرج أبو المظفر من ماله الف دينار فاجتمع للقرد من المال شيء عظيم ثم سافروا حتى وصلوا الى مدينة البصرة فتلقاهم أصحابهم حين طلعوا من المركب فقال ابو المظفر أين أبو محمد الكسلان فبلغ الخبر الى أمى فبينما أنا نائم اذ أقبلت على أمي وقالت يا ولدى ان الشيخ ابا المظفر قد أتى ووصل الى المدينة فقم وتوجه اليه وسلم عليه واسأله عن الذى جاء به فلعل الله تعالى يكون قد فتح عليه بشيء فقلت لها احمليني من الارض واسنديني حتى أخرج وأمشي الى ساحل البحر ثم مشيت وانا أتعثر فى أذيالى حتى وصلت الى الشيخ أبا المظفر فلما رآنى قال لى أهلا بمن كانت دراهمه سببا لخلاصي وخلاص هؤلاء التجار بارادة الله تعالى ثم قال لى خذ هذا القرد فانى اشتريته لك وامض به الى بيتك حتى أجيء اليك فاخذت القرد بين يدي ومضيت وقلت فى نفسي والله ماهذا الا متجر عظيم ثم دخلت بيتى وقلت لامي كلما أنام تأمرينى بالقيام لاتجر فانظرى بعينك هذا المتجر ثم جلست فبينما أنا جالس واذا بعبيد أبى المظفر قد أقبلوا على وقالوا الى هل أنت أبو محمد الكسلان فقلت لهم نعم واذا بابى المظفر أقبل خلفهم فقمت اليه وقبلت يديه فقال لى سر معي الى دارى فقلت سمعا وطاعة وسرت معه الي ان دخلت وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٣٩) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان أبا محمد الكسلان قال ثم سرت معه

ودخلت الدار فامر عبيده ان يحصروا ما المال فحصروا ه فقال يا ولدي لقد فتح الله عليك بهذا المال من ربح الخمسة دراهم ثم حملوه فى صناديقه على رؤوسهم وأعطاني مفاتيح تلك الصناديق وقال لى امض

(ابا المظفر و بجواره القرد وهو يقول لابى محمد الكسلان)
(هذا الذى اشتريته لك)

قدام العبيد الي دارك فان هذا المال كله لك فمضيت الى أمى ففرحت بذلك وقالت يا ولدى لقد فتح الله عليك بهذا المال الكثير فدع عنك هذا الكسل وانزل الي السوق و بع واشتر فتركت الكسل وفتحت دكانا فى السوق وصار القرد يجلس معى على مرتبتى فاذا أكلت يأكل معى واذا شربت يشرب معى وصار كل يوم من بكرة النهار يغيب الى وقت الظهر ثم يأتى ومعه كيس فيه الف دينار

فيضعه فى جانبي و يجلس ولم يزل على هذه الحالة مدة من الزمان حتى اجتمع عندى مال كثير فاشتريت يا أمير المؤمنين الاملاك وال ربوع وغرست البساتين واشتريت المماليك والعبيد والجوار فاتفق فى بعض الايام انني كنت جالسا والقرد جالس معي على المرتبة واذا به تلفت يمينا وشمالا فقلت فى نفسى أي شيء خبر هذا فانطق الله القرد بلسان فصيح وقال يا ابا محمد فلما سمعت كلامه فزعت فزعا شديدا فقال لى لا تفزع أنا أخبرك بحالى أنى أنا مارد من الجن ولكن جئتك بسبب ضعف حالك وأنت اليوم لا تدرى قدر مالك وقد وقعت لى عندك حاجة وهى خير لك فقلت ماهي قال أريد أن أزوجك بصبية مثل البدر فقلت له وكيف ذلك فقال لى فى غد البس قماشك الفاخر واركب بغلتك بالسرج المذهب وامض الى سوق العلافين واسأل عن دكان الشريف واجلس عنده وقل له انى جئتك خاطبا راغبا فى ابنتك فان قال لك أنت ليس لك مال ولا حسب ولا نسب فادفع له الف دينار فان قال لك زدنى فزده ورغبه في المال فقال سمعا وطاعة فى غد افعل ذلك ان شاء الله تعالى قال أبو محمد فلما أصبحت لبست افخر قماشى وركبت البغلة بالسرج المذهب ثم مضيت الى سوق العلافين وسألت عن دكان الشريف فوجدته جالسا فى دكانه فنزلت وسلمت عليه وجلست عنده وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٤٠) قالت بلغنى ايها الملك السعيد ان أبا محمد الكسلان قال فنزلت وسلمت عليه وجلست عنده وكان معى عشرة من العبيد والمماليك فقال الشريف لعل لك عندنا حاجة نفوز بقضائها فقلت نعم لى عندك حاجة قال وما حاجتك فقلت جئتك خاطبا راغبا في ابنتك فقال لى أنت ليس لك مال ولا حسب ولا نسب فاخرجت له كيسا فيه الف دينار ذهبا أحمر وقلت له هذا حسبي ونسبي وقد قال صلى الله عليه وسلم نعم الحسب المال وما أحسن قول من قال

من كان يملك درهمين تعلمت ... شفتاه أنواع الكلام فقالا
وتقدم الاخوان فاستمعوا له ... ورأيته بين الورى مختالا
لولا دراهمه التى يزهو بها ... لوجدته فى الناس أسوأ حالا
ان الغنى اذا تكلم بالخطأ ... قالوا صدقت ومانطقت محالا
أما الفقير اذا تكلم صادقا ... قالوا كذبت وأبطلوا ماقالا
ان الدراهم فى المواطن كلها ... تكسوا الرجال مهابة وجمالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة ... وهى السلاح لمن أراد قتالا

فلما سمع الشريف منى هذا الكلام وفهم الشعر والنظام أطرق برأسه الى الارض ساعة ثم رفع راسه وقال لى ان كان ولا بد فانى اريد منك ثلاثة آلاف دينار أخري فقلت سمعا وطاعة ثم أرسلت بعض المماليك الى منزلى فجاءنى بالمال الذى طلبه فلما رأي ذلك وصل اليه قام من الدكان وقال لغلمانه اقفلوها ثم دعا أصحابه من السوق الى داره وكتب كتابى على بنته وقال لى بعد عشرة أيام أدخلك عليها ثم مضيت الى منزلى وانا فرحان فخلوت مع القرد وأخبرته بما جرى لى فقال نعم مافعلت فلما قرب ميعاد

الشريف قال القرد ان لى عندك حاجة ان قضيتها لي فلك عندي ماشئت قلت وماحاجتك قال لى ان فى صدر القاعة التى تدخل فيها على بنت الشريف خزانة وعلى بابها حلقة من نحاس والمفاتيح تحت الحلقة فخذها وافتح الباب تجد صندوقا من حديد على أركانه أربع رايات من الطلسم وفى وسط ذلك طشت ملآن من المال وفى جانبه احدى عشر حية وفي وسط الطشت ديك أفرق أبيض مربوط

(المارد وهو يأخذ العروسة)

(بعد ماقلب أبا محمد الكسلان الصندوق الذى فيه الطلاسم وقطع الرايات التى بجوانبه)

هناك سكين بجنب الصندوق فخذ السكين واذبح بها الديك واقطع الرايات واقلب الصندوق وبعد

ذلك أخرج للعروسة وازل بكارتها فهذه حاجتي عندك فقلت سمعا وطاعة ثم مضيت الى هذه الشريف فدخلت القاعة وانظرت الى الخزانة التي وصفها الى القرد فلما خلوت بالعروسة تعجبت من حسنها وجمالها وقدها واعتدالها الذي لا تستطيع الألسن ان تصف حسنها وجمالها ففرحت بها فرحا شديدا فلما كان نصف الليل ونامت العروسة قمت وأخذت المفاتيح وفتحت الخزانة وأخذت السكين وذبحت الديك وقطعت الرايات وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٤١) قالت بلغني أيها الملك السعيد انه قال لما ذبحت الديك وقطعت الرايات وقلبت الصندوق فاستيقظت الصبية فرأت الخزانة قد فتحت والديك قد ذبح فقالت لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم قد أخذني المارد فما استتمت كلامها الا وقد أحاط المارد بالدار وخلف العروسة فعند ذلك وقعت الضجة واذا بالشريف قد أقبل وهو يلطم على وجهه وقال يا أبا محمد ما هذا الفعل الذي فعلته معنا اهل هذا جزاؤنا منك وأنا قد عملت هذا الطلسم في هذه الخزنة خوفا على بنتي من هذا الملعون فانه كان يقصد أخذ هذه الصبية من منذ ست سنين ولا يقدر على ذلك ولكن ما بقي لك عندنا مقام فامض الى حال سبيلك فخرجت من دار الشريف وجئت الى داري وفتشت على القرد فلم أجده ولم أر له أثرا فعلمت انه هو المارد الذي أخذ زوجتي وتحيل علي حتى فعلت ذلك بالطلسم والديك اللذين كانا يمنعانه من أخذها فندمت وقطعت أثوابي ولطمت على وجهي ولم تسعني الارض فخرجت من ساعتي وقصدت البرية ولم أزل سائرا الى ان امسى علي المساء ولم اعلم اين اروح فبينما انا مشغول الفكر اذ قبل علي حيتان واحدة سمراء والاخرى بيضاء وهما يتقاتلان فأخذت حجرا من الارض وضربت به الحية السمراء فقتلتها فانها كانت باغية على البيضاء فغابت ساعة وعادت ومعها عشر حيات بيض فجاؤا الى الحية التي ماتت وقطعوها قطعا حتى لم يبق الا رأسها ثم مضوا الى حال سبيلهم واضطجعت في مكاني من التعب وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٤٢) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان أبا محمد الكسلان قال ثم اضطجعت من التعب فبينما انا مضطجع متفكر في أمري واذا أنا بهاتف اسمع صوته ولم ارشخصه وهو يقول هذين البيتين

دع المقادير تجري في اعنتها ... ولا تبيتن الا خالي البال

ما بين طرفة عين وانتباهتها ... يغير الله من حال الى حال

فلما سمعت ذلك لحقني يا أمير المؤمنين أمر شديد وفكر ما عليه من مزيد واذا بصوت من خلفي أسمعه ينشد هذين البيتين

يا مسلما أمامه القرآن ... ابشر به قد جاءك الأمان

ولا تخف ما سول الشيطان ... فنحن قوم ديننا الايمان

فقلت له بحق معبودك ان تعرفني من أنت فانقلب ذلك الهاتف في صورة انسان وقال لي لا تخف فان جميلك قد وصل الينا ونحن قوم من جن المؤمنين فان كان لك حاجة فأخبرنا بها حتى نفوز

عن يكون قاضيا فى زمانى واستدعي باطباق الذهب فأفرغت بين يديه وقال للقاضى هل معك شىء تضعه فيه فتذكر مخلاة البغلة فاستدعى بها فملئت له ذهبا فأخذها وانصرف الى بيته فلما اصبح الصباح قال لاصحابه لاطريق الى الدين والدنيا اسهل واقرب من طريق العلم فانى اعطيت هذا المال العظيم في مسئلتين او ثلاث فانظر ايها المتأدب الى لطف هذه الوقعة فانها اشتملت على محاسن منها دلال الوزير على هرون الرشيد وعلم الخليفة وزيادة علم القاضى فرحم الله تعالى أرواحهم اجمعين

﴿ حكاية خالد بن عبد الله القسرى مع الشاب السارق ﴾

(ومما) يحكى ان خالد بن عبد الله القسرى كان امير البصرة فجاء اليه جماعة متعلقون بشاب ذي جمال باهر وادب ظاهر وعقل وافر وهو حسن الصورة طيب الرائحة وعليه سكينة ووقار فقدموه الى خالد فسألهم عن قصته فقالوا هذا اللص اصبناه البارحة فى منزلنا فنظر اليه خالد فاعجبه حسن هيئته ونظافته فقال خلوا عنه ثم دنا منه وسأله عن قصته فقال ان القوم صادقون فيما قالوه والامر على ماذكروا فقال له خالد ما حملك على ذلك وأنت فى هيئة جميلة وصورة حسنة قال حملنى على ذلك الطمع فى الدنيا وقضاء الله سبحانه وتعالى فقال له خالد ثكلتك أمك أما كان لك فى جمال وجهك وكمال عقلك وحسن أدبك زاجر يزجرك عن السرقة قال دع عنك هذا أيها الامير وامض الى ما أمر الله تعالى به فذلك بما كسبت يداى وما الله بظلام للعبيد فسكت خالد ساعة يفكر فى أمر الفتى ثم ادناه منه وقال له ان اعترافك على رؤس الاشهاد قد رابنى وانا ما أظنك سارقا ولعل لك قصة غير السرقة فاخبرني بها قال أيها الامير لا يقطع نفسك شى سوى ما اعترفت به عندك وليس لى قصة اشرحها الا انى دخلت دار هؤلاء فسرقت ما امكننى فادركونى واخذوه منى وحملونى اليك فأمر خالد بحبسه وأمر مناديا ينادي بالبصرة الا من أحب ان ينظر الى عقوبة فلان اللص وقطع يده فليحضر من الغداة الى المحل الفلانى فلما استقر الفتى فى الحبس ووضعوا فى رجليه الحديد تنفس الصعداء وافاض العبرات وانشد هذه الابيات

هددنى خالد بقطع يدى ... اذلم ابح عنده بقصتها

فقلت هيهات ان ابوح بما ... تضمن القلب من محبتها

قطع يدى الذى اعترفت به ... اهون للقلب من فضيحتها

فسمع ذلك الموكلون به فاتوا خالدا واخبروه بما حصل منه فلما جن الليل امر باحضاره عنده فلما حضر استنطقه فرآه عاقلا أديبا فطنا ظريفا لبيبا فامر له بطعام فأكل وتحدث معه ساعة ثم قال له خالد قد علمت ان لك قصة غير السرقة فاذا كان الصباح وحضر الناس وحضر القاضى وسألك عن السرقة فانكرها واذكر ما يدرأ عنك حد القطع فقد قال رسول الله ﷺ ادرؤا الحدود بالشبهات ثم امر به الى السجن وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٣٤) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان خالدا بعد ان تحدث مع الشاب أمر به الى السجن فمكث فيه ليلته فلما أصبح الصباح حضر الناس يقطعون يد الشاب ولم يبق أحد فى البصرة

من رجل ولا امرأة الا وقد حضر ليرى عقوبة ذلك الفتى وركب خالد ومعه وجوه أهل البصرة وغيرهم ثم استدعى بالقضاة وأمر باحضار الفتى فاقبل يحجل فى قيوده ولم يره أحد من الناس الا بكى عليه وارتفعت اصوات النساء بالنحيب فامر القاضى بتسكيت النساء ثم قال له ان هؤلاء القوم يزعمون انك دخلت دارهم وسرقت مالهم فلعلك سرقت دون النصاب قال بل سرقت نصابا كاملا قال لعلك شريك القوم فى شىء منه قال بل هو جميعه لهم لا حق لى فيه فغضب خالد وقام اليه بنفسه وضربه على وجهه بالسوط وقال متمثلا بهذا البيت

يريد المرء ان يعطى مناه ويأبى الله الا ما يريد

ثم دعا بالجزار ليقطع يده فحضر واخرج السكين ومد يده ووضع عليها السكين فبادرت جارية من وسط النساء عليها اطوار وسخة فصرخت ورمت نفسها عليه ثم اسفرت عن وجه كانه القمر وارتفع فى الناس ضجة عظيمة وكاد ان يقع بسبب ذلك فتنة طائرة الشرر ثم نادت تلك الجارية باعلا صوتها ناشدتك الله أيها الامير لا تعجل بالقطع حتى تقرأ هذه الرقعة ثم دفعت اليه رقعة ففتحها خالد وقرأها فاذا مكتوب فيها هذه الابيات

أخالد هذا مستهام متيم رمته لحاظي عن قسى الحمالق
فاصماه سهم اللحظ منى لانه حليف جوى من دائه غير فائق
أقر بما لم يقترفه كانه رأى ذاك خيرا من هتيكة عاشق
فمهلا عن الصب الكئيب فانه كريم السجايا فى الورى غير سارق

فلما قرأ خالد الابيات تنحى وانفرد عن الناس وأحضر المرأة ثم سألها عن القصة فاخبرته بان هذا الفتى عاشق لها وهى عاشقة له وانما أراد زيارتها فتوجه الى دار أهلها ورمى حجرا فى الدار ليعلمها بمجيئه فسمع أبوها وأخوتها صوت الحجر فصعدوا اليه فلما أحس بهم جمع قماش البيت كله وأراهم انه سارق سترا على معشوقته فلما رأوه على هذه الحالة أخذوه وقالوا هذا سارق واتوا به اليك فاعترف بالسرقة وأصر على ذلك حتى لا يفضحنى وقد ارتكب هذه الامور من رمى نفسه بالسرقة لفرط مروءته وكرم نفسه فقال خالد انه لخليق بان يسعف بمراده ثم استدعى الفتى اليه وقبله بين عينيه وأمر باحضار أبي الجارية وقال له ياشيخ انا كنا عزمنا على انفاذ الحكم فى هذا الفتى بالقطع ولكن الله عز وجل قد حفظه من ذلك وقد أمرت له بعشرة آلاف درهم لبذله يده حفظا لعرضك وعرض ابنتك وصيانتكما من العار وقد أمرت لابنتك بعشرة آلاف درهم حيث أخبرتنى بحقيقة الامر وأنا أسألك أن تأذن لى فى تزويجها منه فقال الشيخ أيها الامير قد أذنت لك فى ذلك فحمد الله خالد واثنى عليه وخطب خطبة حسنة وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٣٥) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان خالدا حمد الله وخطب خطبة حسنة وقال للفتى قد زوجتك هذه الجارية فلانة الحاضرة باذنها ورضاها واذن ابيها على هذا المال وقدره عشرة آلاف درهم فقال الفتى قبلت منك هذا التزويج ثم ان خالدا أمر بحمل المال الى دار الفتى مزفوفا في الصوانى

وانصرف الناس وهم مسرورون فما رأيت يوما أعجب من ذلك اليوم أوله بكاء وشرور وآخره فرح وسرور

﴿حكاية أبي محمد الكسلان مع الرشيد﴾

(ومما) يحكى ان هرون الرشيد كان جالسا ذات يوم في تخت الخلافة اذ دخل عليه غلام من الطواشية ومعه تاج من الذهب الاحمر مرصع بالدر والجوهر وفيه من سائر اليواقيت والجواهر مالا يفي به مال ثم ان الغلام قبل الارض بين يدي الخليفة وقال له يا أمير المؤمنين ان السيدة زبيدة وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح . فقالت لها اختها ما أحسن حديثك وأطيبه وأحلاه واعذبه فقالت واين هذا مما أحدثكم به الليلة القابلة ان عشت وابقاني الملك فقال الملك في نفسه والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها

(وفي ليلة ٣٣٦) قالت لها اختها يا أختي اتمي لنا حديثك قالت حبا وكرامه ان اذن لي الملك فقال الملك احكي يا شهرزاد قالت بلغني أيها الملك السعيد ان الغلام قال للخليفة ان السيدة زبيدة تقبل الارض بين يديك وتقول لك أنت تعرف انها قد عملت هذا التاج وانه محتاج الى جوهرة كبيره تكون في رأسه وفتشت في ذخائرها فلم تجد فيها جوهرة كبيرة على غرضها فقال الخليفة للحجاب والنواب فتشوا على جوهرة كبيرة على غرض زبيدة ففتشوا فلم يجدوا شيئا يوافقها فاعلموا الخليفة بذلك فضاق صدره وقال كيف أكون خليفة وملك ملوك الارض واعجز عن جوهرة ويلكم فاسألوا التجار فسألوا التجار فقالوا لهم لا يجد مولانا الخليفة الجوهرة الا عند رجل من البصرة يسمى أبا محمد الكسلان فاخبروا الخليفة بذلك فامر وزيره جعفر ان يرسل بطاقة الى الامير محمد الزبيدي المتولي على البصرة ان يجهز أبا محمد الكسلان ويحضره بين يدي أمير المؤمنين فكتب الوزير بطاقة بمضمون ذلك وأرسلها مع مسرور ثم توجه مسرور بالبطاقة الى مدينة البصرة ودخل على الامير محمد الزبيدي ففرح به وأكرمه غاية الاكرام ثم قرأ عليه بطاقة أمير المؤمنين هرون الرشيد فقال سمعا وطاعة ثم أرسل مسرور مع جماعة من أتباعه الى أبي محمد الكسلان فتوجهوا اليه وطرقوا عليه الباب فخرج لهم بعض الغلمان فقال له مسرور قل لسيدك ان أمير المؤمنين يطلبك فدخل الغلام وأخبره بذلك فخرج فوجد مسرورا حاجب الخليفة ومعه أتباع الامير محمد الزبيدي فقبل الارض بين يديه وقال سمعا وطاعة لامير المؤمنين ولكن ادخلوا عندنا فقالوا ما نقدر على ذلك الا على عجل كما أمرنا أمير المؤمنين فانه ينتظر قدومك فقال اصبروا على يسيرا حتى اجهز أمري ثم دخلوا معه الى الدار بعد استعطاف زائد فرأوا في الدهليز ستورا من الديباج الازرق المطرز بالذهب الاحمر ثم ان أبا محمد الكسلان أمر بعض غلمانه ان يدخلوا مع مسرور الحمام الذي في الدار ففعلوا فرأوا حيطانه ورخامه من الغرائب وهو مزركش بالذهب والفضة وماؤه ممزوج بماء الورد واحتفل الغلمان بمسرور ومن معه وخدموهم اتم الخدمة ولما خرجوا من الحمام البسوهم خلعا من الديباج منسوجة بالذهب ثم دخل مسرور واصحابه فوجدوا أبا محمد الكسلان جالسا في قصره وقد علقت على رأسه ستور من الديباج

المنسوج بالذهب المرصع بالدر والجوهر والقصر مفروش بمساند مزركشة بالذهب الاحمر وعمى جالس على مرتبة والمرتبة على سرير مرصع بالجواهر فلما دخل عليه مسرور رحب به وتلقاه واجلسه بجانبه ثم أمر باحضار السماط فلما رأى مسرور ذلك السماط قال والله ما رأيت عند أمير المؤمنين مثل ذلك السماط أبدا وكان فى ذلك السماط أنواع الاطعمة وكلها موضوعة فى أطباق صيني مذهبه قال مسرور فأكلنا وشربنا وفرحنا الى آخر النهار ثم أعطانا كل واحد خمسة آلاف دينار ولما كان اليوم الثاني البسونا خلعا خضراء مذهبه وأكرمونا غاية الاكرام ثم قال له مسرور لا يمكننا ان نقعد زيادة على تلك المدة خوفا من الخليفه فقال له أبو محمد الكسلان يامولانا اصبر علينا الى غد حتى نتجهز ونسير معكم فقعدوا ذلك اليوم وباتوا الي الصباح ثم ان الغلمان شدوا لابى محمد الكسلان بغلة بسرج من الذهب مرصع بانواع الدر والجوهر فقال مسرور فى نفسه ياترى اذا حضر أبو محمد بين يدى الخليفة بتلك الصفه هل يسأله عن سبب تلك الاموال ثم بعد ذلك ودعوا أبا محمد الزبيدى وطلعوا من البصرة وساروا ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا الى مدينة بغداد فلما دخلوا على الخليفه ووقفوا بين يديه أمره بالجلوس فجلس ثم تكلم بادب وقال ياأمير المؤمنين انى جئت معى بهدية على وجه الخدمة فهل أحضرها عن اذنك قال الرشيد لا باس بذلك فامر بصندوق ففتحه وأخرج منه تفاحا من جملتها أشجار من الذهب وأوراقها من الزمرد الابيض وثمارها ياقوت أحمر وأصفر ولؤلؤ أبيض فتعجب الخليفة من ذلك ثم أحضر صندوقا ثانيا وأخرج منه خيمة من الديباج مكللة باللؤلؤ واليواقيت والزمرد والزبرجد وأنواع الجوهر وقوائمها من عود هندى رطب وأذيال تلك الخيمة مرصعة بالزمرد الاخضر وفيها تصاوير كل الصور من سائر الحيوانات كالطيور والوحوش وتلك الصور مكللة بالجواهر واليواقيت والزمرد والزبرجد والبلخش وسائر المعادن فلما رأى الرشيد ذلك فرح فرحا شديدا ثم قال أبو محمد الكسلان ياأمير المؤمنين لا تظن اني حملت لك هذا فزعا من شيء ولا طمعا فى شيء وانما رأيت نفسي رجلا عاميا ورأيت هذا لا يصلح الا لامير المؤمنين وان أذنت لى فرجتك على بعض ما أقدر عليه فقال الرشيد افعل ماشئت حتى ننظر فقال سمعا وطاعة ثم حرك شفتيه وأومأ الي شراريف القصر فمالت اليه ثم أشار اليها فرجعت الى موضعها ثم أشار بعينه فظهرت اليه مقفلة الابواب ثم تكلم عليها واذا باصوات طيور تجاوبه فتعجب الرشيد من ذلك غاية العجب وقال له من أين لك هذا كله وأنت ماتعرف الا بابي محمد الكسلان وأخبروني ان أباك كان حلاقا يخدم فى حمام وما خلف لك شيئا فقال ياامير المؤمنين اسمع حديثي وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٣٧) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان أبا محمد الكسلان قال للخليفة ياأمير المؤمنين اسمع حديثى فانه عجيب وأمره غريب لو كتب بالابر على آماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر فقال الرشيد حدث بما عندك واخبرنى به ياأبا محمد فقال ياأمير المؤمنين ادام الله لك العز والتمكين ان أخبار الناس بانى أعرف بالكسلان وان أبي لم يخلف لي مالا صدق لان أبى لم يكن الا كما ذكرت فانه كان

حلاقا فى حمام وكنت أنا فى صغرى أكسل من يوجد على وجه الارض وبلغ من كسلى اني اذا كنت نائما فى أيام الحر وطلعت على الشمس اكسل عن أن أقوم وانتقل من الشمس الى الظل وأقمت على ذلك خمسة عشر عاما ثم ان أبي توفى الى رحمة الله تعالى ولم يخلف لى شيئا وكانت أمى تخدم الناس وتطعمنى وتسقينى وأنا راقد على جنبي فاتفق ان أمي دخلت علي فى بعض الايام ومعها خمسة دراهم من الفضة وقالت لي يا ولدي بلغنى ان الشيخ أبا المظفر عزم على ان يسافر الى الصين وكان ذلك الشيخ يحب الفقراء وهو من أهل الخير فقالت أمي يا ولدى خذ هذه الخمسة دراهم وامض بنا اليه واسأله ان يشترى لك بها شيئا من بلاد الصين لعله يحصل لك فيه ربح من فضل الله تعالى فكسلت عن القيام معها فأقسمت بالله ان لم أقم معها لا تطعمنى ولا تسقينى ولا تدخل علي بل تتركنى أموت جوعا وعطشا فلما سمعت كلامها يا أمير المؤمنين علمت انها تفعل ذلك لما تعلم من كسلى فقلت لها اقعدينى فاقعدتنى وأنا باكى العين وقلت لها ائتينى بمداسى فاتتنى به فقلت ضعيه فى رجلاي فوضعته فيهما فقلت لها حمليني حتى ترفعينى من الارض ففعلت ذلك فقلت أسندينى حتى أمشى فصارت تسندنى وما زلت أمشي واتعثر فى اذيالى الى ان وصلنا الى ساحل البحر فسلمنا على الشيخ وقلت له يا عم أنت أبو المظفر قال لبيك قلت خذ هذه الدراهم واشترلى بها شيئا من بلاد الصين عسى الله ان يربحنى فيه فقال الشيخ أبو المظفر لاصحابه اتعرفون هذا الشاب قالوا نعم هذا يعرف بابى محمد الكسلان ما رأيناه قط خرج من داره الا في هذا الوقت فقال الشيخ أبو المظفر يا ولدى هات الدراهم على بركة الله تعالى ثم أخذ مني الدراهم وقال باسم الله ثم رجعت مع أمى الى البيت وتوجه الشيخ أبو المظفر الى السفر ومعه جماعة من التجار ولم يزالوا مسافرين حتى وصلوا الى بلاد الصين ثم ان الشيخ باع واشترى وبعد ذلك عزم على الرجوع هو ومن معه بعد قضاء اغراضهم وساروا فى البحر ثلاثة أيام فقال الشيخ لاصحابه قفوا بالمركب فقال التجار ما حاجتك فقال اعلموا ان الرسالة التى معي لابى محمد الكسلان نسيتها فارجعوا بنا حتى نشترى له بها شيأ حتى ينتفع به فقالوا له سألناك بالله تعالى ان لا تردنا فاننا قطعنا مسافة طويلة زائدة وحصل لنا في ذلك أهوال عظيمة ومشقة زائدة فقال لا بد لنا من الرجوع فقالوا اخذ منا أضعاف ربح الخمسة دارهم ولا تردنا فسمع منهم وجمعوا له مالا جزيلا ثم ساروا حتى أشرفوا على جزيرة فيها خلق كثير فارسوا عليها وطلع التجار يشترون منها متجرا من معادن وجواهر ولؤلؤ وغير ذلك ثم رأى أبو المظفر رجلا جالسا وبين يديه قرود كثيرة وبينهم قرد منتوف الشعر وكانت تلك القرود كلما غفل صاحبهم يمسكون ذلك القرد المنتوف ويضربونه ويرمونه على صاحبهم فيقوم ويضربهم ويقيدهم ويعذبهم على ذلك فتغتاظ القرود كلها من ذلك القرد ويضربونه ثم ان الشيخ أبا المظفر لما رأى ذلك القرد حزن عليه ورفق به فقال لصاحبه أتبيعنى هذا القرد قال اشتر قال ان معى لصبي يتيم خمسة دراهم هل تبيعنى اياه بها قال له بعتك بارك الله لك فيه ثم تسلمه واقبضه الدراهم وأخذ عبيد الشيخ القرد وربطوه فى المركب ثم حلوا وسافروا الي جزيرة أخرى فارسوا عليها فنزل الغطاسون الذين يغطسون على المعادن واللؤلؤ والجوهر وغير ذلك

أن أعمل فيه أثر ثم أمرت بضربي فضربوني على أضلاعي وهذا الذي رأيتموه أثر ذلك الضرب وبعد ذلك أمرت باخراجي فاخرجوني وأبعدوني عن القصر ورموني فحملت نفسي ومشيت قليلا قليلا حتى وصلت الى منزلي وأحضرت جراحيا وأريته الضرب فلاطفني وسعى في مداواتي فلما شفيت ودخلت الحمام وزالت عني الآلام والاسقام جئت الى الدكان وأخذت جميع ما فيها وبعته وجمعت ثمنه واشتريت اربعمائة مملوك ما جمعها أحد من الملوك وصار يركب معي منهم في كل يوم مائتان وعملت هذا الزورق وصرفت عليه خمسة آلاف دينار من الذهب وسميت نفسي بالخليفة ورتبت من معي من الخدم واحدا في وظيفة واحد من أتباع الخليفة وهيأته بهيئته وناديت كل من يتفرج في الدجلة ضربت عنقه بلا مهلة ولي على هذا الحال سنة كاملة وانا لم أسمع لها خبرا ولم أقف لها على أثر ثم انه بكى وأفاض العبرات وأنشد هذه الابيات

واقد كنت طول الدهر ناسيها ولا دنوت الى من ليس يدنيها
كأنها البدر في تكوين خلقتها سبحان خالقها سبحان باريها
قد صيرتني حزينا ساهرا دنفا والقلب قد حار مني في معانيها

فلما سمع هرون الرشيد كلامه وعرف وجده ولوعته وغرامه تدله وطها تحير عجبا وقال سبحان الله الذي جعل لكل شيء سببا ثم انهم استأذنوا الشاب في الانصراف فاذن لهم واضمر له الرشيد على الانصاف وان يتحفه غاية الاتحاف ثم انصرفوا من عنده سائرين والى محل الخلافة متوجهين فلما استقر بهم الجلوس وغيروا ما عليهم من الملبوس ولبسوا اثواب المواكب ووقف بين أيديهم مسرور سياف النقمة قال الخليفة لجعفر يا وزير علي بالشاب وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٤٧) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان الخليفة قال للوزير علي بالشاب الذي كنا عنده في الليلة الماضية فقال سمعا وطاعة ثم توجه اليه وسلم عليه وقال له أجب أمير المؤمنين الخليفة هرون الرشيد فسار معه الي القصر وهو من الترسيم عليه في حصر فلما دخل على الخليفة قبل الارض بين يديه ودعا له بدوام العز والاقبال وبلوغ الآمال ودوام النعم وازالة البؤس والنقم وقد أحسن ما به تكلم حيث قال السلام عليك يا أمير المؤمنين وحامي حومة الدين ثم أنشد هذين البيتين

لا زال بابك كعبة مقصودة وترابها فوق الجباه رسوم
حتى ينادي في البلاد مآمرها هذا المقام وأنت ابراهيم

فتبسم الخليفة في وجهه ورد عليه السلام والتفت اليه بعين الاكرام وقربه لديه وأجلسه بين يديه وقال له يا محمد علي أريد منك أن تحدثني بما وقع لك في هذه الليلة فانه من العجائب وبديع الغرائب فقال الشاب العفو يا أمير المؤمنين اعطني منديل الامان ليسكن روعي ويطمئن قلبي فقال له الخليفة لك الأمان من الخوف والاحزان فشرع الشاب يحدثه بالذي حصل له من أوله الى آخره فعلم الخليفة أن الصبي عاشق وللمعشوق مفارق فقال له أتحب أن أردها عليك قال هذا من

فضل أمير المؤمنين ثم أنشد هذين البيتين

الثم أنامله فلسن أناملا لكنهن مفاتح الارزاق
وأشكر صنائعه فلسن صنائعا لكنهن قلائد الاعناق

فعند ذلك التفت الخليفة إلى الوزير وقال له ياجعفر أحضر لي أختك السيدة دنيا بنت الوزير يحيى بن خالد فقال سمعا وطاعة يا أمير المؤمنين ثم أحضرها في الوقت والساعة فلما تمثلت بين يديه قال لها الخليفة أتعرفين من هذا قالت يا أمير المؤمنين من أين للنساء معرفة الرجال فتبسم الخليفة وقال لها يا دنيا هذا حبيبك محمد بن علي الجوهري وقد عرفنا الحال وسمعنا الحكاية من أولها الى آخرها وفهمنا ظاهرها و باطنها والامر لا يخفى وان كان مستورا فقالت يا أمير المؤمنين كان ذلك في الكتاب مسطورا وأنا أستغفر الله العظيم مما جرى مني وأسألك من فضلك العفو عني فضحك الخليفة هرون الرشيد وأحضر القاضي والشهود وجدد عقدها على زوجها محمد بن علي الجوهري وحصل لها وله سعد السعود واكماد الحسود وجعله من جملة ندمائه واستمروا في سرور ولذة وحبور الى أن أتاهم هازم اللذات ومفرق الجماعات

﴿ حكاية هرون الرشيد مع علي العجمي وما يتبع ذلك ﴾
(من حديث الجراب والكردي)

(ومما) يحكى أيضا أن الخليفة هرون الرشيد قلق ليلة من الليالي فاستدعى بوزيره فلما حضر بين يديه قال له ياجعفر اني قلقت الليلة قلقا عظيما وضاق صدري وأريد منك شيئا يسر خاطري وينشرح به صدري فقال له جعفر يا أمير المؤمنين ان لي صديقا اسمه علي العجمي وعنده من الحكايات والاخبار المطربة ما يسر النفوس ويزيل عن القلب البؤس فقال له علي به فقال سمعا وطاعة ثم ان جعفر خرج من عند الخليفة في طلب العجمي فأرسل خلفه فلما حضر قال له أجب أمير المؤمنين فقال سمعا وطاعة وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٣١) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن العجمي قال سمعا وطاعة ثم توجه معه الى الخليفة فلما تمثل بين يديه أذن له في الجلوس فجلس فقال له الخليفة يا علي انه ضاق صدري في هذه الليلة وقد سمعت عنك أنك تحفظ حكايات وأخبارا وأريد منك أن تسمعني ما يزيل همي ويصقل فكري فقال يا أمير المؤمنين هل أحدثك بالذي رأيته بعيني أو بالذي سمعته باذني فقال ان كنت رأيت شيئا فاحكه فقال سمعا وطاعة اعلم يا أمير المؤمنين اني سافرت في بعض السنين من بلدي هذه وهي مدينة بغداد وصحبتي غلام ومعه جراب لطيف ودخلنا مدينة فبينما انا ابيع واشتري واذا برجل كردي ظالم متعدي قد هجم علي واخذ مني الجراب وقال هذا جرابي وكل ما فيه متاعي فقلت يامعشر المسلمين خلصوني من يد أجور الظالمين فقال الناس جميعا اذهبا الى القاضي واقبلا حكمه بالتراضي فتوجهنا الى القاضي وانا بحكمه راضي فلما دخلنا عليه وتمثلنا بين يديه قال القاضي في اي شيء جئتما وما قضيتكما خبرا فقلت نحن خصمان اليك تداعينا وبحكمك تراضينا

فقال ايكما المدعي فتقدم الكردي وقال ايدالله مولانا القاضي ان هذا الجراب جرابي وكل مافيه متاعي وقد ضاع مني ووجدته مع هذا الرجل فقال القاضي ومتى ضاع منك فقال الكردي من امس هذا اليوم وبت لفقده بلا نوم فقال القاضي ان كنت تعرفه فصف لي ما فيه فقال الكردي في جرابي هذا مردوان من لجين وفيه اكحال للعين ومنديل لليدين ووضعت فيه شرابتين مذهبتين وشمعدانين وهو مشتمل على بيتين وطبقتين ومعلقتين ومخدة ونطعين وابريقين وصينية وطشتين وقدرة وزلعتين ومغرفة ومسلة ومزودين وهرة وكلبتين وقصعة وقعيدتين وجبه وفروتين وبقرة وعجلين وعنز وشاتين ونعجه وسلخين وصيوانين اخضرين وجملا وناقتين وجاموسه وثورين ولبوه وسبعين ودبة وثعلبين ومرتبة وسريرين وقصرا وقاعتين ورواقا ومقعدين ومطبخا ببابين وجماعة اكراد يشهدون ان الجراب جرابي فقال القاضي ماتقول انت ياهذا فتقدمت اليه ياامير المؤمنين وقد ابهتني الكردي بكلامه فقلت اعز الله مولانا القاضي انا مافي جرابي هذا الادويرة خراب واخري بلاباب ومقصورة للكلاب وفيه للصبيان كتاب وشباب يلعبون الكعاب وفيه خيام واطناب ومدينة البصرة وبغداد وقصر شداد ابن عاد وكور حداد وشبكة صياد وعصا واوتاد وبنات واولاد والف قواد يشهدون أن الجراب جرابي فلما سمع الكردي هذا الكلام بكى وانتحب وقال يامولانا القاضي ان جرابي هذا معروف وكل مافيه موصوف في جرابي هذا حصون وقلاع وكراكي وسباع ورجال يلعبون بالشطرنج والرقاع وفي جرابي هذا حجرة ومهران وخل وحصانان ورمحان طويلان وهو مشتمل على سبع وارنبين ومدينة وقريتين وقحبة وقوادين شاطرين ومخنث وعلقين واعمي وبصيرين واعرج ومكسحين وقسيس وشماسين وبطريق وراهبين وقاض وشاهدين وهم يشهدون ان الجراب جرابي فقال القاضي ماتقول ياعلي فامتلأت غيظا ياأمير المؤمنين وتقدمت اليه وقلت أيدالله مولانا القاضي وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٣٣٢) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان العجمي قال فامتلأت غيظا ياأمير المؤمنين وتقدمت اليه وقلت أيدالله مولانا القاضي أنا في جرابي هذا زرد وصفاح وخزائن سلاح والف كبش نطاح وفيه للغنم مراح والف كلب نباح وبساتين وكروم وأزهار وشموم وتين وتفاح وصور وأشباح وقناني وأقداح وعرائس ومغاني وأفراح وهرج وصياح وأقطار فساح واخوة نجاح ورفقة صباح ومعهم سيوف ورماح ملاح وقوس ونشاب وأصدقاء وأحباب وخلان وأصحاب ومحابس للعقاب وندماء للشراب وطنبور ونايات وأعلام ورايات وصبيان وبنات وعرائس مجليات وجوار مغنيات وخمس حبشيات وثلاث هنديات وأربع مدنيات وعشرون روميات وخمسون تركيات وسبعون عجميات وثمانون كرديات وتسعون جرجيات والدجلة والفرات وشبكة صياد وقداحة وزناد وارم ذات العماد والف علق وقواد وميادين واصطبلات ومساجد وحمامات وبناء ونجار وخشبة ومسمار وعبد اسود بمزمار ومقدم وركبدار ومدن

وأمصار ومائة الف دينار والكوفة مع الانبار وعشرون صندوقا ملآنة بالقماش وخمسون حاملا للقماش وغزة وعسقلان من دمياط الى اصوان وايوان كسرى أنوشروان وملك سليمان ومن وادى نعمان الى أرض خراسان و بلخ وأصبهان ومن الهند الى بلاد السودان وفيه أطال الله عمر مولانا القاضي غلائل وعراضى والف موس ماض تحلق ذقن القاضي ان لم يخش عقابى ولم يحكم بأن الجراب جرابى فلما سمع القاضي هذا الكلام تحير عقله من ذلك وقال ما أرى كما الا شخصين نحسين أو رجلين زنديقين تلعبان بالقضاة والحكام ولا تخشيان من الملام لانه ما وصف الواصفون ولا سمع السامعون باعجب مما وصفتما ولا تكلموا بمثل ما تكلمتما والله ان من الصين الى شجرة ام غيلان ومن بلاد فارس الى أرض السودان ومن وادى نعمان الى ارض خراسان لا يسع ما ذكرتماه ولا يصدق ما ادعيتماه فهل هذا الجراب بحر ليس له قرار او يوم العرض الذى يجمع الابرار والفجار ثم ان القاضي امر بفتح الجراب ففتحه واذا فيه خبز وليمون وجبن وزيتون ثم رميت الجراب قدام الكردى ومضيت فلما سمع الخليفة هذه الحكاية من على العجمى استلقى على قفاه من الضحك وأحسن جائزته

﴿ حكاية هرون الرشيد مع جعفر والجارية والامام ابى يوسف ﴾

(ومما) يحكى ان جعفر البرمكى نادم الرشيد ليلة فقال الرشيد يا جعفر بلغنى انك اشتريت الجارية الفلانية ولى مدة تطلبها فانها على غاية الجمال وقلبى بحبها فى اشتغال فبعها لى فقال لا ابيعها يا امير المؤمنين فقال هبها لى فقال لا اهبها فقال هرون الرشيد زبيدة طالق ثلاثا ان لم تبعها لى او تهبها لى قال جعفر زوجتى طالق ثلاثا ان بعتها لك ثم افاقا من نشوتهما وعلما انهما وقعا فى امر عظيم وعجزا عن تدبير الحيلة فقال هرون الرشيد هذه وقعة ليس لها غير ابى يوسف فطلبوه وكان ذلك نصف الليل فلما جاءه الرسول قام فزعا وقال فى نفسه ما طلبت فى هذا الوقت الا لامر حدث فى الاسلام ثم خرج مسرعا وركب بغلته وقال لغلامه خذ معك مخلاة البغلة لعلها لم تستوف عليقها فاذا دخلنا دار الخلافة فضع لها المخلاة لتأكل ما بقى من عليقها الى حين خروجى اذ لم تستوف عليقها فى هذه الليلة فقال الغلام سمعا وطاعة فلما دخل على هرون الرشيد قام له واجلسه على سريره بجانبه وكان لا يجلس معه احد غيره وقال له ما طلبناك فى هذا الوقت الا لامر مهم هو كذا وكذا وقد عجزنا فى تدبير الحيلة فقال يا امير المؤمنين ان هذا الامر اسهل ما يكون ثم قال يا جعفر بع لامير المؤمنين نصفها وهب له نصفها وتبرآن فى يمينكما بذلك فسر أمير المؤمنين بذلك وفعلا ما امرهما به ثم قال هرون الرشيد احضروا الجارية فى هذا الوقت وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٣٣٣) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان الخليفة هرون الرشيد قال أحضروا الجارية فى هذا الوقت فانى شديد الشوق اليها فاحضروها وقال للقاضي ابى يوسف أريد وطأها فى هذا الوقت فانى لا أطيق الصبر عنها الى مضى مدة الاستبراء وما الحيلة فى ذلك فقال أبو يوسف ائتونى بمملوك من مماليك أمير المؤمنين الذى لم يجر عليهم العتق فأحضروا مملوكا فقال ابو يوسف

ائذن لى أن أزوجها منه ثم يطلقها قبل الدخول فيحل وطؤها فى هذا الوقت من غير استبراء فأعجب هرون الرشيد بذلك أكثر من الاول فلما حضر المملوك قال الخليفة للقاضى أذنت لك فى العقد فأوجب القاضى النكاح ثم قبله المملوك و بعد ذلك قال له القاضى طلقها ولك مائة دينار فقال لا أفعل ولم يزل يزيده وهو يمتنع الى أن عرض عليه ألف دينار ثم قال للقاضى هل الطلاق بيدى أم بيد أمير المؤمنين قال بل بيدك قال والله لا أفعل أبدا فاشتد غضب أمير المؤمنين وقال

﴿ الامام ابو يوسف وهو جالس بجوار الخليفه هرون الرشيد ﴾
(عند ما استدعاه يستفيه فيما وقع بينه و بين الوزير جعفر)

ما الحيلة يا أبا يوسف قال القاضى ابو يوسف يا امير المؤمنين لا تجزع فان الامر هين ملك هذا المملوك للجارية قال ملكته لها قال لها القاضى قولى قبلت فقالت قبلت فقال القاضى حكمت بينهما بالتفريق لانه دخل فى ملكها فانفسخ النكاح فقام امير المؤمنين على قدميه وقال مثلك

خلا قالت الخليل المحتاج الفقير وفي قوله اخرهو المحب المنقطع الى الله تعالى الذي ليس لانقطاعه اختلال فلما رآها المقرى غرق في كلامها مر السحاب ولم تتوقف في الجواب قام على قدميه وقال اشهد الله يا امير المؤمنين ان هذه الجارية اعلم مني بالقرآت وغيرها فعند ذلك قالت الجارية انا أسألك مسئلة واحدة فان اتيت بجوابها فذاك والا نزعت ثيابك قال أمير المؤمنين سليه فقالت ماتقول في اية فيها ثلاثة وعشرون كافا وآية فيها ستة عشر ميما وآية فيها مائة وار بعون عينا وحزب ليس فيه جلالة فعجز المقرى عن الجواب فقالت انزع ثيابك فنزع ثيابه ثم قالت يا امير المؤمنين ان الآية التي فيها ستة عشر ميما في سورة هود وهي قوله تعالى قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك الآية وان الآية التي فيها ثلاثة وعشرون كافا في سورة البقرة وهي اية الدين وان الآية التي فيها مائة واربعون عينا في سورة الاعراف وهي قوله تعالى واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا لكل رجل عينان وان الحزب الذي ليس فيه جلاله هو سورة اقتربت الساعة وانشق القمر والرحمن والواقعة فعند ذلك نزع المقرى ثيابه التي عليه وانصرف خجلا وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٣٧) قالت بلغني ايها الملك السعيد ان الجارية لما غلبت المقرى ونزع ثيابه وانصرف خجلا تقدم اليها الطبيب الماهر وقال فرغنا من علم الاديان فتيقظي لعلم الابدان واخبريني عن الانسان وكيف خلقه وكم في جسده من عرق وكم من عظم وكم من فقارة واين أول العروق ولم سمي آدم آدم قالت سمي آدم لادمته أي سمرة لونه وقيل لانه خلق من أديم الارض أي ظاهر وجهها صدره من تربة الكعبة ورأسه من تربة المشرق ورجلاه من تربة المغرب وخلق الله له سبعة ابواب في رأسه وهي العينان والاذنان والمنخران والفم وجعل له منفذين قبله ودبره فجعل العينين حاسة النظر والاذنين حاسة السمع والمنخرين حاسة الشم والفم حاسة الذوق وجعل اللسان ينطق بما في ضمير الانسان وخلق آدم مركبا من أربعة عناصر وهي الماء والتراب والنار والهواء فكانت الصفراء طبع النار وهي حارة يابسة والسوداء طبع التراب وهو بارد يابس والبلغم طبع الماء وهو بارد رطب والدم طبع الهواء وهو حار رطب وخلق في الانسان ثلثمائة وستين عرقا ومائتين واربعين عظما وثلاثة أرواح حيواني ونفساني وطبيعي وجعل لكل منها حكما وخلق الله له قلبا وطحالا ورئة وستة أمعاء وكبدا وكليتين واليتين ومخا وعظما وجلدا وخمس حواس سامعة وباصرة وشامة وذائقة ولامسة وجعل القلب في الجانب الايسر من الصدر وجعل المعدة أمام القلب وجعل الرئة مروحة للقلب وجعل الكبد في الجانب الايمن محاذية للقلب وخلق ما دون ذلك من الحجاب والامعاء وركب ترائب الصدر وشبكها بالاضلاع قال أحسنت فاخبريني كم في رأس ابن ادم من بطن قالت ثلاثة بطون وهي تشتمل على خمس قوى تسمى الحواس الباطنية وهي الحس المشترك والخيال والمتصرفة والواهمة والحافظة قال احسنت فاخبريني عن هيكل العظام وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٣٨) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان الجارية لما قال لها الطبيب اخبريني عن هيكل

العظام قالت هو مؤلف من مائتين واربعون عظما وينقسم الى ثلاثة أقسام رأس وجذع وأطراف أما الرأس فتنقسم الى جمجمة ووجه فالجمجمة مركبة من ثمانية عظام ويضاف اليها عظيمات السمع الاربع والوجه ينقسم الى فك علوي وفك سفلي فالعلوي يشتمل على أحد عشر عظما والسفلي عظم واحد ويضاف اليه الاسنان وهي اثنتان وثلاثون سنا وكذا العظم اللامي وأما الجذع فينقسم الى سلسلة فقارية وصدر وحوض فالسلسلة مركبة من أربعة وعشرون عظما تسمى الفقار والصدر مركب من القفص والاضلاع التي هي أربع وعشرون ضلعا في كل جانب اثنتا عشرة والحوض مركب من العظمين الحرقفيين والعجز والعصعص واما الاطراف فتنقسم الى طرفين علويين وطرفين سفليين فالعلويان ينقسم كل منهما اولا الى منكب مركب من الكتف والترقوة وثانيا الى عضد وهو عظم واحد وثالثا الى ساعد مركب من عظمين هما الكعبرة والزند ورابعا الى كف ينقسم الى رسغ ومشط واصابع فالرسغ مركب من ثمانية عظام مصفوفة صفين كل منهما يشتمل على أربعة عظام والمشط يشتمل على خمسة عظام والاصابع عددها خمس كل منها مركب من ثلاثة عظام تسمى السلاميات الا الابهام فانها مركبة من اثنين فقط والطرفان السفليان ينقسم كل منهما اولا الى فخذ هو عظم واحد وثانيا الى ساق مركب من ثلاثة عظام القصبة والشظية والرضفة وثالثا الى قدم ينقسم كالكف الى رسغ ومشط وأصابع فالرسغ مركب من سبعة عظام مصفوفة صفين الاول فيه عظمان والثاني فيه خمسة والمشط مركب من خمسة عظام والاصابع عددها خمس كل منها مركبة من ثلاث سلاميات الا الابهام فمن سلاميين فقط قال أحسنت فأخبريني عن أصل العروق قالت أصل العروق الوتين ومنه تتشعب العروق وهي كثيرة لا يعلم عددها الا الذي خلقها وقيل انها ثلثمائة وستون عرقا كما سبق وقد جعل الله اللسان ترجمانا والعينين سراجين والمنخرين منشقين واليدين جناحين ثم ان الكبد فيه الرحمة والطحال فيه الضحك والكليتين فيهما المكر والرئة مروحة والمعدة خزانة والقلب عماد الجسد فاذا اصلح القلب صلح الجسد كله واذا فسد فسد الجسد كله قال اخبريني عن الدلالات والعلامات الظاهرة التي يستدل بها على المرض في الاعضاء الظاهرة والباطنة قالت نعم اذا كان الطبيب ذا فهم نظر في أحوال البدن واستدل بجس اليدين على الصلابة والحرارة واليبوسة والبرودة والرطوبة وقد توجد في المحسوس دلالات على الامراض الباطنة كصفرة العينين فانها تدل على اليرقان وتحقف الظهر فانه يدل على داء الرئة قال أحسنت وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٣٩) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية لما وصفت للطبيب العلامات الظاهرة قال لها أحسنت فما العلامات الباطنة قالت إن الوقوف على الامراض بالعلامات الباطنة يؤخذ من ستة قوانين الاول من الافعال والثاني مما يستفرغ من البدن والثالث من الوجع والرابع من الموضع والخامس من الورم والسادس من الاعراض قال أخبرني بم يحصل الاذى الى الرأس قالت بادخال الطعام على الطعام قبل هضم الاول والشبع على الشبع فهو الذي أفنى الامم فمن أراد البقاء فليباكر

بالغداء ولا يتمس بالعشاء وليقلل من مجامعة النساء وليخفف الرداء وأن لا يكثر الفصد ولا الحجامة وأن يجعل بطنه ثلاث أثلاث ثلث للطعام وثلث للماء وثلث للتنفس لان مصران بنى آدم ثمانية عشر شبرا يجب أن يجعل ستة للطعام وستة للشراب وستة للتنفس واذا مشى برفق كان أوفق له وأجمل لبدنه وأكمل لقوله تعالى (ولا تمش فى الأرض مرحا) قال أحسنت فاخبرينى ما علامة الصفراء وماذا يخاف منها قالت تعرف بصفرة اللون ومرارة الفم والجفاف وضعف الشهوة وسرعة النبض ويخاف صاحبها من الحمى المحرقة والبرسام والحمرة واليرقان والورم وقروح الامعاء وكثرة العطش فهذه علامات الصفراء قال أحسنت فاخبرينى عن علامات السوداء وماذا يخاف على صاحبها اذا غلبت على البدن قالت انها تتولد منها الشهوة الكاذبة وكثرة الوسوسة والهم والغم فينبغي حينئذ أن تستفرغ والا تولد منها المالبخوليا والجذام والسرطان وأوجاع الطحال وقروح الامعاء قال أحسنت فاخبرينى الى كم جزء ينقسم الطب قالت ينقسم الى جزءين أحدهما علم تدبير الابدان المريضة والآخر كيفية ردها الى حال صحتها قال فاخبرينى أى وقت يكون شرب الادوية أنفع فيه منه فى غيره قالت اذا جرى الماء فى العود وانعقد الحب فى العنقود وطلع سعد السعود فقد دخل وقت نفع شرب الدواء وطرد الداء قال فاخبرينى عن وقت اذا شرب فيه الانسان من اناء جديد يكون شرابه أهنأ وأمرأ منه فى غيره وتصعد له رائحة طيبة ذكية قالت اذا صبر بعد أكل الطعام ساعة فقد قال الشاعر

لا تشربن من بعد أكلك عاجلا فتسوق جسمك للاذى بزمام
واصبر قليلا بعد أكلك ساعة فعساك تظفر يا أخى بمرام

قال فاخبرينى عن طعام لا تتسبب عنه أسقام قالت هو الذى لا يطعم الا بعد الجوع واذا طعم لا تمتلىء منه الضلوع لقول جالينوس الحكيم من أراد ادخال الطعام فليبطىء ثم لا يخطىء ولنختم بقوله عليه الصلاة والسلام المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البردة يعنى التخمة وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٤٤٠) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أن الجارية لما قالت للحكيم المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء الحديث قال لها فما تقولين فى الحمام قالت لا يدخله شبعان وقد قال النبى ﷺ نعم البيت الحمام ينظف الجسد ويذكر النار قال فأى الحمامات أحسن قالت ما عذب ماؤه واتسع فضاؤه وطاب هواؤه بحيث تكون أهويته أربعة خريفى وصيفى وشتوى وربيعى قال فأخبرينى أي الطعام أفضل قالت ما صنعت النساء وقل فيه العناء وأكلته بالهناء وأفضل الطعام الثريد لقوله عليه الصلاة والسلام فضل الثريد على الطعام كفضل عائشة على سائر النساء قال فأى الادم أفضل قالت اللحم لقوله عليه الصلاة والسلام أفضل الادم اللحم لانه لذة الدنيا والآخرة قال فأخبرينى فأى اللحم أفضل قالت الضأن ويجتنب القديد لانه لا فائدة فيه قال فأخبرينى عن الفاكهة قالت كلها فى اقبالها واتركها اذا انقضى زمانها قال فما تقولين فى شرب الماء قالت لا تشرب به شربا

ولا تعبه عبافانه يؤذيك صداعه ويشوش عليك من الاذى أنواعه ولا تشربه عقب خروجك من الحمام ولا عقب الجماع ولا عقب الطعام الا بعد مضي خمس عشر درجة للشاب وللشيخ بعد أربعين درجة ولا عقب يقظتك من المنام قال أحسنت فأخبريني عن شرب الخمر قالت أفلا يكفيك زاجرا ماجاء في كتاب الله تعالى حيث قال (انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) وقال تعالى (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) وقد قال الشاعر

يا شارب الخمر أما تستحي تشرب شيئا حرم الله
خله عنك ولا تأته ففيه حقا عنف الله

وقال آخر في هذا المعنى

شربت الاثم حتى زال عقلي فبئس الشرب حيث العقل زالا

وأما المنافع التي فيها فانها تفتت حصى الكلي وتقوى الامعاء وتنفي الهم وتحرك الكرم وتحفظ الصحة وتعين على الهضم وتصح البدن وتخرج الامراض من المفاصل وتنقي الجسم من الاخلاط الفاسدة وتولد الطرب والفرح وتقوي الغريزة وتشد المثانة وتقوي الكبد وتفتح السدد وتحمر الوجه وتنقي الفضلات من الرأس والدماغ وتبطىء بالمشيب ولولا الله عز وجل حرمها لم يكن على وجه الارض مايقوم مقامها وأما الميسر فهو القمار قال فأي شيء من الخمر احسن قالت ما كان بعد ثمانين يوما أو أكثر وقد اعتصر من عنب ابيض ولم يشبه ماء ولا شيء على وجه الارض مثلها قال فما تقولين في الحجامة قالت ذلك لمن كان ممتلئا من الدم وليس فيه نقصان في دمه فمن أراد الحجامة فليحتجم في نقصان الهلال في يوم هو بلا غيم ولا ريح ولا مطر ويكون في السابع عشر من الشهر وان وافق يوم الثلاثاء كان أبلغ في النفع ولا شيء أنفع من الحجامة للدماغ والعينين وتصفية الذهن وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٤١) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية لما وصفت منافع الحجامة قال لها الحكيم أخبريني عن أحسن الحجامة قالت أحسنها على الريق فانها تزيد في العقل وفي الحفظ لما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان ما اشتكى اليه احد وجعا في رأسه أو رجليه الا قال له احتجم واذا احتجم لا يأكل على الريق مالحا فانه يورث الجرب ولا يأكل على أثره حامضا قال فأي وقت تكره فيه الحجامه قالت يوم السبت والاربعاء ومن احتجم فيهما فلا يلومن الا نفسه ولا يحتجم في شدة الحر ولا في شدة البرد وخيار أيامه أيام الربيع قال أخبريني عن المجامعة فلما سمعت ذلك أطرقت وطأطأت رأسها واستحيت اجلالا لامير المؤمنين ثم قالت والله يا أمير المؤمنين ماعجزت بل خجلت وان جوابه على طرف لساني قال لها يا جارية تكلمي قالت له ان النكاح فيه فضائل مزيدة وأمور حميدة منها أنه يخفف البدن الممتلىء بالسوداء ويسكن حرارة العشق ويجلب المحبة ويبسط القلب ويقطع الوحشة والاكثار منه في أيام الصيف والخريف أشد ضررا منه في أيام الشتاء والربيع

قال فاخبرني عن منافعه قالت انه يزيل الهم والوسواس و يسكن العشق والغضب و ينفع القروح هذا اذا كان الغالب على الطبع والبرودة واليبوسية والا فالاكثار منه يضعف النظر و يتولد منه وجع الساقين والرأس والظهر واياك اياك من مجامعة العجوز فانها من القواتل قال الامام على كرم الله وجهه أربع يقتلن و يهرمن البدن دخول الحمام على الشبع وأكل المالح والمجامعة على الامتلاء ومجامعة المريضة فانها تضعف قوتك وتسقم بدنك والعجوز سم قاتل قال بعضهم اياك أن تتزوج عجوزا ولو كانت أكثر من قارون كنوزا قال فما أطيب الجماع قالت اذا كانت المرأة صغيرة السن مليحة القد حسنة الخد كريمة الجد بارزة النهد فهي تزيد قوة في صحة بدنك وتكون كما قال فيها بعض واصفيها

مهما لحظت علمت ماذا تبتغي وحيا بدون اشارة وبيان

واذا نظرت الى بديع جمالها أغنت محاسنها عن البستان

قال فاخبرني عن أي وقت يطيب فيه الجماع قالت اذا كان ليلا فبعد هضم الطعام واذا كان نهارا فبعد الغداء قال فاخبرني عن أفضل الفواكه قالت الرمان والاترج قال فأخبرني عن افضل البقول قالت الهندباء قال فما أفضل الرياحين قالت الورد والبنفسج قال فأخبرني عن قرار مني الرجل قالت ان في الرجل عرقا يسقي سائر العروق فيجتمع الماء من ثلثمائة وستين عرقا ثم يدخل في البيضة اليسري دما أحمر فينطبخ من حرارة مزاج بني آدم ماء غليظا أبيض رائحته مثل رائحة الطلع قال أحسنت فأخبرني عن طير يمني و يحيض قالت هو الخفاش أي الوطواط قال فأخبرني عن شيء اذا حبس عاش واذا شم الهواء مات قالت هو السمك قال فأخبرني عن شجاع يبيض قالت الثعبان فعجز الطبيب من كثرة سؤاله وسكت فقالت الجارية يا أمير المؤمنين انه سألني حتى عيي وأنا اسأله مسألة واحدة فان لم يجب أخذت ثيابه حلالا لي وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٤٣) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية لما قالت لامير المؤمنين انه سألني حتى عيي وأنا أسأله مسألة واحدة فان لم يجب أخذت ثيابه حلالا لي قال لها الخليفة سليه فقالت له ما تقول في شيء يشبه الارض استدارة و يواري عن العيون فقاره قليل القيمة والقدر ضيق الصدر والنحر مقيد وهو غير آبق موثق وهو غير سارق مطعون لا في القتال مجروح لا في النضال يأكل الدهر مره ويشرب الماء من كثره وتارة يضرب من غير جناية و يستخدم لا من كفاية مجموع بعد تفرقه متواضع لا من تملقه حامل لا لولد في بطنه مائل لا يستند الى ركنه يتسخ فيتطهر ويصلى فيتغير يجامع بلا ذكر و يصارع بلا حذر يريح ويستريح و يعد فلا يصيح أكرم من النديم وأبعد من الحميم يفارق زوجته ليلا و يعانقها نهارا مسكنه الاطراف في مساكن الاشراف فسكت الطبيب ولم يجب بشيء وتحير في أمره وتغير لونه وأطرق برأسه ساعة ولم يتكلم فقالت أيها الطبيب تكلم والا فانزع ثيابك فقام وقال يا أمير المؤمنين اشهد على أن هذه الجارية أعلم مني بالطب وغيره ولا لي طاقة ونزع ما عليه من الثياب وخرج هاربا فعند ذلك قال لها أمير المؤمنين

الاحرام والوقوف بعرفة والطواف والسعي والحلق والتقصير قال فما فروض العمرة قالت الاحرام بها وطوافها وسعيها قال فما فروض الاحرام قالت التجرد من المخيط واجتناب الطيب وترك حلق الرأس وتقليم الاظافر وقتل الصيد والنكاح قال فما سنن الحج قالت التلبية وطواف القدوم والوداع والمبيت بالمزدلفة وبمنى ورمي الجمار قال احسنت فما الجهاد وما اركانه قالت أما اركانه فخروج الكفار علينا ووجود الامام والعدة والثبات عند لقاء العدو وأما سننه فهو التحريض على القتال لقوله تعالى يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال قال أحسنت فاخبريني عن فروض البيع وسننه قالت أما فروض البيع فالايجاب والقبول وان يكون المبيع مملوكا منتفعا به مقدورا على تسليمه وترك الربا واما سننه فالاقالة والخيار قبل التفرق لقوله ﷺ البيعان بالخيار مالم يتفرقا قال أحسنت فاخبريني عن شيء لا يجوز بيع بعضه ببعض قالت حفظت في ذلك حديثا صحيحا عن نافع عن رسول الله ﷺ انه نهى عن بيع التمر بالرطب والتين باليابس والقديد باللحم والزبد بالسمن وكل ما كان من صنف واحد مأكول فلا يجوز بيع بعضه ببعض فلما سمع الفقيه كلامها وعرف انها زكية فطنة حاذقة عالمة بالفقه والحديث والتفسير وغير ذلك قال في نفسه لا بد من ان أتحيل عليها حتى اغلبها في مجلس أمير المؤمنين فقال لها يا جارية ما معنى الوضوء في اللغة قالت الوضوء في اللغة النظافة والخلوص من الادناس قال فما معنى الصلاة في اللغة قالت الدعاء بخير قال فما معنى الغسل في اللغة قالت التطهير قال فما معنى الصوم في اللغة قالت الامساك قال فما معنى الزكاة لغة قالت الزيادة قال فما معنى الحج في اللغة قالت القصد قال فما معنى الجهاد في اللغة قالت الدفاع فانقطعت حجة الفقيه وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٣١) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان الفقيه لما انقطعت حجته قام على قدميه وقال اشهد الله يا أمير المؤمنين بان الجارية اعلم مني في الفقه فقالت له الجارية اسألك عن شيء فأتني بجوابه سريعا ان كنت عارفا قال اسألي قالت فما سهام الدين قال هي عشرة الاولى الشهادة وهي الملة الثاني الصلاة وهي الفطرة الثالث الزكاة وهي الطهارة الرابع الصوم وهي الجنة الخامس الحج وهي الشريعة السادس الجهاد وهي الكفاية السابع والثامن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما الغيرة التاسع الجماعة وهي الالفة العاشر طلب العلم وهي الطريق الجيدة قالت أحسنت وقد بقيت عليك مسئلة فما أصول الاسلام قال هي أربعة صحة العقد وصدق القصد وحفظ الحد والوفاء بالعهد قالت بقي مسئلة أخرى فان أجبت والا أخذت ثيابك قال قولي يا جارية قالت فما فروع الاسلام فسكت ساعة ولم يجب بشيء فقالت انزع ثيابك وأنا أفسرها لك قال أمير المؤمنين فسريها وأنا انزع لك ما عليه من الثياب قالت هي اثنى وعشرون فرعا التمسك بكتاب الله تعالى والاقتداء برسوله ﷺ وكف الاذى واكل الحلال واجتناب الحرام ورد المظالم الى أهلها والتوبة والفقه في الدين وحب الخليل واتباع التنزيل وتصديق المرسلين وخوف التبديل والتأهب للرحيل وقوة اليقين والعفو عند القدرة والقوة عند الضعف والصبر عند المصيبة ومعرفة الله تعالى ومعرفة ماجاء به نبيه ﷺ

ومخالفة اللعين ابليس ومجاهدة النفس ومخالفتها والاخلاص لله فلما سمع امير المؤمنين ذلك منها أمر أن تنزع ثياب الفقيه وطيلسانه فنزعهما ذلك الفقيه وخرج مقهورا منها خجلا من بين يدي أمير المؤمنين ثم قام لها رجل آخر وقال ياجارية اسمعي مني مسائل قليلة قالت له قل قال فما شرط صحة المسلم قالت القدر المعلوم والجنس المعلوم والاجل المعلوم قال أحسنت فما فروض الاكل وسننه قالت فروض الاكل الاعتراف بان الله تعالى رزقه واطعمه وسقاه والشكر لله تعالى على ذلك قال فما الشكر قالت صرف العبد لجميع ماأنعم الله به عليه فيما خلق لاجله قال فما سنن الاكل قالت التسمية وغسل اليدين والجلوس على الورك الايسر والاكل بثلاث أصابع والاكل مما يليك قال احسنت فاخبريني ما آداب الاكل قالت ان تصغر اللقمة وتقل النظر الى جليسك قال احسنت وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٣٢) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان الجارية لما سئلت عن آداب الاكل وذكرت الجواب قال لها الفقيه السائل احسنت فاخبريني عن عقائد القلب واضدادها قالت هن ثلاث واضدادها ثلاث الاولى اعتقاد الايمان وضدها مجانبة الكفر والثانية اعتقاد السنة وضدها مجانبة البدعة والثالثة اعتقاد الطاعة وضدها مجانبة المعصية قال أحسنت فاخبريني عن شروط الوضوء قالت الاسلام والتميز وطهور الماء وعدم المانع الحسي وعدم المانع الشرعي قال أحسنت فاخبريني عن الايمان قالت الايمان ينقسم الى تسعة أقسام ايمان بالمعبود وايمان بالعبودية وايمان بالخصوصية وايمان بالقبضتين وايمان بالناسخ وايمان بالمنسوخ وان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره قال أحسنت فاخبريني عن ثلاث تمنع ثلاثا قالت نعم روى عن سفيان الثوري انه قال ثلاث تذهب ثلاثا الاستخفاف بالصالحين يذهب الآخرة والاستخفاف بالملوك يذهب الروح والاستخفاف بالنفقة يذهب المال قال احسنت فاخبريني عن مفاتيح السموات وكم لها من باب قالت قال الله تعالى وفتحت السماء فكانت أبوابا وقال عليه الصلاة والسلام وليس يعلم عدة أبواب السماء الا الذي خلق السماء وما من أحد من بني آدم الا وله بابان في السماء باب ينزل منه رزقه وباب يصعد منه عمله ولا يغلق باب رزقه حتى ينقطع أجله ولا يغلق باب عمله حتى تصعد روحه قال احسنت فاخبريني عن شيء وعن نصف الشيء وعن لا شيء قالت الشيء هو المؤمن ونصف الشيء هو المنافق وان لا شيء هو الكافر قال أحسنت فاخبريني عن القلوب قالت قلب سليم وقلب سقيم وقلب منيب وقلب نذير وقلب منير فالقلب السليم هو قلب الخليل والقلب السقيم هو قلب الكافر والقلب المنيب هو قلب المتقين الخائفين والقلب النذير هو قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والقلب المنير هو قلب من يتبعه وقلوب العلماء ثلاثة قلب متعلق بالدنيا وقلب متعلق بالآخرة وقلب متعلق بمولاه وقيل ان القلوب ثلاثة قلب معلق وهو قلب الكافر وقلب معدوم وهو قلب المنافق وقلب ثابت وهو قلب المؤمن وقيل هي ثلاثة قلب مشروح بالنور والايمان وقلب مجروح من خوف الهجران وقلب خائف من الخذلان قال أحسنت وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٣٣) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان الجارية لما سألها الفقيه الثاني واجابته وقال لها احسنت قالت يا أمير المؤمنين انه قد سألني حتى عيي وانا اسأله مسئلتين فان أتى بجوابهما فذاك والا أخذت ثيابه وانصرف بسلام فقال لها الفقيه سليني عما شئت قالت فما تقول في الايمان قال الايمان اقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالجوارح وقال عليه الصلاة والسلام لا يكمل المرء في الايمان حتى يكمل فيه خمس خصال التوكل على الله والتفويض الى الله والتسليم لامر الله والرضا بقضاء الله وان تكون أموره لله فانه من أحب الله واعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان قالت فاخبرني عن فرض الفرض وعن فرض في ابتداء كل فرض وعن فرض يحتاج اليه كل فرض وعن فرض يستغرق كل فرض وعن سنة داخلة في الفرض وعن سنة يتم بها الفرض فسكت ولم يجب بشيء فامرها أمير المؤمنين بان تفسرها وأمره بان ينزع ثيابه ويعطيها اياها فعند ذلك قالت يا فقيه أما فرض الفرض فمعرفة الله تعالى واما الفرض الذي في ابتداء كل فرض فهي شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وأما الفرض الذي يحتاج اليه كل فرض فهو الوضوء واما الفرض المستغرق كل فرض فهو الغسل من الجنابة وأما السنة الداخلة في الفرض فهي تخليل الاصابع وتخليل اللحية الكثيفة وأما السنة التي يتم بها الفرض فهو الاختتان فعند ذلك تبين عجز الفقيه وقام على قدميه وقال اشهد الله يا أمير المؤمنين ان هذه الجارية اعلم مني بالفقه وغيره ثم نزع ثيابه وانصرف مقهورا (وأما) حكايتها مع المقرىء فانها التفتت الى من بقي من العلماء الحاضرين وقالت ايكم الاستاذ المقرىء العالم بالقرآن السبع والنحو واللغة فقام اليها المقرىء وجلس بين يديها وقال لها هل قرأت كتاب الله تعالى واحكمت معرفة آياته وناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومكيه ومدنيه وفهمت تفسيره وعرفتيه على الروايات والاصول في القرآن قالت نعم قال اخبريني عن عدد سور القرآن وكم فيه من عشر وكم فيه من آية وكم فيه من حرف وكم فيه من سجدة وكم فيه من نبي مذكور وكم فيه من سورة مدنية وكم فيه من سورة مكية وكم فيه من طير قالت يا سيدي أما سور القرآن فمائة وأربع عشرة سورة المكي منها سبعون سورة والمدني أربع وأربعون سورة وأما أعشاره فستمائة عشر واحد وعشرون عشرا وأما الآيات فستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية وأما كلماته فتسعة وسبعون الف كلمة وأما حروفه فثلثمائة الف وثلاثة وعشرون الفا وستمائة وسبعون حرفا وللقارىء بكل حرف عشر حسنات وأما السجدات فاربع عشرة سجدة وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٣٤) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان الجارية لما سألها المقرىء عن القرآن أجابته وقالت له وأما الانبياء الذين ذكرت أسماؤهم في القرآن فخمسة وعشرون نبيا وهم آدم ونوح وابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف واليسع ويونس ولوط وصالح وهود وشعيب وداود وسليمان وذو الكفل وادريس والياس ويحيى وزكريا وأيوب وموسى وهرون وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين وأما الطير فهي تسع قال ما اسمهن قالت البعوض والنحل والذباب والنمل والهدهد والغراب والجراد والابابيل وطير عيسى عليه السلام وهو الخفاش قال احسنت فاخبريني

أي سورة في القرآن أفضل قالت سورة البقرة قال فاي آية أعظم قالت آية الكرسي وهي خمسون كلمة مع كل كلمة خمسون بركة قال فاي آية فيها تسع آيات قالت قوله تعالى (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس) الى آخر الآية قال احسنت فاخبريني أي آية أعدل قالت قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي قال فاي آية أطمع قالت قوله تعالى ايطمع كل امرىء منهم ان يدخل جنة نعيم قال فاي آية أرجى قالت قوله تعالى قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم قال أحسنت فاخبريني باى قراءة تقرئين قالت بقراءة أهل الجنة وهي قراءة نافع قال فاى آية كذب فيها الانبياء قالت قوله تعالى وجاؤا على قميصه بدم كذب وهم اخوة يوسف قال فاخبريني اى آية صدق فيها الكفار قالت قوله تعالى وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب فهم صدقوا جميعا قال آية قالها الله لنفسه قالت قوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون قال فاى آية فيها قول الملائكة قالت قوله تعالى ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال فاخبريني عن أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وما جاء فيها قالت التعوذ واجب امر الله به عند القراءة والدليل عليه قوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم قال فاخبريني ما لفظ الاستعاذة وما الخلاف فيها قالت منهم من يستعيذ بقوله اعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ومنهم من يقول اعوذ بالله القوى والاحسن ما نطق به القرآن العظيم ووردت به السنة وكان ﷺ اذا استفتح القرآن قال اعوذ بالله من الشيطان الرجيم وروى من نافع عن أبيه قال كان رسول الله ﷺ اذا قام يصلي في الليل قال الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثم يقول اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ومن همزات الشياطين ونزغاتهم وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال قال أول ما نزل جبريل على النبي ﷺ علمه الاستعاذة وقال له قل يامحمد أعوذ بالله السميع العليم ثم قل بسم الله الرحمن الرحيم ثم اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق فلما سمع المقرى كلامها تعجب من لفظها وفصاحتها وعلمها وفضلها ثم قال لها ياجارية ما تقولين في قوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم هل هي آية من آيات القرآن قالت نعم آية من القرآن في النمل وآية بين كل سورتين والاختلاف في ذلك بين العلماء كثير قال أحسنت وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٢٥) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان الجارية لما أجابت المقرى وقالت ان بسم الله الرحمن الرحيم فيها اختلاف كثير بين العلماء قال أحسنت فاخبريني لم لا تكتب بسم الله الرحمن الرحيم في أول سورة براءة قالت لما نزلت سورة براءة بنقض العهد الذي كان بينه ﷺ وبين المشركين وجه لهم النبي ﷺ على ابن أبي طالب كرم الله وجهه في يوم موسم بسورة براءة فقرأها عليهم ولم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم قال فاخبريني عن فضل بسم الله الرحمن الرحيم وبركتها قالت روى عن النبي ﷺ انه قال ما قرئت بسم الله الرحمن الرحيم على شيء الا كان فيه البركة وعنه ﷺ حلف رب العزة

بعزته لا تسمى بسم الله الرحمن الرحيم على مريض الا عوفي من مرضه وقيل لما خلق الله العرش اضطرب اضطرابا عظيما فكتب عليه بسم الله الرحمن الرحيم فسكن اضطرابه ولما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم على رسول الله ﷺ قال أمنت من ثلاثة من الخسف والمسخ والغرق وفضلها عظيم وبركتها كثيرة يطول شرحها وقد روى عن رسول الله ﷺ انه قال يؤتى برجل يوم القيامة فيحاسب فلا يلقى له حسنة فيؤمر به الى النار فيقول الهى ما انصفتنى فيقول الله عز وجل ولم ذلك فيقول يارب لانك سميت نفسك الرحمن الرحيم وتريد أن تعذبنى بالنار فقال الله جل جلاله أنا سميت نفسى الرحمن الرحيم امضوا بعبدى لى الجنة برحمتى وأنا أرحم الراحمين قال احسنت فاخبرينى عن أول بدء بسم الله الرحمن الرحيم قالت لما انزل الله تعالى القرآن كتبوا باسمك اللهم فلما أنزل الله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى كتبوا بسم الله الرحمن الرحيم فلما نزل والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم كتبوا بسم الله الرحمن الرحيم فلما سمع المقرى كلامها اطرق وقال فى نفسه ان هذا العجب عجيب وكيف تكلمت هذه الجارية فى أول بدء بسم الله الرحمن الرحيم والله لا بد من أن أحيل عليها لعلى أغلبها ثم قال لها ياجارية هل انزل الله القرآن جملة واحدة أو انزله متفرقا قالت نزل به جبريل الامين عليه السلام من عند رب العالمين على نبيه محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين بالامر والنهى والوعد والوعيد والاخبار والامثال فى عشرين سنة آيات متفرقات على حسب الوقائع قال أحسنت فاخبرينى عن أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ قالت فى قول ابن عباس سورة العلق وفى قول جابر بن عبد الله سورة المدثر ثم انزلت السور والآيات بعد ذلك قال فاخبرينى عن اخر آية نزلت قالت آخر آية نزلت عليه هى اية الربا وقيل اذا جاء نصر الله والفتح . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٤٣٦) قالت بلغنى ايها الملك السعيد ان الجارية لما أجابت المقرى عن آخر آية نزلت فى القرآن قال لها أحسنت فاخبرينى عن عدة الصحابة الذين جمعوا القرآن على عهد رسول ﷺ قالت هم أربعة أبى بن كعب وزيد بن ثابت وابو عبيدة عامر بن الجراح وعثمان بن عفان رضى الله عنهم أجمعين قال احسنت فاخبرينى عن القراء الذين تؤخذ عنهم القرآت قالت هم أربعة عبد الله ابن مسعود وابي كعب ومعاذ بن جبل وسالم ابن عبد الله قال فما تقولين فى قوله تعالى وماذبح على النصب قالت هى الاصنام التى تنصب وتعبد من دون الله والعياذ بالله تعالى قال فما تقولين في قوله تعالى تعلم ما فى نفسى ولا اعلم ما فى نفسك قالت تعلم حقيقتى وما عندى ولا اعلم ما عندك والدليل على هذا قوله تعالى انك انت علام الغيوب وقيل تعلم عينى ولا أعلم عينك قال فما تقولين فى قوله تعالى يا أيها الذين امنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم قالت حدثنى الشيخ رحمه الله تعالى عن الضحاك انه قال هم قوم من المسلمين قالوا نقطع مذاكيرنا ونلبس المسوح فنزلت هذه الآية وقال قتادة انها نزلت في جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ وهم على بن أبى طالب وعثمان ابن مصعب وغيرهما وقالوا نخصى أنفسنا ونلبس الشعر ونترهب فنزلت هذه الآية قال فما تقولين فى قوله تعالى واتخذ الله ابراهيم

ووضعت حملها وجاءت بذكر كأنه فلقة قمر فأوفى بالنذر وشكر الله عز وجل وصدق وكسا الارامل والايتام وليلة سابع الولادة سماه بأبي الحسن فرضعته المراضع وحضنته الحواضن وحملته المماليك والخدم الى ان كبر ونشا وترعرع وانتشى وتعلم القرآن العظيم وفرائض الاسلام وامور الدين القويم والخط والشعر والحساب والرمي بالنشاب فكان فريد دهره وأحسن أهل زمانه وعصره ذا وجه مليح ولسان فصيح يتهادى تمايلا واعتدالا ويترامى تدللا واختيالا بخد احمر وجبين أزهر وعذار أخضر كما قال فيه بعض واصفيه

بدا ربيع العذار للحدق والورد بعد الربيع كيف بقى
اما ترى النبت فوق عارضه بنفسجا طالعا من الورق

فاقام مع أبيه برهة من الزمن في أحسن حال وابوه به فرح مسرور والى أن بلغ مبالغ الرجال فأجلسه أبوه بين يديه يوما من الايام وقال له ياولدي انه قد قرب الاجل وحانت وفاتي ولم يبق غير لقاء الله عز وجل وقد خلفت لك ما يكفيك الى ولد الولد من المال المتين والضياع والاملاك والبساتين فاتق الله تعالى ياولدي فيما خلفته لك ولا تتبع الا من رفدك فلم يكن الا قليل حتى مرض الرجل ومات فجهزه ولده أحسن تجهيز ودفنه ورجع الى منزله وقعد للعزاء أياما وليالي واذا باصحابه قد دخلوا عليه وقالوا له من خلف مثلك ما مات وكل ما فات فقد فات وما يصلح العزاء الا للبنات والنساء المخدرات ولم يزالوا به حتى دخل الحمام ودخلوا عليه وفكوا حزنه وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٤٢٥) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن أبا الحسن ابن الخواجا لما دخل عليه أصحابه الحمام وفكوا حزنه نسي وصية أبيه وذهل لكثرة المال وظن أن الدهر يبقى معه على حال وأن المال ليس له زوال فأكل وشرب ولذ وطرب وخلع ووهب وجاد بالذهب ولازم أكل الدجاج وفض ختام الزجاج وقهقهة القناني واستماع الاغاني ولم يزل على هذا الحال الى أن نفد المال وقعد الحال وذهب ما كان لديه وسقط في يديه ولم يبق له بعد أن أتلف ما أتلف غير وصيفة خلفها له والده من جملة ما خلف وكانت الوصيفة هذه ليس لها نظير في الحسن والجمال والبهاء والكمال والقد والاعتدال وهي ذات فنون وآداب وفضائل تستطاب قد فاقت أهل عصرها وأوانها وصارت أشهر من علم في افتنانها وزادت على الملاح بالعلم والعمل والتثني والميل مع كونها خماسية القد مقارنة للسعد بجبينين كأنهما هلال شعبان وحاجبين أزجين وعيون كعيون غزلان وأنف كحد الحسام وخد كأنه شقائق النعمان وفم كخاتم سليمان واسنان كأنها عقود الجمان وسرة تسع أوقية دهن بان وخصر انحل من جسم من اضناه الهوى واسقمه الكتمان وردف أثقل من الكثبان وبالجملة فهي في الحسن والجمال جديرة بقول من قال

ان اقبلت فتنت بحسن قوامها أو أدبرت قتلت بصد فراقها
شمسية بدرية غصنية ليس الجفا والبعد من أخلاقها
جنات عدن تحت جيب قميصها والبدر في فلك على أطواقها

تسلب من يراها بحسن جمالها وبريق ابتسامها وترميه من عيونها بنبل سهامها وهي مع هذا كله

فصيحة الكلام حسنة النظام فلما انفد جميع ماله و تبين سوء حاله ولم يبق معه غير هذه الجارية أقام ثلاثة أيام وهو لم يذق طعم طعام ولم يسترح فى منام فقالت له الجارية ياسيدى احملنى الى أمير المؤمنين هرون الرشيد وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٤٣٦) قالت بلغنى أيها الملك السعيد أن الجارية قالت لسيدها ياسيدي احملنى الى هرون الرشيد الخامس من بنى العباس واطلب ثمنى منه عشرة آلاف دينار فان استغلانى فقل له ياأمير المؤمنين وصيفتى أكثر من ذلك فاختبرها يعظم قدرها فى عينك لان هذه الجارية ليس لها نظير ولا تصلح الا لمثلك ثم قالت له اياك أن تبيعنى بدون ماقلت لك من الثمن فانه قليل في مثلى وكان سيد الجارية لا يعلم قدرها ولا يعرف أنها ليس لها نظير فى زمانها ثم انه حملها الى أمير المؤمنين هرون الرشيد وقدمها له وذكر ماقالت فقال لها الخليفة ما اسمك قالت اسمي تودد قال ياتودد ماتحسنين من العلوم قالت ياسيد انى أعرف النحو والشعر والفقه والتفسير واللغة وأعرف فن الموسيقى وعلم الفرائض والحساب والقسمة والمساحة وأساطير الاولين وأعرف القرآن العظيم وقد قرأته بالسبع والعشر وبالاربع عشرة وأعرف عدد سوره وآياته وأحزابه وأنصافه وأرباعه وأثمانه وأعشاره وسجداته وعدد أحرفه وأعرف مافيه من الناسخ والمنسوخ والمدنية والمكية وأسباب التنزيل وأعرف الحديث الشريف دراية ورواية المسند منه والمرسل ونظرت فى علوم الرياضة والهندسة والفلسفة وعلم الحكمة والمنطق والمعانى والبيان وحفظت كثيرا من العلم وتعلقت بالشعر وضربت العود وعرفت مواضع النغم فيه ومواقع حركات أوتاره وسكناتها فان غنيت ورقصت فتنت وان تزينت وتطيبت قتلت وبالجملة فانى وصلت الى شيء لم يعرفه الا الراسخون فى العلم فلما سمع الخليفة هرون الرشيد كلامها على صغر سنها تعجب من فصاحة لسانها والتفت الى مولاها وقال انى أحضر من يناظرها فى جميع ماادعته فان أجابت دفعت لك ثمنها وزيادة وان لم تجب فانت أولى بها فقال مولاها ياأمير المؤمنين حبا وكرامة فكتب أمير المؤمنين الى عامل البصرة بان يرسل اليه ابراهيم بن سيار النظام وكان أعظم أهل زمانه فى الحجة والبلاغة والشعر والمنطق وأمره ان يحضر القراء والعلماء والاطباء والمنجمين والحكماء والمهندسين والفلاسفه وكان ابراهيم أعلم من الجميع فما كان الا قليل حتى حضروا دار الخلافة وهم لا يعلمون الخبر فدعاهم أمير المؤمنين الى مجلسه وأمرهم بالجلوس فجلسوا ثم أمر أن تحضر الجارية تودد فحضرت وأظهرت نفسها وهى كأنها كوكب درى فوضع لها كرسى من ذهب فسلمت ونطقت بفصاحة لسان وقالت ياأمير المؤمنين مر من حضر من العلماء والقراء والاطباء والمنجمين والحكماء والمهندسين والفلاسفة أن يناظرونى فقال لهم أمير المؤمنين أريد منكم أن تناظروا هذه الجارية فى أمر دينها وأن تدحضوا حجتها فى كل ماادعته فقالوا السمع والطاعة لله ولك ياأمير المؤمنين فعند ذلك أطرقت الجارية برأسها الى الارض وقالت أيكم الفقيه العالم المقرى المحدث فقال أحدهم أنا ذلك الرجل الذى طلبت قالت له اسأل عما شئت قال لها أنت قرأت كتاب الله العزيز وعرفت ناسخه ومنسوخه وتدبرت آياته وحروفه قالت نعم فقال

لها أسألك عن الفرائض الواجبة والسنن القائمة فاخبريني أيتها الجارية عن ذلك ومن ربك ومن نبيك ومن امامك وماقبلتك وما اخوانك وماطريقتك ومامنهاجك قالت الله ربي ومحمد ﷺ نبي والقرآن امامي والكعبة قبلتي والمؤمنون اخواني والخير طريقتي والسنة منهاجي فتعجب الخليفة من قولها ومن فصاحة لسانها على صغر سنها ثم قال لها أيتها الجارية أخبريني بماعرفت الله تعالى قالت بالعقل قال وما العقل قالت العقل عقلان عقل موهوب وعقل مكسوب وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٢٧) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية قالت العقل عقلان موهوب ومكسوب فالعقل الموهوب هو الذي خلقه الله عز وجل يهدي به من يشاء من عباده والعقل المكسوب هو الذي يكسبه المرء بتأدبه وحسن معرفته فقال لها أحسنت ثم قال أين يكون العقل قالت يقذفه الله في القلب فيصعد شعاعه في الدماغ حتى يستقر قال لها أحسنت ثم قال أخبريني بم عرفت النبي ﷺ قالت بقراءة كتاب الله تعالى و بالآيات والدلالات والبراهين والمعجزات قال أحسنت فاخبريني عن الفرائض الواجبة والسنن القائمة قالت أما الفرائض الواجبة فخمس شهادة أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام من استطاع اليه سبيلا وأما السنن القائمة فهي أربع الليل والنهار والشمس والقمر وهن يبنين العمر والأمل وليس يعلم ابن آدم أنهن يهدمن الاجل قال احسنت فاخبريني ما شعائر الايمان قالت شعائر الايمان الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد واجتناب الحرام قال احسنت فاخبريني بأي شيء تقومين الى الصلاة قالت بنية العبودية مقرة بالربوبية قال فاخبريني كم فرض الله عليك قبل قيامك الى الصلاة قالت الطهارة وستر العورة واجتناب الثياب المتنجسة والوقوف على مكان طاهر والتوجه للقبلة والقيام والنية وتكبيرة الاحرام قال أحسنت فاخبريني بم تخرجين من بيتك الى الصلاة قالت بنية العبادة قال فبأي نية تدخلين المسجد قالت بنية الخدمة قال فبماذا تستقبلين القبلة قالت بثلاث فرائض وسنة قالت احسنت فاخبريني ما مبدأ الصلاة وما تحليلها وما تحريمها قالت مبدأ الصلاة الطهور وتحريمها تكبيرة الاحرام وتحليلها السلام من الصلاة قال فماذا يجب على من تركها قالت روي في الصحيح من ترك الصلاة عامدا متعمدا من غير عذر فلا حظ له في الاسلام وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٢٨) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان الجارية لما ذكرت الحديث الشريف قال لها الفقيه أحسنت فأخبريني عن الصلاة ماهي قالت الصلاة صلة بين العبد وربه وفيها عشر خصال تنور القلب وتضيء الوجه وترضي الرحمن وتغضب الشيطان وتدفع البلاء وتكفي شر الاعداء وتكثر الرحمة وتدفع النقمة وتقرب العبد من مولاه وتنهى عن الفحشاء والمنكر وهي من الواجبات المفروضات المكتوبات وهي عماد الدين قال أحسنت فاخبريني ما مفتاح الصلاة قالت الوضوء قال فما مفتاح الوضوء قالت التسمية قال فما مفتاح التسمية قالت اليقين قال فما مفتاح اليقين قالت

التوكل قال فما مفتاح التوكل قالت الرجاء قال فما مفتاح الرجاء قالت الطاعة قال فما مفتاح الطاعة قالت الاعتراف لله تعالى بالوحدانية والاقرار له بالربوبية قال احسنت فاخبريني عن فروض الوضوء قالت ستة أشياء على مذهب الامام الشافعي محمد بن ادريس رضى الله تعالى عنه النية عند غسل الوجه وغسل اليدين مع المرفقين ومسح بعض الرأس وغسل الرجلين مع الكعبين والترتيب وسنته عشرة أشياء التسمية وغسل الكفين قبل ادخالهما الاناء والمضمضة والاستنشاق ومسح بعض الرأس ومسح الاذنين ظاهرهما وباطنهما بماء جديد وتخليل اللحية الكثة وتخليل أصابع اليدين والرجلين وتقديم اليمنى على اليسرى والطهارة ثلاثا ثلاثا والموالاة فاذا فرغ من الوضوء قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين سبحانك اللهم وبحمدك اشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب اليك فقد جاء فى الحديث الشريف عن النبي ﷺ أنه قال من قالها عقب كل وضوء فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء قال احسنت فاذا أراد الانسان الوضوء ماذا يكون عنده من الملائكة والشياطين قالت اذا تهيأ الانسان للوضوء أتت الملائكة عن يمينه والشياطين عن شماله فاذا ذكر الله تعالى فى ابتداء الوضوء فرت منه الشاطين واستولت عليه الملائكة بخيمة من نور لها أربعة اطناب مع كل طنب ملك يسبح الله تعالى ويستغفر له مادام فى انصات أوذكر فان لم يذكر الله عز وجل عند ابتداء الوضوء ولم ينصت استولت عليه الشياطين وانصرفت عنه الملائكة ووسوس له الشيطان حتى يدخل عليه الشك والنقص فى وضوئه فقد قال عليه الصلاة والسلام الوضوء الصالح يطرد الشيطان ويؤمن من جور السلطان وقال أيضا من نزلت عليه بلية وهو على غير وضوء فلا يلومن الا نفسه قال أحسنت فأخبريني عما يفعل الشخص اذا استيقظ من منامه قالت اذا استيقظ الشخص من منامه فليغسل يديه ثلاثا قبل ادخالهما الاناء قال أحسنت فاخبريني عن فروض الغسل وعن سننه قالت فروض الغسل النية وتعميم البدن بالماء أى ايصال الماء الى جميع الشعر والبشرة وأما سننه فالوضوء قبله والتدليك وتخليل الشعر وتأخير غسل الرجلين فى قول الى آخر الغسل قال أحسنت وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٤٢٩) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان الجارية لما اخبرت الفقيه عن فروض الغسل وسننه قال أحسنت فاخبريني عن اسباب التيمم وفروضه وسننه قالت أما اسبابه فسبعه فقد الماء والخوف والحاجة اليه واضلاله فى رحله والمرض والجبيرة والجراح وأما فروضه فأربعة النية والتراب وضربة للوجه وضربة لليدين واما سننه فالتسمية وتقديم اليمنى على اليسرى قال احسنت فأخبريني عن شروط الصلاة وعن اركانها وعن سننها قالت أما شروطها فخمسة اشياء طهارة الاعضاء وستر العورة ودخول الوقت يقينا أوظنا واستقبال القبلة والوقوف على مكان طاهر وأما اركانها فالنية وتكبيرة الاحرام والقيام مع القدرة وقراءة الفاتحة وبسم الله الرحمن الرحيم آية منها على مذهب الامام الشافعي والركوع والطمأنينة فيه والاعتدال والطمأنينة فيه والسجود والطمأنينة فيه

والجلوس بين السجدتين والطمانينة فيه والتشهد الاخير والجلوس له والصلاة على النبي ﷺ فيه والتسليمة الاولى ونية الخروج من الصلاة فى قول وأما سننها فالاذان والاقامة ورفع اليدين عند الاحرام ودعاء الافتتاح والتعوذ والتامين وقراءة السورة بعد الفاتحة والتكبيرات عند الانتقالات وقول سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد والجهر في موضعه والاسرار فى موضعه والتشهد الاولى والجلوس له والصلاة على النبي ﷺ فيه والصلاة على الآل فى التشهد الاخير والتسليمة الثانية قال احسنت فاخبريني فيماذا تجب الزكاة قالت تجب فى الذهب والفضة والابل والبقر والغنم والحنطة والشعير والدخن والذرة والفول والحمص والارز والزبيب والتمر قال أحسنت فاخبريني في كم تجب الزكاة فى الذهب قالت لازكاة فيمادون عشرين مثقالا فاذا بلغت العشرين ففيها نصف مثقال ومازاد فبحسابه قال فاخبريني فى كم تجب الزكاة في الورق قالت ليس فيمادون مائتى درهم زكاة فاذا بلغت المائتين ففيها خمسة دراهم ومازاد فبحسابه قال احسنت فاخبريني في كم تجب الزكاة فى الابل قالت فى كل خمس شاة الى خمس وعشرين ففيها بنت مخاض قال أحسنت فأخبريني في كم تجب الزكاة في الشاة قالت اذا بلغت أربعين ففيها شاة قال أحسنت فاخبريني عن الصوم وفروضه قالت أما فروض الصوم فالنية والامساك عن الاكل والشرب والجماع وتعمد القيء وهو واجب على كل مكلف خال عن الحيض والنفاس ويجب على رؤية الهلال أو باخبار عدل يقع فى قلب المخبر صدقه ومن واجباته تبييت النية وأما سننه فتعجيل الفطر وتاخير السحور وترك الكلام الافى الخير والذكر وتلاوة القرآن قال احسنت فاخبريني عن شيء لا يفسد الصوم قالت الادهان والاكتحال وغبار الطريق وابتلاع الريق وخروج المني بالاحتلام او النظر لامرأة اجنبية والفصادة والحجامة هذا كله لا يفسد الصوم قال احسنت فاخبريني عن صلاة العيدين قالت ركعتان وهما سنة من غير اذان واقامة ولكن يقول الصلاة جامعة ويكبر فى الاولى سبعا سوى تكبيرة الاحرام وفى الثانية خمسا سوى تكبيرة القيام على مذهب الامام الشافعي رحمه الله تعالى وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٣٠) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان الجارية لما أخبرت الفقيه عن صلاة العيدين قال لها احسنت فأخبريني عن صلاة كسوف الشمس وخسوف القمر قالت ركعتان بغير اذان ولا اقامة يأتى فى كل ركعة بقيامين وركوعين وسجودين ويجلس ويتشهد ويسلم ثم يخطب ويستغفر الله تعالى مكان التكبير فى خطبتي العيدين ويحول رداءه بأن يجعل أعلاه اسفله ويدعوا ويتضرع قال أحسنت فاخبريني عن صلاة الوتر قالت الوتر اقله ركعة واحدة واكثره احدى عشرة قال احسنت فاخبريني عن صلاة الضحى قالت صلاة الضحى اقلها ركعتان واكثرها اثنتى عشرة ركعة قال احسنت فاخبريني عن الاعتكاف قالت هو سنة قال فما شروطه قالت النية وان لا تخرج من المسجد الا لحاجة ولا يباشر النساء وان يصوم ويترك الكلام قال احسنت فأخبريني بماذا يجب الحج قالت بالبلوغ والعقل والاسلام والاستطاعة وهو واجب فى العمر مرة واحدة قبل الموت قال فما فروض الحج قالت

لكم ثم انه اخذني إلى قصر من الجوهر وقال لي إن هذا القصر لي ولك وانا لا أدخله إلا بك وبعد خمس ليال تكونين عندي فيه ان شاء الله تعالى ثم مد يده إلى شجرة على باب ذلك القصر فقطف منها تفاحتين واعطانيهما وقال كلي هذه واخفي الاخرى حتى يراها الرهبان فأكلت واحدة فما رايت اطيب منها وادرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤١٨) قالت بلغني ايها الملك السعيد ان الجارية قالت لما قطف التفاحتين لعطانيهما وقال كلي هذه واخفي الاخرى حتى يراها الرهبان فأكلت واحدة فارايت اطيب منها ثم اخذ بيدي وخرج بي حتى أوصلني إلى داري فلما استيقظت من منامي وجدت طعم التفاح في فمي والتفاحة الثانية عندي ثم اخرجت التفاحة فأشرقت في ظلام الليل كأنها كوكب دري فجاؤا بالمراة إلى الدير ومعها التفاحة فقصت علينا الرؤيا واخرجت لنا التفاحة فلم نر شيئا مثلها في سائر فواكه الدنيا فأخذت سكينا وشققتها على عدد اصحابي فارأينا الذمن طعمها ولا اطيب من ريحها فقلنا لعل هذا شيطان تمثل اليها ليغويها عن دينها فأخذها اهلها وانصرفوا ثم انها امتنعت عن الاكل والشرب فلما كانت الليلة الخامسة قامت من فراشها وخرجت من بيتها وتوجهت إلى قبر ذلك المسلم والقت نفسها عليه وماتت ولم يعلم بها أهلها فلما كان وقت الصباح اقبل على القرية شيخان مسلمان عليهما ثياب من الشعر ومعهما امراتان كذلك فقالا يا اهل القرية ان لله تعالى عندكم ولية من اوليائه قد ماتت مسلمة ونحن نتولاها دونكم فطلب اهل القرية تلك المراة فوجدوها على القبر ميتة فقالوا هذه صاحبتنا قد ماتت على ديننا ونحن نتولاها وقال الشيخان انها ماتت مسلمة ونحن نتولاها واشتد الخصام والنزاع بينهما فقال احد الشيخين ان علامة اسلامها ان يجتمع رهبان الدير الاربعون ويجذبوها عن القبر فان قدروا على حملها من الارض فهي نصرانية وان لم يقدروا على ذلك يتقدم واحد منا ويجذبها فان جاءت معه فهي مسلمة فرضي اهل القرية بذلك واجتمع الاربعون راهبا وقوى بعضهم بعضا واتوها ليحملوه، فلم يقدروا على ذلك وادرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤١٩) قالت بلغني ايها الملك السعيد ان الراهب عبد الله قال واتوها ليحملوها فلم يقدروا على ذلك فربطنا في وسطها حبلا عظيما وجذبناها فانقطع الحبل ولم تتحرك فتقدم اهل القرية وفعلوا كذلك فلم تتحرك من موضعها فلما عجزنا عن حملها بكل حيلة قلنا لاحد الشيخين تقدم أنت واحملها فتقدم اليها أحدهما ولفها في ردائه وقال بسم الله الرحمن الرحيم وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم حملها في حضنه وانصرف بها المسلمون إلى غار هناك فوضعوها فيه وجاءت المرأتان فغسلتاها وكفنتاها ثم حملها الشيخان وصليا عليها ودفناها إلى جانب قبره وانصرفوا ونحن نشاهد هذا كله فلما خلا بعضنا ببعض قلنا ان الحق أحق أن يتبع وقد وضح الحق لنا بالمشاهدة والعيان ولا برهان لنا على صحة الاسلام أوضح لنا مما رايناه بأعيننا ثم أسلمت وأسلم رهبان الدير جميعهم وكذلك أهل القرية ثم إنا بعثنا الى أهل الجزيرة نستدعي فقيها يعلمنا شرائع الاسلام وأحكام

الدين فجاءنا رجل فقيه صالح فعلمنا العبادة وأحكام الاسلام ونحن اليوم على خير كثير ولله الحمد والمنة

(ومما) يحكى أن بعض الفضلاء قال ما رأيت في النساء أذكى خاطرا وأحسن فطنة وأغزر علما وأجود قريحة وأظرف أخلاقا من امرأة واعظة من أهل بغداد يقال لها سيدة المشايخ اتفق أنها جاءت الى مدينة حماة سنة احدى وستين وخمسمائة فكانت تعظ الناس على الكرسي وعظا شافيا وكان يتردد على منزلها جماعة من المتفقهين وذوي المعارف والآداب يطارحونها مسائل الفقه ويناظرونها في الخلاف فمضيت اليها ومعي رفيق من أهل الادب فلما جلسنا عندها وضعت بين أيدينا طبقا من الفاكهة وجلست هي خلف ستر وكان لها أخ حسن الصورة قائما على رؤوسنا في الخدمة فلما أكلنا شرعنا في مطارحة الفقه فسألتها مسألة فقهية مشتملة على خلاف بين الائمة فشرعت تتكلم في جوابها وأنا أصغي اليها وجعل رفيقي ينظر الى وجه أخيها ويتأمل في محاسنه ولا يصغي اليها وهي تلحظه من وراء الستر فلما فرغت من كلامها التفتت اليه وقالت أظنك ممن يفضل الرجال على النساء قال أجل قالت ولم ذلك قال لان الله فضل الذكر على الانثى وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٩٢٠) قالت بلغني أيها الملك السعيد ان الشيخ أجابها بقوله لان الله فضل الذكر على الانثى وأنا أحب الفاضل واكره المفضول فضحكت ثم قالت أتنصفني في المناظرة ان ناظرتك في هذا المبحث قال نعم قالت فما الدليل على تفضيل الذكر على الانثى قال المنقول والمعقول أما المنقول فالكتاب والسنة أما الكتاب فقوله تعالى الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وقوله تعالى فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان وقوله تعالى في الميراث وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين فالله سبحانه وتعالى فضل الذكر على الانثى في هذه المواضع وأخبر أن الانثى على النصف من الذكر لانه أفضل منها وأما السنة فما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه جعل دية المرأة على النصف من دية الرجل وأما المعقول فان الذكر فاعل والانثى مفعول بها والفاعل أفضل من المفعول بها فقالت له أحسنت ياسيدي لكنك والله أظهرت حجتي عليك من لسانك ونطقت ببرهان هو عليك لا لك وذلك أن الله سبحانه وتعالى انما فضل الذكر على الانثى بمجرد وصف الذكورية وهذا لا نزاع فيه بيني وبينك وقد يستوى في هذا الوصف الطفل والغلام والشاب والكهل والشيخ لا فرق بينهم في ذلك واذا كانت الفضيلة انما حصلت له بوصف الذكورية فينبغي أن يميل طبعك وترتاح نفسك الى الشيخ كما ترتاح الى الغلام اذ لا فرق بينهما في الذكورية وانما وقع الخلاف بيني وبينك في الصفات المقصودة من حسن العشرة والاستمتاع وأنت لم تأت ببرهان على فضل الغلام على الانثى في ذلك فقال لها ياسيدتي أما علمت ما اختص به الغلام من اعتدال القد وتوريد الخد وملاحة الابتسام وعذوبة الكلام فالغلمان بهذا الاعتبار أفضل من النساء والدليل على ذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تدعوا النظر الى المرد فان فيهم لمحة من الحور العين وتفضيل

الغلام على الجارية لا يخفى على احد من الناس وما أحسن قول أبي نواس

أقل ما فيه من فضائله أمنك من طمثه ومن حبله

وقول الشاعر

قال الامام أبو نواس وهو في شرع الخلاعة والمجون يقلد
يا أمة تهوى العذار تمتعوا من لذة في الخلد ليست توجد

ولان الجارية اذا بالغ الواصف في وصفها وأراد تزويجها بذكر محاسن أوصافها شبهها بالغلام وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٢١) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن الشيخ قال ولأن الجارية اذا بالغ الواصف في وصفها واراد تزويجها بذكر محاسن أوصافها شبهها بالغلام لماله من المآثر كما قال الشاعر

غلامية الارداف تهتز في الصبا كما اهتز في ريح الشمال قضيب

فلولا ان الغلام أفضل وأحسن لما شبهت به الجارية واعلمي صانك الله تعالى ان الغلام سهل القياد موافق على المراد حسن العشرة والاخلاق مائل عن الخلاف للوفاق ولاسيما ان تنمنم عذاره واخضر شاربه وجرت حمرة الشبيبة في وجنته حتى صار كالبدر التمام وما أحسن قول ابي تمام

قال الوشاة بدا في الخد عارضه فقلت لا تكثروا ماذاك عائبه
لما استقل بارداف تجاذبه واخضر فوق جمان الدر شاربه
واقسم الورد ايمانا مغلظة أن لا يفارق خديه عجائبه
كلمته بجفون غير ناطقة فكان من رده ماقال حاجبه
الحسن منك على ما كنت تعهده والشعر احرزه ممن يطالبه
احلى وأحسن ما كانت شمائله اذا لاح عارضه واخضر شاربه
وصار من كان يلحى في محبته أن يحك عني وعنه قال صاحبه

فهذه فضيلة في الغلمان لم تعطها النساء وكفى بذلك للغلمان عليهن فخرا ومزية فقالت له عافاك الله تعالى انك قد شرطت على نفسك المناظرة وقد تكلمت وماقصرت واستدللت بهذه الادلة على ماذكرت ولكن الآن قد حصحص الحق فلا تعدل عن سبيله وان لم تقنع باجمال الدليل فانا آتيك بتفصيله بالله عليك أين الغلام من الفتاة ومن يقيس السخلة على المهاة انما الفتاة رخيمة الكلام حسنة القوام فهي كقضيب الريحان بثغر كالاقحوان وشعر كالارسوان وخد كشقائق النعمان ووجه كتفاح وشفة كالراح وثدي كالرمان ومعاطف كالاغصان وهي ذات قد معتدل وجسم متجدل وخد كحد السيف اللائح وجبين واضح وحاجبين مقرونين وعينين كحلاوين ان نطقت فاللؤلؤ الرطب يتناثر من فيها وتجذب القلوب برقة معانيها وان تبسمت ظننت البدر يتلألأ من بين شفتيها وان رنت فالسيوف تسل من مقلتيها اليها تنتهي المحاسن وعليها مدار الظاعن والقاطن ولها شفتان حمر وان ألين من الزبد وأحلى مذاقا من الشهد. وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٤٢٢) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان المرأة الواعظة لما وصفت الفتاة قالت ولها شفتان احمرا من المرجان من الزبد وأحلى مذاقا من الشهد ثم قالت بعد ذلك ولها صدر كجادة الفجاج فيه ثديان كأنهما حقان من عاج وبطن لطيف الكشح كالزهر الغض وعكن قد انعطفت وانطوى بعضها على بعض وفخذان ملتفان كأنهما من الدر عمودان وأرداف تموج كأنها بحر من بلور أو جبال من نور ولها قدمان لطيفان وكفان كأنهما سبائك العقبان فيا مسكين أين الانس من الجان ومن قال الدنيا عبارة عن النساء كان صادقا وأما ماذكرت من الحديث الشريف فهو حجة عليك لا لك لان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا تدعوا النظر الى المرد فان فيهم لمحة من الحور العين فشبه المرد بالحور العين ولا شك ان المشبه به أفضل من المشبه فلولا أن النساء أفضل واحسن لما شبه بهن غيرهن وأما قولك ان الجارية تشبه بالغلام فليس الامر كذلك بل الغلام يشبه بالجارية حتى قالوا انها تصلح للامرين جميعا عدولا منهم عن سلوك طريق الحق عند الناس كما قال كبيرهم ابو نواس

ممشوقة القصر غلامية تصلح للوطى والزانى

وأما ما ذكرته من حسن نبات العذار وخضار الشارب وان الغلام يزداد به حسنا وجمالا فوالله لقد عدلت عن الطريق وقلت غير التحقيق لان العذار يبدل حسنات الجمال بالسيئات ثم انشدت هذه الابيات

بدا الشعر فى وجهه فانتقم لعاشقه منه لما ظلم
ولم أر فى وجهه كالدخا ن الا وسالفه كالحمم
اذا اسود فاضل قرطاسه فما ظنكم بمكان القلم
فان فضلوه على غيره فما ذاك الا لجهل الحكم

فلما فرغت من شعرها قالت للرجل سبحان الله العظيم . وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفى ليلة ٤٢٣) قالت بلغنى أيها الملك السعيد ان المرأة الواعظة لما فرغت من شعرها قالت للرجل سبحان الله العظيم كيف يخفى عليك أن كمال اللذة فى النساء وأن النعيم المقيم لا يكون الا بهن وذلك أن الله سبحانه وتعالى وعد الانبياء والاولياء في الجنة بالحور العين وجعلهن جزاء لاعمالهم الصالحة ولو علم الله تعالى أن فى غيرهن لذة الاستمتاع لجزاهم به ووعدهم اياه وقال صلى الله عليه وسلم حبب الى من دنياكم ثلاث النساء والطيب وقرة عينى فى الصلاة وانما جعل الله الولدان خدما للانبياء والاولياء فى الجنة لان الجنة دار نعيم وتلذذ ولا يكمل ذلك الا بخدمة الولدان وأما استعمالهم لغير الخدمة فهو من الخبال والوبال وانا استغفر الله العظيم لى ولكم ولسائر المسلمين انه هو الغفور الرحيم ثم سكتت فلم تجبنا عن شىء بعد ذلك فخرجنا من عندها مسرورين بما استفدناه من مناظرتهما متأسفين على مفارقتها

(ومما) يحكى أن اباسويد قال اتفق انى انا وجماعة من أصحابي دخلنا بستانا يوما من الايام لنشتري شيئا من الفاكهة فرأينا في جانب ذلك البستان عجوزا صبيحة الوجه غير أن شعر رأسها أبيض وهى تسرحه بمشط من العاج فوقفنا عندها فلم تحتفل بنا ولم تغط رأسها فقلت لها يا عجوز لو صبغت

شعرك اسود لكنت أحسن من صبية فامتنعت من ذلك فرفعت رأسها الى وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٢٤) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن أباسويد قال لما قلت للعجوز ذلك الكلام رفعت رأسها الي وحملقت العينين وأنشدت هذين البيتين

وصبغت ماصبغ الزمان فلم يدم صبغي ودامت صبغة الايام
أيام أرفل لى ثياب شبيبتي واناك من خلفي ومن قدامي

فقلت لها لله درك من عجوز ما اصدقك في اللهج بالحرام واكذبك في دعوى التوبة من الآثام

(ومما) يحكى ان علي بن محمد بن عبد الله بن طاهر استعرض جارية اسمها مؤنس للشراء وكانت فاضلة اديبة شاعرة فقال لها ما اسمك ياجارية قالت أعز الله الامير اسمي مؤنس وكان قد عرف اسمها قبل ذلك فأطرق ساعة ثم رفع رأسه اليها وأنشد هذا البيت

ماذا تقولين فيمن شفه سقم من أجل حبك حتى صار حيرانا

فقالت أعز الله الامير وانشدت هذا البيت

اذا رأينا محبا قد اضر به داء الصبابة أوليناه احسانا

فأعجبته فاشتراها بسبعين الف درهم واولدها عبد الله بن محمد صاحب المآثر (وقال ابو العيناء) كان عندنا في الدرب امرأتان احداها تعشق رجلا والاخرى تعشق امرد فاجتمعتا ليلة على سطح احداهما وهو قريب من داري وهما لا يعلمان بي فقالت صاحبة الامرد للاخرى يا اختي كيف تصبرين على خشونة اللحية حين تقع على صدرك وقت لثمك وتقع شواربه على شفتيك وخديك فقالت لها يارعناء وهل يزين الشجر الا ورقه والخيار الا زغبه وهل رأيت في الدنيا أقبح من أقرع منتوف أما علمت ان اللحية للرجل مثل الذوائب للمرأة وما الفرق بين الذوائب واللحية اما علمت ان الله سبحانه وتعالى خلق في السماء ملكا يقول سبحان من زين الرجال باللحى والنساء بالذوائب فلولا ان اللحى كالذوائب في الجمال لما قرن بينهما يارعناء مالي وفرش نفسي تحت الغلام الذي يعاجلني انزاله ويسابقني انحلاله واترك الرجل الذي اذا شم ضم واذا أدخل أمهل واذا فرغ رجع واذا رهز اجاد وكلما خلص عاد فاتعظت صاحبة الغلام بمقالتها وقالت سلوت صاحبي ورب الكعبة

حكاية تودد الجارية

(ومما) يحكى انه كان ببغداد رجل ذو مقدار وكان موسرا بالمال والعقار وهو من التجار الكبار وقد سهل الله عليه دنياه ولم يبلغه من الذرية ما يتمناه ومضت عليه مدة من الزمان ولم يرزق باناث ولا ذكور فكبر سنه ورق عظمه وانحنى ظهره وكثر وهنه وهمه فخاف ذهاب ماله ونسبه اذ لم يكن له ولد يرثه ويذكر به فتضرع الى الله تعالى وصام النهار وقام الليل ونذر النذور لله تعالى الحي القيوم وزار الصالحين واكثر التضرع الى الله تعالى فاستجاب الله له وقبل دعاءه ورحم تضرعه وشكواه فما كان الا قليل من الايام حتى جامع احدى نسائه فحملت منه في ليلتها ووقتها وساعتها وأتمت اشهرها

فسري لنا ماقلتيه فقالت ياأمير المؤمنين هذا الزرار والعروة (وأما) ما كان من أمرها مع المنجم فانها قالت من كان منكم منجما فليقم فنهض اليها المنجم وجلس بين يديها فلما رأته ضحكت وقالت أنت المنجم الحاسب الكاتب فقال نعم قالت اسأل عما شئت وبالله التوفيق قال أخبريني عن الشمس وطلوعها وأفولها قالت اعلم أن الشمس تطلع من عيون وتأفل في عيون فعيون الطلوع أجزاء المشارق وعيون الافول أجزاء المغارب وكلتاهما مائة وثمانون جزءا قال الله تعالى فلا أقسم برب المشارق والمغارب وقال تعالى هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب فالقمر سلطان الليل والشمس سلطان النهار وهما مستبقان متداركان قال الله تعالى لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون قال فاخبريني اذا جاء الليل كيف يكون النهار واذا جاء النهار كيف يكون الليل قالت يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل قال فاخبريني عن منازل القمر قالت منازل القمر ثمان وعشرون منزلة وهي الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك والغفر والزباني والاكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الاخبية والفرع المقدم والفرع المؤخر والرشاء وهي مرتبة على حروف أبجد هوز الى آخرها وفيها سر غامض لا يعلمه الا الله سبحانه وتعالى والراسخون في العلم وأما قسمتها على البروج الاثني عشر فهي أن تعطى كل برج منزلتين وثلث منزلة فتجعل الشرطين والبطين وثلث الثريا للحمل وثلثي الثريا مع الدبران وثلثي الهقعة للثور وثلث الهقعة مع الهنعة والذراع للجوزاء والنثرة والطرف وثلث الجبهة للسرطان وثلثيها مع الزبرة وثلثي الصرفة للاسد وثلثها مع العواء والسماك للسنبلة والغفر والزباني وثلث الاكليل للميزان وثلثي الاكليل مع القلب وثلثي الشولة للعقرب وثلثها مع النعائم والبلدة للقوس وسعد الذابح وسعد بلع وثلث المقدم مع المؤخر والرشاء للحوت وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٤٤٣) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية لما عدت المنازل وقسمتها على البروج قال لها المنجم احسنت فأخبريني عن الكواكب السيارة وعن طبائعها وعن مكثها في البروج والسعد منها والنحس وأين بيوتها وشرفها وسقوطها قالت المجلس ضيق ولكن ساخبرك أما الكواكب فسبعة وهي الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل فالشمس حارة يابسة نحيسة بالمقارنة سعيدة بالنظرة تمكث في كل برج ثلاثين يوما والقمر بارد رطب سعيد يمكث في كل برج يومين وثلث يوم وعطارد ممتزج سعد مع السعود نحس مع النحوس يمكث في كل برج سبعة عشر يوما ونصف يوم والزهرة معتدلة سعيدة تمكث في كل برج من البروج خمسة وعشرين يوما والمريخ نحس يمكث في كل برج عشرة أشهر والمشتري سعد يمكث في كل برج سنة وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(تم المجلد الثاني ويليه المجلد الثالث من الف ليلة وليلة وأوله ليلة ٤٤٤)

فهرست المجلد الثانى من قصة الف ليلة وليلة

صحيفة

٢١ حكاية تتعلق بالطيور
٢٩ حكاية الثعلب مع الذئب وابن آدم
٤١ حكاية على بن بكار مع شمس النهار
٦٥ حكاية قمر الزمان بن الملك شهرمان
١٣٢ حكاية نعم ونعمة
١٤٧ حكاية علاء الدين ابى الشامات
١٨١ بعض حكايات تتعلق بالكرم
١٨٣ حكاية تتعلق ببعض مدائن الاندلس التي فتحها طارق بن زياد
١٨٤ حكاية هشام بن عبد الملك مع غلام من الاعراب
١٨٥ حكاية اسحق الموصلى وتزوج المامون بخديجه بنت الحسن بن سهل
١٨٨ حكاية الحشاش مع حريم بعض الاكابر
١٩١ حكاية هرون الرشيد مع محمد بن على الجوهرى
٢٠٠ حكاية هرون الرشيد مع العجمى ومايتبع ذلك من حديث الجراب والكردى
٢٠٣ حكاية هرون الرشيد مع جعفر والجارية والامام أبى يوسف

صحيفة

٢٠٤ حكاية خالد بن عبدالله القسرى
٢٠٦ حكاية أبى محمد الكسلان مع هرون الرشيد
٢١٧ حكاية على شار مع زمرد الجارية
٢٣٥ حكاية بدور بنت الجوهرى مع جبير ابن عمير الشيبانى
٢٤٣ حكاية الجوارى المختلفة الالوان وما وماوقع بينهن من المحاورة
٢٥٠ حكاية وردان الجزار
٢٥٢ حكاية تتضمن داء غلبة الشهوة فى النساء ودواءها
٢٥٤ حكاية الحكماء أصحاب الطاووس والبوق والفرس
٢٦٧ حكاية أنس الوجود مع محبوبته الورد فى الاكمام
٢٨٤ من حكايات ابى نواس مع الرشيد
٢٨٦ جملة من نوادر أهل الكرم واللطافة
٢٨٨ حكاية تتضمن أن جور الامير بسبب ظلم الرعية
٣٠٣ حكاية تودد الجارية

تمت الفهرست

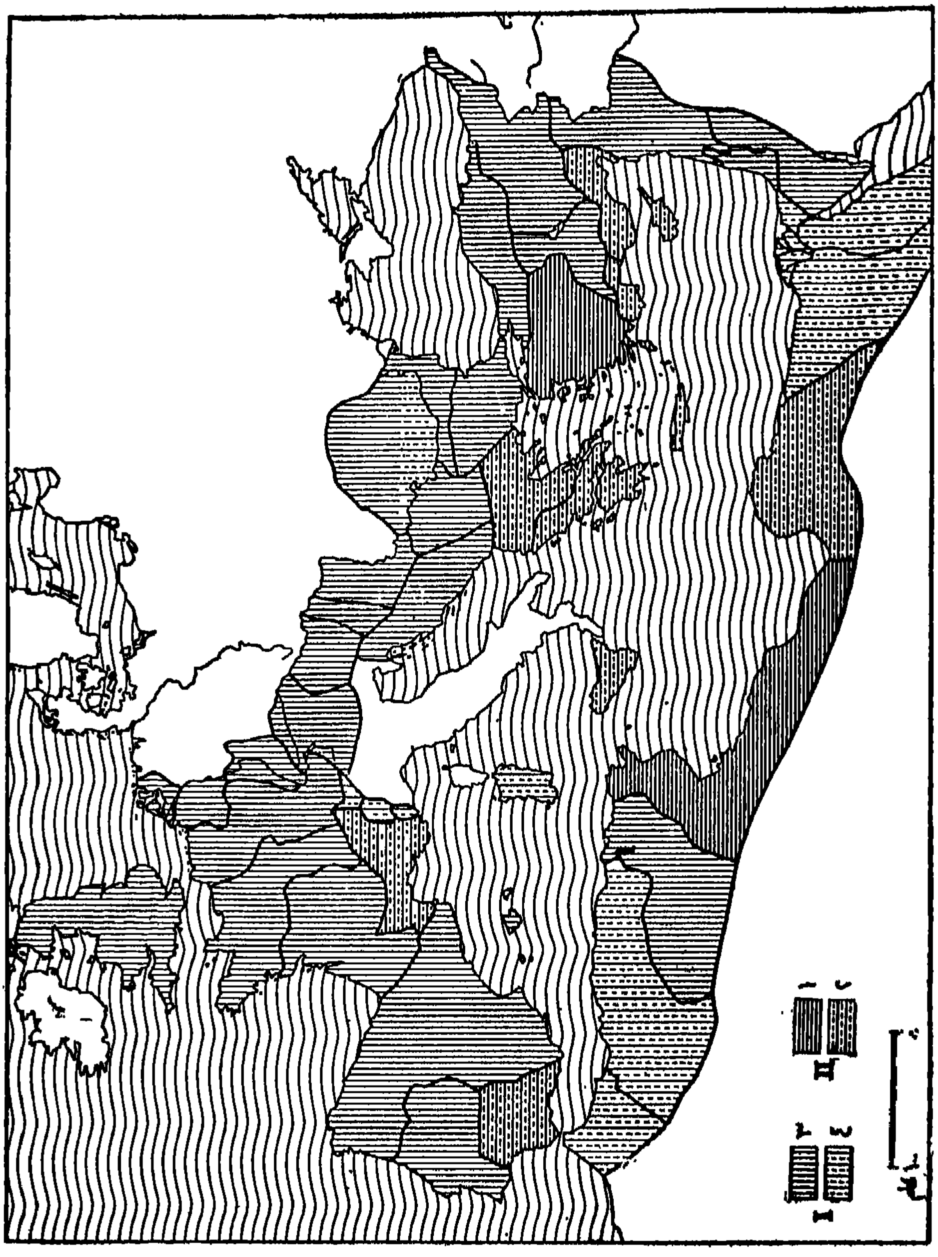

الشكل ٩ – خريطة التقسيمات الادارية للامبراطورية الرومانية في اواسط القرن الثاني

I ـ ولايات مشيخية يتولى الحكم فيها حكام من رتبة بروقنصل ؛ ١ ـ ولايات حكامها قناصل قدماء ؛ ٢ ـ ولايات حكامها بريتور مقدمون.

II ـ ولايات امبراطورية يولى ادارة الحكم فيها ؛ ٣ ـ مندوبون بروبريتوريان من فئة قنصل قديم او مقدم قديم ؛ ٤ ـ بروكوراتور او ولاة من رتبة شفاليه .

من العسير تحديد الفئة التي كانت عليها جزيرة كورسكا ـ لم تكن ايطالية منقسمة اذ ذاك الى ولايات .

ممتاز ، كان الشعب يتمتع بشبه ادارة مستقلة، وتتولى الهيئات الشعبية ادارة شؤونها البلدية تحت مشارفة مجلس الشيوخ والحكام الاداريين المحليين . وقد أدخلت ، بعد ذلك بكثير ، تعديلات على هذا التقليد الموروث : فالشؤون البلدية فيها لم تستبد بالطبع بالاهتمام، كما استبدت به روما، ولا عرفت الحدة والدقة في الادارة التي اقتضتها روما في هذا المجال . ومع ذلك كان لا بد للادارة العامة من الالتفات لهذه الناحية ، وذلك بتعيين مندوب *Curateur* لهذه او لتلك من المدن التي تعاني البلبلة وعدم الانتظام في ميزانيتها، وآخر ليعنى بشؤون العدل والعدالة. وقد طلع علينا الامبراطور هدريانوس في هذا المجال بتدبير جديد ألغاه خليفته ، ولم يلبث ان عاد اليه مارك اوريل وأصبح من بعده تدبيراً مرعي الاجراء رسمياً ، اذ قسم شبه الجزيرة الايطالية الى أربعة محافظات او ولايات ، قام على ادارة كل منها ، شيخ من اعضاء مجلس الشيوخ يحمل لقب « قاض »، اذ كان بين اختصاصاته القطع بالقضايا المدنية، بينما القضايا الجنائية كانت من اختصاص ولاة المدن والولاة الذين كانوا يعنون بمراقبة سير الحياة في المدن ، ويتدخلون بشؤونها ، كلما سنحت لهم الفرصة لذلك . وهكذا تم تدريجياً إعداد ايطاليا وتهيئتها للمصير ذاته الذي آلت اليه الولايات الأخرى ، بعد ان رؤي ادخال تحسينات جديدة على اوضاع المدن في الولايات الأخرى .

توزيع الولايات والحكام

تقدم ذكر الخطط الادارية الكبرى عندما جرى البحث عن وضع الولايات . ففي ١٧ كانون الثاني (يناير) عام ٢٧ ق . م ، صدر مرسوم قسمت معه الولايات الرومانية خارج ايطاليا، بين مجلس الشيوخ وبين اوغسطس ، على أساس من التوازن بين الجانبين . وما لبث هذا التوازن ان اختل فيما بعد ، لصالح الامبراطور، للتعديلات التي طرأت على هذا الاتفاق ، ولا سيما بعد ان ضمت الى الادارة الامبراطورية ، ولايات جديدة تم فتحها في وقت لاحق . ففي اواسط القرن الثاني ، كان الوضع بالنسبة للولايات الرئيسية التي كان حاكمها برتبة شيخ من اعضاء مجلس الشيوخ ، ومن بينها ولاية مصر التابعة طبعاً للادارة الامبراطورية، كما يلي: ٢٣ ولاية أمرها منوط بالامبراطور رأساً، و ١٠ ولايات مرتبطة ادارياً بمجلس الشيوخ .

كان الامبراطور ، بالطبع ، يسيطر عن كثب ، على حكام الولايات الخاضعة لادارته ، وهم، في الغالب ، من اعضاء مجلس الشيوخ، سبق لهم ان شغلوا من قبل، مراكز قناصل او مفوضين، وفقاً لأهمية الولاية او الحامية العسكرية المرابطة فيها . فهم يحملون لقب « نائب اوغسطس » ، تدليلاً على تابعيتهم ، ويضاف الى لقبهم هذا الوصف *Proprétoriens* تدليلاً على التحاقهم بالامبراطور لأن له الحق وحده في الدولة بأن يلقب بروقنصل في الولايات الآنفة الذكر . اما حكام الولايات الأخرى ، أي تلك التي أنيط امرها بمجلس الشيوخ ، فكانوا يؤخذون من طبقة الشفاليه ، ويعرفون باللقب *Procurateurs* ، فكانوا يتولون شؤون الولايات الصغيرة ، او ادارة المقاطعات التي لم تكن قطعت بعد شوطاً بعيداً في مضمار التطور الحضاري، مثل مقاطعات

موريتانيا الواقعة الى الغرب من افريقيا الشمالية . وعلى كل ، لم يكن تحت حكام هذه الطبقة أية فرقة من فرق الجيش. وعلى هذا الوضع بالذات كانت مصر وصاحبها يعرف بـ والٍ . وكانت مصر مركزاً لحامية عسكرية ، اختلف عدد فرقها على توالي الزمن ، فكانت ٣ في القرن الاول ، ثم اثنتان ، ثم واحدة منذ عهد هدريانوس . وقد دعا الى قيام مثل هذه الحامية في مصر ، ما كان لوادي النيل من أهمية بارزة ، في مدّ روما وايطاليا بما تحتاجان اليه من المواد الغذائية . ويكشف لنا المؤرخ الروماني « تاسيت » ما كانت تخفيه تولية الامبراطور لولاية مصر من سر خفي ، اذ كان يحذر الحذر كله من دخول أي عضو من أعضاء مجلس الشيوخ ، او أحد من فرقة الشفاليه له شهرته الواسعة ، مصر ، بدون ترخيص خاص منه مسبق ، وذلك لما يتعرض له من اغراء شهوة الخيرات الوافرة التي كانت ترفل بها تلك البلاد ، والرغبة في الاستمتاع بها ، فيأخذ في تبييت الدسائس وحبك المؤامرات للاستئثار بهذه الخيرات . فيحاول منع تصديرها الى الخارج ، وفي ذلك ما فيه من تهديد لسيطرة الامبراطور نفسه ولروما بالمجاعة. ولذا كان الامبراطور يولي الوظائف الادارية الكبرى لاداريين من رتبة الشفاليه ويعهد اليهم بوظيفة حاكم في الولايات الخاضعة لسلطته مباشرة .

ومهما يكن من أمر هؤلاء الحكام ، شيوخاً كانوا او شفاليه ، نواباً للملك او ولاة او مفوضين ، فهم من رجال الامبراطور وخاصته ، يصطفيهم بنفسه ، ويعينهم على رأس الادارة ، فيبقون فيها ما طاب له بقاؤهم عليها ، وهم مسؤولون عن ادارتهم امامه وحده ، او امام من ينتدبه من قبله لمحاسبتهم ، ينزل بهم القصاص الصارم ، اقله الرفت والعزل ، اذا ما اساؤا الى ما أؤتمنوا عليه ، من مهام ومسؤوليات ، او يجزيهم خيراً بمنحهم الألقاب الفخرية وترفيعات سنية ، اذا ما رضي عن اعمالهم ونتائج ادارتهم .

ولم يكن من النادر قط ان نرى موظفاً من اعضاء مجلس الشيوخ يتقلب تباعاً بين الوظائف الكبرى فيمارس تارة وظيفة *Proprétoriens* او بروقنصل ، اذ لم تكن مثل هذه الوظائف توزع على فئتين من الموظفين : اصحاب الاولى من الشيوخ الذين يمكن نعتهم بالحياديين او الأحرار ، واصحاب الثانية من الموظفين التابعين للادارة الامبراطورية . فهذه المناصب الادارية ذات الدرجة الادارية المشتركة والصلاحيات المختلفة التي اقتضت مصلحة الدولة وحسن سير الاعمال انشاؤها بكثرة ، وما يحدد لها من مسؤوليات وصلاحيات واغراض ، لم تكن سوى درجات في سلم التوظيف الخاص بالشيوخ ، وفقاً للعرف المتبع ، يعملون جميعاً ، كل واحد ضمن اختصاصه ، في خدمة الدولة ، وتأمين مصالحها . والى جانب الأخذ بهذا العرف الاداري المعمول به ، كثيراً ما كان الاباطرة يتخذون ، ابتداءً من مطلع القرن الثاني ، قرارات ومراسيم ، بتعيين عدد من كبار الموظفين يُنتقون من فئة الشفاليه ، في رتبة توازي عضوية مجلس الشيوخ أو أعلى درجة من بين الحاصلين على الرتبة الأولى من هذه العضوية ، الأمر الذي أدى بالتالي الى توحيد السلك الاداري ، وتأمين التجانس بين سلم الدرجات. وهكذا اصبحت هذه المفارقات النظرية ،

بين مرتبة وأخرى ، لا معنىً لها وليس ما يبررها . فالاشخاص الذين يقع عليهم الاختيار لملء هذه الوظائف ، سبق ان اعطوا الدليل على كفاءتهم وعلى ما يتحلّون به من قدرات ومؤهلات ادارية، وعلى جدارتهم المسلكية للمهات التي ينتدبون اليها او تناط بهم. فتعيينهم لهذه الوظائف يُعتبر ترفيعاً استحقوه ، بعد ان عرفوا ان يجمعوا الى الاختصاص الذي يحملونه ، شعوراً قوياً بالاخلاص للمصلحه العامة المشتركة التي يعملون على خدمتها ، وان يزدادوا ولاءً للامبراطور ، بمنأى عن روح الزلفى والملق التي تطبع عادة رجال الحاشية والبلاط .

روح جديدة تغمر الادارة

في هذه الروح تقوم بالفعل احدى المفارقات التي ميزت العهد الجديد الذي طلع على البلاد ، والى مثل هـــذه النتائج الطيبة ، افضت التطورات التي طرأت على جوهر الادارة المحلية في الولايات .

فالمركزية الادارية التي سار العهـــد الجديد على مبدئها وطبّقها في الولايات ، لم تجلب معها المزيد من الحرية لسكان الولايات . فمثل هـذا الجهاز الاداري البطيء الحركة والثقيل الوطأة لم يقتصد عليهم بالمتاعب . فالحريات التي ما زالت بعض الجماعات والهيئات الشعبية المحلية تتمتع بها ذهبت ، هي الأخرى ، ضحية الاصلاح الاداري ، فجرت على الأمور الادارية وقضاياها شيئاً من البطء والتمهل في معالجتها ، والتثاقل في تحريكها والانتقال بها ، اذ كثيراً ما كانت الادارة المحلية تضطر لرفع الأمر للادارة المركزية للموافقة على التدابير والاجراءات التي تتخذها في امر معين . فانشاء مصلحة البريد الرسمي للدولة وتنظيمها في عهـد الامبراطور هدريانوس تحمّل اعباءها ، السكان القريبون من طريق البريد ، اذ فُرض عليهم ان يُؤمّنوا ما يحتاج اليه البريد من حيوانات الجر ووسائل النقل .

ومع ذلك ، فاذا ما رحنا نقارن بين المنافع التي عادت على الشعب في العهدين شالت كفة الامبراطورية ورجحت . فالولايات التي لم تكن لتبالي باحتضار مجلس الشيوخ وحشرجته ، لم تتضرّس كثيراً بما حيك من دسائس في البلاد ومن الاغتيالات السياسية التي أتأمتها احياناً . فالمصالح الادارية الكبرى عرفت ان تؤمن التعاون بين مختلف الدواوين، وان تطبّق بحذافيرها، نصوص القوانين المعمول بهـا من قبل ، وذلك حتى في احلك الأزمات التي هزت الامبراطورية وفي عهد أسوأ الاباطرة . ان امبراطوراً من طينة نيرون مثلاً ، لم يكن كله سيئات.، فترك اثراً اختلف قدراً لدى سكان الولايات. فما عسى ان يكون الوضع ، والحـالة هذه ، مع اباطرة خيرين ، عرفوا بنشاطهم العارم ، وتفرغوا للعمل الجدي على صعوبته ، امثال : طيباريوس ، وفسبسيانوس ، وترايانوس ، ومـــن جاء بعدهم . وهكذا جاشت الحكومة بادارة جديدة ، غمرها ، أكثر فأكثر ، شعور الولاء للسلطة ومكّنت لهـذا الشعور في نفوس الناس وقلوبهم ، صهرتها التجربة ، وصقلتها الاختبارات الماضية فتأثرت ، الى حد بعيد ، بالنظريات والفلسفات الهلينية ، ولا سيما بالنظرية الانسانية التي تنزّت بهـا فلسفة الرواقيين فانسجمت مع النزعات الرومانية بعدان لقحتها. وتمتعت هذه الادارة، الى جانب الثقة التي اولتها السلطة الامبراطورية،

بما يلزم من الوسائل لفرض مشيئتها وللتعبير عنها بأعمال واجراءات حظيت بتأييد السلطة ومساعدتها . وهكذا رأينا حكومات الولايات تنعم ، هي الأخرى ، بجهاز اداري ، تم له في جميع درجاته ، الملاكات والأطر اللازمة ، والمؤهلات الادارية التي لا بد منها . فكان من المتوجب على كل حاكم ولاية ان يراقب ، عن كثب ، مرؤوسيه، كما كان يخضع ، هو الآخر ، لمراقبة أعلى ، من قبل الادارة المركزية ، بما حوله من عيون مبثوثة وأرصاد قائمة . وقام الى جانب الوالي دوائر ومكاتب ديوانية محلية ، انتظمت أعمال الادارة ، وسارت بها على شكل ما قام من امثالها في روما . ولم يكن ليبدو لأحد قط ان الأمر بلغ حد الكمال والتمام في هذا كله ، انما ساد الجميع شعور بأن الوضع الإداري احسن حالاً بكثير ، مما كان عليه من قبل .

العدالة

برزت هذه الحقيقة على أنصع صورها في مرفقين هامين من مرافق الادارة العامة في الامبراطورية ، هما : العدل والوضع المالي في البلاد .

قام فوق السلطات البلدية حاكم الولاية الذي أخضع ما كانت تتمتع به هذه البلديات من حريات، لقيود وتضييقات متزايدة. فكان قطب الادارة الاقليمية ومرجعها الأكبر. فهو الذي يتولى النظر في أهم القضايا المدنية التي تعرض عليه ، ويُقِرّ الأحكام بالموت التي تصدرها المحاكم ، كما حدث ذلك لبيلاطس البنطي ، والي اليهودية ، عندما صدّق على الحكم بصلب السيد المسيح . كان للرعايا الرومانيين الحق بأن تجري محاكمتهم في روما اذا ما راحوا يتمسكون بحقهم هذا، فيمثلون امام محكمة الجزاء فيها وليس امام مجالس الهيئات الشعبية التي فقدت تباعاً كل صلاحياتها القضائية . وقد افاد القديس بولس وغيره كثيرون ، من هذا الحق الذي تمتعوا به بوصفهم يحملون الرعوية الرومانية . وهنا مجال للتساؤل كيف ان تكاثر عدد من يحملون هذه الرعوية لم يفضِ الى ازدحام هذه المحاكم بالمتداعين، إلا ان يقال بوجود حالات خاصة متميزة ، او الافتراض بأن بعض الحكام تجاوزوا صلاحياتهم دون ان ترتعد فرائصهم او يؤنبهم الضمير . فها مثلاً الحاكم « غلبا » ، نائب الامبراطور في اسبانيا ، قبل اعتلائه العرش ، يأمر بقتل متهم يحمل الرعوية الرومانية بالرغم من احتجاجه بجنسيته الرومانية، ويعلّق على صليب ابيض عال ، آخر لتسميمه ربيباً له،ثم تراه هو ذاته،بعد ان أصبح امبراطوراً، يحكم بالموت على نائب الامبراطور وممثله في جرمانيا السفلى،لاهماله التماس مجرم رفع محاكمته الى روما فضرب بالتماسه عرض الحائط . ومهما يكن ، ففي بعض الحالات عندما تكون الجريمة فاضحة نكراء ، كانت القاعدة المألوفة ان تجري المحاكمة في المكان الذي تقع فيه الجريمة .

حرص كل الولاة الرومانيين على ان يقوموا بواجباتهم القضائية خير قيام . ولذا نراهم يجرون دورات تفتيشية منتظمة في ولايتهم ، ويقيمون مجالس للعدل والنظر في أمور الناس ، في كل المدن الرئيسية التي يمرون بها ، وهم في هذا كله ، يستعينون بأهم رجال القانون ومشاهير الفقهاء ، فيتولون بأنفسهم ، او بالوكالة ، التحقيقات القضائية التي لا بد منها . وكانت بعض الولايات تقسم الى أقضية ولكل قضاء نائب عمومي يقوم بالمحاكمات . وكانت طبيعة الأحكام التي

يصدرها الحاكم هي الدليل الأكبر على ما فيه من مقدرة وعلى ما يتصف به من نزاهة ونصَفة ، اذ لم يكن هنالك مجال قط لتجد الرشوة طريقها اليه .

والخطر من ان يركب القاضي رأسه فيُصدر احكاماً اعتباطية ، كان يحـد منه حق المتهم بطلب محاكمته في روما كما كان للامبراطور الحق برفع كل قضية اليه . فعلى صاحب الظلامة ، في الولايات الامبراطورية ، ان يرفع ظلامته للامبراطور نفسه . اما في الولايات المشيخية ، فبإمكان المتظلم ان يلتمس محاكمته امام الامبراطور او امام مجلس الشيوخ ، إلا انه كان يفضل دائماً المثول امام الامبراطور . وبالفعل كانت الأحكام تستأنف أغلب الأحيان ، حتى ان الحكام انفسهم ، كانوا لدى أدنى شك يخامرهم في قضية ما ، يبادرون باستئنافها الى روما . وهكذا نرى النشاط الحقوقي والقضائي يحتدم كثيراً في الحكومة المركزية، وفي اصغر الدوائر القضائية التابعة لها ويتوسع. فالامبراطور الذي كان ينزع في الصميم ليصبح المصدر الوحيد للتشريع والقانون ، كان يغتنمها فرصة ذهبية لتوجيه هذا التشريع حسبما تقتضيه الضرورات والنظريات الجديدة والعمل على توحيدها . وهذا التطور عاد بالنفع ليس على روما وايطاليا فحسب ، بل بالأكثر ، على الولايات التي عانت ما عانت من عَنَت الحكام المتعاقبين ، سنة بعد سنة ، على الحكم واستبدادهم في الأحكام التي كانوا يصدرونها .

المالية : استمرار التفاوت بين ايطاليا والولايات الاخرى

وعلى مثل هذا قس وضع المالية في الدولة . فالولايات كانت ملزمة بتقديم القسم الاوفى من مواردها ومحاصيلها. ومهما تعرضت له من احداث مفاجئة كان عليها ان تستمر في تقديم ما كان يتوجب عليها تقديمه لسد الحاجات المشتركة. فالامبراطور كان يتولى ادارة واستغلال املاك التاج، وهي ممتلكات واسعة كان دخلها يسد جانباً من النفقات العامة. وممتلكات التاج هذه ، كانت تتألف اصلاً ، من عقارات خاصة صادرتها الدولة في إثر احكام سياسية صدرت على اصحابها ، ومن تركات اوصى بها اصحابها للامبراطور ، وهي عادة جرى عليها سراة القوم في رومـا ، ومن بعض ولايات بينها مصر ، التي كانت تخضع لنظام استثاري خاص، وتدر على الدولة الرومانية فيئاً يبزّ بضخامته كل ما كانت تدره ممتلكات التاج الأخرى مجتمعة. والى هذا، يجب ان نضيف الرسوم المستوفاة كضرائب غير مباشرة تُفرض على سكان الولايات والرعايا الرومانيين على السواء الذين كانوا يتحملون وحدهم ضريبة على التركات تعرف بضريبة واحد من عشرين ، أي ٥ ٪ من اصل التركات التي تذهب الى اباعد الأقارب التي كانت قيمتها تتجاوز ٠٠٠ ١٠٠ *Sesterces* (١) . وهذه الضريبة كانت تغذي« صندوق الجندي »، هذا الصندوق الذي كان يدفع تعويضات لأفراد الجيش عند صرفهم من الخدمة العسكرية . وكان اوغسطس يشعر ببعض الأسف لفرضه مثـل هذه الضريبة على المواطنين ، لأنها تمس في الصميم، الإعفاء من الضرائب المباشرة ، هذا الامتياز

---

(١) السسترس عملة رومانية تساوي ربع دينار فضة.

الذي تمتعوا به منذ عام ١٦٧ ق. م . غير ان الولايات الايطالية بقيت وحدها بمعزل عن الضريبة الكبرى وهي الضريبة التي تقع على الولايات التي تم امتلاكها بالفتح ، وذلك بفضل ما تمتعت به من امتياز : « الحق الايطالي » *Jus Italicus* الذي ساواها بالعاصمة، فاعتبرت بموجبه ارض الفاتحين . وهكذا لم نلبث ان طلع علينا اخيراً ما عُرف بتبرع التاج *L'or Coronaire* وهو تبرع اختياري ، من حيث المبدأ ، إلا انه بالفعل تبرع إلزامي ، على الجميع ان يقدموه للامبراطور ، سواءً أكانوا حاملين الرعوية ام لا ، وذلك في مناسبات خاصة ، كوقوع حوادث هامة سارة . فاذا ما رفض ترايانوس رفضاً كلياً مثل هذا التبرع عند اعتلائه العرش ، او اقتصر الامبراطور انطونين على تقاضي نصف هذا التبرع ، من الولايات الأخرى وأسقطه عن ايطاليا، فما هذه، إلا بعض حوادث يمكن اتخاذها دليلاً على ان هذه الاجراءات المستجدة كان في الإمكان ان تفضي الى طريقة في توزيع الضرائب أكثر انصافاً ومساواة ، إلا أنها بقيت ، مع الأسف محاولات بدائية لا غير . فالمساواة امام الضرائب ، كالمساواة امام القضاء او الادارة ، لم تكن ساعتها قد حانت بعد . ومما هو أدهى من ذلك ، فالاقتراب من مثل هذا الوضع كان يتم بتردد كلي لما فيه من مساس لمصالح الطبقات الممتازة الشديدة الحساسية .

المداراة الضرائبية وتوحيد رسوم الجباية

استمرت الولايات تتحمل وحدها تقريباً هذه الأعباء المالية المرزحة التي زادها وطأة قيام جيش لَجِب ، دائم ، وادارة متشعبة ، متداخلة ، تُدفع لها مرتبات وأجور آخذة بالارتفاع والصعود ، يوماً بعد يوم .

والجدير بالملاحظة هنا انه لم يسبق للامبراطورية ان عرفت عهداً من اليسر والازدهار المالي كالعهد الذي مر عليها اذ ذاك . فقد راحت تنفق بسعة على مشروعات كانت تعد، اذ ذاك، من الكماليات ، وذلك بانشاء بلاط فخم كثير التكاليف ، وتزيين روما وزخرفتها بالمباني والصروح الفخمة ، والترفيه عن الشعب ، ولا سيما عن سكان روما ، بتأمين أسباب عيشه ولهوه ومرحه . وهذه التكاليف الباهظة اقتضاها جوهر النظام الذي سار عليه العهد الجديد ، اذ يكفي ان يتجاوز امبراطور ما ، كما حدث لنيرون مثلاً ، الحد المألوف في الانفاق حتى يدب الاضطراب والبلبلة في مالية الدولة وتُرْمى بالعجز والعسر. وقد رأينا فيما سبق، كيف ان الوضع العسكري في الامبراطورية كان يتأثر، في الأوقات العادية ، من نتائج سياسة التقتير التي تضطر الدولة للسير عليها ، في بعض الأحيان ، مع انه لم يكن اذ ذاك ، ما يحول دون فرض ضرائب جديدة او زيادة معدل الضرائب القديمة . كل هذا دليل قاطع على ظهور روح جديدة لدى الأسياد الذين تعاقبوا على الحكم . فقد اختفى من بينهم رجل الدولة الروماني ، المتعنّت المعروف بخشونته او جفائه ، وبرزت للعيان مثالية ملك يهمه في الدرجة الأولى تأمين رفاهية رعاياه الى ابعد حد . وهذه المثالية جاءتهم ولا شك ، من هذه الممالك الهلينية مع ما جاءهم من النظم السياسية التي اقتبسوها عن ملوك هذه الدول: كالبطانة، والبلاط ، والحاشية ، والمظهر الخارجي الفخم لمدينة روما ، التي اصبحت ، ليس فقط عاصمة البلاد وقاعدتها الكبرى بل ايضاً كرسي المملكة .

كل هذا الجديد يوحي بفكرة الحكم عند السيد ، كما يوحي بما يكنه من رعاية وعطف وروح النـَصَفة للجميع .

وهذه المؤثرات الهلينية تظهر في أكثر من ناحية من نواحي النظام المالي الذي سارت عليه الامبراطورية الرومانية. فبعد ان فرضت سيطرتها على مصر ، راحت هذه الامبراطورية تفرض عليها نظاماً اقتصادياً أساسه : الاحتكار ، والاقتصاد الموجه ، وضرائب متعددة ترتكز على التعداد، والمراقبة الشديدة، التي أمنت للبطالسة مثل هذا الغنى الذي رفلوا فيه ،وللامبراطورية الرومانية صندوقاً عامراً بالنضار . وهذا الاستغلال المنظم الذي خضعت له مصر حسبما سمحت به تقاليد البلاد ، والنظام الاجتماعي السائد فيها ، لم يمكن تطبيقه في كل مكان . فقد اقتبست الامبراطوريَة من النظام المعمول به في وادي النيل ما رأت فيه نفعاً لها . من ذلك مثلاً فكرة الضرائب غير المباشرة على المبيعات بالمزاد العلني او الحراج ، بمعدل ١ في المائة ، كما فرضت رسماً مقداره ٤ ٪ على عمليـــات بيع الرق ووسعت العمل بهذا المبدأ وطبقته في تحصيل الضرائب وجباية الرسوم .

ولعل أهم الضرائب المباشرة هي الضريبة على العقارات . وفي هذا السبيل اخذت الدولة ، منذ اوغسطس حتى عهد الامبراطور ترايانوس، بعملية مسح للامبراطورية. كذلك كان هنالك ضريبة أعنـــاق ، على أساس إحصاء لعدد النفوس . وفي عهد مارك اوريل ، أنشئت مصلحة الأحوال الشخصية وإلزام الناس بالتصريح بالمواليد . كل هـذه الطرق كانت مرعية الاجراء في مصر منذ عهد بعيد . وقد تطورت اساليب جباية الضرائب، بعد ان توارت عن المسرح، خلال ازمة الحرب الأهلية التي عانت منها البلاد الامرّين، جمعيات الجباة والعشارين القوية. وامام هذا النقص في الجباية ، راحت الدولة تعتمد ، في بادىء الامر ، تلزيم الخراج الخاص بالضرائب غـير المباشرة ، ثم اعتمدت الطريقة المتبعة في مصر ، وهي تلزيم الخراج ولذا استعانت بجبـــاة من الطبقة الاجتماعية المتوسطة حتى ومن الطبقة السفلى ، وفي ذلك تيسير لعمل هؤلاء الجباة لسهولة اتصالهم بالناس من جهة،ولسهولة مراقبة عملهم من قبل الادارة المركزية وتقويمها عند الاقتضاء. اما الضرائب المباشرة ، فقد استغنوا فيها عن المتعهدين والملتزمين وعهدوا اليها للادارة البلدية ، كل في ما يعنيها ، وبعد الجباية يكلف موظفون كبـــار باستلام المبالغ المحصلة ليجري تسليمها لبيت المال .

ففي الوقت الذي انقطع فيه دابر عهد الارتكابات والاختلاسات التي اتاها متعهدو الخراج، انقطع فيه كذلك،او قلّ كثيراً جداً،سوء تصرف الحكام والولاة وإرهاقهم الأهلـين بصنوف من المظالم بعد ان اخضعوا لمراقبة شديدة من قبل مفتشين ماليين،مسؤولين مباشرة أمام الامبراطور. كما أُجبروا على ارسال معظم الاموال التي يجبونها من الولايات الامبراطورية الى بيت المال *Fiscus* الذي كان يخضع مباشرة للامبراطور . كذلك ، كان المفتشون يراقبون ، عن كثب ، أعمال الجباية في الولايات المشيخية ، ويؤمنون تحصيل الرسوم والضرائب المترتبة على أصحابها، ولاسيما

الرسوم المفروضة على الارث والتركات ، فيرسلونها لمصلحة صندوق الجندي ، كما كانوا يؤمّنون، من جهة اخرى ، ادارة املاك التاج ويرسلون بدخلها الى صندوق الامبراطور الخاص . وهؤلاء المفتشون الماليون كانوا برتبة تحصيلدار ، اما الذين كانوا في الدرجات العليا ، فكانوا من فئة الشفاليه . وهكذا نرى هذه الطبقة الاجتماعية تؤمن ، هنا ، في العهد الامبراطوري ، ما كانت تؤمنه في النظام الجمهوري السالف، من جباية الضرائب والاموال المستحقة للدولة. إلا ان هذه المشابهة لم تكن لتصح الى هذا الحد ، وسنرى بعد قليل ، التغييرات التي طرأت على تشكيل طبقة الشفاليه . ويكفي ان نشير هنا ، ولو بصورة عابرة ، الى التعديل في الدور الذي كانوا يقومون به . فلم تعد الدولة لتختار من بينهم متعهدين لتأمين الضرائب والخراج ، بل أصبحوا، من الوجهة النظرية، على الأقل ، مديري مال، بعد أن كانوا رجال اعمال ، في خدمة رجل يحكم الدولة ويدير شؤونها ، أي انهم اصبحوا ، اكثر فأكثر ، موظفين اداريين يقومون بواجباتهم بروح جديدة .

مجالس الولايات

ليس بغريب قط ، ان يرتاح سكان الولايات ارتياحاً شديداً لهذه التغييرات المدهشة التي طرأت على هذا القطاع من الخدمة العامة في الدولة ، فراحوا يعبّرون عن غبطتهم للامبراطور ، بشق الوسائل ، منها مثلاً ، عبادة « روما واوغسطس »التي أدى الاحتفال بها الى ما عرف من بعد ، باسم « مجالس هيئات الولاية ».

فاللفظ المستعمل لا يعبر عن المعنى المقصود الا بصورة تقريبية . والمراد بهذه المجالس : اجتماعات سنوية لمندوبين يختارون من بين المدن والحواضر القائمة في هذه التقسيمات الادارية التي تتباين مساحتها وتختلف، لتشمل حيناً ، ولاية بكاملها ، وأحياناً اكثر من ولاية أو أقل . من ذلك مثلاً مجلس « غاليا » الذي كان يُعقد كل سنة ، في مدينة ليون ، فيجتمع فيه ممثلون عن الولايات الغاليّة الثلاث . وهكذا كان المجلس الواحد يؤلف وحدة تضم جمهرة الممثلين للأفراد الواقعين خارج نطاق بلديات المدن ، وهي الوحدة التي كان من مصلحة الادارة الاعتراف بها ، لما توفره لها من منافع وخدمات : كالشرطة والادارة المالية وغير ذلك . والتسليم بوجود هذه المجالس والاعتراف بها كان بمثابة تنازل من قبل روما عن بعض قوتها وسلطتها ، للشعوب التي أخضعتها لسيادتها والتي لم تشأ ، ان تكف ، كما كان باستطاعتها ان تفعل، عن العمل على التفريق بينها ، عملاً بالمثل القائل: فرق تسد . وهذا المجلس كان يتشكل عند الشعب الذي يمثله ، وفقاً للتقاليد المرعية عنده ، وحسبما يقتضيه واقعه العنصري أو السلالي ، ويؤلف عاملاً ضامّاً يزيد من وحدته ويشد من روابطه .

وهذه الفكرة بالذات تفسر لنا كيف أنه لم يظهر مثل هذه المجالس في قطرين اثنين من أصل الاقطار التي تتألف منها الامبراطورية الرومانية ، هما مصر وايطاليا .

اما الأولى ، فقد كان لها من غنى مواردها الطائلة ، ووفرتها ما جعل الهجوم الذي قامت به كليوباترا على روما مليئاً بالتهديد لها ، وخطراً شديداً على مصيرها بالذات . ولهذا ، رأى

الرومان، في كل وحدة أو محاولة تكتل تقوم فيها خطراً يهدد الامبراطورية الرومانية في الصميم ، عدا عن انه لم يكن يقوم فيها ، اذ ذاك ، سوى عدد قليل من المدن . اما ايطاليا فقد كان عندها ما هو افضل بكثير من هذه المجالس ، اذ ان سكان المدن فيها كانوا رعايا رومانيين ، لاسيا وان وحدتها برزت على احسن صورة ومثال ، في هذه الحكومة المركزية التي قامت فيهـا وانبثقت منها بالذات . وهذه النظرية تفسر لنا كذلك القيود التي وضعوها للحد من نشاط هـذه المجالس خشية ان يساء استعمالها ويوجه في غير الاتجاه الذي حدد لها عند قيامها . فلم يكن باستطاعتها ان تقيم فيما بينها شيئاً من التحالف او التوحيد، فتعمل معاً لهدف واحد مشترك ، لا سيا ومهمتها الأساسية هي التعبير عن عواطف من انتدبوها لتمثيلهم بهـذا الاحتفال الديني أكثر من اجتماعهم لتكريم سيدهم وولي امرهم . وهكذا كان هؤلاء السادة ، إالمعدود الاصغر المشترك لهذه المجالس التي تمثل مختلف شعوب واقوام الامبراطورية الرومانية . فقد كانوا ما هم عليه ، لأن اوامرهم كانت عنصر انسجام وأداة تأليف للجهود المبذولة ، ولأن العبـــادة التي كانوا موضوعها كانت العاطفة الوحيدة التي تسمح لها بالتعبير عن نفسها .

إلا انه عندما اتضح للسلطة الرومانية ، على مر الزمن ، ان لا خوف عليها ولا خشية قط ، من هذه المجالس ، راحت تخفف من القيود والتضييقات الموضوعة على اجتماعات هـذه المجالس ونشاطاتها. فالاحتفال بعبادة الامبراطور، وتعيين الكاهن الذي يتولى باسم جميع المجالس ترؤس الاحتفال المشترك ، بقي وحده غاية الاجتماع وهدفه الاوحد . فلم يعهدوا اليها بأية مهمة ادارية كتوزيع الضرائب مثلا بين البلديات ، او تنفيذ الاشغال العامة ذات المنفعة المشتركة . فاذا ما احتج احدهم ببعض شواهد فهي من الندرة ما يؤلف شذوذاً دعت اليه واقتضته ظروف خاصة. فاقتصروا على ان يسمحوا لهؤلاء المندوبين بالاعراب عن وجهة نظرهم بشأن ادارة حاكم انتهت مدة حكمه ، على شرط ان يحملوا تفويضاً من قبل من انتدبوهم للتكلم باسمهم في هـذا الموضوع بالذات . وعلى هذا ، كان يحق للمجلس ان يتخذ اذ ذاك، حسبما تقتضيه الظروف ، قراراً بالثناء او بتوجيه الشكر للحاكم السابق ، أو إقامة تمثـال له ، وإلا فارسال قرار الى روما للمطالبة بمحاسبته حساباً عسيراً او بملاحقته امام القضاء .

وهذا النهج الذي برز وتبلور منذ القرن الثاني انما ينم ، ولا شك ، عن نزعة متحررة إلا انها ما تزال مترددة وستبقى خافتـة مكبوتة لوقت طويل بعد . ولربمـا تجاوز المرء الواقع بعيداً وبصورة تدعو للاستغراب، اذا ما حاول ان يتخذ من هذا المسلك دليلا على طلوع او بروز شيء من المركزية ، ان لم نقل صورة باهتة لنظام تمثيلي مر في الخاطر . وهــذه المحاسبة العسيرة او بالاحرى هـــذا الحكم الجماعي لا يأتي إلا بصورة عكسية ، اذ ان الحكم الذي يعمل على رأس الادارة لديه أكثر من وسيلة ليوفـّر على سلفه ، إلا في الحالات الفاضحة التي لا يمكن طمسها ، إهانة تحقير بتوجيه اللوم اليه بصورة رسمية . غير ان محاكمته لا يمكن ان تقع او تأخذ مجراها إلا اذا سمح الامبراطور بذلك. فاذا رأى من المصلحة ان الأمر يهمه ويستلزم المزيد من المعلومات،

فالطلب الذي جاءه من الولاية ليس سوى وسيلة من الوسائل الكثيرة التي تتوفر لديـــه لدرس القضية وتكوين فكرة صحيحة له عنها ، وان لم تكن أفعل الوسائل وأقطعها . ومهما يكن من الأمر ، ان هيئة دينية في الاساس لا يصح ان تتحول الى مجلس للمداولة والجدل الرصين ، ومن الصعب ان نتصور المدن تعمد الى تعيين مندوبيها ، قبل ان تقطع في مؤهلاتهم وصلاحياتهم للتشكي والتذمر لدى الامبراطور .

الادارة المحلية والمبادىء التي قامت عليها

هذه النزعة التحررية عُرفت مع ذلك ، انما على نطاق آخر ، في نطاق المدينة المتمتعة بالرعوية الرومانية ، وهي نزعة لم تنبثق عن أية نظرية فلسفية او حقوقية حول الحرية والمساواة وما للانسان من حقوق طبيعية اخرى . فقد أوحى بهذه النزعة اعتبارات عملية بحتة ، بعضها مادي الطابع والغاية ، والبعض الآخر على مستوى ارفع ، وعلى صعيد أعلى وأسمى .

فالرومان كالاغريق قبلهم ، رأوا في المدينـــة الإطار الأمثل ، لا بل الاوحد والممكن ، للانفتاح على الحضارة والاستبحار فيها ، وحرصوا كما حرص البطالسة من قبل ، على قطع السبيل امامها في مصر وسد الطريق في وجهها اليها ، اذ جل همهم كان ان ينصرف النــاس فيها للعمل الصامت ، والشعب للانتاج ، ليس إلا . ومع ذلـــك ، فامهات المدن في المحافظات المصرية وحواضرها ، استحالت تدريجياً ، بفضل ما استجابت له من تطور بطيء لم يحاول ذوو الأمر مقاومته والحد منه ، الى وضع قريب من وضع المدن المتمتعة بالرعوية الرومانية . اما في غـير مصر ، فالامبراطورية تشجع الأهلين وترغبهم على الاخذ بأسباب الحياة في المدينة . فقد حرصت الحرص كله على المحافظة على وضع هذه المدن والاستمرار عليه ، كما حرصت على خلق ما يشبه هذا الوضع حيث لم يكن معروفاً . فالى جانب هذا الدور المتعدد الوجوه الذي تستطيع ان تؤديه ، المدن التي تتمتع بمثل هذا الوضع ، وهو دور لا نود هنا الاستطراد في تفصيله وتبسيطه ، فقد كان من شأنه ان يسهل كثيراً مهمة الادارة المركزية ويخفف من مسؤولياتها ، اذ يحررها مـن واجبات ومهمات ومتاعب كان عليها ان تتربص بها . فالدولة كانت على أتم استعداد لأن تترك لرعاياها المؤهلين ، معالجة الأمور العادية المحدودة الأفق ، لا سيما والعهد الجديد ، لم يكن تم له بعد ، لطراوته ، الموظفون الاكفاء للاضطلاع بالادارة .

وكان لا بد ، بالطبع ، ان يبقى هذا الاستقلال الاداري محدوداً ، وفي نطاق تقسيمات بلدية صغيرة الحجم ، نادراً متوسطة ، تعجز عن النهوض بأوَد ثورة مسلحة . هذا هو بعينه تحديـــد المدينة . ففي البلاد التي لا يمكن انشاء أكثر من ٦٠ مدينة فيها ، تتمتع بالرعوية الرومانيـــة ، كمقاطعة غاليا مثلاً التي تم فتحها على يد قيصر ، حيث حركة تجميل المدن البطيئة كانت تضطر الادارة الى توسيع الدائرة الجغرافية للمدينة الواحدة ، قضى التطور الحضاري والأخذ بأسبابه ، بتكوين مجتمعات مدنية لم تعتم ان رُفِعت الى مستوى المدن المتمتعة باستقلالها الاداري . كذلك ، من الواضح ايضاً ان كل الوسائل كانت تتخذ لتصبح ادارة هذه المدن ، اينما قامت ووُجدت ،

في ايدي عناصر اجتماعية وحضارية توحي الثقة لروما وترتاح اليها ، كطبقة الارستوقراطيين والبورجوازيين ، وجنود دوماً على استعداد لكبت أية اضطرابات تنشأ في المقاطعة ، ورعايا رومانيين قديمي العهد في رعويتهم ، وإلا فمن عهد حديث ، وجنود متقاعدين ألِفُوا النظام ، وشابوا على روح الانضباط ، وأقاموا على الولاء للسلطة ، او سكان أصليين في البلاد ، أخذوا بالمثُل الحضارية الرومانية ، وهم على اشد من اليقين بوجوب التعاون مع الحكومة لنشر هذه المثُل بالذات ، تحسساً منهم بالواجب المترتب على المواطن الواعي بوجوب الاخذ بأسباب التمدين . وهكذا اصبحت الإدارة البلدية معيناً أمدّ الامبراطورية باداريين أكفاء خدموها خدمات صادقة ، وبرهنوا ، أثناء توليهم الوظيفة ، عما أُوتوا من مواهب مخبوءة تتفتح ، بينما يتدربون على اعمال الادارة ويتمرسون بها. كذلك من الواضح ايضاً ، ان السلطة المركزية كانت تمارس مراقبة شديدة لهذه الخلايا الاجتماعية الناعمة ببعض الاستقلال الاداري ، وذلك لتحول دون انتقاضها او تمردها ، او لتحول دون انزلاق أمورها الى الفوضى ولتقوّم منها العوج ، وتصحح الاتجاه عند انحرافه .

وكان بالإمكان التعويل على الادارة الامبراطورية المحترزة والتي لم تكن لتلقي بالكلام على عواهنه والتي لم تكن لتتهاون بأمر التحذيرات الصادرة عن صميم الشعور بالسلطة، والمستوحاة من تصرفات الدولة السلوقية ، فترضى بالتنازل لهذه المدن عن بعض صلاحياتها الادارية في القطاع المحلي. فحذت الامبراطورية حذو سياسة خلفاء الاسكندر المقدوني في آسيا ونزلت عند الأسباب ذاتها التي نزل عندها هولاء الملوك ، فطبقوا سياستهم الجديدة على نطاق ارحب ، وفي اقاليم واقطار اوسع بكثير، محتفظين فقط ، وبصورة استثنائية ، بادارة الأملاك التابعة لهم ضمن هذه الخلايا الاجتماعية شبه المستقلة ادارياً. فلو قُيّض لهذه التجربة ان تأخذ مداها الكامل، لأصبحت الامبراطورية عبارة عن شبكة متصلة الحلقات من وحدات متجاورة بعضاً من بعض ، متمتعة بحرية ، تعمل الادارة المركزية على توجيهها وتأمين التنسيق والانسجام بين جهودها في كل ما يؤول لخدمة المصلحة العامة ، وتأمين اسباب الدفاع عن الامبراطورية . غير ان هذه المحاولة لم تؤت أكلها حتى في عهد الاسرة الانطونية التي كانت أقرب الى تحقيقها وتحييزها من سواها . ومن ثم راح تنظيم المدينة يخدم فيما بعد اغراضاً أخرى . فتعميم هذا النظام وانتشاره لم يكن ليكوّن خطراً يهدد الامبراطورية ، بل جاء على عكس ذلك تماماً في خدمتها ومصلحتها لأنه هيأ لشيء يقرب من الوحدة الادبية فيها ، كما يكن ، من جهة اخرى، بَدْوة من بدوات سلطة نزقة مستبدة . فقد تجاوز هذا الاستقلال الاداري للبلديات ، في مفهومه وكيفية تطبيقه على الوجه الذي جروا عليه ، طاقات هذه المدن وامكاناتها الصميمة .

المؤسسات البلدية

عرفت مدن الشرق الاغريقي ، منذ عهد بعيد ، النظم البلدية ومؤسساتها . فقد جاء تشكيلها مطابقاً للطراز الذي اتّبعته روما في المدن التي كانت تعترف لها بحق الرعوية . وبالرغم من مفارقات عديدة عرضية في تفصيلاتها، تتعلق بالحكام، فقد توصلوا

مع ذلك بيسر ، الى نموذج واحد مشترك بين الجميع .

اشتملت هذه التنظيمات فيما اشتملت عليه ، هيئـــة اولية للمواطنين في المدينة مهمتها ، في الدرجة الاولى ، تعيين الموظفين الاداريين ، واتخاذ القرارات التي تقتضيها ادارة البلدية ، بعـد بحثها ومناقشتها . كذلك ضمت الى جانب هذه الهيئة ، مجالس الاختيارية ، ويضم الواحد منها مئة عضو ، مهمته مراقبة الموظفين وتزويدهم بالتوجيهات والارشادات والتوصيات التي يقتضيها حسن سير الادارة . كذلك تضمنت هذه التنظيمات عدداً من الوظائف يقوم عليها موظفان يُنتخبان في كل سنة ، ويتدرّجان تباعاً في سلم المراتب الفخرية . وكان الاعلى درجـــة بينهما يُكلـّف ، في نهاية كل خمس سنوات ، باعداد جدول مفصل ، لشيوخ البلدة ، حسب درجاتهم ومراتبهم ، تذكر فيه أسماء الموظفين القدامى ، كما تذكر في لائحة أخرى اعيان المدينة ووجوهها البارزين .

كل هذه الهيئات والمجالس كانت تخفي تفاوتاً بين مدينة وأخرى . إلا ان ما خضعت له من تطور مزدوج من قبل الحكومة ، عفوياً كان ام موجهاً ، أوجد بينها تجانساً كبيراً .

من هذا التطور ما تناول وضع هذه المدن بالذات ، على ما بينها من تفاوت بيّن واختلاف ظاهر . فبينما كان بعضها خاضعاً لارادة الحاكم المستبد ولمشيئته ، كان ينتظم البعض الآخر منهـا شيء من التحالف او الاتحاد وتنعم ، بفضل المواثيق والمعاهدات السابقـــة التي عقدتها ، بحق التمتع باستقلالها الاداري ، شريطة المحافظة على ولائها في الأمور السياسية والعسكرية . وهذا الوضع نزع ، اينما قام وَوُجد ، الى التوحيد ، سواءاً أكان على نظام « المستعمرة » او « البلدية » *Municipe* ، او بموجب « الحق اللاتيني » ، او ، في احسن الحالات ، « الحق الرومـــاني » . وراحت المدن تلتمس من الامبراطور ، الإنعام عليها بمثل هذا الوضع وما استتبعه من مثل هذه الحقوق ، وان فقدت معه شيئاً من أصالتها ، لما في ذلك من ربح أكيد وفائدة كبيرة للمواطنين ، اذ يكتسبون ، باعداد أكبر ، وبصورة تلقائية ، الرعوية الرومانية ، فيصبح المواطنون ينعمون بالحق اللاتيني المألوف ، كما ينعم مجلس شيوخها ، بالحق اللاتيني «الأكبر» الذي اعطاه الامبراطور هدريانوس ، وجمهرة المواطنين بكل الحقوق الرومانية .

أما الوجه الثاني لهذا التبدل أو التطور الذي لم يكن بد منه بعد ان أخذت روما بأسبابه منذ مطلع الامبراطورية ، فانه أحال شبه طيف أو خيال ، الهيئة البدائية ، مع استمرارها على عقد اجتماعاتها كمألوف عادتها . كذلك راح مجلس الاختيارية يجرّدها من كل صلاحية ، بعد ان أخذ من الألقاب والكنى اعلاها وأسناها ، منها مثلاً : « النظام الإلهي » . وجرت العادة ، في عهد مبكر ، وهي عادة جاء نص رسمي يكرسها ، بالتبرع لصندوق البلدية ، بمبلغ من المـال ، عندما يحظى المرء بترقية أو تعيين في رتبة : كالكهنوت ، أو عضوية لمجلس الاختيارية اوالحاكمية . وكثيراً ما دعا حب الظهور المقرون بمحبة الوطن الأصغر ، للتنافس في التبرع والسخاء . وهكذا آلت الادارة البلدية الى أيدي الطبقة البورجوازية في المدينة ، تحت رعاية الاسر النبيلة ورعايتها

وفقاً للتقاليد المتوارثة أباً عن جد . أما الطبقات الوسطى ، فقد كانت دوماً بعيدة عن الادارة، لأنهـا لم تحظ بحق الرعوية في المدينة ، هذا الحق الذي فقد عند الفقراء والمعدمين ، كل معنىً ومدلول ، ما لم يتدرج الواحد منهم في السلم الاجتماعي ، قاطعـاً درجاته عن طريق الاثراء .

سير الادارة وبدء الأزمة

كان باستطاعة الادارة المركزية ، والحالة هذه ، ان تتظاهر بالتسامح والتجاوز : فهي تترك للسلطات البلدية المحلية طائفة من الاعمال والمهام الصغيرة ، كالمحافظة على النظام ، وتأمين أسباب العدالة ، وتشييد الأبنيـة البلدية وصيانتها ، وتنظيم امور العبادة والطقوس الدينية ، وإدارة الاملاك البلدية ، وتنظيم موازنة المدينة ، حتى وجباية الرسوم والضرائب المباشرة العائدة للدولة ، وغير ذلك . وقد عرفت ان تحتفظ بحقهـا في التدخـــل بشوون المدينة وان تمارس هذا الحق في كل مناسبة ، وتمارسه اكثر فأكثر ، وبصورة اوسع .

فقد نال هذا النظـام رضى الفريقين ، وبالرغم من بعض الشكوك والصريف يتردد صداه ، الفينة بعد الفينة ، فقد بدا للجميع انه نظام قابل العيش والبقاء . فبفضل هذا النظام، كثيراً ما استطاعت مدن عديدة ان تزدهر ، كما عرفت ان تشيد المباني والصروح فتبرز في اطـار مادي فخم ، كما انه أفسح المجال أمـام التمثيل الحضاري ليحقق نجاحات عظيمة استطاعت الطبقـة البورجوازية معها ان تنعم بالرعوية الرومانية . وبفضل هذا النظـام ، عرف الاباطرة ان يختاروا من بين المواطنين الحديثي العهد بالمواطنية الرومانية ، ما هم بحاجة اليـه من الموظفين الاداريين الذين اتصفوا بالرصانة ، وصدق الولاء ، والتجربة الواسعة . وهذا النظام عينه يفرض وجود أقلية مختارة في الولاية تُباهي بمـا تتمتع به من مراتب ومراكز، هي ابداً على استعداد للاهتمام بالشوون البلدية وتخصيص ما يلزم لهـا من الوقت والمال ، الى ان جاء وقت رأت فيه هذه الأقلية المتميزة أن تتوارى عن مسرح عملها ، بعد ان تبينت ان الغُـرم الذي نابهـا يفوق الغُنْم الذي تنعم به وهو غُنم لا يتفق ومنزلتها بين الجماعة، كما ظهر لها انها لا تستطيع سدالنقص الذي طرأ على ثروتها. وهكذا لم تمتم انقامت الصعوبات . ومن الراجح جداً ان الادارة اضطرت حتى في عهد ترايانوس، الى تعيين أعضاء مجالس الاختيارية ، غصباً عنهم وبغير رضاهم . ولعـل ما هو أدهى من هذا وأنكى ، ما وقع في عهد الأسرة الأنطونية ، وهو عجز الأموال الجبـاة محلياً عن تغطية نفقات العيش الرضي الذي سار عليه عدد كبير من المدن. فسخاء بعض أغنياء المواطنين وكرمهم الحاتمي لم يستطـع سد العجز ، فراح الأباطرة يغدقون المساعدات لهـــا ويتنازلون لهذه المدن عن متأخرات الضرائب المستحقة عليها ، الى ان اضطروا للذهاب الى أبعد من هذا ، بصورة فردية ، آنيـة اولاً ، ثم بشكل أقوى وأبقى ، وذلك بتعيين مندوبين ، وفي الغرب سموا مفوضين *Curateurs* ، وعند الاغريق مفتشي مالية *Logistai* ، بغية تحقيق التوازن بين المدخول والمصروف . وهكذا أخذ استقلال هذه البلديات بالزوال .

الخلاصة

النظام الملكي وبناء الدولة

عند انتهاء هذين القرنين لم يبق شيء من الأوضاع والاحوال التي لابست الحيـــاة السياسية والادارية في الامبراطورية .

فزوال عهد الجمهورية وحلول النظام الملكي محله ، هما ابرز هـذه التطورات وأقربها للنظر . فمن المغالطة والخطل في الرأي ان يحاول المرء تجاهل هذا التبدل او الانتقاص من شأنه وأهميته . وهذا التغيير تردد صداه ليس في الخارج فحسب، بل في النفوس والأذهان ايضا. فقليل من الواقع السيكولوجي يكمن دوماً وراء التعابير والاصطلاحات والرموز الرسمية . ولكي يستمر الأخذ بهذا التطور في عهد اباطرة كثيراً مـا صدم سلوكهم كما صدمت اعمالهم اعتقاد النـاس وايمانهم انهم من جبلة فوق جبلة البشر ، وانهم مسارّ الآلهة ، لا بد ان يكون أطلّ شيء جديد عـلى العالم . وهذا الشيء الجديد الذي لا يمكن لأحد نكرانه او تجاهل ضرورته وجدواه هو الدولة، دولة لها جماع الطاقة وجماع القدرة ، بعكس السلطة التي زالت وتوارت ، تستطيع ان تؤمّن الحد الأدنى لوحدة ادبية تشد العالم الروماني بعضاً الى بعض، وتحافظ على اسباب الامن وتصونها من عبث العابثين والطامعين، وتعرف كيف تستمد منه ما يلزم للدفاع عن كيانها ، وان توزع الضرائب بالعدل والسوية ، دون ان ترهق فريقاً او تزهق الآخر ، وموجز القول دولة لها مـن السلطة ما يؤمّن اشاعة نمط من العيش شامل ، رتيب . وقد سارت النجاحات التي حققها تنظيم هذه الدولة جنباً الى جنب مع النجاحات التي حققتها السلطة الملكية بحيث لا يمكن لعمري فهم هذه دون تلك ، لما بينهما من تفاعل وانفعال.

ليس ما يحول، من الوجهة النظرية، دون النظام الجمهوري لتحقيق مثل هذه الدولة التي تؤدي مثل هذه الخدمات . والامر الثابت الذي لا مراء فيه هو ان الجمهورية لم تتمكن من تحقيق مثل هذه الدولة ، مع ان العهد الذي جاء بعدها استطاع ذلك .

فالدولة الجديدة كانت لها نظمها ، ومؤسساتهـا المركزية التي عرفت ان تؤمن لها الاستقرار والبقاء بمعزل عن شخص الامبراطور ، كما كانت لها نظمها الاقليمية التي عرف الامبراطور ان يراقب منهـا النشاط وان يوجهه ، وكان لها موظفوها الاداريون وخبراؤها الذين تحلّوا ، على الإجمال، بالنزاهة والمهارات الضرورية ، لأنهـا عرفت ان تفوز من الطبقات الاجتماعية التي كانت تصطفي من بينها هؤلاء الموظفين ، بالاخلاص للمناهج والأساليب التي اخذت بأسبابها، فراحت تطبقها لمصلحة الجميـع .

فقد دفعت البلاد غالياً من حرياتها الرومانية والايطالية ثمناً لهذا كله ، وهو ثمن مشروط لم يكن بد منه ولا محيص عنه . فقد جعل ازدياد عدد المواطنين الرومانيين وانتشارهم في جميـع اطراف العـالم الروماني ، وجود المجالس البلدية امراً يدعو للهزء والسخرية . اما مجلس الشيوخ الذي اعجزه الحفاظ على روح الانضباط في الجيش ، فلم يكن اسعد وضعاً ليؤمن بواسطته حكام ينتخبهم كل سنة ـ كثيراً ما تجلى تخطلهم ـ حسن سير الادارة المدنية مع هـذه المشكلات

العويصة التي كانت تعترض سبيله . فالفوضى الكيانية التي كان لا بدّ لهذه المجالس التمثيلية ان تخلقها ، لم تشهد ابتداءها في هذه المجالس الاقليمية ذات الدور المتواضع الخاص . ولذا كان أكثر فعالية وابسط للأمور ان يصار الى نظام ملكي .

وقد جاءهم بالفعل مثل هذا النظام، واضطروا للإقبال عليه والايغال فيه اكثر فأكثر. اما ما طرأ من تغيير على استقلال البلديات الاداري ، فدل على ان كل خطر أطلّ منه تهديد لحسن سير اداة الحكم والادارة المركزية للدولة، أعقبه بصورة عفوية توطيد للسلطة الامبراطورية وترسيخ لها في النفوس . فمن يستطيع ان يتبين التقدم الذي كان بامكان هذا النظام ان يحققه في البلاد لو لم تصدمه أزمات مفاجئة ؟

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية والاجتماعية

لا يمكن للوحدة الادبية في الدولة ان تكتمل ما لم يتحقق حد ادنى لوحدتها الاقتصادية والاجتماعية تشد بين اطرافها جميعاً . فالجمهورية ليس انها لم تفعل شيئاً في سبيل تحقيق مثل هذه الوحدة ، بل لم تهيء لها الظروف لظهور عفوي ، اذ ان جل همها انصرف لاشباع حاجات روما المباشرة بالنهب والسلب ، والان توفر للايطاليين ، غالباً بغير رضى منها ، المنافع التي يتمتع بها المواطنون من سكان المدينة، دون ان تعدّهم للوضع الحقوقي الذي ينعم فيه المواطن الروماني. اما الامر فقد تم على غير ذلك مع الامبراطورية، تحت تأثير ارادة واعية، مدركة لاغراضها، ناشدة لاهدافها ، من جهة ، ومن جهة اخرى ، بفضل هذا التطور الذي خضع له وضع الامبراطورية العام بعد أن عرفت ان تهيء له الأسباب. وأهم هذه التغييرات كان ، فعلاً : « السلام الروماني » وانتظام الادارة في الولايات الرومانية . وقد صحب هذه التغييرات انقطاع دابر الارتكابات ، وتوقف استثمار هذه الولايات المفرط لصالح اقلية ضئيلة من اصحاب الامتيازات . صحيح انه بقي شيء من هذه الامتيازات في الدولة الجديدة انحصرت في بعض مقاطعات وفئة من الناس تميزت على غيرها من هذه المناطق والطبقات . الا ان الفارق الذي كان يميز وضع هؤلاء عن وضع اولئك ، لم يكن ليثير الحفائظ ويبعث الحسد والضغينة في القلوب والنفوس، بينما انتقاء اصحاب هذه الطبقات، اقله فيما يتصل بالافراد، اخذ يتم بصورة اوسع، وبشكل ارحب، ووفقاً لقواعد واصول جديدة . وهكذا أطلّ على الدنيا ، في الحقلين الاقتصادي والاجتماعي ، طراز حياتي جديد، شاع وعم ولم يلبث ان رسخ في الارض واعرق. وكان من اسباب هذا الوضع ومن نتائجه ايضاً ان روما لم تشارك فيه على قدم المساواة وبقيت محافظة على بعض ما كانت تتمتع به من امتيازات ، الا انها عولت الا يكون دورها فيه غير دور عاصمة تؤمن الانسجام بين الاجزاء المقومة وتجري بينها العدل بالسوية .

١ ـ الاقتصاد

والشعور الذي ساد الجميع ، هو ان الحياة الاقتصادية تميزت ، خلال هذين القرنين، بالانطلاق والازدهار . هنالك ، لعمري ، نقط سود في الصورة : أُفول نجم ايطاليا ، وتشابك التبادل

والعطاء مما لا بد منه لتأمين شيء من التوازن المرغوب ، وعدم الاستقرار في ما كان عليه الوضع من سرعة العطب . الا انه لم يحدث شيء مهدد للآن ، والازمة الايطالية التي استشعر الناس قرب وقوعها وثقل وطأتها ، امكن ايجاد مُلطّف وقتي لها ، اذا ما امتنع الدواء . فساد الهدوء والاطمئنان القسم الاكبر من القرن الثاني، بحيث اصبح جائزاً القول بطلوع شعور عام بالرضى والارتياح .

هموم الحكام وهواجسهم : روما والجيش

راح معاصرو العهد يعزون الفضل في هذا كله للادارة الامبراطورية ، ولا سيما للاباطرة انفسهم، وهم في ذلك انما يرددون ما تنفخ به ابواق الدعاوة الرسمية . الا اننا لا نستطيع ان نعزو ذلك اليهم الا بالمداورة، نتيجة فرعية لسياستهم الحربية والادارية . فقد احترزوا كثيراً من تطبيق سياسة اقتصادية ، ولا سيما من وضع فلسفة اقتصادية . ولعل خير ما كانوا يرجونه الا يتدخلوا في امور وموضوعات كثيراً ما اعوزتهم الحيلة لمعالجتها بعلم واصول . وما كانوا أرغموا للتمرس بمثل هذه الأمور لولا اضطرارهم لمواجهة قضيتين عصيبتين هما : تأمين تموين روما ، وتموين الجيش الروماني .

فقد كانت روما ، اذ ذاك ، مدينة ضخمة جبارة ، اختلف المؤرخون وتباينوا كثيراً فيما بينهم ، حول عدد سكانها ، وذلك لقلة المصادر الركينة التي يصح الاعتماد عليها . فقد فرّط بعضهم وراح يقترح ٢٠٠٠٠٠٠ ، عدد سكان هذه المدينة ، بينما القول بمليون لم يكن بمستغرب قط . ومهما يكن من الامر ، فهذه الجماهير الجمهرة التي تعمر بها العاصمة ، لم تكن لتنتج كبير امر ، منذ عهد بعيد . فقد اقتصر نشاط اليد العاملة فيها على بعض مصنوعات يدوية لسد الحاجات المحلية . فالمدينة قبل كل شيء مستهلك ، أكول ، دون اي بديل او عوض . وهي الى هذا ، مستهلك ، ألف منذ عهد سحيق ، ان يعيش حياة رخيصة ، نظراً للتدابير التي كانت تتخذها الحكومة لتبقى اسعار الحنطة رخيصة، ولتوزع الطحين مجاناً على المواطنين الفقراء والمعوزين . ولما كان من المستحيل مجرد التفكير بقطع هذه التقاليد المرعية وضرب عرض الحائط بها : فروما سيدة العالم ، وهي في الصميم من هذه الفتوح الرومانية العريضة ، وما الى ذلك من مشاعر ومصالح واعتبارات تتعلق بهذه الجماهير التي ترى في الامبراطور الخليفة الشرعي للحزب الديموقراطي ، وممثل التريبون حامي الشعب ونصيره .

فكان على الامبراطور ، والحالة هذه ، ان ينظم على احسن وجه ، مصلحة التجهيزات والتوريدات ، لتأمين أوَد العيش ، لما لا يقل عن ٢٠٠ ٠٠٠ او ما ينقص قليلاً عن هذا العدد ، في عهد اوغسطس ، من رؤساء الأجناس القاطنة في روما، الموزعين على ٤٥ دائرة، يتلقون على مدى ايام الشهر ، مجاناً ، كمية القمح اللازمة لاعالتهم . اما الباقون فكان على دائرة التموين ان تسعى جهدها لتأمين حاجاتهم بصورة منتظمة، وبأسعار مقبولة. اما في اوقات الفاقة والمجاعات،

كما حدث، سنة ١٩ مثلاً بعد الميلاد ، في عهد طيباريوس ، فكان الامبراطور يدفع مبلغاً للتجار لتأمين أسباب العيش للشعب .

كل هذا وما اليه ، الى جانب الاعياد والالعاب المعدّة للترفيه عن الشعب ، كالأعطيات التي توزع عيناً ، ومقدارها ٤٤٥ ديناراً في عهد اوغسطس وهو الرقم المألوف ، ثم ارتفعت الكمية في القرن الثاني بحيث تجاوزت ٦٥٠ في عهد ترايانوس ، وبلغت ١٠٠٠ في عهد هدريانوس ، لتنزل الى ٨٥٠ في عهد مارك اوريل ، واستقرت على ٨٠٠ في عهد كومود ، وهي مبالغ كانت توزع على المواطنين ، الذين لا يستفيدون من المساعدة المجانية ، اثناء بعض الاعياد . هذا فيما يتعلق بالمساعدات النقدية . اما من جهة الادارة الفنية ، فكان ذلك انما يعني إنشاء مفوضية التموين *Annone* ، ومصادرة وسائل النقل البحري ، واعداد أرصفة نهر التيبر وتجهيزها ، الى جانب تجهيز مرفأ مدينة اوستي ايضاً .

اما امر تموين الجيوش ، وتجهيزها بالعدد والعتاد ، فقد وضع الدوائر المعنية امام مسؤولية ثقيلة، كان حلها مع ذلك ابسط واسهل من تموين الشعب. فمجموع افراد الجيش المطلوب اعالتهم كان اقل بكثير من إعالة هذه الجماهير الشعبية التي يجب مساعدتها في روما . ثم ان هذا الجيش لم يكن مجتمعاً او محتشداً كهذه الجماهير المتراصة في روما والتي تعجز اخصب السهول المجاورة عن إشباعها ، بل كان موزعاً على الحدود: حاميات تحمي حمى الاراضي والمزدرَعات التي كانت تستغل في المؤخرة . وكان يكفي لتأمين حاجته ان يحصل من الولايات القريبة منه فائضاً كافياً من محصول الارض ، وان يؤمن نقله بحيث يصل للمستهلكين بسلام . فالمشكلة الاولى كان يمكن حلها بواسطة الدراهم . اما المشكلة الثانية ، وهي ادق وأصعب لوقوع هذه الحدود في منأىً بعيد عن البحر المتوسط وموانئه . وهذا ما دعا لشق طرقات برية عندما يتعذر النقل النهري . وفي سبيل هذا التجهيز وتأمين اسبابه المزدوجة الغرض – اذ ان الطرقات كانت تستعمل لنقل الجيوش ايضاً – امكن توفير اليد العاملة ، وذلك بتسخير افراد الجيش وتشغيلهم في شق الطرقات وتوسيعها .

العالم الروماني وجهاً لوجه مع مسؤولياته

وهذه المسؤوليات الحكومية، تقتضي للنهوض بها المال والاخصائيين . فاذا ما نظرنا اليها بمنظار العالم الروماني ، والمستوى الحضاري المادي الذي حققته بعض اجزاء هذا العالم، فلم تكن هذه المهام والمسؤوليات التي توجبها ، فوق طاقته ، اذا ما توفرت له ادارة حكيمة رشيدة . فالمال الذي كان لا بد منه لتحقيق هذا كله ، كانت توفره موارد البلاد الاقتصادية ، ولم يكن ليكلف عبئاً ثقيلاً عليها .

فباستثناء مصر التي بقيت خاضعة لنظام خاص من الاستقلال والاستثمار لا رحمة فيه للفلاح المصري ، كان الوضع القائم مؤاتياً لحياة اقتصادية ناعمة تعم جميع اطراف الامبراطورية ، لا سيما والاستقرار الذي تنعم به البلاد كان يشجع على القيام بهذه الجهود . فروما والجيش ألفا في الامبراطورية ، سوقاً للاستهلاك لا حدود لها تقريباً ، اذ كان من اتساع هذه الحاجات وتنوعها

ما يتطلب المزيد من انتاج محاصيل الارض . فالى جانب الحنطة التي كانت تؤلف اساس الغذاء وقِوام أوَد العيش، يجب ان نضيف محاصيل غذائية اخرى متنوعة يطلبها الكثيرون من الزبائن والمستهلكين ، ومقادير هائلة من المنسوجات والمصنوعات المعدنية التي يمكن نقلها على الطرق القائمة في جميع اطراف الامبراطورية .

فقد كانت روما قطب جذب ومركز ثقل هائل، لكل ما يمكن ان يبلغ في طريقه الى موانىء البحر الابيض المتوسط ، حتى ما كان منها من الكماليات الغالية الثمن ، لوجود اصحاب ثروات طائلة في احيائها وصروحها . اما قيام الجيوش: حاميات على اطراف الامبراطورية وحدودها المتاخمة لشعوب البرابرة ، فقد بعث في هذه الاقطار المتأخرة في تطورها عن ركب الحضارة ، نشاطاً عارماً لم تكن لتعرفه ، كان من بعض نتائجه الخيّرة ، احياء موات الارض وإعمارها ، وحرثها وتزايد السكان فيها ، وانشاء المصانع والمعامل في ارجائها . ثم ان إنشاء شبكة اتصال منتظمة الحلقات ، بين هـــذه الحدود والاقطار الواقعة في مؤخرتها امتدت الى اطراف البحر المتوسط الذي كان ، مع ايطاليــا ، واسطة العقد وملتقى الخطوط ، ساعد على إنشاء المجاري المائية او النهرية الكبرى والطرقات الرئيسية ، ومهّد السبيل امام حركــة تجارية جبارة ، لم تقتصر المبادلات فيها على بضائع الاستهلاك وحدها .

وهكذا ، فالنتيجة المحسوسة الكبرى التي تهم الى حد بعيد المؤرخين اليوم كما همت المعاصرين لهذه الحركة الاقتصادية ، تبلورت عن تشعب العلاقات التجارية وتشابكها، وضم الاقطار الشاسعة الواقعة على شواطىء البحر الابيض المتوسط الغربية الى الوحــدة الاقتصادية التي اقتصرت ، من قبل ، على شواطىء البحر المتوسط الشرقية ثم ربطتها الفتوحات الرومانية بقلب ايطاليـــا ، واخذت هذه الوحدة تتسع لتضم في نطاقها : قطاعــات الدانوب والرين ، وجنوبي ايكوسيا . وهكذا نرى البريطانيين يتجرون مع منطقة بوردو ، كما راح سكان مدينة آرل يتّجرون مع لبنان، في الوقت الذي كان فيه التجار السوريون يجوبون جميع اطراف العالم الروماني الذي كان قبل كل شيء وحدة سياسية وعسكرية ، لم يلبث ان اصبح وحدة تجارية واقتصادية ناشطة ، حيــة ، بفضل الروابط التي شدت دوانيه الى اقاصيه عبر البحر المتوسط .

التجارة ووسائلها التقنية

وهذا الازدهار التجاري توفرت له عوامل تقنية في غاية الملاءمــة . فمن مقومات هذا الازدهار ، هذه الامبراطورية المترامية الاطراف ، ذات الانتاج المتنوع ، والغلال المتعددة ، والمحاصيل الزراعية المختلفة ، والاساليب الصناعية المتباينة. وكان السفر والتجوال والرحلة في جميع أطرافها حر لجميع رعايا الامبراطورية، لا يحد من امكانات الرحلة إلا هذه الازدواجية في اللغة : اليونانية في الشرق ، واللاتينية في الغرب . ومع ذلـك لم تؤلف هذه الازدواجية عقبة كأداء، استعصى حلها . وانتقال المحاصيل الزراعية حظي بالحرية نفسها ، باستثناء الحبوب المصرية التي لم يكن الامبراطور يسمح بتصديرها لغير ايطاليا إلا في ما ندر . وكانت هـــذه المبادلات تخضع ، بالطبع ، لرسوم وضرائب لم تكن ابداً رسوم حماية ،

معتدلة في أقدارها ونسبها . من هذه الرسوم ، مثلاً ، رسم الدخولية وهو رسم كان يجبى عند مداخل بعض المدن ومنها رسم اقليمي *Portoria* ، تجبيه الدولة عندما تجتاز البضاعة شبكة طرق مركزية، كما لو مرّت في غاليا مثلاً ، بما فيها المقاطعات الألبية التي تفصل بينها وبين ايطاليا، او في اقليم آسيا الصغرى. كان معدل هذه الرسوم المختلفة يوضع على نسبة قيمة البضاعة المستوردة اوالمصدرة . وقد بلغ الحد الأعلى لهذا الرسم في صقلية ٥٪ مع انه قلما تجاوز ٢٫٥٠٪ عادة .

وقد أنشأت الدولة شبكة من الطرق الممتازة وتعهدتها بالصيانة والرعاية . وتبرز أهمية هذه

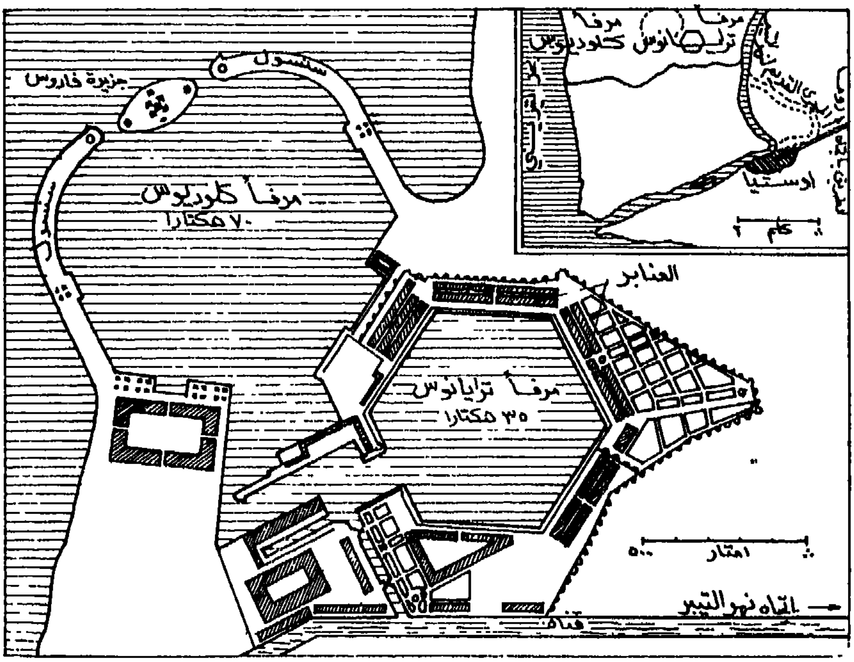

الشكل ١٠ – مرافىء أوستي القديمة
في هذا الرسم تظهر القناة المؤدية الى المرافىء القديمة وتدعى الفيوميسيو

الطرق اذا ما قارناها بما كان منها ، من قبل ، اذ كانت مجرد معالم مسالك تسلكها حيوانات الجر. وقد حقق مهندسو الطرقات إنجازات هندسية جبارة تُعد بحق، من المعجزات اذ ذاك، لتخطي بعض النواتىء الطبيعية ، من جبال ووديان ومنحدرات صعبة الاجتياز . كما ان هـذه الأعمال الهندسية كانت مثالاً للجرأة. فكل عهد من عهود الإباطرة الرومانيين الذين تعاقبوا على الحكم ترك آثاره المعمارية البارزة التي تحدت الدهر في بقائها ، ولا يزال بعضها ماثلاً للعيان حتى يومنا هذا . ولكن حذار من ان نضخم أكثر مما يجب ، واقعاً متحيزاً ، لا نزال نطأطىء الرأس امام روعته . فالخرصانة الرومانية (الباطون) التي اقتضت من المهندسين جهداً كبيراً من الحيلة والتصور ، لم يعتمد عليها في رصف الطرقات، فاستعاضوا عنها بالبلاط القوي المقصوب، يرصفون

به الطرق رصفاً جميلاً. كذلك لم تأتِ وسائل استخدام الحصان كحيوان للجر والنقل على مستوى النجاحات التي حققها الفن الروماني في مجال بنـــاء الطرق . فبيطرة حيوانات الجر بقيت عادة محدودة لم يشع استعمالها . وطريقة كدن الحصان الى العربة لم تعرف، على ما يظهر استعمال طوق المنكبين ، بل استمروا في استعمال سيور يؤثر ضغطهـــا على صدر الحيوان وحركة تنفسه. ولذا قلما زادت حمولة عربة يجرها جوادان على ٥٠٠ كيلو غرام ، وهي كمية قليلة تبهظها تكاليف السفر والرسوم وترهقها . فالطرقات الامبراطورية التي كانت تبعث في النفس الدهش والإعجاب لانسيابها في صراط قويم غير مبالية بالنواتىء الطبيعية، كانت تصلح لتنقلات الجيوش والمسافرين الذين لم يكونوا ليحملوا معهم مهاماً كثيرة ، كما تصلح لسير البريد الذي ينقل المخابرات الادارية .

ولهذا راحت الحركة التجارية تعول بالأكثر، على النقل البحري. فقامت عمارات وأساطيل يقودها بجذفون ، تذرع مجاري الأنهر ذهاباً وإياباً ، حتى ما كان منها صعب المسالك ، عسير المرتقى كنهر الرون ونهر الأود . ولو اقتضى الامر جر السفن بالليان او نقل البضائع على الظهر . فمن الغريب جـــداً ألا يعمد المهندسون الرومان ، الذين عرفوا بجرأتهم ومغامراتهم في مجالات التعمير ومرافق أخرى ، الى حفر الترع والأقنية . ومن الأقنيـــة القليلة التي عرفت عنهم ، قناة تتعلق بمجرى الرين الاسفل ، ولا سيما القناة المعروفـــة اليوم باسم إيسّيل التي كانت تربط النهر المذكور ببحيرة فليفو *Flévo* المعروفة اليوم ببحيرة زويدرزيه .

وعرفت الملاحة في البحر المتوسط ازدهاراً غريباً، بعد ان قُضي او كاد ، على اعمال القرصنة التي تعرضت لها ، وذلـــك بفضل يقظة البوليس وحراسته الصارمة للطرق والمسالك البحرية . فالسفانة لم تسجل تقدماً ملموساً ، وبقي حجم السفن على مثل ما وضعته عمارة السفن البحرية في تلك العصور ، اذ كان ، على الاجمـــال متوسطاً ، باستثناء الاسطول الخاص بدائرة التموين ونقل الحبوب من مصر الى ايطاليا ، اذ كانت هندسة هذه السفن تخضع لتصميم خاص اتى «بلين الأكبر» على وصفه، حتى ما كان منها معداً لنقل مسلة فرعونية او قاعدة تمثال لا يقل وزنه عن ٥٠٠ طن ، بقطع النظر عن صابورة السفينـــة التي كانت تبلغ احياناً ٨٠٠ طن ، وهي ، على الاجمال ، من العدس . اما الترعـة التي شقت برزخ كورنتس لتفادي الدوران حول شبه جزيرة البيلوبونيز ، والتي وضع تصميمها قيصر ، وتابع نيرون العمل فيها ، فلم يتم انجازها . وقد أدى إعداد المرافىء : البحرية منها والنهرية ، وتهيئتها ، الى اشغال عظيمة ، حذا فيها المهندسون الرومان حذو اسلافهم المهندسين الاغريق ، وبزّوهم في اشياء كثيرة . ولم تبلغ هذه الاشغال من العظمة والجهد ما بلغه إعداد مرفأ مدينة اوستي وهو مرفأ روما المفضل . ولا تزال ماثلة للعيان معالم الإنشاءات الجبارة التي قام بها هؤلاء المهندسون على شواطىء ايطاليا والشرق الادنى ، في مواقع على سيف البحر ، مثـــل شلتوميليه ، وتير"اسينا ، وترابيزو واسكندرية–ترواد ، وبمبيوبوليس في كيليكية ، وبقايا الارصفة الضخمة التي اقاموها لكسر قوة الامواج المهتاجة ، والجزر الاصطناعية ، والمنائر الكبيرة ، والارصفة التي اقاموها في وجه الامواج العاتية . ولعل

غلطتهم الكبيرة هي انهم لم يفطنوا للحؤول دون غشيان الرمول لاحواض السفن ، او لترسب مياه الانهر . فما من مرفأ من هذه المرافىء عرف مدى كالمدى الذي عرفه ميناء الاسكندرية ، اذ كان تيار مائي يحول دون غشيانه بطمي النيل .

النقد الرومـــاني والعملات المستعملة

قام في خدمة التجارة ، حتى اواخر القرن الثاني ، نقد روماني قوي، سليم. فقد اجيز لعدد من المدن الكبرى في الشرق نعمت بالرعوية الرومانية ، سك بعض النقود من البرونز والفضة . ومثل هذا الامتياز الذي كان قابل الالغاء، خضع بطبيعته ، لمراقبة شديدة من قبل السلطات الرومانية . والتعامل بهذه العملات التي وصفها علماء النميّات في عصرنا هذا « بالمسكوكات » الاستعمارية ، وكان التعامل بها في نطاق ضيق ، فتح المجال امام اعمال صرافة محلية عرفت الحركة التجارية العامة ان تتفاداها بيسر، لوفرة النقد الرسمي المتداول بين الناس أماكن سكته.

فالعملة البرونزية كان سكها حقاً محصوراً بمجلس الشيوخ، ويخضع بالتالي، لمراقبة شديدة من قبل الادارة الامبراطورية لانها كانت عملة رسمية للدولة . وهكذا عرفوا ان يتفادوا ، في آن واحد ، تضخم النقد وهبوط قيمته. اما هبوط قيمته ، فقد اعتُمد في تفاديها خليط من الرصاص والزنك مع النحاس والقصدير . فقطعة البرونز المثاليـة كانت قطعة الـ *Sesterce* التي كانت تساوي ربع دينار فضة . وهذه القطعة بقيت الوحدة الاساسية في التداول ، حتى في المبـــالغ الكبرى ، اقله في ايطاليا والغرب .

واحتفظ الامبراطور لنفسه بحق سك العملة الذهبيـــة والفضية ، ممثلة بريال الذهب ، والدينار . وقد طبق دوماً ، خلال هذين القرنين ، القرار الذي صدر في عهـد اوغسطس بجعل قيمة ريال الذهب تساوي ٢٥ ديناراً ، بالرغم من التطورات التي لحقت، فيما بعد ، بهاتين العملتين بنسبة الواحدة الى الاخرى، وكان من جراء سيطرة الامبراطوريةعلى مناجم الذهب في مقاطعة داسيا ، بعد فتحها على يد الامبراطور ترايانوس ، ان اضعف القيمة الشرائية لعملة الذهب ، التي بعد ان كانت ١٢ ضعف قيمة الفضة ، في عهد اوغسطس ، اذ بها تهبط الى ٩ اضعاف. وهذا بعينه يفسر لنا الهبوط الذي لحق بالدينار من حيث وزنه وعياره. فاذا ما بقي عيار ريال الذهب عالياً ، اي بنسبة ٩٦ ./. ، واذا كان وزنه لم يهبط الا بنسبة عشرة في المائة ، فالهبوط الذي لحق بالدينار كان أشد ، لا سيا ما تعلق منه بالعيار ، اذ سقط من ٩٨ ./. في عهد اوغسطس ، الى ٨٨ ./. منذ مطلع القرن الثاني .

هذه المعطيات والارقام التي اتينا على ذكرهـا اعلاه ، تثبت بوضوح ، ان الاباطرة ، عموماً، باستثناء الامبراطور نيرون، لم يلجأوا الى المضاربات والتلاعب بالنقد للتخلص من الصعوبات المالية التي كانوا يعانونها ، وهي صعوبات طفيفة ، غير ذات بال على الاجمـــال ، الى عهد مارك اوريل ، فصادفت الامبراطورية الرومانية ، اذ ذاك ، من جميع الوجوه ، صعوبات ارغمتها على الاخذ بالتضخم المالي الذي صحبه هبوط مريع في عيار الدينار .

بالرغم من تنوع ولاياته وتباعدها وتنائيها ، بقي العالم الروماني قبل كل شيء، عالم البحر المتوسط، وان أطلّت بعض اقاليمه على المحيط الاطلسي. وهـــذا العالم الشاسع الفسيح كان اعجز من ان يشبع مطلب الطبقات الاجتماعية وحاجاتهـــا لبعض المنتوجـــات والمحاصيل التي تصنع في الخارج ، وهي منتوجات ، استبدت باذواق هذه الطبقة المرفهة ، المترفة ، التي نما فيها هذا الترف خلال اتصالاتها الطويلة العهد بسراة الشرق الهليني وأغنيائهم ، فتطبعت باذواقهم وتخلقت باخلاقهم وعاداتهم . هنالك لعمري ، اقطار ومدن عرفت الاتجار مع هذه الأقطار النائية فكان ذلك باعثاً على ازدهارهـــا وغناها . فقطع هذه الاصناف عن رومـــا فيه ذهاب هذه الثروات عن اهلها . وهكذا اكتملت التجارة في الداخل بحركة تجارية في الخارج لم يكن ليستهان بها، وان كانت دون الاولى اهمية وشأناً. وهذه التجارة الدولية ، على نشاطها، اكثر من دليل وبرهان، في اكثر من مصدر ومرجع ، كما عليها اكثر من دليل ، في هذه الآثار المادية التي خلّفتها ، اذ نجد في بعض انحاء الامبراطورية حاجيات اجنبية الصنع ، كما نجد نقوداً وعملات رومانية من جميع الفئات في بلدان اجنبية مختلفة .

وهكذا راح المؤرخون يدرسون اليوم ويبحثون قضية الميزان التجاري في الامبراطورية الرومانية . والأمر الذي لا شك فيه هو ان الميزان التجاري كان يشكو عجزاً تسبب في خروج المعادن الثمينة من البلاد وانسرابها الى الخارج . ويرى بعضهم ان حركة نزوح الاموال هذه ، بلغت من الشدّة بحيث نشأ عنها هبوط اقتصادي محسوس .

فالاتجار مع شمالي اوروبا وشرقيها لم يسجل اي هبوط من هذا الشكل. فبعد ان كان العنبر (الكهربا) يتبع في انتقاله ، طرقاً شتى ، كان ينتهي به المطاف الى ايطاليا عن طريق مدينة اكيليه التي بقيت، حقبة طويلة ، عقدة للمواصلات التجارية مع بلدان الدانوب. وقامت في القرن الثاني حركة تجارية انطلقت رأساً من بلدان نهر الرين الاعلى باتجاه الدانوب ، كما ان بلاد غاليـــا الشمالية كانت تصدّر على نطاق واسع ملاقطها ومشابكها الموشاة بالمينـــا . واخذ الغز او السكيثيون ، في جنوبي روسيا ، يصدرون عن طريق نهر الدانوب الاسفل ومرافىء البحر الاسود اليونانية ، الى جانب القمح والسمك المعد لاستهلاك الجيران الاقربين ، الفراء والرقيق ، ثم تنقل هذه السلع الى الموانىء النائيـــة . وكان هؤلاء الاقوام يحرصون على شراء المشابك ومصنوعات الخزف والزجاج ، اذ نجد بعضاً منها في القبور والمدافن التي عثروا عليها في انحـــاء روسيا الجنوبية . كذلك نجد نقوداً رومانية السكة يجري التداول بها في القرن الثـــاني ، في اصقاع سكنديناڤيـــا اذ ان خروج مثل هذه العملات لم يكن يتسبب قط بنزيف مالي يهدد الامبراطورية الرومانية باي خطر .

وعلى هذا المنوال جرى الأمر مع اواسط افريقيا . فالتجارة عبر الصحراء الكبرى بقيت دوماً ، قليلة الشأن . فقد عوّلوا في النقل على الجمل ، مركبة الصحراء الأولى ، واتخذوا منـــه

الرواحل للتنقل بين الشرق والغرب ، فلم تبلغ هذه الحركة بعض الاهمية الا مع مطلع القرن الثالث . فالبدو الرحـــل في الصحراء ، كانوا قبل كل شيء ، اهل غزو وسلب ونهب ، ولذا لم يكن بالامكان تنظيم قوافـل تعمل على مواعيد منتظمة . والاستيراد اقتصر على شراء بعض أرقّـاء الزنج اذ كان اقتناؤهم من سمات الغنى والثراء ، يثير وجودهم لدى البعض الشهوة والرغبة عند البعض الآخر ، في اقتنائهم . كذلك كانوا يستوردون بعض حيوانات غريبة ، مرآها يثير دهش الجماهير وحيرتها . اما التجارة عن طريق صعيد مصر ، فكانت ناشطة ، كما ان الحبشة وبلاد اريثريا ألّـفت سوقاً رائجة لمصنوعات الاسكندرية تصدّر هي ، في المقابل ، الاخشاب الصلبة النادرة والعاج والذهب ، وغير ذلك من انتاج تلك البلاد ، الامر الذي جعل الميزان التجاري مع هذا الجانب من الارض حسناً .

اما الاتجار مع الشرق الاقصى ، فقد ألّـف المشكلة الكبرى ، اذ كانت الطبقة الثرية في روما تسعى وراء محاصيل تلك البلاد النائية الثمينة . فإلى جانب الطيوب والعطور والروائح الزكية ، والبخور والمر والافاويه على انواعها ، والحجارة الكريمة ، واللآلىء والماس ، وكلها مواد كانت تستورد ، منذ عهد بعيد ، من بلاد العرب والهند وأقطار آسيا الجنوبية الشرقية ، يجب ان نضبط الآن ، بالرغم من احتجاج المتزمتين من الاخلاقيين ونواهي الامبراطور بمنع الرجال عن لبسه وارتدائه ، الحرير الذي كان يستورد من الصين . وكانت هـــذه البضائع الخفيفة الوزن ، والغالية الثمن ، تدرّ ارباحاً طائلة اذ كانت تباع بأسعار لا تعرف حداً إلا ما يضعه لها المترفون ممن ألِفوا اقتناءها وأطلقوا العنان في امتلاكها . ولذا كانت هذه السلعة الغالية تتحمل بسهولة ، نفقات النقـــل : رسوماً وضرائب متعددة وعمولة الوسطاء . ولذا نشبت منافسة شديدة حول استعمال الطرق التي تتبعها في سبيلها نحو الغرب ، والمشرفين عليها والمتحكمين بها (راجـــع شكل ٣٠ : طرق المواصلات بين اوروبا وآسيا) وهي اصناف وبضائع مـــن شأنها ان تثير أعنف الرغائب واقواهـــا وان تسيل اللعاب في حلوق طالبيها . فبعد ان رأت حكومة الامبراطورية نفسها ، عدم جدوى الحملة التي شنتها عـــلى هذه الكماليات ، راحت تترك الحرية لرعاياها والواقعين تحت حمايتها للاتجار بها ، ثم اخذت تشجعهم وتدافع عنهم ، ولو بقوة السلاح احياناً ، وهي الدولة التي لم يكن يهمها التدخل في الشؤون الاقتصادية .

وكانت مملكة الفارثيين التي خلفت السلوقيين وحلت بسيطرتها محلهم على بابل وقسم مـــن ايران ، تهيمن على عدد من هذه الطرق التي تسلكها التجارة مع الصين . وكانت احدى هـــذه الطرق البرية تجتاز ايران من الغرب والشمال لتصل الى مدينة مرو في ولاية مراغا ، ومنها تتفرع الى مفترق يتجه احدها نحو التركستان والآخر نحو الهند عن طريق كابول . وهنالـــك طريق بحرية كانت تنطلق من مصب دجلة والفرات (شط العرب) فتصل الى مصب نهر الهندوس . ولكي نفهم حقيقة هـــذه الحروب القاسية التي قامت ، غِبّاً ، بين الفارثيين وترايانوس على الاخص ، ثم تتابعت متواصلة بينهم وبـــين مارك اوريل ، يجب ألا نهمل من حسابنا الدور

الكبير الذي لعبه فيها اعداء الامبراطورية من وراء الكواليس الذين كانوا وسطاء هذه التجارة وعملاءها .

هنالك امبراطرة اكثر تمسكاً بأهداب السلام ، اهتموا بهذه القضية وراحوا يبحثون عمن يغنيهم مؤونة هؤلاء الوسطاء. فاتجهوا بأنظارهم شطر البحر الاسود بعد ان اهمل الاغريق امره، غب تدويخهم لايران وفتحهم لها . وما الكتاب الذي وضعه المؤرخ تيريان بعنوان: « رحلة حول البحر الاسود » سوى تقرير منفصل رفعه صاحبه الى الامبراطور هدريانوس، هو حلقة في سلسلة من هذه البحوث حول هـذا الموضوع ، سبقها كما عقبها محاولات اخرى . فبعد ان يبلغ التجار التركستان متجنبين بحر قزوين شمالاً او عابرين له، يتجهون منه شمالاً نحو مجرى نهر الاوكسوس القديم (امودارِيا اليوم) ليلتقوا بالتجار الصينين القادمين من لوب – نور . وهنالـك سبيل آخر لتفادي طريق الفارثيين ، وذلك باتخاذ مسالك الجنوب . فقد اتاحت الرياح الموسمية ، منذ عهد بعيد ، قيام علاقات بين بلاد العرب والهند ، عادت عليهم بأرباح ومغانم طائلة . فقـام اوغسطس بتجريدة كبيرة ضد العربية السعيدة بين المدينة وعدن. وبعد فشل هذه الحملة انصرف الرومان لتنظيم علاقات تجارية انطلقت من الموانىء المصرية الواقعـة على البحر الأحمر ، مثل ميوس هورموس على مقربـة من خليج السويس ، وبَرَنيكي ، الواقعة على موازاة اسوان ، فربطت هذه الموانىء مع الهند مباشرة ، او عن طريق الاسكلة التي قامت الى الجنوب من شبه الجزيرة العربية قبل الإيغال في مضيق باب المندب . ويُعزى الى احـد البحارة الإغريق المدعو هيبالوس اكتشافه الرياح الموسمية في الصيف ، هذه الرياح التي عرفت بموسمية الصيف . اما تاريخ هذا الكشف الجغرافي ففيه نظر ، اذ يرجع بعضهم به الى اواخر القرن الثاني ق . م ، بينما يردّه البعض الآخر ، الى بدء ظهور النصرانية ، وهو الاصح على ما يراه الثابتون في العلم.

وعلى هذا الشكل استطاعت السفن الرومانية بلوغ الهند وسيلان والوصول منها الى الهند الصينية . ويذكر الجغرافي المؤرخ اليوناني بطليموس أقصى نقطة انتهى اليها البحارة الرومان : كاتّيغارا الواقعة ما وراء كيرسونيز الذهب،وهي شبه جزيرة الملايو، ولعلها التونكين او الصين الجنوبية .فقد عثر على حوائج واغراض من صنع الرومان ، في ضواحي مدينة بُنديشري في الهند، وعند مداخل « اوك ـ ايو »في الكوشنصين، وفي هذا دليل على ان بعض التجار الغربيين بلغوا في رحلاتهم البعيدة ، هذه المناطق النائية ، وان لم ينشئوا لهم فيها مستعمرات ثابتـة . ويحدثنا التاريخ عن وفادتين ارسلها احد ملوك الهند ، تحملان هدايا سنية لاوغسطس وهو مخيم في بلدة تاراغون ، في اسبانيا ، وفي جزيرة ساموس ، عام ٢٥ و ٢٠ ق . م . وهنالك روايات تحدثنا عن سفارات اخرى وردت على ترايانوس وبعض خلفائه ، كما تحدثنا المروايات الصينية عن جهة اخرى من بلاد : تا ـ تسين التي كانت تقع فيما يرجحون ، عـلى شواطىء البحر المتوسط الشرقية ، وعن عاصمتها الكبيرة وصروحها الخمسة الشهيرة التي قد تكون مدينة انطاكيا بالذات وهي تنوه على الأخص بقدوم موفدين ، عام ١٦٦ ، أي في عهد الامبراطور مارك اوريل ، من

قبل آن ـ تون ، وبلوغهم الصين الجنوبية . والمعروف ان مارك اوريل الذي تبنّاه الامبراطور انطونين ، كان يحمل هـذا الاسم عندما جرى تبنيه . وليس مـا يمنع ان يكون هؤلاء تجاراً تكنـّوا بهذا الاسم الرسمي .

فالحركة التجارية ، التي قامت على هذه الطرقات ، بلغت شأواً مهمـاً ، ولا شك . ويقول سترابون ان ١٢٠ سفينة كانت تنطلق كل سنة ، في عهد اوغسطس ، من مدينـة ميوس هورموس في اتجاهات عديدة . والكتاب الذي ظهر تحت اسم : « رحلة في بحر اريثريا» (البحر الاحمر) ، كان يشير الى بعض السلع ، كالنبيذ والزجاج ، ومصنوعات معدنية متنوعة ،ويذكر بلين الكبير ان المرجان كان نادراً في جميع انحاء الامبراطورية ، لانه كان يصدّر الى الهند. وقطع الفخار والخزف الاحمر ، ذات الرسم النافر التي عثر عليها المنقبون في الاماكن الاثريـة في الشرق الاقصى ، تشهد على تصدير الادوات الفخارية . غير ان الصنّاع الهنـود تمكنوا من تقليد هذه الاصناف . كذلك عثر المنقبون في هذه المواقع الاثرية ، على بعض الحلى والجوهرات وان جاءت على نطاق ضيق جداً . وكان الرومان يقبضون ثمن هذه السلع معادن ثمينـة ويقدر بلين بـ ١٠٠ مليون سسترس (٢٥ مليون فرنك فرنسي من عملة ١٩١٤) مبلغ مـا يصدرونه من هذه الاصناف الى البلاد العربية والهند والصين ، كان نصفها يمر عبر البحر الاحمر. وكان سكان الهند ، يبحثون باهتمام ، عن النقد الروماني ، والعمـلة الامبراطورية ، ثم راحوا يقلدونها ويزوّرونهـا ايضاً ، اذ ان قطع الذهب الهندية كانت من نفس عيـار الريال الذهب الروماني ، حتى ان كلمة دينار *Denarius* اللاتينية الاصل انتقلت الى اللغـة السنسكريتية. واكثر العملات الرومانية التي يعثرون عليهـا اليوم في الشرق الاقصى ، يعود تاريخها الى مطلع العهد الامبراطوري ، اي الى هذا العهد بالذات الذي تنوّه به كتابات بلين وسترابون . ولكن فلنحذر الاستنتاج بسرعة لنقطع جازمين بأن التجارة خفّت حركتهـا بعد هذا العهد . فسكان الشرق علقت نفوسهم بهذه السلع ، وكانوا يحرصون الحرص كله على الحصول على ذات البضائع والمصنوعات التي ألِفوا تعاطيها .

وقد راح الأمبراطور طيباريوس يتململ ، أمام مجلس الشيوخ ، من أن ثروة الامبراطورية وغناها يتسربان الى البرابرة ، والى الاعداء ، ثمناً للحرير والحجارة الكريمة، والحلى والجوهرات التي كان الأغنياء يسعون وراءها ويتيهون بلبسها . غير ان طيباريوس الذي عُرف بروحـه التشاؤمية ، كان من هؤلاء النفر المترمتين المنقطعين عن معاشرة الناس . ولكي نتمكن مـن تقرير الأذى الذي لحق بتجارة الامبراطورية الرومانية لا بد لنـا من احصاءات دقيقة حول مقادير المعادن الثمينة المنتجة اذ ذاك ، ومقارنتها بما يتسرب منها للخارج . يبقى بعد هذا أن ليس بين هذه البضائع والسلع التي كانوا يتصيدونها بأغلى الاثمان ، ما كان ضرورياً ، فراحوا يسعون وراءها ترفاً ويتباهون بحملها. فقد حالت اخلاق العصر المتمكنة من النفوس ، دون امتثال الناس لتوصيات السلطة ونواهيها ، وفوّتت على الامبراطورية ، امكانية الاكتفاء الذاتي

المتوفرة لديها، وهكذا راحت طبقة غنية ثرية في روما تستسلم بكليتها لتيارات البذخ والاسراف والتنعم التي استبدت ، منذ القدم ، بالطبقات الثرية في الشرق .

الزراعة : قصور وسائلها التقنية

هذا الاكتفاء الذاتي توفرت امكاناته ، من حيث المبدأ ، في المجال الزراعي . ومع ذلك لم تستطع الامبراطورية ان تنسى يوماً ، او تتناسى ، خطر المجاعة الذي كان يطل عليها من وقت لآخر ، فيقلق منها البال ويقض مضجعها .

ليس من الخطل بشيء ان نرد اسباب هذا الخطر ودوافعه الى هذا الوضع الزري الذي كانت تتسكع فيه الاجهزة الزراعية وعتادها ، من الوجهتين العلمية والفنية . وتنقضي الأيام وتجري الأمور ، والزراعة ، كالصناعة ، في شبه دوامة تدور على نفسها ، ليس من تحسين او تكامل في الانتاج . وكيف تتطور ، وقد خيّل الى المسؤولين وعلية القوم ومن بيدهم الامر والتوجيه ، انهم انما يأتون إدّاً اذا ما هم خصوا شؤون الحياة الدنيا وضرورات العيش ومقتضياته ، ببعض الشيء من الجهد الكريم الذي بذلوه وجادوا به ، في هذه الانشاءات العظيمة التي اتوها ممثلة بهذه الموانىء والمباني ، والطرقات العريضة والصروح الشاهقة. وقد نظروا الى هذه الانشاءات ، ملوكاً كانوا ام نصراء للعلم ، كبيان لا بد منها لتأمين حاجة المدينة بالماء والغذاء ، يخلدون بانشائها ويبذلون في سبيلها ما أوتوا من قدرات وسخاء . فأمور عادية كاحياء موات الارض ، والفلاحة والزرع ومضاعفة الانتاج قمحاً وحنطة ، أمور لا تضفي على صاحبها الجاه ، ولا تعود عليه باي فخر ، ولا تجعله في مأتى العين ، او تشرئب اليه الأنظار . فقد جهلوا او تجاهلوا ان في هذا كله خير ما يترتب عليهم من مهمات ، وفي تحقيق هذه الامور ، اسمى المسؤوليات التي يضطلعون بها ، وان هذا الواجب يجب ان يعلو سواه من الواجبات المترتبة على ذوي السلطان . ولعل افتقارهم للاحصاءات حال دون بروز هذه القضايا امامهم بوضوح وجلاء . غير ان الكرب المزمن الذي عانت منه بعض مناطق الامبراطورية كان من شأنه ان يفتح عيونهم ويزيل الغشاء عن نواظرهم . ومما لا ريب فيه البتة ، ان القضية ازدادت تعقيداً وارتباكاً نظراً لما كانت عليه اليد العاملة من ندرة في أكثر من ولاية ، غير ان أسباب هذه الازمة كانت اجتماعية اكثر منها ديموغرافية . ولم يكن المستوى العلمي ، اذ ذاك ، ليضيق ذرعاً عن الحد من وطأة الحاجة الماسة لليد العاملة ، عن طريق تحسين انتاج العامل .

ففي هذه الاقطار المترامية الاطراف التي تألفت منها الامبراطورية الرومانية ، كان همهم الاكبر ، وحرصهم الاشد ، الا يقع اي تغيير في محل كان . فقد همّ الادارة الامبراطورية ان تُعنى بمصر وان تُسيّج حولها . او ليست مصر اهراء روما الاولى ؟ فترمم اقنيتها ، وتجفف غياضها ومستنقعاتها في ضواحي الفيوم . كل ذلك واجب محبب في سبيل تأمين عيش روما . فقد اقتصرت عناية الادارة على الترميم والاصلاح ، دون التفكير في التعمير والاحياء. فلا عجب ان يرتفع محصول البلاد وانتاجها ، في عهد الرومان ، على ما كان عليه في ايام دولة البطالسة .

صحيح ، هنالك تطورات ملحوظة ، لا ينكرها إلا كل عنيد مكابر ، برزت معالمها للعيان في كل من اسبانيا وغاليا . ولذا يصبح من نافل الامور التأكيد بان محاصيل هذه البلاد سجلت ارقاماً لم تسجل مثلها من قبل،لانه لم يسبق في تاريخها ان خطط احد لمثل هذه التنمية في الانتاج.

فاثارة هذه القوى والطاقات الطبيعية ، جاءت استجابة لوعي عفوي أكثر منها لتوجيه او تشجيع ، يجيئها من فوق ، وهو وعي مصدره الاستقرار والطمأنينة التامة ، وتحسين طرق المواصلات واصلاحها لتصدير السلع والبضائع الى بلاد بعيدة نائية،ونمو المدن وتطورها الاجتماعي، مما زاد من حاجاتها ومستلزمات العيش ، واخيراً هذا التفاعل السياسي والاقتصادي الذي مهّد السبيل لتلاقي الحضارات والبلدان النامية . والشيء الذي افتقر اليه الجميع ، لعمري ، في كل قطر ومصر ، مع انــه كان من حق الجميع ان يروه ماثلاً امام اعينهم ، محققاً ، لو ان الاباطرة الرومان اهتموا بتطبيق الاساليب والمناهج التي سبق لبعض الدول الهلينية، ان طبقتها في بلادها فأعطت بذلك المثل الصالح ، هو مساهمة الدولة ومعاضدتها لهذه الحركة ، قولاً وفعلاً ، نظرياً وعملياً ، على السواء. فالدولة حاولت دوماً،انما بتردد، وبشيء من الوجل ، ان تلطّف وتخفف من هول الخطر الجلل الجاثم على الصدور ، والفاغر ابداً شدقيه ، للانقضاض. والشيء الذي كان الجميع بحاجة اليه،هو رعاية هذه الطبقة الموجّهة التي كان في مقدورها ان توجه عمل الفنيين .

وهكذا لم يحدث ، على الاجمال ، أي تغيير جذري ولا أي انقلاب ثوري، في مرافق الزراعة يتبلور عن طلوع مزروعات جديــدة ، وبروز اساليب ومناهج جديدة ، وعدة فنية جديدة . فقلما نرى اعمالاً واسعة لاحياء موات الارض ، وان حدث شيء من هذا فندرته تعفو ذكره . وبدلاً من ذلك اخذت الطبقات الاجتماعية الممتازة ، ولا سيما الطبقة الارستوقراطية في مختلف الولايات ، بأسباب هــذه الرياضة البدنية وهي الصيد والقنص . فلم نرَ اعمال تجفيف ولا اشغال تصريف في البــلاد . فقد اقتصرت معظم أعمــال الري والسقاية ، عــلى المناطق نصف الصحراوية الواقعة على تخوم الامبراطورية الخارجية ، وذلك بدافع من اعتبارات عسكرية وسياسية اكثر منها زراعية . فنظام تحويل الاراضي ، كل ثلاث سنوات ، لم يسجل اي تطور ، كما بقي على حاله ايضاً نظام فلاحة الارض الموات. وهنالك لعمري، بعض النباتات او بالأحرى، بعض الاشجار تدخل الغرب . والكرمة ، هذه الغرسة الخاصة ببلدان حوض البحر المتوسط ، راح الرومان يزرعونها في أقاليم لا تصلح كثيراً لهـا . وهكذا استبدت زراعتها في مناطق لا تزال زراعة الكرمة مزدهرة فيها لليوم ، كما هي الحال في مقاطعة بوردوليه وبورغونيا ، مع ان هنالك من يزعم ، أن ظهور الكرمة في هذه الاقطار ، سبق عهد سيطرة الرومان عليهـا . كذلك ازدهرت زراعة الكرمة في وادي الرين والموزيل. فالحد الذي تقف عنده زراعة الكرمة في المانيا ، اليوم ، هو حد المقاطعات التي خضعت لسيطرة الامبراطورية وسيادتها . والكستنا انتشرت زراعتها في فرنسا ، كما أن شجرة الدراق أو « تفاح الفرُس » ، كما يلقبونها ، دخلت ايطاليا ، في أواسط القرن الاول للميلاد ، بنوعيها : الصيفي والخريفي .

وهكذا ، فالتطور الذي طرأ على الزراعة ، اقتصر ، في أجلى مظاهره ، على الانتعاش الذي عرفته زراعة الاشجار المثمرة ، وعلى البستنة . وكلاهما مدينان بهذه الحركة لنمو الحياة في المدينة ، ولزيادة الاستثمار في مرافق الزراعة الاخرى ، انما استثمار قلما جاء مدروساً أو موجهاً، اذ كان الاغنياء ينزعون ، اذا ما شغّلوا أموالهم في الارض ، لكسب المباهاة والجاه الاجتماعي والتأمين على أموالهم ، أكثر منه الى إنشاء مزروعات يسخون عليها بالمال والجهد والعمال ، يتعهدونها بعرق جبينهم ، لتؤتي أُتيَها ، لهم ولذراريهم من بعدهم . ومهما يكن من أمر هذا التطور ، فلم يُحدث، ولم يكن في مقدوره أن يُحْدِث أي تحسين في انتاج المواد الغذائية الاساسية ، أي الحنطة ، بل النتيجة الكبرى كانت في إشباع حاجات بعض الطبقات الاجتماعية على تنوعها ، ولا سيا ما قام منها في المدن .. وبهذا يمكن مقارنتها ، الى حد ما — مع الاحتفاظ بالنسبة — بالتوسع الذي بلغته التجارة الخارجية .

المجاعة : خطرها وواقعها

كان من بعض نتائج هذا التطور الذي لمسناه في بعض مرافق الزراعة ، أن وجد العالم الروماني نفسه ، في بحبوحة من الاثمار والفاكهة ، من أي نوع كانت ، ومن الزيت والخمور على ألوانها ومذاقاتها . بينما بقي انتاج القمح على غير انتظام ولا استقرار ، لا يوحي للأهلين بأي طمأنينة للغد الطالع . ومعالجة لهذا الوضع المتأرجح ، أصدر الامبراطور دومتيانوس الذي ندين له بالكثير من التشريعات العصرية ، مرسوماً حذّر بموجبه انشاء كروم جديدة في ايطاليا ، كما قضى بوجوب إتلاف نصف الموجود منها في الولايات الرومانية . إلا انه عدل هو نفسه عن تنفيذ قراره هذا ، استجابة منه لما لقيه قراره من المعارضة ، ولما أثاره من الاحتجاجات الصارخة ، وهو لو أراد العمل به لامتنع عليه التنفيذ لتجاوزه كثيراً امكانات الادارة التقنية . وابعد ما يمكن ان نذهب اليه في الافتراض ، هو ان الادارة تسلحت بهذا القرار لتحول دون إنشاء كروم جديدة او لتحد من توسيع رقعتها في البلاد . وهكذا لم تسجل أية نتيجة ملحوظة في هذا المضمار . فبالرغم من التحسينات التي أدخلت على أسباب النقل ووسائله ، عرفت البلاد ، خلال القرن الثاني ، ازمات مزعجة جرت عليها الوبال لشدتها وتكرارها .

وخطر المجاعة كان أشد بالطبع ، على الولايات الشرقية في الامبراطورية منه على الولايات الغربية . فالولايات التي عرفت دوماً ، بنقص انتاجها الزراعي وعدم كفايته ، أوصدت في وجهها اسواق التموين التي كانت تعول عليها ، منذ عهد بعيد . فمناطق البحر الاسود كانت تمد جيش الدانوب بحاجاته ، كما كانت بلاد ما بين النهرين ترزح تحت سيطرة الفارثيين . واحتفظت روما لنفسها بمحصول مصر وانتاجها ، بعد ان كان هذا الانتاج ، في ظل دولة البطالسة ، نعمة الممالك الهلينية وبركتها . كذلك احتفظت ايضاً بقمح افريقيا ، مع انه سبق لهذه الولاية ان ارسلت، في عهد مسّينسّا، شحنات من قمحها لمناطق بحر ايجه . وتتفق المصادر الادبية والنقائش الأثرية ، على التنويه بأخطار المجاعة التي كانت عرضة لها مقاطعات اليونان وآسيا الصغرى ، كما

تأتي على وصف التدابير المتخذة لتفادي مثل هذه الأزمات او للتخفيف من حدتها . من ذلك ، مثلاً ، ان تعهد الحكومة ، في أكثر الأحيان ، الى اغنياء القوم وكبار المتمولين بينهم في المدينة، بتدبير شؤون التموين والاعاشة بأسعار معقولة ، فتنعم عليهم بألقاب فخرية ورتب شرفية تضطرهم عند احتفائهم بها للانفاق بسخاء، كلٌ بحسب امكانياته. إلا انالادارة كثيراً ما اضطرت للجوء الى المصادرة .

بقطع النظر عن هذه الولايات التي كان انتاجها الزراعي يخضع لتقلبات الاقليم وتغييرات الأحوال الجوية ، عانت بعض مدن ايطاليا ، من وقت الى آخر من هذا الخطر الذي كان دوماً ماثلاً ، وعرفت القلق فريسة لهذه الهواجس . وكثيراً ما تحدثنا المصادر التاريخية التي لدينا عن مندوبي مصلحة التموين *Curatores Annone* الذين يشبهون ، الى حد بعيد، مراقبي الأسواق او مفتشي تجار الحبوب في الشرق الاغريقي . عرفت افريقيا ومصر، هما ايضاً، مثل هذه الأزمات من القحط والمجاعة ، نشأت عندهما ، على ما يظهر، ويرجح العارفون ، عن مصادرة كميات أكبر من انتاجها الزراعي . فالولايات الواقعة غربي الامبراطورية ، ومن بينها غاليا، في مقدورها ان تكفي نفسها بانتظام فتسد مطلب الاهلين كما كانت تلبي حاجات الجيوش المرابطة على مقربة منها وتمدها بالميرة اللازمة .

فاذا ما نظرنا الى وضع الامبراطورية في المجال الزراعي في كلا شطريها : الشرقي والغربي ، رأينا ان الحالة السائدة في كل منهما لم تكن مؤاتية لايطاليا قط ، التي لبثت باجماع المعاصرين ، منذ عهد طيباريوس ، فريسة سهلة للمجاعة . فقد انخفض انتاج الحبوب فيها منذ عهد بعيد ، إلا ان ازدهار زراعة الاشجار المثمرة اتاح لها ، منذ عهد اوغسطس ، تصدير كميات كبيرة منها ، استطاعت معها ان تتلافى حاجتها الشديدة للحنطة . غير ان تكاثر انتاج الفاكهة والأثمار في كل مكان راح ينافس المحصول الايطالي ، حتى في عقر دار المدن الايطالية وفي روما بالذات . وهكذا اصبح انحطاط مرافق الزراعة في ايطاليا ، شغل الحكومة الشاغل ومبعث هواجسها ، لا سيما بعد ان اصبحت شديدة الحساسية لكل قلق ، او لأي رسيس اضطراب يلوح في البلاد المجاورة .

والواقع الذي همّ الجميع هو وحدة العالم الروماني ، هذه الوحدة التي برزت على اشدها ، في هذه الحركة التجارية التي عمت جميع اقطار هذه الامبراطورية وشملت جميع ولاياتها واخذت بالاتساع والنمو . كانت مرافق الامبراطورية الزراعية ناشطة ولا شك ، على الاجمال ، غير انه ازدهار سريع العطب ، وسر عطبه ناتج ، شيء لا يصدق ، عن ازدهاره بالذات . وهذا الازدهار قوامه وفرة انتاج البلاد من الزيت والخمور ، وسلع الكماليات ونصف الكماليات . اما سر هذا الأزدهار فيكمن ، قبل كل شيء ، في امكانية تصريف هذا الانتاج وتنفيقه . وهذا نفسه قائم على مستوى رفاهية العيش الذي ينشط الاستهلاك ، كما يكمن في حسن شبكة المواصلات وأمنها . والذي زاد هذا الوضع حراجة ، القلق المستحوذ على النفوس في كثير من هذه الولايات،

لعجزها عن تأمين حاجتها من الحبوب . فحسن سير الجهاز الاداري ودقته ، مُرتهن دومــاً ، بعوامل متعددة ، غير مستقرة لا يمكن التحكم بهـا . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تؤدي الحوادث المؤسفة التي ألمت بالامبراطورية ، منذ اواخر القرن الثاني ، فارزحتها واقعدتها ، لأن تسبب لها بعض الشلل .

فقدان التجدد الصناعي وانعدامــه

والصناعة كالزراعة ، عانت ، هي الاخرى ، أعراض ركود فني وتقني ، ارزحتها فاقعدتها . فقد تم لمهندسي العصر ، في هذا المجـال ، من العلم والمهارات ، ما لو حاولوا معه ، صادقين ، وضع هذه المعلومات الفنية ، موضع التحييز والتحقيق ، بعزم واصول ، لكانوا احدثوا ثورة صناعية عارمة .

ويروي لنا المؤرخ «سويتون» كيف ان الامبراطور فسبسيانوس وعد مهندساً ميكانيكياً قدم اليه مشروعاً ادعى معه انه يستطيع نقل أعمدة ضخمة دون كبير كلفة ولا عناء الى ساحة الكابيتول، بإجزال سني العطاء ، بينما اعرض الامبراطور نفسه وضرب عرض الحـائط باختراع او اقتراح زعم صاحبه انه يمكن الامبراطور من « تدبير إعالة الشعب بيسر وسهولة » . قد يكون من المغري والمحرك للشجون ان نضفي على هذه النادرة قيمة رمزية فنفرض بداهة او نتصور عفواً ، ان هذا الاقتراح انما دار على انشاء مشاريع انسانية من شأنها كسب عطف الطبقات الموجهة ، او انه تبدى لصاحب الاقتراح ، بثاقب بصره ، ما يكن في بعض الآلة من قوة مدهشة تستطيع ان تأتي بالمعجزات ، غير ان تفرد هذه الطريقة يمنعنا من ألا نرى فيهـا اكثر من رمز او تورية للامكانات والطاقات الكامنة في بعض ميكانيكيات العصر ، اذ ذاك .

والحقيقة التي لا مراء فيها هي ان إعالة روما ومن فيها من طبقات كادحة ، يُرزح الدولة ويُفدحها ويؤلف وضعاً استثنائياً خاصاً . فاليد العاملة في جميع انحاء الامبراطورية ، وفي كل مرافق العمـل ، لم تكن لتفيض عن الحاجة ، ناهيك عن ان حاجات السوق الداخلية ، بقطع النظر عن الاسواق الخارجية ، كان يمكن توسيعها لو امكن تخفيض كلفة الانتاج بعض الشيء ، وجعلها بالتالي ، في متناول زبائن جدد .

وهــذا التفكير القديم الذي يكره انتــاج البضائع التي يتوقف تنفيقها على رغائب الزبائن بقي مسيطراً على الناس ، وان خفت وطأته ، مع انه بقي متحكماً بالاذهان في الشرق الهليني . ولم يبلغنا انه دخل الغرب ، ولم يَحُلْ، اقله في ايطاليا ابان العهد الجمهوري، دون انصراف بعض اصحاب رؤوس الاموال الى إنشاء معامل لصنع القرميد والطوب والخزف . وقد تألفت هــذه المعامل من وُرَش او مشاغل ، قامت جنباً الى جنب ، لكل واحد منها نشاطه وشأنه ويتولى ادارته والاشراف عليه مهني يتمتع بثقة صاحب المعمل . ومهما يكن ، فلم نرَ احداً يبذل صادقاً، أي جهد موصول في هذا الصدد، او يعوّل على رأس مال كبير، جعل نصب عينيه اكتشاف او اختراع آلات ميكانيكية جديدة ، او حاول ادخال تحسينات تذكر على ما كان منها قيـد الاستعمال .

فعمل من هـذا النوع كان جر على صاحبه ، لو وقع في بلاد اليونان ، العار والشنار ، ادبياً واجتماعياً .

فلا عجب ، والحالة هـذه ، ان تأتي النجاحات التقنية ضعيفة جداً ، ان لم نقل معدومة . فالطاحون المائي اخذ استعماله يطل على الناس ، مع ظهور المسيحية ، وإن تباطأ انتشاره . فتقارب الناس بعضاً من بعض بفضل هذا النمط الجديد من الحياة المشتركة ، وتواصل الاقطار بعضها من البعض ، على ما بينها من جهل الواحد للآخر ، بالرغم من تجاورها ، كل ذلك سهل ايضاً انتشار استعمال القوالب اليدوية والآلة . وقد عرفت التقاليد والاعراف المهنية المحلية ان تحافظ على نشاطها ، ولو جاءت مغايرة لكل منطق سليم . من ذلك ، مثلاً ، اختراعان تمّا على يد بعض الغاليين ، في ايطاليا الشمالية ، هما : برميل الخشب ، والمحراث ذي السكة . فبالرغم من المنافع الجزيلة التي كان في مكنتها توفيرها للناس ، فقد بقي القوم يعوّلون في شؤونهم المنزلية على الجرة السريعة العطب ، وعلى المحراث الخشبي الذي يكاد يخدش اديم التربة وسطحها البراني . فقد سجّلت كل مهنة او حرفة على حدة ، تطورات مدهشة . فصناعة الزجاج ، مثلاً ، استطاعت ان تسجل تقدماً محسوساً عن طريق انتقاء احسن ، للمواد الاولية التي تستخدمها ، واستعمال طريقة جديدة في النفخ او الإفراغ في القوالب ، فأخرجت للناس زجاجاً شفافاً متنوع الاشكال. غير ان انعدام البحث العلمي ، وعدم طلوع طرق ومذاهب فنية جديدة ، كل ذلك حمل الناس على الاعتصام بالتجربة الشخصية او الاكتفاء باحتذاء ما يسير عليه العمال الصناع من عدة وأساليب.

لامركزية صناعية

ومع ذلك ، برز النشاط الصناعي في العالم الروماني ، اذ ذاك ، على شكل ترك اثره العميق في الخواطر . نرى ولا شك ، ما بلغته ايطاليا من انحطاط صناعي ملحوظ ، منذ منتصف القرن الاول . فبعد ان كانت تصدّر ، في عهد اوغسطس ، الكثير من مصنوعاتها المعدنية والخزفية ، ان لم نقل النسيجية ، فقد فقدت كل قدرة صناعية وعجزت عن تقديم اي انتاج صناعي لتسويق السفن بعد تفريغ شحنها في الموانيء الايطالية . ومع ذلك ، فوضعها من هذا القبيل هو افضل بكثير مما كانت عليه مرافق الزراعة فيها ، اذ انها عرفت ان تحافظ على البقية الباقية لصناعة صغيرة تستطيع معها ان تلبي حاجاتها الاولية ، بينما نرى عدداً من الولايات الاخرى في الامبراطورية يعرض خدماته لاشباع مطالبها الاخرى . والمثير للعجب ، هو ، بالفعل ، هذا النشاط المتجدد او الجديد الذي نرى بوادره تطل على الولايات. فبعد ان نعم الشرق الاسيوي ومصر ، بالنظام ، وخيمت الطمأنينة على ربوعها ، انصرفت هذه الأقطار الى إنتاج هذه الكماليات التي عُرف بصنعها وانتاجها منذ القدم ، صنّاع مهرة ، وفرت لهم اسباب التمدن ، ما يحتاجون اليه من الخامات والمواد الاولية التي ترد من الخارج . اما الغرب ، فقد عرف نشاطاً وحركة من الازدهار لم يسبق ان عرف لها ، من قبل ، مثيلاً ، ولاسيما مقاطعة غاليا التي سرعان ما تعرفت الى اسرار الحرف اليدوية عن طريق ايطاليا وقد توفرت لهـا اليد العاملة الماهرة والخامات الاولية . وخير مثل على ذلك ، صناعة الخزف ، اعرق صناعات ايطاليـا واجددها طراً . فعند مطلع المسيحية ، كانت ايطاليا بلداً يصدر بكثرة مصنوعات

الفخار والخزف الموشى بالرسوم الناتئة. وما ان انتصف القرن الأول حتى نرى غاليا تبز ايطاليا بهذه الصناعة فتبلغ فيهـــا المرتبة الاولى ، ولاسيما مقاطعات الاقليم الجنوبي . فبرزت فواخير *La Graufesenque* (في مقاطعة افيرون) فغزت مصنوعاتها ايطاليا واخذت تنافسها في عقر دارها . فقد عثر المنقبون بين انقاض مدينة بومبيي التي انساحت تحت حمم بركان الفيزوف، في ثورانه التاريخي الفظيـع ، عام ٧٩ ، على صندوق مليء بالمصنوعات الخزفية في غاليا ، لم يكن فتح بعد . ولم يلبث ان انتقل مركز انتاج الخزف والفخار الى شمالي غاليا وتركز في مقاطعة الالزاس ، في رينانيا . وهذه اللامركزية الصناعية هي من الميزات العامة للصناعـة اذ ذاك فقد شملت المقاطعات التي تم فتحها منذ عهد قريب أو أخذت حديثاً باسباب الرقي والتطور، وراحت بدورها تساهم في هذا النشاط الصناعي الشامل . فافريقيا اخذت تصنع المصابيح وتصدرها الى الخارج . وهنالك مشروع استغلال مناجم الرصاص والقصدير في بريطانيـــا . كما راح الناس يستخرجون الذهب والحديد من مناجم داسيا . وهكذا قابل هبوط ايطاليـا الصناعي نشاط صناعي عم انحاء الامبراطورية وزاد من انتاج السلع على اختلافها .

الانتاج ومشكلاته

كل الدلائل والنتائج المسجلة تشير بوضوح الى ان هـذا الانتاج كان ضخماً . وكيف لا يكون ضخماً، ليستطيـع العالم الروماني ان يجهز جيوشه الجرارة، ويُلبّي حاجات تجارة عريضة ناشطة ، مع ما تستلزمه من وسائل النقل ، ويحقق مثل هـــذه الانجازات والمشروعات العامة، ويشيد مثل هذا العدد من المدن والصروح والفيلات، التي تفيض رفاهية ، وترفل بالبذخ والجاه العريضين، ويرفع مستوى الحياة لدى الطبقات المتوسطة ، اذا ما كان يفتقر للخامات الضرورية وللمواد الاولية اللازمة لمهرة الصناع ، فيخرجونها للناس ادوات وحاجيات؟ والثابت فعلاً ، ان نمو الانتاج وازدياده، واللامركزية الصناعية يصحبه دوماً هبوط في الجودة . فالمستوى الاجتماعي الوسط وذوق الزبائن انحط وهبط بعـــد الذي بلغ من اتساع وانتشار . وعلى هذا يجب ان نقيس تجربة اليد العاملة الآخذة بالازدياد وحرصها المتزايد عـلى التجويد والاتقان . ويكفينا دليلاً على ذلك تناقص صناعة الاوعية المنمقة امام ازدهار صناعة الخزف المطلي المحلى بالرسوم البارزة . ومقابل هذا تضاءلت صناعة الفخار الغليظ الصنع ، ذي الطينة الدكناء ، الخالي من كل حلية ، او على الاصح اقتصر استعماله على الطبقات الاجتماعيـــة الدنيا . وهذا شأن كل الحضارات المادية، فتدفع غاليا ما يترتب عليها دفعه مقابل كماليات لم يعد استعمالها مقصوراً على قلة ، او فئة صغيرة من الناس محظوظة .

ومع ذلك فالتوازن لا يزال غير مستقر ، اذ نرى ، منذ اواسط القرن الثـاني ، تطل علينا بعض البوادر التي جعلت فريقاً من الناس يستشعرون الخطر الطالع ويعمل جاهداً على تجنبه .

وبالفعل ، نرى الدولة تتدخل رسمياً لتنشيط الانتاج وتوجيهه وتنظيمه ، بعد ان كان تبدى لها انه من الافضل ترك شؤونه للمبادرة الفردية . فقد اتسعت املاك هذه الدولة واطيانها . فبعد ان كانت دوماً ، وبازدياد مطرد من كبار الملاكين ، فقد رأيناها تصبح بالفعل ، المالك الوحيد

للمناجم وللمقالع الحجرية المهمة، الموجودة في جميع اطراف الامبراطورية. فقد سارت من قبل، في استثمار الثروات الدفينة في بطن الارض، على تلزيها لعدد كبير من المتعهدين، بعد أن حددت مواصفات هذه الاستثمارات المتنوعة ، وحددت منها الحقوق والواجبات ، وذلك تسهيلاً منها لعملية مراقبة الملتزمين والمتعهدين ، الذين ترسو عليهم العطاءات . ثم لم تلبث ان اعتمدت طريقة الحكر وانتهجت في ادارته نظاماً عسكرياً ، اذ اسندت الى ضباط الجيش ، ادارة هذه الاحتكارات ومدها بما يلزم من الموظفين. وفي الوقت ذاته ، تطالعنا استثمارات عديدة للمقالع، كما نشهد تأسيس معامل وورشات عمل جديدة او استئناف العمل في ورشات قديمة ، عُهِد بادارتها الى عسكريين . وهكذا اخذت مؤسسات وفرق تضطلع بمهام اضافية جعلت منها بحق دوائر استثمار في المجال الصناعي . فاتساع نطاق هذا النهج الجديد في الاستثمار لا يبرره عدم اطمئنان الحكومة لهذه الفئة من المتعهدين والملتزمين، بل هو امر طبيعي تلتزمه كل ادارة ترغب في ادخال تحسينات على مناهجها والموظفين التابعين لها ، والاستفادة على وجه افضل ، من اوقات فراغ اليد العاملة في الجيش، بل يجب ان نرى فيه وسيلة لتفادي النقص في طبقة المتعهدين، كما يشهد على ذلك ، قانون صدر في عهد الامبراطور هدريانوس ، عثر عليه المنقبون في منطقة للمناجم ، تقع الى الجنوب من البرتغال .

والى هذا ، اخذت الدولة بتنمية علاقاتها مع النقابات العمالية والجمعيات المهنية وتوطيدها . فقد وقفت ، في البدء ، من هذه التكتلات المهنية ، موقف المتسامح المتساهل الذي اعترف بوجودها ، ثم اخذت تسبغ على بعض اعضائها انعامات خاصة انطلاقاً من الهيئات النقابية التي لها علاقة بتموين روما وتأمين وسائل إعاشتها ، لتشمل ، فيما بعد ، اصحاب السفن المتخصصة بنقل الحبوب والحنطة ، وذلك منذ عهد الامبراطور كلوديوس ، واصحاب الأفران والخبازين ، في عهد ترايانوس . فلا عجب ان تتقاضى بانتظام ، بعد هذا ، رسوماً خاصة من هؤلاء العمال ، وهي رسوم اتسمت بالاعتدال في بادىء الأمر. فاذا ما اضطرتها الأيام الى تعميم هذه الرسوم وزيادة وطأة هذه الضرائب ، فقد كان لها من مثل هذه السوابق ، حجة .

هنالك ايضاً ثورة اخرى تبرز بوادرها في هذه الحقبة بالذات ، لم تعتم ان قويت بسرعة وتضخمت وبقي اثرها ظاهراً في الاجيال التالية . فقد عرف الشرق ، منذ القدم ، مصانع وورشاً صغيرة ، قامت الى جانب الهياكل والمعابد الدينية المعروفة بوفرة غناها وبما تملكه من أملاك واقطان واسعة ، عمل فيها العديد من الفعلة والعمال في وضع لا يختلف كثيراً عن وضع الارقاء تقريباً . وقد بقيت هذه المشاغل تعمل بعد زوال معامل الخزف التي يملكها متمولون ايطاليون ، او انخفض نشاطها . وظهر في بعض الولايات الغربية ، خلال القرن الثاني ، كبار الملاكين ، ينشئون لهم على مقربة من استثماراتهم الزراعية ، مشاغل تعنى بصنع الاغراض والحاجيات الحديدية والانسجة ، صدّرت منتوجاتها الى مناطق نائية . فمن المشاغل الريفية التي انشئت في الشمال من غاليا ، خرجت هذه المشابك او الملاقط التي جرى تصديرها الى بلدان

وادي الدانوب ، بحيث استطاع العالم الاثري الفرنسي فرانز كومون ان يحدثنا بحق، ولو بصورة لا تخلو من الغلو ، عن « رئيس ورشة الحدادين » في مقاطعة الأردن . وكان من جملة أهداف هذه المشاغل ان يفيد صاحب الأرض من ايراد ارضه وخيراتها، فيستعمل خاماتها لما فيه مصلحته ونفع السكان الواقعين تحت حمايته ورعايته . وقد ينتهي مثل هذا التصرف العام الى اللامركزية الصناعية . كذلك من المستحيل الا نرى في هذا ايضاً دليلاً على ان الصناعة في المدن لم تكن لتفي بحاجات سكان الامبراطورية .

فعدم استقرار الوضع الاقتصادي في جميع أنحاء الامبراطورية كما تشير الى ذلك الحوادث التي أتينا على ذكرها،والنظر في الاسباب التي هيأتها ، كل ذلك من شأنه ان يضع المؤرخ امام مشكلة يتعذر تناولها بالنقد الدقيق ، لعدم توفر الاحصاءات اللازمة .فعليه ان يقنع من ذلك بانطباعات واحاسيس دون البراهين والادلة القاطعة . فقد رأينا ما كانت تعانيه البلاد من ركود تفشّى في جميع مرافقها . كذلك نوهنا بالوهن الذي عرف به التوازن الزراعي، وهي علة مزمنة لمدنية كل ما فيها يقوم على الزراعة التي تمد الانسان ليس بالمواد الغذائية فحسب ، بل ايضاً بالمواد الأولية الضرورة له : كالمنسوجات والجلود والخشب . ولا بد من الاشارة اخيراً الى ما كان عليه النظام العام من تشابك وتعقيد يتطلب انتظام المبادلات الدولية التي تتأثر بأقل الحوادث ، مهما كانت طفيفة . وبعد هذا الذي ذكرنا ، يبقى علينا ان نذكر أشياء أخرى كثيرة ، هي بالطبع أهم وأخطر ، بحيث نبحث عنها في غير النظام الاجتماعي الذي كان عليه المجتمع إذ ذاك .

٢ ـ المجتمع

جاءت الامبراطورية ثورية ، في نشأتها ودوافعها ، ولا سيا تلك التي أخرجتها من مصطرع الأحزاب التي مزّقت روما شر ممزق ، وأقامتها بعضاً على بعض ، وراحت تحاول حمل الثورة ونقلها بقضها وقضيضها ، الى المجتمع الروماني . فقد قامت ، اصلاً ضد مجلس الشيوخ ، فجردته من كل سلطة سياسية فعلية كانت له ، ثم اخذت بمصانعة الطبقة المشيخية وممالأتها بعد ان أبقت على امتيازاتها الفخرية وما جمعته من ثروات طائلة ، ان لم تبقِ على المرتبات التي كانت تدفعها لأصحاب هذه الطبقة . فهي لم تكن تتحسس، من حيث الاساس ، بأي موجدة أو حقد عليها ، انما وجدت نفسها ، عندما أطلت على الحياة ، امام وضع قائم شهد زوال الثروات المختزنة واضمحلالها، ابان الحرب الاهلية الماحقة، وقبلت بالامر الواقع لانها لم تكن لترضى بتجديد مثل هذه الثروات على حساب رعايا روما والمواطنين الرومانيين . وقد كان همها الاكبر ان تبقى الطبقات السفلى في روما ، ناعمة بالهدوء والسلام ، فلا تشكل لها عبئاً يبهظها ، طالما لا تستطيع التخلص منها، فعلى الاقل، الحد من خطرها باصطناعها . وهكذا بدا اوغسطس صاحب تجربة تشربت نفسه بنزعة محافظة . فما عسى ان يكون تصرف يوليوس قيصر لو كان محله ؟ شيئاً آخر ، ولا شك في ذلك ، مع الاعتراف بالعجز، على وجه التحديد ، فليس بين خلفاء اوغسطس من حاول

ان يجاريه او يبزه جرأةً في الاصلاح والتجديد ، فخضعوا في كل ما يتصل بالمجتمع الروماني ، لضغط الحوادث ، بدلاً من ان يعملوا وفقاً لتدابير حكيمة ، وخطة مرسومة .

وهكذا طلعت على العالم حركة تطورية لم تبلغ قط حد الثورة أو الانقلاب الجذري . فهذا المجتمع الذي قام في جمهورية ارستوقراطية ، بقي هو نفسه قائماً ، في عهد النظام الملكي ، كما ان المجتمع الذي ساد مدينة فاتحة ، غازية ، اصبح هو نفسه ، مجتمعاً لدولة كبيرة سادها النظام والانضباط .

وهذا التطور الذي تم تدريجياً ، أعرق في الارض ، ورسخ وطيداً بالفعل ، ولذا تحتم علينا ان نعرف المدى الذي بلغه ، والحدود التي وقف عندها .

١ ـ النظام الملكي واقع اجتماعي

وعلى رأس هذا المجتمع الروماني القديم قام ملك . وهذا الحادث البارز الذي يوجز وحده التاريخ الروماني في هذا العهد ، استأثر لعمري باهتمام الكتبة والمؤرخين القدامى الذين اطلعتهم ارفع طبقات المجتمع الروماني ، او خاطبوها في كتاباتهم . الا ان اعترافهم باهمية هذا الحادث لا يعني قط مقاسمة الاغلاط والمساوىء التي شابتهم .

الامبراطور

« الاول » بين المواطنين . فالامبراطور ، هو ايضاً ، الأول بين اشراف روما ورأس ارستوقراطيتها . وفي مقدمة هذه الارستوقراطية : آل يوليوس وآل كلوديوس الذين جمعوا المجد من اطرافه : حسباً ونسباً ونشباً . فالاسرة الامبراطورية التي توارثت الملك بعدهم وتعاقبت عليه ، خرجت من الارستوقراطية الايطالية الوسطى ، كالاسرة الفلافية ، او من بين مواطنين سكنوا الولايات القديمة ، كمعظم افراد الاسرة الانطونية ، محاولة جهدها الارتقاء لبلوغ مستواهم ومصافهم . فالانتماء الى الارستوقراطية هو من حق كل امبراطور جديد . فالامبراطور ليس بالواقع ، سوى سري او نبيل من سراة القوم ونبلائهم اضطلع بواجبات ومسؤوليات تفوق بكثير المسؤوليات والواجبات التي يضطلعون بها . وهكذا نراه بالفعل يبرز سريعاً عن الارستوقراطية ويتميز عنها، مع ان التقاليد والاعراف الرسمية تستمر على اعتباره واحداً منها . فهذا « الأول » لا مثيل له ولا كفاء البتة . فبدون ان نعود بالفكر الى ما كان عليه من تسام وما يتحلى به في طبيعته البشرية وشخصيته الدينية ، من افضلية على الناس طراً ، وبدون ان نأتي من جديد ، على تعداد رتبه ووظائفه وسلطاته ، وما كان يحف به من حرس وجنود ، وما يعمل في خدمته من موظفين ومأمورين ، فمن الجلي الواضح، انه على الصعيد الاجتماعي ، لا يمكن مقارنته ولا تصح مقابلته ، باي سليل لهذه الأسر الأرستوقراطية ، مهما سما او تعالى . فالثروة التي له ، والتي هي دوماً في ازدياد وارتفاع مطرد من جراء المواريث والمصادرات العديدة والفتوحات الواسعة ، تبز بكثير اية ثروة يمكن ان تتم لانسان ، اذ ان

خزينته الخاصة وخزينة الدولة التي يرأسها ويتصرف بها، لا تختلف الواحدة عن الاخرى بشيء، فهما تابعتان له . وهو الغني الاكبر ، والثري الامثل ، الذي يمكن بسخائه وجوده وكرمه ، ان يأتي العجب العجاب.

فهل من غرابة او دهشة ، بعد هذا ، ان تقوم حوله ، حاشية ، عريضة ، وان تلتف حواليه بطانة قوية ؟ ووجه العجب الوحيد في ان لا يكون لهذا البلاط عند تكوينه ونشأته ، ما بلغه ، فيما بعد ، من مهابة وفخامة وعظمة . وقد قيل : اذا عرف السبب زال العجب . علينا ان نحسب حساباً هنا للأصول التي انطلق منها نظام الملك الجديد ، والاتفاق الظاهري الذي جاء عربوناً له او رمزاً اليه . « فبيت » الامبراطور ، لا يمكن ان يرتفع على غير غرار البيوتات الارستوقراطية العليا ، ليصبح بعد ان يخضع لحركة تطورية تقدمية لا تقاوم ولا تضام « بلاطاً» حقيقياً ، شبيهاً من جميع الوجوه ، بالبلاطات الهلينية ، الا انه يحتفظ تقريباً ، في العهد الاول للامبراطورية ، بطابعه الاساسي . والى هذا ، فكلا المثالين تجمع بينهما اكثر من ميزة واحدة . فمنذ ان راح عظماء روما يتصلون، في القرن الثاني قبل الميلاد ، بهذه البلاطات الهلينية ، اخذوا يحتذون حذوها وينهجون على منوالها ، واضعين نصب اعينهم المستوى المادي لحياة ملوك الاغريق ، سواء لجهة رفاهية العيش ، او لجهة ما تحمله الملكية من رمز للرجل السوبرمان . فقد مثلت الملكية اليونانية في اعينهم الحضارة الرفيعة بالذات .

وكان لا بد من « بيت » للامبراطور ، في روما ، فشيد اوغسطس له صرحاً متواضعاً فوق رابية البلاتين حيث كان سبق لفريق من سراة الرومانيين، من بينهم شيشرون ، ان شيّدوا لهم عليها من قبل ، الصروح والحدائق الغناء . وما عتمت ان زالت هذه البيوتات الخاصة ، عندما راح طيباريوس وكاليغولا وغيرهما من اباطرة الاسرة الفلافية ، يشيدون لهم صروحاً عليها ؛ ولذا صارت رابية (*Palatin*) رابية الصروح *Palatium* والقصور ، ومنها اشتق الاصطلاح الفرنسي *Palais* – او المدينة الامبراطورية ، داخل العاصمة روما . وكأن هذا التوسع لم يكف اباطرة الاسرة اليوليو – الكلودية ، فقد توصلوا ، بطريقة او بأخرى ، الى امتلاك معظم الجنائن والحدائق الواقعة على هضبة الاسكلين. ثم اغتنم الامبراطور نيرون مناسبة حريق روما ، عام ٦٤ ، فاستولى على الاملاك الواقعة عليها وأنشأ محلها ما عرف في التاريخ بـ « الصرح الذهبي » وزيّنه بأبهى حلل الزينة ، بحيث ان قبة الصالة الكبرى ، وهي صالة الطعام ، كانت تدور على نفسها كالقبة الزرقاء ، ليل نهار ، بينما أنشأ له ، في الحديقة المجاورة ، بحيرة حاكت البحر في موانئها ومواقعها ، احاطت بها المباني إحاطة السوار بالمعصم ، متخذة شكل المدن ، يليها منظر ريفي أخاذ، تنسرب فيه الحقول والكروم والمراعي الخضراء ، وتسرح فيها وتمرح، قطعان الغنم ، وانواع الحيوان والطير . وقد اتضح فيما بعد ، ان هذه البقعة كانت حائلاً دون انتظام شبكة المواصلات . وما ان صار الامر الى الاسرة الإنطونية حتى بادر اباطرتها الى دك معالم هذه المباني ، وشق طرقات فسيحة فيها قامت على جوانبها المؤسسات والمباني العامة .

والى جانب هذه الابنية الرومانية الفخمة ، لم تلبث ان قامت فيلات حرص أغنيـــاء القوم في ايطاليا وسراتهم ، على تشييدها وفقاً للتقاليد المرعية . وحرص كل امبراطور على ان يكون له صرحه الخاص، وبعضهم عدة صروح، يتفنّنون في هندستها وعمارتها ما شاء لهم التفنن، حسب رغائبهم ونزواتهم ، ويشيدونها على شاطىء البحر او على هضاب منطقة اللاتيوم . وأشهر هذه الفيلات وأبهاها طراً ، الفيلا التي شيدها الامبراطور هدريانوس ، في تيبور *Tibor (Tivoli)* وراح يتفنن بحدائقها الغنـّاء بانشاء المناظر الطبيعية ، او المباني التاريخية التي ورد ذكرها على لسان الادباء والرحالة ، امثال الليسيه ، والاكاديمي، ورواق بيكيل *Poecile* في اثينا، ووادي تمبيه في تساليا ، وكانوب في دلتا النيل ، والجحيم عند قدماء اليونان .

وعبثاً تبحث في روما او في خارجها، عن «القصر» الامبراطوري او الملكي بالمعنى الحديث، الذي يستوقف منك النظر بمظهره الخارجي ، وبفخامة رياشة من الداخل ، يصلح بما فيه مـن اثاث وحُجر ، وصالات فسيحة ، لمظاهر الابهة والفخامة . فالامبراطورية لم تشيد بعد لنفسها ، مثل هذه المباني الفخمة . فهي لا تقيم منها إلا ما يؤمّن راحة المالــك سعيداً الفعلي او الرمزي معاً ، الا وهو الشعب ، فترتفع في طول البلاد وعرضها : الهياكل الضخمة ، والميادين الشاسعة ، والساحات العامة ، والحمامات والمسارح العظيمة . وأمثل هذه المسارح وأفخمها طراً « المسرح الفلافي » المعروف اليوم باسم الكوليزيه،. فقد احتل قسماً من قطعة الارض التي انشأ نيرون فوقهـا « صرحه الذهبي » . وبدلاً من قصر منيف ، يفكر الامبراطور بانشاء الحدائق الملكية التي تحاكي من قريب ، الحدائق التي قامت في العواصم الهلينية ، حيث كانت تطالعك المبــاني الفخمة ، تحيط بهـــا الحدائق السندسية . فاذا ما انعمنا النظر ملياً في هذه المنازل او البيوت الملكية رأينا لكل واحد منها شبيهاً او مثيلاً يضاهيها حسناً ورواء في هذه الفيلات التي يروح اصحابها يتنافسون في فن يبز الواحد منهم الآخر ، في زركشتها وتحليتها وتزويقها من الخارج والداخل. والفارق الاكبر الذي يميز منزل الملك عن غيره من منازل سراة القوم وعِلـّيتهم ، هو عدد الفيلات التي يملكها ، وتعاقبها الواحدة تلو الاخرى ، على هضبة البلاتين .

كذلك بقيت على نطاق ضيق مراسم الاستقبال الرسمية في القصر الامبراطوري . فالوصول الى الامبراطور ، والدنو منه ، والمثول بين يديه ، ميسور كل يوم ، لاصدقائه الخلص وخاصته ، ولاعضاء مجلس الشيوخ ، كما كانت ابواب قصره مفتوحة على مصراعيها ، للاستقبالات بالجملة في ايام الاعياد ، بأعداد كبيرة من الزوار. فهو يدعو من يشاء لتناول الطعام على مائدته ، كما يقبل بدون صعوبة ، الدعوات للخارج ، ويحرص ، مع كلوديوس ، على ان يرافقه ، فريق من حرسه الخاص، بينا نرى الامبراطور ترايانوس يضرب بهذه العادة ، عرض الحائط. فاذا ما نال اعضاء الاسرة الامبراطورية إنعامات وألقاباً ومراتب ، فليس عملاً بقاعدة مقررة ، او اخذاً بعادة مرعيــة . فالالقاب : « سيد وسيدة » (باليونانية كيريوس وكيريا) وباللاتينية دومينيوس ودومينا ، لم يجر العمل بها بصورة عامة ، مع وصول الاسرة الانطونية الى الملك ، عندما يوجه

الكلام الى الامبراطور او الى احد اقاربه. فلم تعتم هذه الالقاب ان عم استعمالها وانتشرت بين المجتمع المثقف . كذلك سرت بين هذه الطبقة عادة القبلة او التقبيل بعد ان ظهرت سوابق لها في البيئـــة الامبراطورية ، شجبها الامبراطور طيباريوس لانها تنقل عدوى الامراض الجلدية ، شأنها في ذلك شأن تقبيل اليـــد ، وكلا العادتين اغريقية الاصل والمنشأ . اما عادة ، السجود وتقبيل القدم التي شاء الامبراطور دومتيانوس فرضهما على زائريه ، فقد زالت بزواله وموته لانها مُحِطة من شأن المرء ومهينة له .

كل هذه الأمثلة والشواهد ، تدل صريحاً على أنه لم يكن هنالك أي فارق نوعي أوجوهري ، بين حيـــاة الأمبراطور الخاصة وحياة سراة الرومانيين وأغنيائهم . فالشبه القائم بين الجانبين ، الذي يمكن ملاحظته بسهولة ، إنما يعود ولا شك ، لاعتباره نظرياً على الأقل ، بأنه واحد من الرومانيين . وتستمر هذه المحاكاة على أساس من الزلفى والملق، فيسارع علِيّة القوم الى الاقتداء بالمَثَل الهابط من فوق احتذاء حذوه ، فيعتمد الناس في مخاطبتهم نيرون ، مثلاً وتوجيه الكلام اليه ، على الصور البيانية والمحسنات اللفظية والتوريات الشعرية وعلى التنغيم ، كما يعتمدون ، مع مارك أوريل ، الأسلوب الفلسفي . ويأخذ الرجال بارسال لحاهم تشبهاً بالامبراطور هدريانوس، كما أن النساء أخذن تأتم ، بزي الامبراطورة ، في لبسها وهندامهـــا ، فيأخذن بتصفيف الشعر وعقصه وتقصيبه ، وغير ذلك من الازياء التي تعتمدها الامبراطورة . كل هذه العادات انمـــا تدل دلالة واضحة الى التطورات التي ألـمّت بنمط الحياة في البلاط. وقد ساعدت على بقاء الامبراطور على الصعيد البشري وعلى احتفاظه بأعلى مستوى حياتي لأرفع الطبقات الاجتماعية في الامبراطورية.

بطانة الامبراطور

وهذا الامبراطور الذي يأتمّ الناس به في كل مـــا ينهج ويشرع ، هو أقوى الناس ، وأشدهم بأساً ، وأوفرهم غنىً وثروة . ليس في مقدور أحد أن يجاريه في ما ينهج ، وفارق الدرجة أو الرتبة بينه وبينهم ، بقطع النظر عما بينه وبينهم من فارق الجوهر ، أو الطبيعة ، يزداد بروزاً وظهوراً . وعلى شاكلة ملوك اليونان في العصر الهليني ، فهو قبلة أنظار الارستوقراطية الرومانية ، وموضوع تقليدها ومحاكاتهـا له ، نرى الامبراطور الذي في مقدوره وحده أن يعدلـهم وأن يبزّهم ، يأخـذ تحت حمايته ورعايته شؤون الفكر ، وحملة الأدب ، فيحتاط بعدد كبير منهم ، بين فلاسفة وخطباء وعلمـــاء ، ويجزل لهم العطاء والتكريم . ويعين لامراء العائلة المالكة مهذّبين ومربين لهم شهرتهم الواسعة ، ويتشدد في انتقائهم واصطفائهم ، فيعين الفيلسوف سنيكا مهذباً لنيرون ، والخطيب المفوّه كونتليانوس مربياً لدومتيانوس ، كما يختار من بين مشاهير الاساتذة في عهد مارك أورل ، المربيين: فرونتون وهيرودوس أتـيكوس. وإلى هذا العدد العديد من الاطباء الذين أوكل اليهم السهر على صحة رجال حاشيته ، فالامبراطور لا يحجم أمام أية تضحية ليُلحِق ببطانته أشهر نطس الاطباء ، إذ ذاك . وعندما رفـع الامبراطور كلوديوس ، الى ٥٠٠ ٠٠٠ سسترس (١٢٥ ألف فرنك فرنسي من عملة ١٩١٤)، فقد ضاعف المرتب الذي يُعطى عادة لطبيب الامبراطور، وذلك لكي

يحمـل الطبيب اسكلابيازيس ألكومي ليكون في عداد أطبائه الخاصة ، كما أصبح فيما بعد ، الطبيب المشهور جالينوس البرغامي *Gallien* الطبيب الاول للامبراطور مارك أوريل ، ثم للامبراطور كومود .

ومن باب التنويه بالفرق ، من حيث الرتبة او الدرجة، بين ما عليه بلاط الامبراطور وبطانة اغنى ثري من اثرياء الرومان ، في اواخر العهد الجمهوري ومطلع العهد الامبراطوري ، هذا العدد الذي لا يحصى ، من اصحـاب اللهو والتسري والحشم ، من كل لون وصنف ، والسراري ، والجواري ، والمهرجين والممثلين ، والمغنين والراقصات والقيمين على الالبسة الخـاصة بالممثلين والممثلات . وكان السواد الاعظم من هؤلاء الحشم والخدم عبيداً ارقـاء او من المعاتيق ، الذين انتقلوا الى حاشية الامبراطور في جملة ما انتقل اليه من مقتنيات وخدم بالوراثة، او أهدوا اليه متاعاً من قبل اقارب واصدقاء. وبين هذا الحشد عدد كبير من الاغريق او المشارقة المتأغرقين، صَقُلت طباعهم ، ورهفت اذواقهم ، فبزوا بعيـداً هؤلاء الغربيين الخشوشنين . فالاقاصيص والنوادر المستملحة التي نرى المؤرخ سويتون وواضعي كتاب : « تاريخ اوغسطس » يتندرون بروايتها، وقصائد الهجو والثلب التي يتبارى شعراء البلاط القول في بعضهم البعض، تملأ صفحات بكاملها مع .سماء الأشخاص التي قيلت فيهم هذه النوادر المضحكة . وبين سوانح الكلم هذه ما فيه عبرة وعظة ، اذ ان الغيرة على الاخـلاق حيناً ، والحسد احياناً ، اتخذ اداة للحنق او للاستشاطة ، لمرأى هذه الشواذات أو لهذه البدوات يأتيها بحضور ملك أبْطَرته النعمة ، أو أسكرته الكأس ، فريق من الناس جرّأهم الإغضـاء عن الخروج على المألوف ، كما شجعهم على ذلك ، تساهل الامبراطور مع خلانه ومحظياته ، وهذه الأعطيات الجزيلة ، والالقاب الفخرية العريضة التي يُنعم بها عليهم ، وهذه الدناءات والزلفى يأتيها المتملقون المدلسون الذين يشترون بدناءتهم أو بذهبهم مداخلات الملك لصالحهم. ونقرأ في هذه الكتب النوادر والنكات المستملحة حول بخل فسبسيانوس وخساسته ، اذ يرغم احد الاكارين العاملين في اسطبلاته ان يدفع له ، نصف ما قبضه من صاحب قضية ، تعويضاً لتسهيل مقابلة له مع الامبراطور ، او يصورونه لنا يبيع المقاعد ، بواسطة احدى محظياته ، هي انطونيـا تشانيس ، وهي أمَة أعتقتها والدة كلوديوس التي كانت ابنة انطونيوس من شقيقة اوغسطس .

في مقدورنا متابعة هذا السرد دون توقف، الى ما لا حد له. فاذا ما أسقطنا من هذا القصص، ما هو ثرثرة وهراء،يبقى مع ذلك، واقع مؤسف:هو هذا الدس، وهذه الموبقات المخجلةوالمجرمة احياناً . وكيف السبيل الى تجاهل هذا الزبد وهذه الرغوة الطافية التي تبرز في جو كل حاشية وبطانة ، حتى ما ليس منها بقديم ؟ والشيء المهم ، بعد هذا كله ، ان لا نقف عند هذا وحده ، بل ان نردّه الى مسبباته الحقيقية ، ألا وهو ضعف الطبيعة البشرية ، وعدم تدرع الناس بتهذيب صحيح ، وفقدان تقاليد ادارية في دولة حاول الامبراطور إنشاءها فراحوا يرتجلون لهـا ادارة قوية . وقد اضطروا ، بعد ان أرغمتهم الحاجة ، سيراً منهم مع العادات المرعية بين سراة القوم

في روما ، ان يلجأوا ، كما رأينا ، الى خدمات من لديهم من حشَم وخدم ، هم ، على الغالب ، ممن أعتقوهم من الرق . فلا نعرف في روما غير ثروة احـد الخاصة المدعو نرسيس التي بلغت ٤٠٠ مليون سسترس والتي راح جوفنال يقارنها بثروة قارون او بكنوز ملوك الفرس . غير ان « حكم دولة المعتقين » الذي ازدهر في عهد كلوديوس، زال وتوارى عن الأنظار عندما استطاعت الدولة ان تجهّز نفسها بالأُطر والملاكات الادارية التي كانت تفتقر اليها عند تأسيسها .

اصل كلمة « نظام »

فلنعد الى ما هو أسمى من هذا وأهم بكثير ، الى هذا الجهـد الموصول الذي انطلق من اوغسطس وبلغ ذروته مع الامبراطور هدريانوس فاستهدف تنظيم الطبقات الاجتماعية العليا وفقاً لمقتضيات حاجات الدولة ، من جهة ، وللخدمات التي باستطاعة هذه الطبقات ان تؤديها لها من جهة أخرى . وهـــذا الجهد كان الغرض منه تأمين الامتيازات والمنافع التي حلِمت هذه الطبقات دوماً بها،والمرتبات المعينة للوظائف العامة الموقوفة على اعضاء هذه الطبقات، ودخلاً كافياً للحفاظ على منزلتهم الاجتماعية . فتحقيق تكافؤ من هذا النوع كان ابداً من المثُل الرومانيـة القديمة التي دغدغت خواطر القوم منذ القِدم . فجاءت الامبراطورية الرومانية تجعل من هذه الرغائب نظاماً ، كما ان اضطرارها لإنشاء دولة لها هيكلها الاداري القويم ، أوجب عليها ، توفير الأسباب التي تساعد على تحقيق هـذه المثُل . وهكذا باشرت مهمتها وسارت في عملها على بركة الرحمن وأخذت تكمّله وتوسّع فيه الى ان استقامت لها ادارة بزت ما عُرف من أمثالها من قبل ، فيهـا الكثير من أساليب مصر الفرعونية كما ابتسرت بعض عناصر الـ « تشن » *Tchin* الروسي .

وهذه الطبقات الاجتماعيـة العليا تتألف من « منظمتين » هما المنظمة المشيخية او السناتوس ومنظمة الشفاليه. فالمصطلح « منظمة » او نظام جَروا على استعماله من قبل ، لا سيا عند التكلم عن الشيوخ الذين كانوا يسيرون على نهج يستوجب بالفعل مثل هذا الوصف او النعت . ويستبدّ هذا التعبير مع الاستعمال ويجري تطبيقه على هاتين الطبقتين الاجتماعيتين او هاتين المنظمتين ، اذ يتضمن دلالة جديدة لا تتوفر في كلمة « طبقة » او فئة . فاللفظ يفيد معنى النظام والتنظيم ، وهو عنصر اساسي ، مميز في حياة المنضوين الى هاتين الطبقتين ، اتضح مدلوله ، وبرز يخلص مما علِق به من غموض او لُبْس ، مع بقائه مع ذلك ، مرناً مطواعاً . فاذا ما أُدخل عليه التنظيم والتقييد،اصبح مفهوماً، وسهُل بالتالي،على العقل ادراكه. وهكذا يجب ألا يتبادر الى الذهن من كلمة طبقة، شيء ورائي، ان لم يكن بالاسم فبالفعل، ولكن مع شيء من القيد وبشروط معينة، وعلى شيء من التسلسل او التابعية المسلسلة ، على أنساب محددة ، واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ، بحيث لا يمكن لدخيل ان يندسّ بين الصفوف ، او لصاحب درجة سفلى ان يندسّ بين أصحاب الدرجات العليا . وللدخول في هاتين المنظمتين او الطبقتين ، والبقاء فيهما ، والترقي في معارجهما ، لا بد من رضى الامبراطور وموافقته ، وكثيراً ما يكون هو نفسه المرجع الصالح ، الأول والأخير ، للترفيع والانتقال من مرتبة دنيا الى مرتبة عليا . فاذا ما نظرنا الى قيام النظام

الامبراطوري من هــذه الزاوية وما كان له من نتائج اضافية على تنظيم الدولة ، برزت امامنا من جهة أخرى ، النتائج الاجتماعية الخطيرة التي ترتبت على هاتين المنظمتين .

ومع ذلك ، يجب ألا نجهل او نتجاهل ان الامبراطورية ، باعتمادهــا مثل هاتين المنظمتين ، قبلت مسبقاً ، أن تقيد حرية تصرفها ، من حيث اختيارها موظفيها الاداريين وترفيعهم . فقد التزمت الدولة بمراعــاة المبادىء العامة المرعية الإجراء ، دون خرقها خرقاً فاضحاً ، هذه المبادىء التي ترعى وتصون هذه المثل القائمة في احترام التسلسل الإجتماعي . وعلينا ان ننتظر طويلاً ، أي حتى أواخر العهد الامبراطوري ، قبل أن نرى الدولة تضرب بهذه المبادىء عرض الحائط ، أو أن تعبث كما تشاء بهذه الأنظمة المعمول بها .

طبقة الشيوخ وطبقة الشفاليه

الانتساب لهاتين المنظمتين يقتضي له الغنى الوافر ، أي مليون سسترس لطبقة الشيوخ ، و ٤٠٠ ألف لطبقة الشفاليه. وقدحرص العهد الامبراطوري الحرص الشديد ، على أن لا يدخل على هذا الترتيب أي تعديل ، مهما كان طفيفاً أو صغيراً . وقد حرص أوغسطس عـلى الحفاظ على هذه التقاليد . وقد طلب من هذه الطبقات الموسرة اكثر مما طلب اليها في الماضي ، وبروح جديدة غير الروح القديمة ، أن تتفرغ لخدمة الدولة ، وينقطع أفرادها لهذا الأمر . وتعويضاً لها على خدماتهــا ، وعربوناً للثقة التي يشرفها بها الامبراطور، فهو يحتفظ لها وحدها ، بهذه المنافع . فقد أصلح ببعض العطايا السخية التي جاد بها في مناسبات معروفة قسوة المبدأ وصلابته . فاقتسام الإرث ، من جهـة ، ونوازل الدهر من جهة أخرى ، كثيراً ما هددت أحد أعضاء هاتين المنظمتين بفقدان رتبته وباقصائه ، بالتالي ، عن العضوية . وكثيراً ما حدث أن أغضى الامبراطور عن مثـل هذا الوضع ، وبادر لمد يد المساعدة لمن ذهب فريسة الأقدار أو لمن عضه الدهر ، من ماله الخاص ، اذا ما رأى انه يستحق مثل هذه المساعدة . فما بلغ علمنا قط ، خبر أو ذكر احدى هبات امبراطورية أريد بها رفع صاحبها للمستوى اللازم . غير انه لم يكن من الصعب على موظف يخدم الدولة بأمانة أن يوفر من مرتبه ما يلزم لإصلاح شأنه ، اذا مــا عمل بجد موصول ، وعرف أن يقتصد من نفقاته اليومية . كذلك لم يهملوا الأخذ بمبدأ التحوط المتبادل : فالغنى والثراء وحــده لا يولي صاحبه الحق بالوصول تلقائياً ، الى هذه أو تلك المنظمة أو الطبقة . فالثلاثون مليون سسترس التي أنفقت على وليمة تيملكيون، كما جاء في الرواية « ساتيريكون *Satiricon* » للمؤلف الروماني : بترون لم تفد صاحبها شيئاً ، ولم تقدم أو تؤخر في إيصاله الى عضوية احدى هاتين المنظمتين . وكيف تبلغ به هذه المرتبة ، وهو لم يستمع يوماً لفيلسوف ، ولم يسمع له شعر ولا روى شعراً لأحد . فهو جاهل لا ثقافة له . كذلك تنوه القصة بأصله : فقد طلع من العدم : كان رقيقاً فأعتق ، ثم بسم له الحظ ، فجمع ما جمع بشتى الطرق والأساليب الملتوية ، هــذه الثروة الطائلة . فاذا كان وصول بعض المعتقين الى مرتبة الشفاليه عدّ خروجاً عـلى المألوف وشذوذاً عن القاعدة ، فقد أوصدت في وجوههم تماماً ، أبواب المرتبة المشيخية ، وحيل بينها وبينهم مطلقاً . وكان سبق

لأوغسطس أن حظّر عقد أي زواج بين معتق أو معتقة وبين أحـــد اعضاء مجلس الشيوخ . فالعضوية في الطبقة المشيخية يقتضي لها العضوية في مجلس الشيوخ ، وان يكون حاملهـا مارس بصورة قانونية ، صلاحيات ومسؤوليات أدنى الوظائف الموقوفة ممارستها عـلى أعضاء مجلس الندوة ، وهي المراقبة *Questure*. ويحق له أن ينعم هو وزوجته وأولاده بامتيازات هـــذه الطبقة ، وفقاً للدرجة التي هو فيهـا . وبالفعل ، فأولاد عضو مجلس الشيوخ يصبحون دونما صعوبة ، مراقبين بعد أن يكونوا أدوا الخدمة في الجيش ، ضباطاً في بعض وحداته ، أو عملوا موظفين في إحدى الوظائف الادارية الصغرى . والتسلسل في داخل هذه المنظمة ، يجري وفقاً لجدول أو لائحة يضعهـــا مجلس الشيوخ ، ويأخذ بالتدرج صُعُداً في سلم المراتب والدرجات . فالمناسبات عديدة أمام الامبراطور لإظهار عطفه أو عدم رضاه ، عن صاحب العلاقة . وقـد أخذ يمارس أكثر فأكثر ويطبق حقه المشروع ، في تعيين من يشاء من أعضـاء طبقة الشفاليه في العضوية المشيخية ، وفي المرتبة أو الدرجة التي يريدها له .

وهنالك مـــا هو أغرب من ذلك وأوقع . فالانتماء الى طبقة الشفاليه مرتبط أبداً بارادة الامبراطور وحده ، دون سواه . فليس في الأمر أية عملية اقتراع أو ما يشبه ذلك ، في تعيين المراقبين ، وتلقائية الإرث عند هذه الطبقة، أقل بروزاً هنا ، منهـا في الطبقة الممتازة الأولى . ولذلك، فنشاط الشفاليه ، يُصرّف ، منذ عهد اوغسطس ، في خدمة الامبراطور ، فيختار من بينهم الوكلاء الذين يُدعون للخدمة في بطانته ، الى أن ينتقلوا الى الخدمة في الادارة العامـة . فهو يختارهم كما يشاء . ومن الطبيعي ان ينعم أبناء الشفاليه ، هم الآخرون ، بشيء من الاطمئنان الى مستقبلهم ، انما لا بد من اختيارهم وبلْوِ ولائهم . ومهما يكن، فعددهم لا يفي بحاجة الادارة التي اتسعت وتشعبت كثيراً ، وأخذت تستوجب المزيد من الموظفين. وهكذا رأينا كيفـانهم، خلال هذين القرنين ، تفننوا كثيراً في طريقة تزويد الإدارة بحاجتها من الموظفين . فوضعوا في هذا السبيل، القوانين اللازمة لاختيارهم وتدربهم، وفقاً للحاجات البادية . فبينما كان الامبراطور يفرض ، في بادىء الأمر ، على المرشحين للعمل في الادارة ، الخدمة في الجيش : ضباطاً في الفرق الاضافية، وهم بعد في سن الشباب، كثيراً ما نراه في القرن الثاني يختار من صفوف الادارة ، من يحتاج اليهم للعمل في الجيش ، ويرقّع الى الدرجات العليا قواد المئة ، أي هذا الفريق من الضباط الذين خرجوا وبرزوا من بين صفوف الجيش . فـــاذا كان الامبراطور هو المتصرف الأوحد ، والمهيمن الأول والأخير ، على الانتساب الى طبقة الشفاليه ، فمن الطبيعي جداً ، ان يكون السيد المطلق في كل ما يعود الى ترقيتهم وترفيعهم في داخل هذه المنظمة ، فيعين مرتباتهم وفقاً لدرجاتهم ، اذ كانت نهايات المرتب في السنة تتراوح بين ٦٠ الف سسترس للصغرى ، و ٢٠٠ الف للكبرى .

السلك وامتيازاته

فالمنظمتان المذكورتان ، هما بمثابة سلكين اداريين . فسلك الرُتب الفخرية الذي عمل به في العهد الجمهوري استمر وبقي معمولاً بـه على نطاق اوسع في السلك المشيخي . فالدرجات والرتب تكاثرت وتفرعت وتشعبت مع تنوع الوظائف في العهـد

الامبراطوري وتكاثرها في الادارة الجديدة. والتجديد الأكبر في هذا المجال تمثل في انشاء السلك الشفاليه الذي كان يُفضي بصاحبه : اما للسلك المشيخي ، وإما لوظائف عالية أخرى كالولاية ، التي تأتي في القمة من هذه الوظائف ، وتليها النيابة ولا سيما نيابة مصر ، وادارة مصلحة التموين *Annone* . ومن بين الوظائف التي يؤلف التدرج فيها اساساً للسلك ، هي وظيفة الكهنة والقضاة الذين لم يكونوا ليتناولوا مرتبات ولا أجوراً ، بينما اصحاب الوظائف العليا كالبروقنصل في آسيا وافريقيا ، كان الواحد منهم يتناول مليون سسترس مرتباً سنوياً . فما من احد ، بعد الذي ذكرنا ، حتى من كان من الموسوسين ، يقضي حياته معدماً في خدمة الدولة ، بل على عكس ذلك تماماً ، ففي استطاعة الموظف ان يكوّن ثروة له ويزيد من غنـاه . وعلاوة على ذلك ، يتمتع الموظف بامتيازات اجتماعية كثيرة هي سبيله الى الإثراء والغنى : كالاخلاص للمصلحة العامة ، والتمتع برعاية الامبراطور ، والنفوذ الذي يلازم الانتساب لهذين السلكين. فقد احتفظتا بكل مراسم التشريعات الخارجية التي عمل بهـا منذ عهد الجمهورية ، كالطوغة الارجوانية التي يُخاط على الرداء طولاً او عرضاً ، والخاتم الذهبي ، والأحذية الخاصة بأعضاء الشيوخ ، والمقاعد التي تحفظ لهم في المسارح وحفلات الألعاب الرياضيـة . وقد نالوا ، مع الزمن ، امتيازات ومنافع جديدة لم تلبث ان أصبحت من مستلزمات السلك ، منـذ منتصف القرن الثاني للميلاد ، اذ ان كل اعضاء الطبقة المشيخية ، بما فيهم النساء والأولاد ، وجب في مخاطبتهم وتوجيه الكلام اليهم ، استعمال ألقاب وألفاظ خاصة بكل رتبة ومرتبة ، منها مثلاً « السَّنِي او السنيّة » ، بينما اعضاء الشفاليه يُخاطبون بنعوت وألفاظ فخرية ، منها : نيافة *Eminentissimus* ، وهو نعت يوجّه لمدير الشرطة او لقائد الحرس عنـد مخاطبته ، او « كلي الكمال *Perfectissimus* » لكبار النواب والمفوضين ، او « سامي *Egrejius* » . وهكذا فالتسلسل الاداري يقابله تسلسل بروتوكولي او تشريفاتي في المخاطبات الرسمية وفي المعاملات العادية. وهكذا أطلّ على الادارة ، طبقة من النبلاء ، تألفت من زهرة الموظفين .

الشعب الروماني

وهذه الطبقات الممتازة تهمنا ايضاً من نواحٍ عديدة أخرى . إلا انه يحسن بنا ان نقف عند هذا الحد لنتابع النظر في الأثر الذي أحدثه في المجتمع الروماني النظام الامبراطوري الجديد .

لنرَ ، قبل كل شيء ، أثر هذا النظام على سكان روما وشعبها . والشيء البارز في الأمر هو اضطلاع الدولة بمهمة ومسؤولية إعالة السواد الأعظم من مواطنين روما الفقراء ، وذلـك بتوزيعات منتظمة من القمح والطحين على أقدار وأنساب معينة ، وتوزيع الدراهم عليهم ، في بعض المناسبات البارزة ، لتوفير اسباب العيش لهم ، بينما توفر لهم الاعياد والاحتفالات الرسمية والألعاب كل ما يحتاجون اليه من وسائل الترفيه والسلوى . « الخبز والملاهي *Panem et Circenses* » كلمتان اوجز بهما المؤرخ الروماني جوفنال الوضع الذي هيمن على روما واستبد بها . ويكفي ان نشير هنا الى هذا الهَوَس الجنوني ، والاندفاع الحماسي ، والشعبية التي لا حد لها ،

التي كانت ترافق بجرد التلفظ بأسماء الممثلين والمغنين ، والراقصين ، وسباق المركبات في حلبة المصارعة او حلبة الطراد اذا كان الميدان الكبير يضم أكثر من ٢٥ ألف مقعد في عهد الانطونيين، والتنافس الحاد الذي كان يجري بين فرقاء يرتدون ثياباً من ألوان مختلفة للتمييز بينهم : احمر ، وازرق ، وابيض واخضر ، الى ان أضاف اليها الامبراطور دومتيانوس الذهبي والارجواني ، ومعارك المصارعين التي كان يحضرها ١٥٠ ألف متفرج جالسين على مقاعدهم في كوليزيه تيطس، يشترك في احدى حفلاتها الضخمة ، وهي حفلة التدشين ، ٩٠٠٠ حيوان . فقد برهنت الجماهير، في كل أين وآن ، عما تجيش به من نزوات الاستبداد والبطش والقوة ، كما برهنت دوماً ، من جهة أخرى ، عن عفوية حماستها ، وعن ثورة غضبها . ولذا ترتب على ذوي الأمر ان يعرفوا كيف يثيرون هذه ويتفادون تلك .

فما من امبراطور حاول جاداً، ان يقاوم هذا الهوس حتى عندما كان يوجس شراً من نتائجه المالية وتأثيره الأدبي السيء ، بل على عكس ذلك ، نرى معظم الاباطرة يتملقون الجماهير ويتحببون اليها محاولين ان يبز الخلف منهم السلف في هذا المضمار . فقد أحيا الامبراطور ترايانوس، بعد ان تكاثر عدد الأسرى والعبيد، إثر حروبه في مقاطعة داسيا (رومانيا اليوم) وتدويخه لها ، نحواً من ١٢٠ يوماً على التوالي ، من الأعياد الصاخبة وحفلات المصارعة اشترك ١٨٠٠٠ مصارع ، في هذه الأعياد الشعبية الضخمة التي أحياها عام ١٠٩ . غير ان هذه الامبراطورية لا يمكن ان تستمر على هذا النحو من الإنفاق والإسراف والاملاق . ولكن ألا يحق لهذا الشعب ان ينعم ، مقابل ما يقدمه للامبراطور ، من سلطة يوليه إياها ، وسمات ملك عريض عزيز، وجيوش جرارة، بالخبز واللهو والمسرح، وان ينال كل ما يطمع فيه او يطمح اليه؟ كما يقول جوفنال . وبحق نطق وقال. كل هذا يمثل بالفعل الثمن الذي يدفعه النظام الجديد تزكية لوجوده وقيامه ، وهو ثمن زهيد جداً ، امام اعتزال الشعب الملك ، أي كل السلطة الفعلية وتخليه عنها ، طوعاً واختياراً للامبراطور . ففي تأمين أوَد عيش هذا الشعب ، وتوفير اسباب تسليته ، والترفيه عنه ، أمْن الامبراطور نفسه وسلامة النظام ، وصَوْن له من أي انقلاب سياسي يقوم به الشعب ، ودون أية انتفاضة تخطر له على بال ، كما ان نهجاً من هذا النوع يجعل الطبقات الممتازة بمعزل عن كل ثورة اجتماعية . وبالفعل ، فالخطر عليه وعليها لا يمكن ان يطل من هذه الناحية .

غير أن البطالة داء قتال بالفعل ، وفيها الخطر كل الخطر على العاصمة روما . فالشعب فيها لا يتألف من هؤلاء المواطنين المسجلة اسماؤهم في سجلات الاعاشة المجانية . فهنالك حشود بين هذه الجماهير لا ينالها شيء من هذه التوزيعات ، بينهم مثلاً : المواطنون القادمون من الولايات الاخرى ، القريبة والنائية على السواء . فعلى هؤلاء ان يعملوا وان يشتغلوا ليكسبوا عيشهم اليومي ، عندما تبوء بالفشل محاولتهم الانضمام او الانضواء تحت حماية او رعاية أو تبعية بعض الزعماء والاثرياء المعروفين بالجود والسخاء. فقد كان ، في روما ما يوازي اصحاب المهن الحرة عندنا

اليوم . فالانصراف لهـــذه المهن لا يؤمن لاصحابها ثرواتٍ ضخمة أشبه بالثروات التي يستطيع تحقيقها نطس الاطباء، مثلاً . ويوجد الى جانب هذه الطبقة ، طبقة وسطى اخرى ، هي طبقة الشغيلة والمستخدمين وأصحاب الحوانيت والصناع. فبالرغم من كثرة المصادر الأدبية التي تصف لنا اخلاق العصر أكثر مما تستطيعه الرُّقم والنقائش ، فهي تلتزم الصمت التام عندمـا تتعرض لذكر الطبقة البورجوازية المتواضعة . وهـذه المصادر بالذات ، سواءاً أكثرت من النصح والموعظة ام راحت تقدح في الاخلاق، فهي لا تفرق بين هذه الطبقة وثفالة الشعب. فان لم تَخلُ مدينة كبيرة او عاصمة مملكة من الممالك، من رُعاع تفح منهم رائحة العطن والنتن، فمثل هذه الحثالة كبيرة في روما الامبراطورية الى حد مدهش . فهي تجد في جو الاغنياء والاثرياء مرتعاً خصباً لتنمو وتتكاثر ، شأنها في ذلك شأن المدن الضخمة التي لا حركة تجارية كبرى فيها ، ولا انتاجاً ضخماً لها فتحاول الدولة ان تجعلها، مع المواطنين العاطلين عن الاشغال، في مأمن من عضة الجوع أو لسعة الفاقة ، حؤولاً منها دون انحدارها الى ادنى دركات البؤس والتعاسة.

اليد العاملة في أملاك الدولة

والبطالة عند هذا الفريق من الناس يجب ان يقابلها العمل عند الفريق الآخر . فالامبراطور اعجز من ان يواجه هذه الاعباء المالية الضخمة ، لولا ما هو عليه من غنى وثروة طائلة يستمدهما من استثمار أملاكه الواسعة واطيانه التي لا حد لهـا ولا حصر . فهو اكبر ملاك في الامبراطورية ، واملاكه الواسعة هذه لا قيمة لها ولا شأن الا بنسبة ما يستطيع استغلالها واستثمار ما فيها من خيرات دفينة ، وذلك بفضل اليد العاملة التي يتصرف بها .

نحن نجهل تماماً، كم هو عدد العبيد الارقاء في حوزته. فهم ولا شك يتجاوزون بضع عشرات من الألوف بينهم قلة من الخدم والحشم . وترينا النقائش الأثرية التي عُثر عليهـــا ، هؤلاء العمال موزعين الى فئات وطوابير، مكتّبين في كتائب شبه عسكرية، تحت أمرة عدد من ضباط صف أو باشراف بعض المعتقين ، وقد توزعوا على أملاك الامبراطور في جميع أطراف الامبراطورية ، ليقوموا بجميع الاعمال التي يقتضيها استثمار هذه الأراضي ، بعضهم كتبة في الادارة ، وبعضهم يعمل في المناجم او المقالع . فالحياة التي يعيشونها ، والآمال التي قد تبتسم لبعضهم في المستقبل تختلف كلياً بين الواحد والآخر . اسعدهم حظاً وأقدرهم كفاءة لا يلبثون ان يُعتقوا من العبودية التي يرسفون فيها ، فينالون بذلك أولى خطوات الحرية . اما الباقون الذين يكدحون في المناجم والمقالع ، فوضعهم قاس ، مرير ، إلا ان وضع « ارقاء قيصر » ، كان أخف وطأة مع ذلك ، مما كان عليه وضع الذين كان حُكم عليهم بالاشغال الشاقة ، أولئك الأرقاء الذين كانوا يعملون في هذه الاشغال التي يتعهدها ملتزمون . هنالك بعض تدابير خاصة كانت تتخذ مسكّناً لهم بعض الشيء ، كاعفائهم من ثمن احذيتهم ورسوم الحمامات ، ورسوم غسل الثياب والحلاقة، كما يستدل من النظام العمالي الذي عمل بموجبه في مقاطعة المعادن ، في بلدة فيباسكا ، في البرتغال ، مما عثر عليه مؤخراً . وفي هذا دليل على رسيس من عاطفة الشفقة والرحمة التي تجلت بصورة اجلى في اواسط القرن الثاني . وكان هَم الادارة الاكبر في ان تتمكن من تجديد هـذه اليد العاملة ،

وقد استفحل امرهـا بحيث أصبحت مشكلة كبرى في عهد الأسرة الأنطونية عندمـا خفت الحروب، وقلّ بالتالي، عدد الأسرى الذين كانت تؤمنهم هذه الحروب.

ومع ذلك، فهذا العدد العديد من الارقاء، لم يكن ليكفي قط لاستثمار أملاك الامبراطور على الوجه الاكمل، اذ ان جانبـاً كبيراً من اليد العاملة الممثلة بهؤلاء الاسرى، لم يكن ليصلح للعمل في الحقول والزراعة. ولذا نرى الامبراطور يستعين بعمال أحرار. ومـع ذلك فهو يجد صعوبة في توفير حاجته منهم. والطريقة التي كان يعتمدها عادة، هي تلزيم استثمار أراضيه الى متعهدين وملتزمين *Condoctores* وفقاً لعقود خاصة يعقدها معهم، على ان يترك أمر مراقبتهم لوكلاء يعينهم الامبراطور. فالكتابات الاثرية التي وجدت في مقاطعة المناجم في فيباسكا، تبين المصاعب والمشاق التي كان يجدها هؤلاء المتعهدون قياماً بتعهداتهم الاستثمارية، وذلك لقلة اليـد العاملة. وقد أصدر الامبراطور هدريانوس قانوناً خاصاً بالمناجم، أجاز بموجبه لاي كان، ان يستثمر لحسابه الخاص، أي منجم أو مقلع أهمل المتعهد الرسمي استثماره مدة ٦ أشهر متعاقبة. كما ان القانون المذكور، حدد الواجبات المترتبة على كل من المتعهد القـديم والمستثمر الجديد. ويدل عدد من الرُقم والنقائش التي عثر عليها في تونس، ان تدابير من هذا النوع اتُخذت بشأن أملاك الامبراطور المتروكة بوراً من قبل المتعهدين، أوسع حرية من السابقة، وهذه الاراضي هي عادة أراضي ممسكة، لا تصلح لزراعة الحبوب، ولا لها كبير مردود. والقانون المذكور ينصح بالاستعاضة عن الحبوب، بزراعة الاشجار المثمرة كالزيتون مثلاً، والكرمة والتين، كما انه ينص على تأجيل جباية الرسوم عنها لعدة سنوات. وعلى الاعتراف بملكية الارض لمن يقوم، من تلقاء نفسه، باستثمارها فجعلها بجده وتعبه، تثمر وتغل. وعندمـا لا يتوفر للامبراطور متعهدون نشيطون او يحتاج لليد العاملة، نراه يستعين باناس يكونون بمأمن من السخرة او من تعسف الملتزمين، وهو يستجيب في ذلك، ليس لعاطفة انسانية، بل لضرورات اقتصادية، حتى اذا ما أعجزته الحيلة، التجأ الى وسيلة اخرى هي السخرة.

٢ - وحدة الامبراطورية والمجتمع الروماني

فاذا ما أثـّر واقع الامبراطورية على تطوير المجتمع الروماني، وأحياناً بشكل قوي عنيف، فهنالك عامل آخر لم يقلّ شأناً وأثراً، في توجيه هذا التطور وطبعه بميسم خاص، يتمثل بهذه الاتصالات والعلاقات التي ربطت بين مختلف أقطار الامبراطورية وأمصارها، فكان في آن واحد، عِلة ومعلولاً، في تكوين دولة، ان لم نقل أمة، من هذا اللفيف من الولايات التي كانت، من قبل، متجاورة متلاصقة، غـير متعارفة. وهكذا يبدو لنا، مرة أخرى، أثر هؤلاء الاباطرة البارز في بنـاء هذه الدولة الرومانية وترسيخ أسسها. وليس بغريب، قط، ان نرى هذا التطور يأخذ مجراه، على عكس ارادتهم، بعد ان عجزت عن الصمود في وجه التيار المعاكس.

روما مرآة الامبراطورية وبوتقتها. حركة العتق

وهذا التقارب يجري بين مجتمعات متباينة أصلاً وفصلاً ولساناً، توافرت له عوامل كثيرة للالتقاء والاندماج والانصهار . وهــذا الانصهار والاندماج يتم في روما : عاصمة الامبراطورية ونقطة الثقل فيهـا ومقر عظماء الرجال وأصحاب المال والأعمال ، وقبلة انظار الطامحين والطامعين الذين راودتهم الحُلُـم الذكية والأمجاد الأدبية والفنية ، وملتقى المغامرين والمتآمرين ، من رجال ونساء في سعيهم وراء الشهرة وتصيد الحظوظ . وقد تلاقت في هذه المدينة العظيمة جميع العناصر والأقوام والشعوب، ممثلة على أدنى حد ، في هــذه الأعداد المتزايدة من الأرقاء والعبيد الذين يردفون الأسر الثرية بحشود من الخدم والحشم تتجاوز الألوف ، هم غنى وثروة الطبقات الارستوقراطية من التوابـع واللواحق ، من كل عرق وصنف ولون . والمشارقة بينهم ، كثر ، حاذقون ، مَهَرة ، دوماً على استعداد لكل خدمة ، هم ، في الغالب ، على مستوى طيب من الثقافة والمعلومات العامة ، وعلى أتم استعداد للقيام بالمهمات المشبوهــة ، وبكل أعمال الشطارة والخرقة حتى أحطـّها وأدناها ، يمارسون النجامة والعيافة والقيافة والعرافة ، والسحر والكهانة ، ويشاركون في كل الطقوس والحرتقات الملتوية ، ويتـّجرون بكل شيء ، حتى بأنفسهم وبغيرهم من الناس ، وبالفنون والألعاب حتى بأخس الأصناف . فلا عجب بعد هذا ، ان ينشد الشاعر الروماني قائلاً : « منذ عهد بعيد راح نهر العاصي يدفق مياهه في نهر التيبر » ، ومثل هذا الانصباب لم يبتدىء بالطبع مع الامبراطورية. إلا ان هذا الدفق تضخم مع الزمن وتجاوز الزبى، بعد ان عم الرخاء وتشعبت الادارة العامة وفروعها .

فلا عجب ان يوجس الاباطرة خشية من هــذا التيار الجارف ، فيعهدون ، من حـين الى آخر ، الى الشرطة باخراج العناصر الطارئة واقصائها بالجملة ، كما حاولوا جهدهم ، ان يحدّوا من حركة العتق التي انتشرت عادتها وأصبحت زياً ينتهجه كبار القوم ، ومادة دعائية يتنافسون بها ويتبارون . ولذا قام اوغسطس يحاول ، بما عرف عنـه من روح اجتماعية محافظة ، الحد مـن حركة العتق هذه ، فأصدر عدداً من القوانين الرادعة ، فمنع العتق عن الرقيق قبل ان يبلغ الثامنة عشرة من عمره ، كما حظر عتق الخمس من العبيد ، دفعة واحدة ، وباصدار براءة عتق رسمية كما كانت تقضي العادة المتبعة . كذلك شدد في تطبيق الأحكام القانونية الصادرة من قبـل التي لم تكن لتسمح إلا لحفيد المعتوق ان يتمتع بكافة الامتيازات الخاصة بالرعوية الرومانية .

وقد بقي معمولاً بهذا القانون في حياة صاحبه ، انما بصورة مخففة ، لأن الملـك الذي يتمتع بحق الاعفاء ، لا يستطيع ان يقاوم التماسات أصحابه والمقربين اليه من معتوقيه أنفسهم . ومهما يكن ، فالحواجز التي أقامها ، لم تستطع سوى التخفيف نوعاً من سير هـذه الحركة التطورية العارمة التي لا تقاوم. وبفضل حركة العتق الواسعة هذه، استطاعت روما ان تمازج بين العناصر المتباينة التي تألف منها السواد الأعظم من سكانها، بعد ان قصدتها من جميع اقطار الامبراطورية وأطرافها النائية. وهكذا اختلطت ذراري الفاتحين بذراري المغلوبين على أمرهم واندمجت بعضاً

ببعض . وهذا الانصهار العرقي ، صحبه ، من جهة ثانية ، حتماً انصهار أدبي وخلقي .

استبدال السكان ونقلهم

وقد تم في الولايات شيء من هذا القبيل ، أشد فاعلية ، وأعمق أثراً، وان جاء على شكل أقل ظهوراً وبروزاً، لأنه لم يقتصر، على العاصمة وحدها .

قلما عمد الأباطرة الى نقل السكان بالجملة من بلادهم الاصلية واقتلاعهم منها لإسكانهم في قطر آخر . فلم يكن في أيّ من البلدان التي دوّخوها وكونوا منها امبراطوريتهم الشاسعة فائض بشري يصح استخدامه في إعمار أقطار أخرى قليلة السكان . فالاجلاء الجذري ، المنهجي ، لم يكن من الوسائل المحببة عندهم لتأديب الخارجين على السلطة او المارقين على القانون . فقد اعتمدوا بدلاً عنه ، الاستعباد والرق بالجملة . فالرعب والهلع الذي أنزلوه بفلسطين بعد سحقهم الثورة الدامية التي قام بها اليهود تحت أمرة شمعون بركوكبا، في عهد الامبراطور هدريانوس، أجبر اليهود على الهرب والجلاء عن البلاد ، الامر الذي أدى الى إفقارها . وكذلك قل عن مقاطعة داسيا . فبفضل هجرة فردية موصولة ، خلواً من كل ضغط ، كما يبدو ، تَلَـتَّنت هذه الولاية بعد فتح ترايانوس لها . وهكذا نرى ان الامبراطورية الرومانية لم تلجأ حتى آنذاك، لاساليب العنف والإرهاق التي سبق لبعض الدول الغاشمة ان عوّلت عليها من قبل ، وان اعتمدت على مثل هذه التدابير ، فيما بعد ، حتى أصبحت عندها تدبيراً مألوفاً . وهكذا نرى بعض الاباطرة يقتلعون من أقطارهم ، اقواماً من البرابرة ، غرباء عن الامبراطورية ، ليسكنوهم مقاطعات ايطاليا الشمالية ، كما فعل اوغسطس ، في منطقة الرين ، ونيرون في منطقة الدانوب ، ومارك اوريل في بعض الولايات الدانوبية . فكان هذا التدبير الذي لجأوا اليه ، ذريعة من الذرائع التي مكنتهم من توفير ما يحتاجون اليه من يد عاملة لاستثمار الاراضي التي استباحوها ، كما أتاحت لهم ان يتفادوا الضغط الذي تعرضت له تخوم الامبراطورية من قبل شعوب وأمم استهواها فاجتذبها الازدهار الذي نعمت به الامبراطورية، لم يسبق ان رأت مثل هذا الازدهار أو ما يشبهه في بلادها . وكان وضع هؤلاء الدخلاء ، في بادىء الأمر ، وضعاً متدنياً لا يختلف كثيراً عن وضع الأرقاء تقريباً . إلا انهم لم يعتموا ان اختلطوا بالشعوب القائمين بينها او المجاورة لهم وانصهروا فيها واندمجوا معها .

وقد تفاعلت عناصر اخرى بهذا الاندماج . فقد سبق واشرنا من هذا القبيل ، الى الدور الذي لعبه السوريون في الحركة التجارية ، بعد ان انتشروا في كل قطر وصقع ، وحلوا تحت كل سماء . والشيء الذي لا يمكن ان نمر به هنا في غير مبالاة ، هو هذا الاضطهاد الديني الذي أكتوى بناره مسيحيو مدينة ليون ، في عهد الامبراطور مارك أوريل . فقد بلغنا خبره من رسالة باللغة اليونانية أرسلها مسيحيو مدينة فيينا وليون الى أخوتهم في الايمان، في آسيا وفريجيا. وهنالك عامل غير عامل التجارة يجب الا نسقطه من حسابنا ، ساعد كثيراً في تعجيل خطى هذا التطور ، وهو يتمثل في هذه المناقلات التي استوجبتها مقتضيات الخدمة العسكرية وموجبات الادارة العامة . فمعظم طوابير الجيش وفرقه كان يجري تشكيلها ضمن المقاطعات

القريبة من معسكراته . غير ان دواعي الدفاع عن حدود الامبراطورية ، والذب عن حياضها كثيراً ما تسبب في نقل فرقة بكاملها ، من الشرق الى الغرب ، فيفضّل من بلغ من أفرادها ، سن التقاعد، عند انتهاء خدمتهم العسكرية، ان يقيموا ويستقروا حيث هم، منصرفين الى استثمار قطعة الارض التي كانت تُقطع لهم عند خروجهم من الجيش ، بعيدين عن وطنهم الاصلي . ومهما يكن فحياة الضابط في الجيش كثيراً ما تكون عرضة لمناقلات عديدة ، شأنها في ذلك شأن موظفي الادارة ، ولو كانوا من الدرجة الوسطى . فالازدواج اللغوي ، في الامبراطورية ما كان قط حائلاً دون ابناء الغرب الذين كانوا يحسنون اللاتينية ، في ما تلقوا من تربية . وهذه الازدواجية اللغوية ، لم تعد لتؤلف ، منذ القرن الثاني ، حائلاً دون الاغريق في شرقي الابيض المتوسط ، بعد ان صارت الامبراطورية ، منذ عهد هدريانوس ، تعتمد على خدماتهم ، فراحوا يستسهلون الصعاب في سبيل تعلم اللاتينية ، بعد ان انفتحت امامهم ابواب الوظائف ، سواء في الجيش أو في الادارة . وقد استتبع ذلك حركة مصاهرة وتزاوج ، بين بعض طبقات المجتمع، بين قطر وآخر وبين هذه الطبقات بالذات التي كانت ذخر الامبراطورية وعمادها ، تمدها بالملاكات والأطُر الادارية ، فأدت هذه الحركة الى التخفيف من حدة الفوارق الدينية والتصديقات العقائدية ، وتصادم الافكار والآراء ، والتوحيد فيما بينها . وهي حركة ستقوى وتشتد في المستقبل الطالع .

الاعتراف المتزايد بحقوق الرعوية الرومانية للمدن

فما من شيء أثّر ، مع ذلك ، أكثر من انتشار نظام البلديات الذي كانت تشوبه نزعة غلابة نحو المزيد من التجانس والتقارب ، عملاً بالمُثُل التي جاش بها هذا النظام ، ونتيجة لهذه الانعامات التي كان الامبراطور يجود بها ويسخو ، ممثلة بحق الرعوية الرومانية التي كان يسبغه على بعض المدن .

فقد تباين الاباطرة الأوَل سخاءً في هذا المجال ، بين مُكثر من هذه الانعامات ومُقلّ . ولكن لا نستطيع التأكيد ، لئلا نفرط في القول ونغلو ، ان اوغسطس وطيباريوس قد « اوصدا باب المدينة » ، اذا صح القول ان غيرهما من الاباطرة ، كالامبراطور كلوديوس مثلاً ، قد « فتحوا منها الابواب وشرعوها على مصراعيها » . اما الشيء الثابت والأكيد، فالقضية قضية نسبية ونزعة عامة ، اذ لم يتخلف احد من هؤلاء الملوك ، عن الإنعام بمثل هذا الحق ، ولمرات عديدة ، لعدد كبير من المواطنين الجدد . وحق الرعوية الرومانية يكتسبها بصورة تلقائية، هذه او تلك من الطبقات الأجتماعية الوجيهة ، ضمن نطاق البلدية ، وفقاً لوضع مدينتهم الشرعي . ويستتبع هذا الحق امتيازات فردية وانعامات خاصة تُعطى لمن يتطوعون للخدمة في الجيش أو عند انتهاء خدمتهم العسكرية في فرق الجيش الاضافية . فاذا ما خفت الحركة أو تباطأت في عهد ترايانوس ، فقد استشرت واتسعت في عهد الأسرة الانطونية ، اذ انعم اباطرة هذه الاسرة ، على معظم المدن الكبرى وقواعد الولايات ، بحق الرعوية الرومانية ، بحيث ان كل المواطنين في المدينة يكتسبونها اذا لم يكن يتمتع بها بعضهم من قبل ، بصورة شخصية . وهكذا فالظهير

الامبراطوري الذي كان كركلا سيصدره عام ٢١٢ فيعترف فيه بهذا الحق لجميع الرجال الاحرار الذين ولدوا ضمن الامبراطورية ، كانت قد تهيأت له اسباب الإعداد وزكاه شمول الحركة .

من العبث أن يحاول المرء التقليل من شأن هذه الحركة الشاملة التي كانت ترمي لإقامة وضع شرعي قانوني، يساوي بين الشعوب المغلوبة على أمرها في الامبراطورية والشعب المظفر الغالب. وهذه الحركة تجري بالطبع تحت سيطرة ومشارفة امبراطور ، مطلق السلطة والارادة، امتدت سلطته الى أقصى أطراف الامبراطورية ، لا تجرّ على سكان الولايات ُغنماً مادياً ملحوظاً ، بل على عكس ذلك ، تعود عليهم ببعض الغُرم ، إذ يصبحون بفضل ما كسبوا من حق جديد ، عرضة للضرائب التي لا تقع إلا على المواطنين ، إلا اذا كانت مدينتهم تتمتع – وهذا شيء نادر جداً – برعاية « القانون الايطالي » ، فيُعفَون إذ ذاك من ضريبتي الأملاك والمسقّفات . ومع ذلك ، فهذا الحق كان يولي صاحبه امتيازاً كبيراً ، إذ يؤمن له المساواة القانونية والأدبية بالمواطنين الرومانيين . ولكي يقدر المرء هذا الحق قدره وفضله ، في المراحل التي قطعتها هذه الحركة في تطورها الصاعد، عليه أن يرجع بالفكر الى ما كان عليه وضع سكان الولايات الرومانية في آخر عهود الجمهورية .

فالإنسانية لم تعرف في تاريخها القديم دولاً كثيرة سارت الى النهاية ، على هذا النهج الذي سارت عليه الامبراطورية الرومانية .

الواقع الاجتماعي في المدن : البورجوازية البلدية

وهذه الحركة التطورية ، لم يكن لها أن تحدث لو لم تقترن بحركة تطورية مماثلة لها ، طلعت في المجتمع الريفي ولفته لفاً، فتفاعلتا معاً وتكاملتا . فمثل هذه الحركة لم تكن بمستجدة، في الشرق الهليني. فقد جاءت فيه تتمة لحركة بدائية ، انطلقت عنده من زمن بعيد . أما في الغرب ، فقد اقتضى لها التأسيس والتمهيد من الأصل ، وانشاء كل شيء من البداية ، أي من نقطة الانطلاق . فالأمر ، في نظر الامبراطور ، ليس مجرد إنشاء هيئة أو منظمة محلية ، يتنازل لها عن مهام الادارة المحلية . فهي عنده بمثابة مَشْغل ، أو بوتقة تُطلِع طبقة اجتماعية يريدها ان تتعاون معه وتخفف عنه بعض الأعباء. فالطبقة الارستوقراطية في هذه الولايات التي عانت ما عانت من حروب الفتح الروماني ، وتضرست بويلاته ، لم يكن في مقدورها قط أن تقدم له المادة البشرية اللازمة للادارة . وهو ، من جهة ثانية ، لا يثق بالطبقات السفلى المشاغبة ، غير المثقفة. ولذا ترتب عليه أن يشجع هنا ، وان ينشىء هنالك ، طبقة وسطى ، عريقة ، رصينة ، مثقفة ، وبالاختصار ، طبقة بورجوازية . وهكذا ترتدي السياسة التي اتبعها في حمل المدن على الأخذ بأسباب الحضارة، طابعاً اجتماعياً له أهميته الكبرى .

ومهما تنوعت طرائف تكوين هذه البورجوازية البلدية وتباينت وسائلها ، فهي لا تمثل مع ذلك ، من حيث عناصرها المقوّمة ، قطاعاً مصغراً لسكان الامبراطورية . فلم يدخل فيها ، إلا في القليل النادر ، عناصر من الطبقة الريفية الأكثر عدداً ، هي طبقة العمال الزراعيين ، اذ كانت

لا تملك ، في البدء ، سوى رأس مال متواضع ، فترغمهم الحاجة للعمل في الأرض عند الآخرين . ولم يدخل ابداً في هذه الطبقة من كانوا يؤلفون اليد العاملة ، ولا سيا هؤلاء الذين كانوا يقومون بأحط الأعمال وأشقها ، كالعمل في المناجم والمقالع الحجرية والأشغال الشاقة الأخرى . فقد كان وضع العيش عند هؤلاء واولئك ، على السواء ، على جانب كبير من الشظف بحيث لو أوتوا العجائب في ما كانوا عليه من تقتير وتوفير وحرمان ، لما استطاعوا ان يوفروا الحد الادنى من الكفاف الذي يسد بُلغتهم ، ولما كانوا ، من جهة أخرى ، خارج المدن ، لا سمير لهم ولا عشير سوى رفقة لهم في العمل والشقاء معاً، يفصل بينهم وبين رؤسائهم هوة اجتماعية عميقة تنعدم معها كل علاقة بين الجانبين . ولذا لبثوا عاجزين ، متخلفين عن تحصيل أي قدر ونصيب من العلم او الثقافة حتى ولو رغبوا في ذلك ، حتى من نَعمَ بينهم بحريته الشخصية . وقلما نعموا بحق الرعوية المدنية ، اذ كانوا في نظر الأحوال الشخصية مجرد « قاطنين » او مستوطنين لا غير .

وهذه الامكانات التي حُرموا منها ، توفرت مع ذلك ، لعناصر اجتماعية أخرى من الاثرياء وكبار الملاكين وأصحاب الأقطان كبيرهم وصغيرهم ، وسكان المدن . وقد جاءت السابقة من الأغنياء من بين سكان الولايات الذين لم يلبثوا ان انضموا الى الطبقة الاجتماعية العليا ، وانصهروا فيها ، كما جاءت من المواطنين الرومانيين الايطاليي المنشأ ، او من اقدم الولايات الرومانية ، او من قدماء المحاربين الذين نالوا الرعوية الرومانية ، او عن طريق اصحاب الاراضي والاطيان او صغار الموظفين الذين اصبحوا فيما بعد ملاكين بعد ان أقطعوا بعض الاراضي واشتروها . وكثيراً ما شكّل هذا الفريق ، الى جانب سكان المدن ، مجتمعاً ثانياً واستقروا معه على وضع عُرفوا به قانوناً *Conventus Civium Romanorum* الذين بالرغم من قلة عددهم ، كانوا اسوة طيبة لغيرهم . وهذه الشواهد نأتي على ذكرها هنا ، ألّفت مثالاً احتذاه معظم سكان المدن ، وقد ساعدهم على تحقيق ذلك ، التسهيلات الاقتصادية والثقافية ، التي توفرت لهم من جراء سكناهم في المدن وحواضر البلاد الكبرى . وهكذا رأينا عمالاً وصناعاً من اصل متواضع جداً لا يختلف وضعهم عن الوضع الذي كان يرسف فيه سواد المعتقين، يصبحون من أشدّ الناس ولاء للامبراطور ويصبحون ، بعد لأي قصير ، اعضاء في هيئة نقابتهم *Seviri Augustales* ، ثم يباشرون وظائف البلدية ويتحملون مسؤولياتها . وبقيت أسمى هذه الوظائف وأعلاها مرتبة ، مع ذلك ، موصدة تقريباً امام الجيل الاول لهؤلاء الناس، الى ان انفتحت ابوابها على مصراعيها امام ذراريهم فيما بعد ، عند اول بسمة يفترّ عنها ثغر الحظ ويرضى بالسير في ركابهم .

وهذه النجاحات جاءت تعبيراً عن يسر مالي متزايد ، كما كانت ، من جهة اخرى ، توجيهاً آخر للنشاط الاقتصادي . عمل الانسان بيده ، لا بد منه عند الانطلاقة الاولى ، وما ان يلبث الدكان الخشبي حتى يستحيل مشغلاً يعمل فيه بعض الارقاء والعبيد . فالتجارة ، هي ولا شك في ذلك ، اوسع يداً وأرحب مجالاً ، لا سيا اذا ما عرف صاحب المتجر ان ينظم عماله وان يقيم له عملاء ومراسلين في أماكن أخرى ، فلا يلبث ان يستوي في مرتبة اجتماعية أعلى . والفئة

المختارة بينهم كانت تحاول توظيف قسم من ثروتها في شراء الاملاك والاقطان ، وبذلك يتاح لاصحابها النهوض الى مرتبة الاعيان والوجهاء في الناحية او القضاء .

فالاعتبار الاجتماعي للمرء كان يختلف باختلاف طريقة استثماره لما يملك من رأس مال، والدخل الذي يؤمنه ، كان يعود عليه بأشياء لا يقل تأثيرها بشيء عن نمط الحيـاة التي يحياها ، والمظهر الخارجي الذي يظهر عليه ، كالعلاقات التي تربطه بمن هم عيال عليه ، او بمن هو دونهم ، وكيفية استمتاعه بأوقات الفراغ التي تتوفر له، فيتصرّف بها على هواه، والتربية التي كان يحاول تنشئة بنيه عليها ، وغير ذلك من وجوه الحياة . فالاهتمام بأمور الفكر والادب احتل محلاً بارزاً بين المـُثـُل التي دغدغت هذه البورجوازية . ولم تكن تتحرج من استقبال اصحاب المهن الحرة التي عرفت ان تؤمن لأصحابها السّعة وراحة البـال . اما اهل الادب ورجال الفكر وحملة الاقلام فكانوا ، اينما حلوا ، موضع التجلـّة والاكرام .

سخاء البورجوازية وجودها

من بين المناقب التي لا بد للبورجوازية من الاتصاف بهـا : الكرم والجود ، الذي يدفع اليه مبدئياً ، حب الوطن الاصغر ، والرغبة في رؤيته اجمل وأبهى ، محتفلاً دوماً بالاعياد ، يشارك بها الناس القادمون اليها من بعيد، فيكتسب بذلك شهرة ويذهب صيته بعيداً في الولاية بين المدن والقرى والدساكر . فلا عجب ان يحتـاج صندوق البلدية للمال الوافر يستطيع معه مواجهة مثل هذه النفقات، التي لا يمكن للرسوم المجباة ان تؤمنها، حتى ولا تلك التبرعات التي يجود بها، نقداً او عيناً، وفقاً للتقاليد المرعية والشرائع المعمول بها ، من ينال من ابناء البلد ، منصباً جديداً ، مهما صغر شأنه أو دق وزنه. ولذا كانت ترد على صندوق المدينة ، رأساً او بالواسطة ، هبات شتى وتبرعات مختلفة . فلا غرو ان تشتد في مضمار التبرع ، منافسة حامية بين البورجوازيين القاطنين في المحلة ، وبين هؤلاء الذين أتاح لهم وضعهم المالي القوي ومنزلتهم الاجتماعية، ان يعيشوا بعيداً عنها. فقد همهم بعد ان برّزوا وترقوا في درجات السلم الاجتماعي ان يبقوا دوماً على اتصال وثيق بمنشئهم الاول ، او بالبلدة التي رأت نشأتهم الاولى ودرجوا صغاراً على دروبها ، ولا تزال تربطهم بهـا وشائج من القربى والمصلحة والاملاك ، وغير ذلك من المقتنيات ، وهي بدورها تفخر ببنيها المبرزين وتجليهم ، وتحرص على الاحتفاظ بهم ، وتحفل بهم عند حضورهم اليهـا ، فتسجل أسماءهم في سجل النابهين من أعضاء البلدة جذباً لهم واستمطاراً لأعطياتهم ومبراتهم .

وهكذا راح كل واحد ممن طلعوا فلمعوا، يتفنن كل على طريقته الخاصة، بتمثيل دور النصير، تشبهاً منهم بالاباطرة والملوك في حدبهم على المواطنين ، والعطف عليهم والبر بهم ، واكتساب محبتهم وولائهم عن طريق التبرع بسخاء . وهكذا نستطيع اليوم بفضل ما عُثر عليه من الرُقم والنقائش التذكارية ، اعداد قائمة بهؤلاء المحسنين لا آخر لها ولا حد . فلنقتصر من ذلك على بعض شواهد وأمثلة لنكوّن فكرة صحيحة عن ماهية هذه الهبات ونوعها ومقدارها . من ذلك مثلاً المبالغ التي ضرب بها أصحابها الرقم القياسي بالسخاء ، والمآدب الحافلة التي أدّبوها ، والولائم

السخية التي أولوها ، والتوزيعات التي قاموا بتوزيعها عيناً ، واقامة الانصاب التذكارية ، وتقديم النفقات التي أوجبها تشييد بناء ذي مصلحة عامة او تزيينه وتحليته بالاثاث والرياش، او خدمة مثلى أداها لبلده او مدينته ، او محلته او للامبراطور ، او تسليف الادارة المحلية ما تحتاج اليه من مال ، والاكتتاب بالمبالغ اللازمة لتموين البلدة ، او السعي لتوفير ما يلزمها من حنطة واستيرادها على نفقته الخاصة في اوقات الجدب ومواسم القحط ، والتركات التي يُوصُون بها لأغراض شتى ، وغير ذلك .

وغني عن القول ان بعض وجوه هذا السخاء كانت تذهب لبعض الفئات او الهيئات الخاصة، فينتفع بها فريق معين دون أهل المدينة كلهم. فالحصول على ترفيع او تقدير او ترقية ؛ مهما كان صغيراً او متواضعاً ، يكفي وحده مبرراً لإبراز أريحية صاحب الانعام وكرمه ، وإلا لما عُدّ أهلاً لرتبة أعلى وأرفع .

وكان الترفيع من رتبة دنيا الى رتبة أعلى يستدعي حتماً من صاحب الحظوة اظهار كرمه وجوده على وجه دخل معه الناس في شبه سباق يتبارون فيه ، ويتنافسون . فان فاتتنا المصادر الوثيقة هنا ، فشيء من علم النفس يحملنا على الظن ، بأن ممارسة بعض الوظائف كانت تؤمن ولا شك ، لأصحابها ، بعض المنافع المادية . فالبورجوازية البلدية كانت تؤمن ادارة المدينة ، إذ كان عليها أن تسهر، الى جانب الموظفين الامبراطوريين ، على تأمين الشرطة واستتباب الأمن والنظام فيها ، وهي إمور حرصت على تأمينها الحرص كله . فهي تعرف كيف توفق بين مصلحتها ومصلحة الأشخاص التابعين لها، في كل ما يتصل بتوزيع الضرائب ، حق البلدية منها، وجبايتها . ولكن هذا الاحتمال الثاني ، لم يكن ليتوفر في المستويات الدنيا . ومهما يكن من مبررات هذه الشكوك ، فهي لا تمنعنا من أن نؤكد هنا بأن هذا النظام كلف الطبقة الوسطى غالياً . فقد كان هنالك حوافز اخرى تحفزها على العمل كالمُثُل التي ترسمها المدينة ، وهي مثُل لا تتعدى عادة، المنفعة الشخصية المبنية على المباهاة والتفاخر في الخارج. فالواهب او المتبرع كان ينال ، لقاء سخائه وتبرعه ، مكافأة له أو تقديراً لعمله ، قراراً يأخذه أعضاء المجلس البلدي يشيد بسخائه وكرمه ، اذ كان خبر هذه التبرعات ينقش على الرقم والأنصاب تخليداً لاسم صاحبها ، او تُنصَب له ولذويه التماثيل . وكثيراً ما كان يأخذ هو نفسه ، على عاتقه ، تكاليف هذه الكتابات أو كلفة صنع التمثال ورفعه . وعلى كل ، فالشاهدة التي توضع على قبره، بعد الوفاة، كانت تحدّث القوم عن ألقابه وأخبار أياده، ووجوه كرمه ، والأشياء التي ابتدرها لمصلحة البلدة .

الحياة البلدية عنصر من عناصر وحدة الامبراطورية

فأمام هذا التنويه العالي والأماديح الفخرية التي تطالعنا بها كتابات الرقم والنقائش التي لا تحصى ، يعتري الواحد من رجال هذا العصر شيء من الإشفاق والتصاغر عندما يرى هذه المباهاة والمنافسة ينبري لها المحسنون تخليداً لاسمائهم في اذهان مواطنيهم . كذلك فهي تثير في النفوس غير هذا التأسف

ايضاً. فقد كان بالامكان، ولا شك، الافادة من هذه التبرعات في وجوه أفضل اذ كثيراً ما ذهبت جزافاً ، في سبيل شهوات ونزوات لا طائل تحتها ، لا سيا اذا عرفنا انه لم يكن من السهل دوماً جمعها ، الا بشق المرائر ، مسخرين في سبيل ذلك العديد من الناس .

ولكن، هل يجوز بعد هذا، ان نجهل او نتجاهل بان الولايات مدينة لهذه المشاعر والاحاسيس الكريمة بالكثير من هذه التبرعات والانعامات الجزيلة التي أسبلت عليها ، كما انها مدينة لها بالكثير من هذه المباني والزخارف الفنية المدهشة التي تتباهى بها اليوم ، والذي وحّد بينها : ذوق مترف يتجلى على أتمه ، في هذه الزخارف ، بالرغم من تباعدها بعضاً عن بعض . فالادارة الامبراطورية التي عولت كثيراً على هذه البلديات في تحقيق رسالتها التمدينية ، واخذت بتشجيعها ومؤازرتها ، وجعلت من حياة البلديات ، اذ ذاك، عاملاً كبيراً وعنصراً قوياً مشتركاً في عملية دمج الأقوام التي تألف منها سكان الامبراطورية وصهرها ، وتأمين الوحدة بينها ، وذلك من جراء قيام مثل هذه المثُل الفنية، في كل أطراف الامبراطورية ، والشكل الذي استقرت عليه في تحقيقها وبلورتها . فاينما دفعت حوافز الحياة ، المواطن الروماني ، وانى رمت به ظروف الوظيفة او المهنة او نزق الطبع ، فهو لا يحس نفسه غريباً عن بلاده، في كل ما يتصل بالمهام والمسؤليات التي يضطلع بها كفرد من افراد المجتمع ، مهما كانت الولاية او المقاطعة التي القت به اليها الأقدار . فاينما هبط او حل ، طالعته ، في خطوطها الكبرى، نظم سياسية واحدة ، واعراف واحدة ، وتقاليد واحدة ، والقيم الاجتماعية ذاتها ، أدبية كانت او مادية ، والزخارف المعمارية الواحدة ، والاعياد ذاتها ، وبمختصر القول ، الكثير من مقومات الحضارة الرومانية الواحدة. فلا عجب والحالة هذه ، ان يرى نفسه مأخوذاً بقوة هذه الحضارة وسطوها اينما برزت وكيفما تجلت ، فيقتنع في قرارة نفسه بانه أمام الحضارة الوحيدة التي تستحق هي وحدها، دون سواها، هذا الاسم ، فتبعث فيه عاطفة نبيلة من الزهو والفخر والمجد عندما يرى نفسه جزءاً منها ، كما تمتلىء نفسه جميلاً لهذا النظام .

المنشأ الهليني لهذا النظام

من الواضح ان التطور الخلاّق الذي تم من هذا القبيل ، خلال القرنين الاول والثاني ، كان تكملة واستطالة لهذه الحركة التطورية التي أخذ الاغريق بأسبابها ونهضوا بها منذ ان جعلتهم فتوحات الاسكندر أسياد العالم الفارسي ، وهي حركة لم تتعدّ في الشرق رقعة ضيقة ، حدّها قيام دولة الفارثيين على الفرات ، بينما بلغ مدها الزُبى في الغرب مع الفتوحات الرومانية . فاتساع المدن القديمة ، وإنشاء الحواضر الجديدة ، وتزيينها بالمباني ، وتحليتها بالزخرف ، والتطور الذي طرأ على الطبقة البورجوازية في المدن التي كانت تتمتع بيسر مالي مكنها من ان تجود بما جادت به من تبرعات سخية دعائية ، وجمعت الى رغبتها في توفير المرفّهات المنزلية الاجتماعية، اللذة في توفير ثقافة فكرية. كل ذلك جاء تعبيراً صادقاً لهذه النزعة التي حاول السلوقيون ، جاهدين ، وبكل ما أوتوه من قوة وسلطان ، تحقيقها . وأخذ الاباطرة بدورهم في تشجيع هذه الحركة ، اذ انهم ، بعد ان تبنّوا المبادىء

الحضارية ذاتها ، راحوا يعملون على توسيعها والترحيب لها والدفاع عنها ، اذ وجدوا في هذا المسلك ، الطريقة المثلى لتوطيد السلام ، في الداخل ، ومقاومة هجمات البرابرة وغزواتهم ، في الخارج . فبعد ان عرفوا كيف يفيدون من اختبارات الماضي ومن إقبال اللجنة في المدن على هذه المُثُل ، استطاعوا ان يبزّوا ملوك اليونان من هذه الناحية بكرمهم وروحهم السمحة ، فهيأوا لحواضر الولايات ، في مصر اسباب الاخذ بهذه النظم التي رأيناها تطلع في ولايات رومانية أخرى ، باستثناء الاستقلال الاداري ، بالطبع .

المستحدثات الرومانية : المصارعون

هنالك ولا شك ، أكثر من وجه من وجوه التباين بين هذه المدنية التي انتشرت على هذا الشكل ، في جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية ، بفضل العمل الاجتماعي الذي قامت به هذه المدن ، ضمن إطارها البلدي، وبين الحضارة الهلينية التي تقدمتها وسبقتها الى الظهور . فالجديد ، في الاثر الروماني ، يبرز على الأخص ، في هذه القوة او الصلابة التي امتازت بها النُظُم الادارية عند الرومان ، وفي اهتمام أولي الأمر الكبير، بالمصلحة العامة . فعندما نتملى النظر في الموقف الذي وقفته الطبقات البورجوازية في الشرق من الامبراطورية الرومانية وأسيادها في روما، لا نرى شيئاً يمكن مقارنته بهذا في الموقف الذي وقفته هذه البورجوازية من الدولة السلوقية والعراقيل الكثيرة التي أقامتها في وجهها . فلم تقتصر روما في عملها على إخضاعها وبسط سيطرتها عليها ، فراحت تغرس فيها شيئاً من كرامة الذات والمهابة الرومانية ، وذلك عملاً بفلسفة الرواقيين وتعاليمهم .

من بين هذه التغييرات الأدبية التي تجلت بصورة أوضح من خلال المظاهر الخارجية ، لا بد من ان نذكر هنا ، بنوع خاص ، هذا الجديد الذي طلع به الرومان فلم يلبث ان احتل حيزاً كبيراً في حياة المدن في جميع أنحاء الامبراطورية ، وان أثار اليوم دهشة المحدثين من رجال هذا العصر وبعث فيهم النفور والاشمئزاز ، الا وهو ألعاب المصارعة . وكان سكان المدن يجدون في معارك المصارعين ، منذ عهد بعيد ، سلواهم المفضلة، بعد النجاح العظيم الذي لقيته هذه الالعاب أينما قامت. فاذا ما شيدوا في الشرق من المسارح اقل مما شيدوا منها في الغرب، فلأنهم استعملوا لها ما كان قائماً من هذه المسارح والملاعب في المدن الشرقية . فالصفوة الثقافية والأدبية عند الاغريق قلما اظهرت نفرتها من هذه الالعاب ، بل على عكس ذلك لقيت لديها الاستحسان ، بينما النخبة الاجتماعية التي رضيت طوعاً واختياراً بتحمل النفقات المالية التي أوجبتها هذه الملاهي، راحت تزهو بها وتفخر، كما تشهد على ذلك النقائش العديدة، من يونانية ولاتينية ، على السواء . فلم تُثر هذه الملاهي الدموية التي طلعت علينا بها ايطاليا ، أية عاطفة نفور او اشمئزاز في هذه البلدان التي تعاقبت عليها عصور وعصور من الحضارة المرفّهة .

فالظروف الواحدة والمطالب الملحة الواحدة تلاقت متشابهة في كل مكان. فالمصطلح اليوناني *Philotimia* , *Philotimos* , *Philodoxos* أصبح فيما بعد مرادفاً للمصطلح اللاتيني *Munerarius* و *Munus* ، وهو يفيد معنى : العطاء والبذل ، ثم اكتسب فيما بعد، لدى كهنة عبادة

الامبراطور معنى المعركة والمصارعة ولا سيما المعركة بين البشر ، ثم تصارع أناس ضد البهائم والوحوش لإثارة حماسة الجماهير . وكان النظارة يحفلون بالمعارك التي يستعمل بها السلاح المثلوم وهو سلاح كان المصارعون يستعملونه . فالمعركة ، في نظرهم لا قيمة لها ان لم يتخللهـا عطاء او بذل شيء . كذلك لم يكونوا ليحفلوا كثيراً بالمعارك التي لا تساوي فيها ولا كفاء ، او تلك التي يلتقي فيها منافسان تنقصهما الخبرة لأنها اعجز من ان تثير اللذة او الحماسة ، كما ان خلوها من الشجاعة والإقدام يُعطـّل عند المشاهدين كل عاطفة إعجاب وإكبار وإيثار . ومهنة المصارعة *Gladiature* كثيراً ما أعادت الينا وبعثت فينا صورة : « الجحيم في التاريخ القديم » ، وهي معارك فيهـا من اللهو البشري الوحشي ما تتضاءل دونه لذة مشاهدة مصارعة الثيران او سبق الخيل . ويكفي المؤرخ ان يسجل وقوع مثل هـــذه المصارعة وما كانت تثيره في النفوس من أحاسيس وانفعالات مهتاجة ومهيجة . والحال ، فاذا كانوا يستخدمون لها أرقاء مدربين يتعهد بتقديمهم ملتزم معين او يبيعهم بيع خيول الاصطبلات ، فكثيراً ما كان يبرز لهـذه المعارك ، رجال أحرار طمعاً منهم بالربح والجوائز التي كانوا يفوزون بها ، اذ كان يتقاضى المصارع المتمتع بحريته ، ربع قيمة الايجار ، بينما يأخذ المعتوق خمسها ، ناهيك عن التنويه بهذه الأمجاد ، وذلك بحفرها على شواهد قبورهم .

ومهما يكن ، فالنفقات التي كان يتحملها المتبرعون في هذا السبيل ، كانت باهظة ، مرهقة . وبلغ من شدة تنافسهم وهَوَسهم في التبرع ما أربى على الجنون ، بحيث اضطر مجلس الشيوخ ، في عهد الامبراطور مارك اوريل ، الى إصدار قرار نظـّم فيـه أصول هـذه المصارعة وضبط أساليبها ضبطاً محكماً جعل من اللازم اخذ نصف المتصارعين في اليوم الواحد من الفئـة الأرخص والأقل كلفة . وكان المصارع الواحد من هذه الفئة يؤجر نفسه بمبلغ ١٥٠٠ سسترس . ونرى في غرة القرن الثالث ، عيناً من اعيان الغاليين أصله من مدينة فيدوكاس (بالقرب من مدينة كان في نورمنديا) ، ترقى فيما بعد ، الى رئاسة الكهان في منطقة ليون ، يحافظ على أحكام هـذا القرار ومنطوقه ، عندما يتعهد بتقديم ٣٢ زوجاً مـن المصارعين ، كل يوم ، ولمدة أربعة ايام فقط ، بأجر بلغ ٣٢٢٠٠٠ سسترس. وهكذا نرى كيف ان مبالغ طائلة هدرت هدراً في سبيل ترهات ومجد باطل ، كان بالامكان استخدامها في وجوه أكثر نفعاً ، وأبقى للمصلحة العامة من هذه السخافات والاستباحات التي لا طائل تحتها .

الطبقات الممتازة : احتياجاتها والملع الامبراطوري

هذا الدور الذي لعبته الطبقة البورجوازية في البلديات ، لم يقتصر على المدن وحواضر البلاد الكبرى . فقد وجـد فيها الأباطرة الرومانيون المعين الاكبر الذي أمدّهم بالعناصر الطيبة التي ألـّفوا منها طبقة الأشراف في الدولة . وكان من جراء هذا التغيير ، ومن طبيعة الحياة الاجتماعية التي طبعت نهج العيش في المدن ، ان جعل الامبراطورية الرومانية أكثر تجانساً وأشد صلابة .

فعندما أنشأ اوغسطس نظامه الجديد ، تألـّفت الطبقة المشيخية ، في سوادها الأكبر ، من

أشراف روما وسُراتها ، بينما تألفت طبقة الشفاليه ، على عكس ذلك ، تماماً من أعضاء جرى اختيارهم واصطفاءهم من بين الطبقة البورجوازية في المدن الايطالية ، ولعبت الوراثة دورها في كل من هاتين الطبقتين، إلا ان دوافع عديدة متباينة حملت الأباطرة على توسيع النطاق الجغرافي في تشكيل هاتين الطبقتين . من ذلك مثلاً، حاجتهم المحافظة على العدد المعين أو المحدد لكل منها . فاذا كان عدد اعضاء الشيوخ ٦٠٠ عضواً كما كان في عهد سيلا" ، فرضت ظروف وصروف لا يمكن التحكم بها ، على الاباطرة ان يعينوا عدداً لا يحصى من الشفاليه الجدد ، سداً منهم لحاجة الادارة ، وإملاءً للمناصب والمراكز المختلفة التي أنشأتها الدولة تباعاً . ولعل أهم هـذه العوامل كلها : الضمور والانحلال الذي اعترى تدريجياً الأسر الممتازة القديمة .

فالمؤامرات والهول الذي كان يزرعه الاباطرة في قلوب الناس، للقضاء عليها، حملهم في القرن الاول ، على التخلص ، دونما شفقة او رحمة ، ودفعة واحـــدة ، بعدد كبير من صفوف اعضاء مجلس الشيوخ. فمجرد حوم الشبهة او اخذ البعض بالظِنة في محاولة اعتداء على صاحب الجلالة ، كان كافياً وحده ، لحملهم على الانتحار ، امتثالاً منهم للقدر الغاشم ، وغيرةً منهم على شرف الرتبة بشكل يحرك مشاعر النفس ويثيرها . فليس من عجب ان يسيطر الهلع على اعضاء مجلس الشيوخ خلال ملك طيباريوس ونيرون ودومتيانوس ، ويدفع بالكثيرين الى الانتحار تخلصاً مما يحوم حولهم من شبهات . وعندما خفتت حدة هذا الخوف وخَفتت وطأة هـذا الهلع ، نوعاً ما ، في عهد نيرفا وترايانوس ، راح الناس يسلقون هذه العهود ، بألسنة حداد مستمطرين عليها وعلى أصحابها اللعنات . فاذا ما كانت الأسرة الانطونية ، في مجموعها — باستثناء الامبراطور هدريانوس الذي لم يتردد بانتهاج سياسة البطش — عرفت ان تضع حداً لهذا العهد المرعب ، فمرد هذا يعود بالأحرى ، للحلم الذي اتصف به افراد هذه الأسرة الحاكمة ، بل لهذه الروح الجديدة التي تجلت بين صفوف المنظمة المشيخية بعد ان جددت شبابها ونفضت عنها ما تراكم عليها مـن غبار الماضي ، وقطع أعضاؤها كل صلة لهم بالدسّ والتآمر . وهكذا قطفت الاسرة الانطونيـة ثمار سياسة الضغط والشدة التي انتهجها أسلافها من قبل .

الثراء وقلة الإنجاب

وعملية الفتك، بالجملة ، بالعديد من اعضاء الطبقة المشيخية، لم تكن بالطبع، لتقضي وحدها عليها بالفنـاء والمحق ، كما ان هذه الأحكام بالاعدام لم تكن لتلحق الأذى المادي في أبناء المحكومين، هذا اذا ما سلمنا بوجود اولاد لهم . والمفجع في الأمر، هو ان معظمهم لم يكن لهم اولاد . ومما زاد الطين بلة والامر حرجاً هو ان طبقة الشفاليه لم تصب ، على الاجمال ، بسوء في عهد الارهاب والهلع الذي سيطر على اعضاء مجلس الشيوخ ، لأن خطرهم كان دون خطر اولئك ، على الاباطرة . وكانوا ، على الغالب ، يموتون دون ان يعقبوا اولاداً. وقد لفتت ظاهرة الاضمحلال التي اعترت الطبقات الاجتماعية العليا، نظر المؤرخ الروماني بوليب ، فسماها *Oliganthropia* ، وعرّض للكتابة عن هـــذه الظاهرة في معرض حديثه عن المجتمعات اليونانية في العهد الهليني . وعندما راح يُحلل اسباب هذه الظاهرة ، ويُعلل الدوافع

التي أدت اليها، وقف في تحليله لها عند الاسباب الخلقية والادبية دون سواها ، بعد ان تدهورت الاخلاق العامة بين أبناء الطبقات الممتازة في روما ، خلال العهد الامبراطوري ، واتخذ هذا التدهور صوراً وأشكالاً من الفساد والشر. وقد تجاوز بوضوح عن ذكر أسباب أخرى ، محافظة منه، ولا شك في ذلك، على الاخلاق العامة، مع ما استرسل اليه من اللوم ، والشجب والانتقاد، ولو تعرض هو نفسه لتهمة الموعظة والارشاد .

كان المجتمع الروماني العالي يغص بالغنى ويرفل بالثراء . فقد بلغت اكبر ثروة بلغنا خبرها ، اذ ذاك ، ٤٠٠ مليون سسترس ، ملك احداها معتوق يدعى نرسيس ، من توابع الامبراطور . اما الثانية ، فخصت احد اعضاء مجلس الشيوخ ، في عهد اوغسطس . فلاعجب اذا ما راح بلين الاصغر يشكو امام مشاهدته هذه الثروات الهائلة ، زمانه وقسوة حظه ، ويقابلها بامكاناته المتواضعة ، مع العلم انه خلّف، وراءه ، كما تنص عليه وصيته الأخيرة ، وفقاً لمنطوق احدى النقائش التي وصلت الينا ، ٢٠ مليون سسترس لا غير. وقد رأى بالطبع ، مجتمع على مثل هذا الغنى ، ان يستمتع بالحياة ، على ما يرغب فيه ويشتهي . فقد شهد القرن الاول للامبراطورية بذخاً لم يعرف العالم مثله من قبل ، كما انه بلغ حداً من الترف لا مزيد عليه ، والكل يحاول ان يبز غيره في لذائذه ، ويتفنن بالاستمتاع بها حتى الخروج على المألوف ، وذلك ببذخ واملاق تجلى في كل مظاهر الحياة المادية : في هذه القصور الشاهقة ، وهذا الجيش اللجب من العبيد والارقاء ، وهذا الاثاث والرياش والملابس الفخمة والحلى والجوهرات ، والولائم المترفة ، وانواع اللذائذ على اختلاف طعومها والوانها . من السهل ان نورد على هذا ألف شاهد وشاهد ، هي من الواقع بحيث تبدو صعبة التصديق تبعث الشك في النفوس لشدة غرابتها لولا اتفاقها مع النصوص الأدبية والتاريخية التي خلفها لنا الأقدمون فتجعلها فوق شبهة ومظنة . وهذه الشواهد التاريخية ، على صحتها ، هي من الكثرة والتوفر اوردها كتاب وشعراء أقدمون ، بحيث لا خوف قط من ان يعوزنا الدليل . وبالرغم من الأمثلة الكثيرة التي جمعها المؤرخ الألماني لودفيغ فريدلاندر ، في كتابه الضخم الموسوم : « تاريخ الآداب والأخلاق في روما قديماً »[1] لا يزال هنالك مجال واسع لاضافات كثيرة من النقل والمأثورات . ومهما تكن الصورة التي تطبعها في النفس قراءة هذه الوقائع التاريخية التي أُخرجت للناس حديثاً ، أفلاماً سينمائية تضؤل كثيراً أمام ما نقرؤه عنها في آثار كتبة الرومان ، أمثال بترون *Petrone* و مرسيال وجوفنال ، فهي تبقى دون الحقيقة بكثير .

ومهما بلغ من زهو هذه الحياة التي عاشها اغنياء الرومان ، والبذخ الذي تجلى في مآدبهم ، والتفنن الذي بلغوا فيه القدح المعلّى في ولائمهم، بحيث انهم فاقوا كل ما عُرف من امثاله في التاريخ القديم ، فالذي يهمنا هنا ، من هذا كله ، هي النتائج الديموغرافية التي ادى اليه هذا المسلك . ففي روما ، كما في اليونان قديماً ، لم يكن الاب الذي يستطيع ان يورث أولاده ثروة بعد موته

(١) *Histoire des Moeurs de Rome*

يطرحهم في الشارع . غير ان الانصراف للحياة الحرة ، الطليقة ، المترفة ، جعل كثيرين من الشباب ، يفضلون البقاء عازبين حتى اذا ما تزوجوا في ما بعد ، لم يعقبوا ، هذا ان لم يتعرض زواجهم للطلاق ، وان أنجبوا ، فبعدد قليل وتعرض اولادهم للوفاة . وهـذا النقص الفاضح في المواليد جاء يُتمم، من جهته ، عمل الفتك والتقتيل بالجملة ، الذي امتاز به عهد بعض الاباطرة .

فشل قوانين محاربة البذخ والتشريعات الديموغرافيـة

حاول المسؤولون جهدهم ان يكافحوا ما أمكن ، اسباب الداء وان يجتزوا الداء من الاساس . واقتداء بالقوانين التي سبق لقيصر ان سنها من قبل ضد بَطَـر البذخ والاسراف والاملاق ، راح ابنه اوغسطس يشترع بدوره قوانين بهذا الصدد للحد من موجة الانفاق بامـلاق وأسراف جنونيين . فحدد بـ ٢٠٠ سسترس لليوم نفقة الأيام العادية، و٣٠٠ سسترس لأيام الأعياد ، و ١٠٠٠ سسترس ليوم الزفاف وللتالي بعده . ثم أصدر قانوناً جديداً ، لم يكن له اثراً اكبر من غيره ، نظم فيه كيفية مراقبة المشتريات بصورة عملية . وقد رفض الامبراطور طيباريوس ، بمـا عرف عنه من سلامة المنطق ، الاستمرار في تطبيق هذه القوانين ، معلناً بان الاسراف على شؤون التغذية ليس سوى وجه من وجوه الاملاق والبذخ، متسائلاً: « كيف نبتدىء الاصلاح وما الذي يجب تخفيضه ، في الدرجة الأولى ، للرجوع بالاخلاق الى البساطة الاولى؟ هل نبتدىء بتخفيض مساحة البيوت التي نشيدها في الأرياف ؟ او هل نخفض هـذه الجيوش الجرارة من العبيد والارقاء ؟ او هذه المبالغ الضخمة من الفضة والذهب ؟ أو بالاحرى هذه الاواني المنزلية البديعة الصنع ، من البرونز ، أو هذه الرسوم التي يعنّي الرسام نفسه برسمها بصبر جميل ؟ أو هذه الثياب الفخمة الفاخرة ، أو هذه المقادير من الحجارة الكريمة والمجوهرات ؟ هذه القوانين التي سنها السلف ، وغيرها ممـا استنّه اوغسطس وعفى العمل به او ما هو ادعى للخجل ، مما الغي احتقاراً للقانون ودوساً له . كل هذه القوانين والتشريعات ، ألم تشجع على الإثم وتدعو للشر » .

ومضى الامبراطور اوغسطس في سن القوانين الرادعة وتحسينها ، للحد من اسراف الطبقات الثرية ، ولحملها على الإكثار من الولد والبنين . وقد أوصت هذه التشريعات على امـلاء مناصب البروقنصل من بين اعضاء الشيوخ الذين لهم أولاد ، كما انها تصعبت في قضايا الطلاق. وفي مصلحة أرباب الاسر ، ولاسيما الاسر التي تضم ثلاثة أولاد واكثر ، راحت تفرض رسوماً على العازبين وتحول دون ان يتناولوا من إرث يأتيهم من ثالث او من نسيب بعيد القربي ، اكثر من مبلغ معين . وهذه القوانين التي كان من الصعب فرضها على الناس وتطبيقها ، ازعجت الى حد بعيد الطبقة الاجتماعية الراقية ، حيث كانت عادة التوصية بالارث تتبع بسخاء منذ عهد بعيد . ولكي يحولوا دون تطبيق هذا القانون راحوا يعقدون خطوباتهم مع بنات صغار ثم يلغونها بعد قليل ليعقدوا غيرها ، الامر الذي كان يستدعي إيقاف مفعول القانون. وكثيراً ما كانوا يبرمون عقود تبنّي مزيفة. غير ان اكثر الوسائل استعمالاً اسهلها على الاطلاق . فقد اعطى اوغسطس نفسه المثل على ذلك ، اذ انه اعترف لزوجته ليفيا التي لم يكن لهـا غير ولدين ، بذات الحقوق

المستحقة لزوجة لها « ثلاثة اولاد » . وقد احتذى كثيرون من الاباطرة ، فيما بعد حذوه ، الى حد اساءة الاستعمال والتجاوز المفرط ، الامر الذي حدا بالامبراطور ترايانوس لان يُعين حداً اعلى للمنتفعين بهذا التحيّل على القانون . ولكن كيف يستطيع اباطرة عرفوا بقلة الولد ، ان يصمدوا ولا يلينوا امام أولادهم ، هذا ان كان لهم أولاد ؟ وعلى عكس القوانين الخاصة بمكافحة البذخ ، استمر العمل جارياً بالقوانين الديموغرافية ، اذ ان في المحافظة عليها مصلحة لصندوق الدولة التي كانت تضع يدها على المواريث الواهية او المشكوك بها . ومع ذلك ، بقيت عاجزة عن معالجة الوضع .

الاستعانة بالنخبة في الولايات

وهكذا لم تلبث الدولة ان وجدت نفسها امام عجز فاضح ، ألحق الضرر بمصالح الحكومة وبالادارة على السواء . صحيح ان الطبقة الاجتماعية الوسطى في ايطاليا عوضت بعض الشيء ، إلا انها لم تكن تتجدد بالسرعة اللازمة بعد ان اخذت البلاد تشكو من تأخر الوضع الاقتصادي ومن هبوطه . فلم يكن بدّ ، والحالة هذه ، امام الدولة ، من اللجوء الى النخبة في الولايات والاستعانة بها ، وفيها معين لا ينضب ولا يجف من المادة البشرية ، بعد ان كانت هذه الولايات اخذت بأسباب الحضارة الرومانية واقبلت عليها تستمرئها . وساعد الازدهار الذي نعمت به أسر عديدة ، على بلوغ هذا الوضع الاجتماعي . وجاء هذا التدبير تتمة او بالأحرى ، نتيجة لانتشار حق الرعوية الرومانية للمدن ، لما بين هذين الاتجاهين من ترابط وثيق . فقد سبق للجمهورية ان أعطت المثل الاول ، وذلك بتعميم هذا الحق تدريجياً على كل المدن الايطالية والشروع بإيلائه للمدن القائمة في اقدم الولايات الرومانية ، في الخارج . غير ان الدولة سارت في هذا بتمهل كلي ، كما برهنت من جهة أخرى عن إمساك مفرط في كل ما يتصل بالوظائف الكبرى ، اذ ان الارستوقراطية الايطالية استطاعت وحدها ، ان تبلغ مرتبة الشيوخ بعد ان امتزجت بالارستوقراطية الرومانية وانصهرت بها . وكان لا بد من حدوث الحرب الأهلية وما جرته معها من اضطرابات وويلات ، كما كان لا بد من ظهور دكتاتورية قيصر ، بالتالي ، لتشهد وصول سكان الولايات الى مجلس الندوة الروماني ، اذ نرى ، عام ٤٠ ق. م ، اسبانياً يُعيّن قنصلاً ، كما رأينا ، سنة ٣٥ رجلاً غاليّاً من ولاية ناربون ، يعين هو الآخر ، في مثل هذه الوظيفة . إلا ان هذه السياسة الجديدة لم يتسع الاخذ بها إلا في ظل العهد الامبراطوري .

وهذه السياسة الجديدة ، حريّ بنا ان نقف عندها ونتملى فيها النظر ، اذ كان عليها ان تتغلب على عاطفة النفور ، وأحياناً على المعارضة المكشوفة ، ان لم يكن من قبل الطبقتين الممتازين ، فأقله من الطبقة العليا . ففي عام ٤٨ ، وقف مجلس الشيوخ موقفاً عدائياً صريحاً من التماس رفعه وجوه «غاليا» وأعيانها ، بعد ان تم تدوينها على يد قيصر ، رجوا فيه إعطاءهم حق الوصول الى الوظائف الرومانية العليا ، أي الى مجلس الشيوخ ، بعد ان نالوا حق الرعوية الرومانية ونعموا بما توليه من امتيازات لحاملي هذا الحق . فاضطر الامبراطور كلوديوس نفسه للتدخل في الأمر ،

في خطاب ألقاه بهذا الصدد، عُثِر على موجز له في مدينة ليون، مكتوباً على لوحة من البرونز. وبالرغم من تحمسه للقضية ، والحرارة التي ابداها في تأييده هذا الطلب ، فلم يستجب مجلس الشيوخ لهذا الالتماس إلا تدريجياً ، وعلى مراحل ، مبتدئاً من شعب الأدُوين (اوتون اليوم) بوصفهم اقدم حلفاء روما في غاليا قديماً ، ثم جاء تباعاً دور الولايات الاخرى . فولايات افريقيا لم يطلع منها قناصل قبل عهد الاسرة الفلافية ، والشرق الاغريقي ، بعد ذلك بكثير . ثم قوي التيار واصبح لا يقاوم . وعندما انقرضت الاسرة الانطونية كانت مصر وحدها ، بين الولايات الرومانية الكبرى ، الولاية التي لم تُطلع قنصلاً رومانياً بعد . وسيصبح لها واحد في عهد أسرة سفيروس *Sévères* .

ولم يستفد من هذه السياسة ، حتى عهد الاسرة الفلافية ، سوى الطبقة الارستوقراطية العليا التي حاكت ، بما تم لها من غنى وثراء ، الطبقة الارستوقراطية الرومانية ، اذ كان بامكانها ان تقتني لها، املاكاً طائلة في ايطاليا وان تستوطن روما مع احتفاظها بمصالح واسعة لها في منشئها الام ، أي في الولايات التى انطلقت منها . الا ان ما كانت عليه من قلة العدد اجبر السلطة على توسيع طريقة انتقائها العدد اللازم لها ، وذلك على اساس النظام الاجتماعي دون الاقتصار على النطاق الجغرافي وحده . وقد باشر السياسة الجديدة الامبراطور فسبسيانوس الذي خرج ، هو نفسه ، من الطبقة البورجوازية الصغرى . فقد كان ، قبل ارتقائه العرش الامبراطوري، الاول في مجلس الشيوخ كما كان ابوه ، الشفاليه الاول من بين اسرته . وبعد ان تسلم مقاليد السلطة العليا ، إثر ازمة ٦٨/٦٩ ، لم يتردد قط ان أدخل ، الى عضوية الشيوخ ، عدداً من الشفاليه من اصل ايطالي او اختارهم من بين الولايات الاخرى . وسار خلفاؤه من بعده على شاكلته ، بحيث ان الطبقة المشيخية عدت بين صفوفها ، اعضاء خرجوا من بين الطبقة الوسطى ، ازداد عددهم مع الزمن .

اما طبقة الشفاليه ، فلم يكترث الامبراطور يوماً باي اعتراض او مقاومة من قبل مجلس الشيوخ مما لم يضطره يوماً للدخول معهم في مساومات ، اذ انه كان السيد المطلق ، والمشرف الاوحد على تعيين اعضاء هذه الطبقة ، يختارهم ويصطفيهم كيفما شاء . وكان يكفيه ان يكون المرشح حاملاً الجنسية، مسجلاً في دائرة الاحصاء والنفوس ، معروفاً بولائه للامبراطور الذي لم يكن غير الولاء للدولة ، له الحد الادنى من الخبرة ، وعلى استعداد لاكتسابها. وعندما أطلت هذه البورجوازية في الغرب راح الامبراطور يستفيد منها . ولكي يستفيد منها في الشرق حيث كانت طلعت وبرزت منذ عهد بعيد ، ترتب عليه ان يتغلب على بعض الصعوبات منها حَنَق الشرق على الغرب اللاتيني ، كما ان الاخذ باسباب الحضارة الرومانية كان شرطاً لا بد منه في المرشح المتيد . ولكن هذه المحاذير لم تلبث ان فقدت شيئاً فشيئاً من حدتها ، ابتداء من عهد هدريانوس . فبعد ان كانت الولايات الغربية تقدم لهذه الطبقة ، عدداً اكبر من العدد الذي كانت تقدمه الولايات اليونانية في الشرق ، فقد خف هذا التفاوت كثيراً واصبحت منظمة

الشفاليه ، من حيث تشكيلها ، تعبيراً صحيحاً لوحدة الامبراطورية .

التغييرات التي لحقت بالمنظمة المشيخية

لما راح الامبراطور يُرَقي الى عضوية مجلس الشيوخ من يرغب بتكريمه وترفيعه من اعضاء منظمة الشفاليه الذين لا يرغب في الاحتفاظ بهم لتسلم الوظائف والنيابات الكبرى ، كانت المنظمة المشيخية قد لحق بها ، منذ القرن الثاني ، تغييرات جذرية من نتائجها المباشرة ، هذا الشعور العام الذي بدا على الجميع ، بالتوازن والاعتدال والجدية وغير ذلك من المناقب التى ميزت « عصر الاسرة الانطونية » .

فالأسَر التي برزت في العهد الجمهوري قد انقرضت وغربت أسماؤها عن جو مجلس الشيوخ . فاذا ما عمّرت واستمرت – وهذا أمر نادر للغاية – فبتدبير مصطنع أي عن طريق التبني. ولذا ألّف الأعضاء الذين جرى انتقاؤهم من الولايات ، أكثرية ساحقة في المجلس المذكور. فقد طلعوا، على العموم ، من أسر برهنت ، على مر الزمن ، عن كفاءتها وتوصلت تدريجياً ، الى مصفّ الأشراف والنبلاء ، غِلاباً وجهاداً ، بعد ان أُدخِل على الادارة دم جديد من الموظفين المؤهلين، تم لهم، مع الزمن ، خبرة واسعة في الأمور الادارية والعسكرية . وهكذا قُيِّض لهذه الطبقة ان تقدم للامبراطور مساعدين أكفاء يعتمد عليهم في تصريف الأمور وتدبير شؤون الامبراطورية. ولما كان الامبراطور يتحرج من مجلس كثير الاعضاء ، نزّاع للمناقشات والمجادلات التي لا طائل تحتها ، فقد آثر ان يكون تعاونه مع قلة منتقاة من بين أعضائه ، يختار من بينهم الموظفين الذين يرى نفسه بحاجة الى خدماتهم . وعلى هذا ، نما في هذا الفريق ، الحس بالمصلحة العامة ، والوعي الوطني أكثر من ذي قبل ، وأدركوا ان الامبراطورية هي غير روما ، وانها تشرّع وتعمل للملايين من البشر موزعين بين ولاياتها .

وقد تبدلت اخلاقهم وعاداتهم . فكان اعضاء المجلس على جانب من الثراء ، انما اقل ثراءً من اسلافهم في المجلس . وقد جمع معظمهم ما تم لهم من ثروة ، من مصادر لا تمت بأي سبب للمضاربات وأعمال الابتزاز والاعتصار او النهب ، بعد طول عناء وجهد موصول ، استمرت عليه اجيالاً متطاولة . ولذا كانوا يستعملون هذه الثروة بفطنة وحكمة وتحفّظ . فبلين الاصغر الذي كان يملك في عهد ترايانوس، الى جانب صرحين له في مقاطعة كوم الواقعة الى شمالي ايطاليا، حيث مهبط رأسه ، يسمى الاول تراجيديا ، والثاني كوميديا ، امتلك ايضاً صرحين آخرين ، في ايطاليا الوسطى ، هما : صرح لورانتس بالقرب من مدينة اوستي ، وصرح توتشي ، عند منحدر جبال الابنين ، كان يُمثل طبقة في سبيلها الى الانقراض والزوال . ونهج الحياة الذي سار عليه اعضاء مجلس الشيوخ ، اذ ذاك في روما ، كان اقل زهواً وفخفخة مما مضى ، لأن معظم اعضاء المجلس كانوا يقتنون لهم اقطاناً واسعة في المدن التي تعتبر محتداً لاسرتهم . فكان عليهم ، والحالة هذه ، ان يحتفظوا بحد أدنى من المبلغ المخصص لعاصمتهم ، يستثمرونه في شراء عقارات تقع في ايطاليا . وهذا الحد الادنى تدنى وتناقص هو الآخر : فبعد ان كان الثلث ، في عهد ترايانوس ، اصبح الربع في عهد مارك اوريل . فلم يبق لهم من اثر ظاهر على محيطهم إلا عندما

يقطنون ، ولأمد قصير ، في احدى فيلاتهم المحببة القائمة وسط املاكهم الواسعة في الولاية . وهذه البقية الباقية من النفوذ في محيطهم الزيفي ، يجب رده الى عوامل ادبية : فقد كان وليد إعجاب سكان المنطقة بالنجاح الذي حققه العضو الجديد من اعضاء المجلس ، وبالنفوذ او الحظوة التي كانت له عند اولي الامر في العاصمة .

بقي مع ذلك شيء هنالك : بالرغم من هذا التغيير الجذري ، وهذا الضمور الذي يلاحظ على هـذه النخبة الاجتماعية ، وعلى الرغم من انقضاء عهد الدسائس والمؤامرات والاغتيالات واحكام الاعدام بالجملة ، فلم تكن أية أسرة مشيخية لتعمر أكثر من جيلين او ثلاثة اجيال ، اذ تكون جفّت فيها وماتت هذه الحيوية المجاهدة التي برهنت عنها الاسرة قبل تحقيقها ما حققته من اهداف ، وما استشرفت اليه من مآت واجاد. وذلك على اثر انغماسها بموجة الترف والبذخ التي اجتاحت روما واغرقتها في لججها .

الارتقاء الاجتماعي

وهكذا فالسير الاجتماعي صُعُداً لم يكن ليقف او لينقطع . وهـذا المد التطوري ، بما بلغه من اتساع ومع ما كان عليـه من استمرار نظيم ، يؤلف احدى المميزات التي اتصفت بها مدنية الامبراطورية الرومانية في هـذه الحقبة المتأخرة من تطورها ، وفرّدتها عن المدنيات الأخرى التي تقدمتها .

ويحسن بنا مع ذلك ، ألا نجهل الحدود الجغرافية لهـذا التطور وعدم تساوي الفرص التي وفرتها هذه المدنية ، للولايات التي تألفت منها الامبراطورية الرومانية . فقد كان من المسلّم به اساساً ، ان باستطاعة المعْدَم من النـاس ان يتمكن من تكوين رأس مالٍ له يكون ، على وضاعته ، نقطة انطلاق الأسرة في جهادها نحو الرقي والتطور ، يعمل اولاده من بعده ، على استثماره وإنمائه . ولم نكن لنشاهد في ايطاليا أي مصير من هذا النوع، بالنظر لما كانت عليه من تأخر وانحطاط في اقتصادياتها ، ولا في مصر ايضاً (بالنسبة لما كانت ترزح تحته اليد العاملة فيها من كابوس مرهق) . كذلك كانت ضعيفة ايضاً امكانات الصعود الاجتماعي امام سكان الأرياف ، وفي الولايات ، إلا من جاشت نفوسهم بالطموح من أبناء الشعب ، فيُقدِمون ، وهذا أيسر السبل ، على الانخراط في خدمة الجيش ، فيقطعون مراحل الترقي على مهل ، فتنفتح امام صاحبنا ، عندما يرقى الى رتبة قائد مائة ، ابواب طبقة الشفاليه . فسكان مدن الولايات أتيحت لهم الافادة من مثل هذا الوضع عن طريق تدرجهم من مهنة يدوية الى طبقة البورجوازية البلدية ، ومنها يتدرجون الهوينا ، الى ابواب منظمة الشفاليه ، ليصلوا منها الى ابواب المنظمة المشيخية . وهـذا الصعود كان يقتضي له عدة اجيال . فقد عرف العهد الامبراطوري ان ينظم هذه الترفيعات في محاولته تجديد طبقة الاشراف ، هذه الطبقة الآخذة بالانقراض والزوال ، مهما كان من الأمر . دون ان يحدث انقلاباً جذرياً في السلم الاجتماعي ، اذ عرف ان يحافظ على هذه المراحل ، ناهيك عن ان تنظيم الحياة الاقتصادية ، اذ ذاك ، لم يكن ليساعد كثيراً على بروز أغنياء جدد . كل هـذا يقتضي له جهوداً موصولة واخذ النفس باقتصاد صارم ، وحساً مرهفاً يعرف معه صاحبه كيف

يحافظ على التوازن بين الاقتصاد النظيم والبذل الحكيم في المناسبات العارضة . كل ذلــك ، الى شيء من تفتح العقل والذهن ، ومسحة من الثقافة المتوسطة ، والتمرس بوظيفة ادارية . كذلك اقتضى الأمر الاعتصام بشيء من التقاليد والاعراف المتبعة في القطاعين الاجتماعي والسياسي ، إذ ان بطء الارتقاء كان يساعد على التكييف واكتساب الخبرات . وكان على المعني بالامر ان لا يظهر ، في أية مرتبة بلغها ، انه من حديثي النعمة ، كما كان عليه ان يحترز من إثارة الشكوك بحول ولائه للدولة .

وهذه الطريقة التي قامت على الاختبار والتي اكتملت بفضل التجارب التي مرت بهـا عبر الأجيال ، وفقاً لمقتضيات الظروف خلال القرن الأول ، سارت سيرهـا النظيم خلال القرن الثاني . فقد أمدت العهد الامبراطوري بهيكل اداري شغله أكفاء الموظفين ، كان خير ما عرفه التاريخ القديم من امثال هذه الملاكات ، وكان له فضل عميم في تأمين هذا التجانس الذي ، وان لم يبلغ تمامه ، فقد فاق ، مع ذلك، ما عرفت من أمثاله، اكبر دولة قامت في التاريخ الى ذلـك العهد. ومن بين الاشكال التي تبلورت عنها ، فكانت قواماً لها، كما كانت تعبيراً صادقاً عنها، بعد ان ربطت بينها مثُل المدنية الواحدة التي كانت امتداداً لها ، هذه الوحدة العميقـة الجذور، الممثلة في هذه الطبقة النبيلة التي تتألف من كبار موظفي الدولة ، الذين جيء بهم من ولايات متباعدة ألـّفوا معاً طبقة واحدة تمرست بهذه المناقلات التي خضعت لها وفقاً لمقتضيات الوظيفة. فالفروق بين اصل الاباطرة الرومانيين الطبقي، سواءً اطلعوا من هذه الارستوقراطية الرومانية القديمة ، كالاسرة اليوليو ـ كلودية ، او من طبقة البورجوازية الايطاليـة المتواضعة ، كالاسرة الفلافية، او جاءت من بين هذه النخبة التي أطلعتها الولايات الرومانية القديمة كاسبانيا او مقاطعة ناربون الغالية، كالاسرة الانطونية، لا تبرز على نصاعتها إلا متى وضعناها جنباً الى جنب مع هذه الحقيقة . فبنظر هذه الطبقات الموجهة ، كانت الامبراطورية الرومانية تؤلف امة ً.

غير ان حسن سير النظام الامبراطوري كان يستدعي استمرار الازدهار الاقتصادي، مصدر كل ثروة واساس كل ارتقاء اجتماعي وكل حركة تقدمية . كذلك كان يستدعي طاعة الطبقات الاجتماعية الدنيا ، واقبالها على هذه النـُظم تستمرئها وتتمثلها .

٣ ـ الطبقات الاجتماعية الدنيا

والحال ، كان هذا الازدهار سريع العطب، والطبقات الدنيا تتألم وتتضوّر . فغنى الطبقات الثرية يقوم على عمل ذوي الحرمان الذين لا حصر لهم ولا حد .

اليد العاملة

عرف الشرق ان يحافظ على هذه المشاغل والورش المهنية التي كانت تقوم في ظلال الهياكل والمعابد ، وعلى من فيها من أيدٍ عاملة كادحة، شبه مستعبدة . وعلى هذا سارت المدن فاحتفظت بدورها ، بالمشاغل الصناعية واصحاب الحرف . ومعلوماتنا حول وضع هؤلاء العمال ، قليلة ، مُصرّدة ، لا تفي بالغرض . إلا أنه، على الاجمال ، وضع لا يوحي بالرضى

ولا بالارتياح ، اذا ما اخذنا ببعض الظواهر العارضة . قد تكون المُثُل اليونانية القديمة التي اعتمرت بها النفوس فبعثت روح الثورة الاجتماعية ، بقيت تعتمل في الاذهان وتختمر بها الارواح ، اذ ما كادت روما تبسط ، منذ عام ١٣٣ ق . م سيطرتها على اقطار آسيا الصغرى الغربيــة ، وترسّخ نفوذها فيها ، حتى اضطرت لمواجهة ثورة هبت في وجهها بقيادة أرستونيكوس قوامها هذه الطبقات الاجتماعية الدنيا في مملكة أتـّال القديمة . ومما لا ريب فيه قط ان مواسم القحط وارتفاع اسعار الحبوب ، في اواخر القرن الاول ، فعلت فعلتها في النفوس ، بالرغم من محاولات الحكام الاداريين للتخفيف من حدتها . فقامت في اواخر القرن الاول ، في هذه الاقطار الأسيوية إعتصابات أثارت شكوك الامبراطور ترايانوس وأهاجت حفيظته ضد الشعب في مدن مقاطعة بيثينيا *Bithynie* ، كما يبدو من مطالعة الرسائل المتبادلة بينه وبين صديقه بلين الاصغر ، حاكم تلك المقاطعة وممثل الامبراطور فيها .

وكان الأمر يتعلق ، في الدرجة الأولى ، بهذه النقابات المهنية المعروفة عندهم بـ « كولـّيج *Collèges* » ، وهي في الأساس هيئات دينية الهدف ، جنائزية . تألفت ، على الغالب ، من رفاق متواضعي الحال ، يتناهدون فيما بينهم بدفع رسوم معينة ، للاحتفــال بمراسم بعض العبادات وتأمين جنائز محترمة لذويهم ، يدخل عضويتها ، بصورة طبيعية ، أصحاب المهنة أو الحرفــة الواحدة ، بدافع من شعور التضامن والتكافل ، الذي يشدهم بعضاً الى بعض . وقد قام مثل هذه الهيئات أو النقابات في الشرق قديماً ، قبيل الفتح الروماني ، ونشأت مثيلات لها في روما ، خلال العهد الجمهوري ، وفي غيرها من حواضر البلاد الايطالية . ولما كانت هذه الحركة النقابية أخذت تلعب دوراً شبيهاً بدور النوادي ، وأخذ اعضاؤهــا يشاركون بالمظاهرات السياسية ، راحت الامبراطورية ، في مطلع عهدها توجس شراً منها ، وتنظر اليها بالتالي شذراً ، ولذا اشترطت عليها ان تأخذ علماً وخبراً بتأسيسها ، ووضعت لنشاطها حدوداً وسدوداً ، عرفت الشرطة البلدية ان تلزمها بها فلا تتعداها . ولما تغير موقف السلطة من هذه الهيئات بعد ان أولتها رضاها في القرن الثاني ، أطلقت لها حرية العمل والاجتماع ، واعترفت بها رسمياً من الوجهتين القانونية والمالية . ومرد هذا التحول في موقف الحكومة من هذه الحركة النقابية ، انتشار الروح الانسانية والمبادىء التي تقول بها ، كما أن اعتبارات اقتصادية لعبت ، هي الأخرى ، دوراً فعالاً في هــذا التطور ، إذ راح أولو الأمر ، يتوقعون من هذه النقابة بعض الخدمات والقيــام بدور حساس في تطوير الطبقات الدنيا من الوجهة الاجتماعية .

أما في الغرب ، فقد اخذ عقد هذه النقابات ينتظم مع مطلع العهد الامبراطوري ، فساعدت بما لهـــا من نصراء يرعونها ، ومن مجالس ادارية تنتظم سلكها ، ومن أعياد تقيمها في بعض المواسم الخاصة ، في طلوع البورجوازية البلدية ، وتلقيح هذه الطبقة والمناطق الريفية بدم جديد . فاليد العاملة في المدن ، لم تكن أخذت تشكل بعد ، مشكلة اجتماعية في هذه المناطق ، وذلك نظراً لما كانت عليه التجارة والحرف المهنية والصناعية من ازدهار ، اذ كان كل شيء يتوقف عـلى

استمرار مثل هذا الازدهار، واستبدال الشغيلة أو اليد العاملة التي لم تلبث ان برز شأنها في المجتمع.

اليد العاملة في الريف

أما وضع اليد العاملة في الريف فجاء على شكل آخر. فالملكية العقارية الواسعة كانت دوماً آخذة بالنمو والازدياد. وهنا تبرز لنا الكلمة المأثورة التي جاءت على لسان بلين الأصغر، إذ قال: «كبار الملاكين، هم الذين جلبوا الدمار لإيطاليا»، وهي عبارة يحسن تكلتها بالفقرة التالية: «وكذلك قل عن الولايات ايضاً، اذ ان ستة لا غير من كبار الملاكين، كانوا يملكون نصف افريقيا (أي تونس اليوم)، عندما حكم عليهم الامبراطور نيرون بالموت. أي ان نيرون صادر أملاكهم وضبطها»، غير ان طريقة استثمار هذه الأملاك الواسعة لم تتبدل، سواء أخضعت للامبراطور أو كانت ملكاً للخاصة. والطريقة التي انتهجها نيرون في توزيع هذه الأراضي على الفلاحين، قطعاً صغيرة بعد ان تم مسحها على أيدي مهندسين مساحين، جيء بهم من المدن، لم تخفف من تضخم هذه الملكية. فأينما استمر الاخذ بهذه الطريقة، كان استثمار الاراضي الصغيرة على ايدي اصحابها آخذاً بالتدهور، قبيل طلوع النظام الامبراطوري، على البلاد.

واستثمار الاراضي بكاملها على يد فريق دائم من الارقاء يضاف اليهم عدد آخر من الاجراء عند تمام المواسم ونضجها، يعملون جميعاً، جنباً الى جنب، تحت اشراف صاحب الارض المباشر او وكيله، قل جداً بحيث اصبح نادراً. ولم يكونوا يلجأون لمثل هذه الطريقة التي لم تكن نتائجها مرضية إلا في هذا القسم من الارض الواقع على محاذاة قصر رب الارض او على مقربة منه، اذ يصبح الاشراف على عملية الاستثمار اذ ذاك، أسهل وأيسر، فيضحي ببعض المنافع الاقتصادية. وكانوا يفضلون العبيد باعداد كبيرة كيد عاملة في المعامل والورش الصناعية القائمة على مقربة من صروح الملاكين. اما الباقي من هذه الأملاك، فقد كان، على الغالب، يستثمر مباشرة، من قبل صاحب الارض، او بالواسطة، عن طريق شركاء مرابعين، احياناً، لقاء قسم من غلة الارض، يعود «للمعمرين» الاحرار بالاسم، وان كانوا، بالفعل، خاضعين لارادة صاحب الارض وهواه.

وهؤلاء العمال، احراراً كانوا ام عبيداً، اتسمت حياتهم بالبؤس والشقاء. ولدينا في هذا الصدد معلومات دقيقة تتعلق على الاخص ببعض الأقطار. فقد قاست مصر، مثلاً من افراد العبيد (*Anachorésis*) الذين كانوا يعملون في الاراضي الزراعية، ليختبئوا بين غياض المستنقعات وأجمات الغدران الملتفة، في الوجه البحري (الدلتا) وهو امر شكت منه مصر، في عهد البطالسة، واستفحل شأنه في القرن الثاني. وتطالعنا نقيشة عُثر عليها في افريقيا تحمل نص عريضة دفعها المعمرون الى الامبراطور كومود يتململون فيها مما يرهقونهم به من اعباء فيحملونهم اكثر مما يستطيعون ويسلطون عليهم الجيش لاجبارهم على دفع ما يترتب عليهم دفعه، ويزجّون بهم في غياهب السجون مكبلين بالسلاسل الحديدية، ويقاصونهم بالجلد. ونطالع في رسائل بلين الأصغر وصف الصعوبات والمشقات التي يلاقيها الملاكون، اذ يرفض الفلاحون دفع المتأخرات

المستحقة عليهم . وإنشاء نظام الاعاشة في الارياف الايطالية وتوسيعه على مختلف الولايات فيها ، انما يدل بوضوح على أن صغار الملاكين الذين يعملون في اراضيهم واملاكهم يلاقون صعوبات جمة في تدبير امور معيشتهم. وقد جمع نظام الاعاشة هذا بين الاسعاف العام وبين التسليف الزراعي. فمنذ عهد ترايانوس ، راح الامبراطور او بعض الخاصة من كبار الاثرياء ، يؤسسون شيئاً اشبه ما يكون بالبنك الزراعي او مصرف تسليف، برأس مال معين عند المباشرة بالعمل، يستطيع معه المزارعون الاستلاف بفائدة ٥ ٪ بدلاً من ١٠ – ٢٠ ٪ كما هو المعتاد ، مبلغاً من المال ، لقاء رهن ارضهم،على ان تخصص هذه الفوائد في توزيعات شهرية، الغرض منها مد يد المساعدة لأولاد الاسر الفقيرة . غني عن التنويه ان مثل هذا التدبير اقتصر على ايطاليا في الدرجة الاولى ، بعد المنافسة الشديدة التي لاقتها من الانتاج الزراعي في الولايات الاخرى المعروفة بخصب تربتها ، اذ كان انتاجها الزراعي آخذاً بالتدهور والانحطاط .

من الواضح ان العمل في الزراعة لم يكن ليكفل الغنى لصاحبه ، حتى في هذه المناطق التي لم نسمع يوماً ان ارتفع فيها اصوات شاكية او وقع فيها ما يثير الحفائظ.

الشعور بالعاطفة الانسانية

ومع ذلك نشاهد ان الشعور الانساني والانعطاف على المساكين والفقراء اخذ يرِقّ وينعم في المجتمع . والدليل على ذلك الاخذ بنظام الاعاشة، وحركة العتق، وتحرير الارقاء، والاتساع الذي اتخذته ، على اساس من المباهاة والدعاوة اكثر منه نتيجة تفكير سليم . ومع ذلك لم تخل هذه الحركة من تأثير طيب على حرية الفرد ، بالرغم من القيود القانونيةَ والشرط التي قيدوا المعتوق بها بالنسبة لسيده القديم . ومن جهة اخرى نرى مجاميع التشريعات القضائية تأتي على ذكر نصوص كثيرة هي في صالح الارقاء والمعتوقين .

سار هذا التطور سيرته الاولى ، وئيداً في بادىء الامر . فقد استند أولو الامر ، في عهد نيرون ، على قانون قديم ، كما استنجدوا بالجيش ، لِسوق فريق من العبيد ، بلغ عددهم ٤٠٠ رقيق ، كانوا تابعين لاحد اعضاء مجلس الشيوخ عُثِر عليه مقتولاً ، وذلك بالرغم من احتجاج سكان روما، بحجة انه كان عليهم ان يسهروا على سلامة سيدهم. وقد أخضعوا للتعذيب والتنكيل، في عهد ترايانوس ، كل العبيد التابعين لاحد سُراة القوم وجد مقتولاً ، وذلك لحملهم على الإقرار والاعتراف بكل ما يعرفونه حول قضية مقتل هذا الرجل . وفي عهد خلفه على كرسي الحكم ، اقتُصِر في عملية استجواب الشهود، على من كان منهم على مقربة من مكان الجريمة. فالتعديلات التي أدخلت على التشريع القديم الذي كان يعترف لصاحب العبد بحق الموت والحياة، لم تظهر إلا في القرن الاول ، ثم اخذت بالاتساع والانتشار، منذ عهد هدريانوس ، اذ اصدر امراً حظر معه على مالكي الأرقاء واصحابهم، بيع أية أمة ما للمتجرين بالنخاسة او القوادين، او بيع رقيق لأي من المتعهدين حفلات المصارعة والمضارعين ، او باجراء عملية خصاء له ، او بالحكم عليه باسم ما كان يتمتع به سيد العبد من الحقوق المنزلية ، دون الرجوع في امره الى القضاء . وأوردت مدونة يوستنيانوس (*Digeste*) أكثر من ٧٠ نصاً او مرجعاً ، صدرت كلها في القرن الثاني ،

توصي بالدفاع عن الرقيق العامل في بيت صاحبه . والنزعة الواضحة التي تبرز ، أكثر فأكثر ، فيما بعد ، هي الاعتراف بشخصية الرقيق الفردية . وهنالك نصوص اخرى يجب وضعها بازاء النصوص التي أشرنا اليها أعلاه ، تقف الى جانب الحرية والعتق في الحوادث التي يشتبه فيها بوضع فرد ما : عبداً كان ام حراً . فالحرية والعتق هما من حق ابن ، نعمت امه بحريتها ، ولو ليوم واحد ، خلال حبلها به . ونشاهد ، في الوقت ذاته ، تطوراً يلحق وضع العتقاء ، اذ يحظر على كل منتفع من هبة او من وصية إرث ، من بين شروط تنفيذها العتق ، استعمال أساليب ملتوية للتهرب من الواجبات المترتبة عليه ، والاعتراف بصورة سريعة للمعتوق بالحقوق التي من حق الانسان الحر ان يتمتع بها *Natalium Restitutio* ، وفقاً للامتياز الذي طالما جاد به الامبراطور ، بعد عهد مارك اوريل .

وهذا التشريع الجديد لا يمكن فصله بالطبع عن هذه التدابير والاجراءات القانونية التي طالما اعتمدوا عليها ، فيما بعد ، وكان الغرض منها الحد من سلطة الاب الشرعية على زوجته واولاده ، او من سلطة الوصي الشرعي على الارملة واليتيم . ومنذ عهد مبكّر ، لم يعد للأب الحق بأن يفرض على ابنته زوجاً لا ترغب فيه ، او لا ترضى عنه . فحوادث المقاومة لزيجات مبكرة تُفرض على الاناث ، يجب اعتبارها خطوة لها معناها الرمزي عند الاخذ بهذا القانون والعمل بموجبه ، بالرغم من ندرة وقوعها . كذلك ، نرى الاب ، في القرن الثاني ، يجرّد من الحق الذي كان معترفاً له به ، نظرياً وعملياً ، بالغاء زواج ابنه . وهنالك امثلة وشواهد عديدة يمكن الاتيان بها ، تكفي وحدها ، اذا ما ضمت الى زوال هذه الزيجات ، وفقاً للاعراف والتقاليد القديمة ، اذ كان للزوج فيها كل حق على زوجته واولاده ، لنتبين كيف تم القضاء على حقوق السلطة الوالدية *Patria Potestas* . فقد تطور هذا الحق في مفهومه ومدلوله ، واخذ أكثر فأكثر ، بعين الاعتبار ، قيمة الشخصية الانسانية .

ان وفرة هذه النصوص التشريعية والتوافق الكبير الذي نراه بينها ، تُعبّر مجتمعة ، عن تطور عميق لحق بالاخلاق والعادات المرعية ، اذ ذاك . فبدلاً من ان تحاول هذه النصوص والاحكام التي تنطق بها ، خلق عادات جديدة ، نراها تقتصر ، بالاحرى ، على تكريس العادات والاعراف التي في السير عليها والأخذ بها ترسيخ لها بين الناس ، والتي كانت مخالفتها تثير الشكوك وتوجب ملاحقة المخالفين لانزال ما يستحقون من عقاب . فليس بغريب ، بعد هذا ، ان يعيش الرقيق والعتقاء في روما ، منذ زمن بعيد ، وفي عهد الامبراطوية المتأخر ، على اختلاط مع الاحرار من سكانها ومعايشتهم . فهل من عجب ، بعد هذا ، ان تتقارب الاوضاع نصاً وروحاً ، بعد ان تشابهت بالفعل ! ففي الطبقة الاجتماعية العليا في روما ، حيث يتكاثر عدد العبيد والارقاء الشرقيون ، اخذ تأثير الاخلاق والافكار اليونانية التي عُرفت بقلة تصلبها وبانعطافها الانساني ، يتغلغل بين التقاليد الرومانية ، وينتشر بينها أفقياً وعمودياً . فقد لاقت الفلسفة الرواقية ، على الاخص رواجاً عظيماً بين سراة القوم من الرومان بحيث جعلت الفيلسوف سنيكا يتساءل بحق

قائلاً : « أعبيدٌ هؤلاء الرجال ؟ ، لا لعمري ، انهم بشر – أعبيد هم ؟ – لا بل عشراء لنـــا وندامى ، ورفاق الحياة – أعبيد هم ؟ – لا بل اصدقاء حميمون ، أعبيد هم ؟ – لا ، بل إخوة لنا يرسفون في قيود العبودية اذا عرَفْتَ ان الأقدار لها عليك كما عليهم، مثل هذا السلطان ». صحيح ان سنيكا لم يأخذ هو نفسه بتطبيق فلسفة الرواقيين بصورة عمليـة ، لا بوصفه فرداً من أفراد المجتمع الروماني يهتم بادارة ورعاية ثروة طائلة ، همه الوحيد أن ينميها وان يزيدها ، ولا بوصفه من رجـال بطانة الامبراطور وحاشيته ، مهذباً لنيرون ومستشاراً له ، وكان على اتصال مباشر بهذه المؤامرات التي حيكت خيوطها ، وهدرت ما هدرت من دماء مطلولة ، كما اتصل عن كثب بالإدارة الحكومية . ومن كتاباته الفلسفية نرى جيداً ، كيف أن أغنيـاء الرومان ، رموا ، هم أنفسهم ، الحجر الأول، ووجهوا الضربة الاولى لهذا الحصن الذي أقاموه من فظاظتهم الخلقية ، وما لبثوا ان انفتحوا لهذا التعاطف الانساني الخيِّر ، والحدب على الفقراء والبائسين . فتطور هذه الأفكار التقدمية الذي اقتصر في بادىء الأمر على مجالات الفكر ، لم يلبث ان أدخل الى القانون الروماني القديم ، قانوناً « طبيعياً » يجعل الناس كلهم سواءاً ومتساوين .

حدود هذه النزعة الانسانية وقيودهـا

مهما برزت مظاهر هذا التعاطف الانساني ، وتكاثرت الشواهد على تجـلي هذه المشاعر الرقيقة التي ألانت الأخلاق ولطّفت من حدة القوانين الرومانية ، فلم يتجمع هذا كله في ثورة اجتماعية عارمـــة .

ولا يحسن بنا قط أن نتخذ من هذه الظواهر دليـلاً على التحسس بالخوف ، فأوحى هذا الشعور بمثل هذه التنازلات: فلم نرَ فرداً واحداً بين كبار الملاكين وصغارهم،رأى في هذه الظاهرة نذير خطر مداهم.فاذا ما راح أحدهم يلبي لأسباب دنيوية، نداء عاطفة انسانية نحو الطبقة الفقيرة الكادحة ، فلم يبدُ لأحد منهم ، من قريب أو بعيد ، احتمال قيام ثورة في هذا المجـال . إن اطّلاع المؤرخين المحدثين على حوادث لاحقة لهـــذا العهد ، حملهم على الظن بأحقاد تتجمع وضغائن تتكدس . إلا اننا ، من جهتنا ، لم نرَ سوى شكاوٍ وتذمرات وتململات لم تتبلور يوماً عن كلمة سر أو صرخة استنفار تدعو للثورة . فالفلاسفة المرشدون الذين عُرِفوا ، في الشرق، بدعوتهم للثورة ، كالفلاسفة الكلبيين مثلاً (*Cyniques*) لم يخطر في بالهم قط إهاجة الجماهير وإثارتهـا ، بل على عكس ذلك تماماً ، دعوا لرذل الغنى واحتقاره . وعلى هذا الحـال سارت الديانات الشرقية ومن بينها المسيحية الناشئة التي لم ترَ محلاً ولا زمناً تتم فيه المساواة إلا في الحياة الاخرى الباقية . وتناقص عدد العبيد والأرقاء جعل بدوره حروب الاسترقاق أثراً بعد عين . فالنظام الاجتماعي القائم،هو في نظر المعاصرين جميعهم،وباتفاق الرأي ، نظام قوي متين،راسخ.

وهذا النظام ، عرف أن يقيم لهمراكز دفاع تُحسن صد العدوان، والصمود في وجه المهاجمين. فليس في النظـام الامبراطوري نفسه أي مغمزَ ضعف أو مكمن وَهَن . فالإدارة المركزية التي كانت تراقب بعين يقظة ، وعن كثب ، الهيئات البورجوازية القائمة في المدن ، لم تكن لتتهاون معها في التخفيف من شكيمتها على الشرطة . والعقوبات القانونية ، هذا السيف المُصْلَت فوق

الرؤوس ، بقيت على شدتها ولم تتخفف بشيء . صحيح ان الحُرج الديني كان يوجب الحكم بالموت على مَن مِن كاهنات الفستال *Vestales* تعبث بنذر العفة أو تحدثها نفسها بالتحلل منه . ففي عهد دومتيانوس مثلاً ، صدر الأمر بوأد رئيسة كاهنات الفستال حية لعبثها بنذر العفة ، كما أن شريكها في هذه الفعلة النكراء، وهو من مصاف الشفاليه، لقي من الضرب الشديد والجَلْد العنيف ما قضى معه في العذاب . أما في ما يختص بالحق العام ، فالأحكام التي يصدرها لم تفقد شيئاً من قسوتها ولا فظاظتها ، بالرغم من المراحل التي قطعها الشعور الانساني . فالامبراطور هو نفسه بحاجة ماسة « لمن يحكم عليهم بالاشغال الشاقة في المناجم » ، فلا يستثني منها إلا من عنده الدليل القاطع ، على انه يعاني من مرض عضال مزمن ، تنفيذاً منه لواجب يترتب عليه في الدرجة الاولى . وجماهير الشعب هي الاخرى بحاجة ماسة للمحكوم عليهم بالموت ، وتنفيذاً لهذه الاحكام، تعرض اجسامهم للوحوش المفترسة فتتناهشها وتنهبها نهباً، اوبتعليقهم على الصليب إمعاناً في تحقيرهم واذلالهم ، أو بجلدهم وتعذيبهم ، أو بحرقهم أحياء أحياناً ، كما حدث لبعض المسيحيين الذين استشهدوا في روما اثناء الاضطهاد الذي رماهم به نيرون ؛ كل هذا ألوان من التنكيل تزيد في حماسة النظارة والمشاهدين الذين يتلذذون برأى هذه المظاهر الوحشية . وقام سنيكا يشجب بشدة بروقنصلاً عاملاً لروما على إحدى الولايات في آسيا، لقتله ، دفعة واحدة، ٣٠٠ من فجّاج الآفاق وقطاع الطرق . ونرى موظفين في بعض المدن يبحثون جادين عن محكومين بالاعدام ، وعندما تعييهم الحيلة يلتمسون من مدن مجاورة لهم تزويدها بشيء من هذا.

فاذا ما رأينا ، من حين الى آخر ، بعض الملطّفات تؤخذ في هذا المجال ، فليس بالطبع ، في مصلحة منكودي الحظ تبذل . فمراعاة المراتب الاجتماعية لها مقتضياتها ومستلزماتها ، وهي اعتبارات يشتد التمسك بها ، لما يقوم بين هذه المراتب الطبقية من تضامن ووشائج تشدها بعضاً الى بعض . فأعضاء منظمتي الشيوخ والشفاليه يحملون شارات مميزة ويُعرفون بألقاب شرفية وكنى فخرية. وتخطو الحُظوة خطوة أخرى الى الامام ، في عهد الأسرة الانطونية. فالاشراف والاعيان يُستثنون ، من حيث المبدأ، من التعذيب والتنكيل ، ومن الحكم بتعريضهم للحيوانات الضارية. ومنذ هذا العهد فصاعداً ، اخذ التشريع الروماني ، ببطء ، في بدء الأمر ، ثم بسرعة، فيما بعد ، يميز بين الاحكام الواحدة، من حيث شدتها او خفتها، وفقاً للطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها المحكوم عليه ، فتشتد وتقسو، ان كان من الطبقات الدنيا او السفلى *Humiliores* ، وتلطف وتحلُم ، ان كان من الطبقات المحترمة *Honestiores* . وهذه النعوت ، بما بينها من مفارقات ، تنتقل بدورها الى المعجم الرسمي . فهي تميز من جمهرة الشعب ، هؤلاء الذين تجمع بينهم روابط شتى : كالعضوية في المنظمات ذات الامتياز ، او الهيئات البورجوازية في المدن .

من العبث ان نحاول هنا التخفيف من حدة التضاد العنيف القائم بين هذه النزعة التي ترغب في ان تبرز على هذا الشكل ، والنزعة الاخرى التي لمسنا محاولاتها للتخفيف من حدة القوانين المتداولة ، في سبيل حماية الضعيف والدفاع عنه . وهذه النزعات والميول كانت تعكس ، ولا

شك ، نظريات متضاربة ، متباينة : ادبية اخلاقية ، هنا ، سياسية هنالك . ويكفي ان نتبين هنا انها ازدادتا شدة وقوة ، من كلا الجانبين ، لنسجل ان المعاصرين نظروا اليها نظرتهم الى أشياء تكميلية .

٤ ـ الازمة الطالعة وأسبابها القريبة

وهكذا نرانا ، من جديد ، وجهاً لوجه ، مع المشكلة الكبرى التي تثيرها المدنية الرومانية في عهد الامبراطورية المتأخر ، من الوجهة المادية ، وهي كيف ان هـذا النظام الاقتصادي والاجتماعي الذي بلغ ، ان لم نقل الكمال ، فأقله جانباً كبيراً منه ، عاد فظهرت عليه ، منذ اواسط القرن الثاني ، امارات الضعف والوهن .

حضارة ذات طابع مديني مفرق

بعبارة تستبد بالفكر لعمقها ودقتها لانها تصدم دونما عنف ، هذه الأوهام التي وجدت طريقاً سهلاً الى الاذهان، هي هذه التي تفوه بها انطوان البرتيني، بعد ان أبى عليه علمه الا ان يرى في العـــالم الذي سيطرت عليه الاسرة الانطونية ، شيئاً آخر « أقل سوءاً بين هذه العوالم التي عرفها التاريخ قديماً». وقد بنى حكمه بعد ان رأى بثاقب نظره ، الوضع الخطير الماثل في هذه الازمات الاقتصادية المتكررة ، وما ألحقته مراراً ، في الطبقات الاجتماعية العليا ، في مناطق كثيرة تابعة للامبراطورية الرومانيـــة ، من اوصاب وما جشمتها من مشاق . وهي حقيقة تبرز صحتها لكل عين باصرة. وليس من الغلو في الجرأة بشيء ، ان نبحث عن سبب آخر ، أعم واعمق لهذا الوضع ، وان نجده ، كما نعتقد ، في فقدان الانسجام بين البناء السياسي والحياة الاجتماعية لهذا العالم الروماني، وبين الاوضاع الاقتصادية التي استبدت بها وهيمنت عليها .

فالنظام الجديد — وهذا هو دوره — فكّر ، قبل كل شيء ، بتأمين المقتضيـات السياسية والادارية التي يستلزمها العهد. فقد شجع وناصر هذا التطور الذي تمناه والذي جاء معظمه عفوياً ، واوجد روابط وثيقة بين الدولة وبين الحضارة التي ساهم في بنائها وتشييدها ، متنكباً تارة ، عن العنف المنهجي ، ومتجافياً طوراً، عن وسائل الضغط، مقتصراً في اغلب الأحيان، على توفير اسباب الاغراء ووسائله ، وعلى توزيع المكافآت بالتقتير . وهي دولة لقي العهد العنت في إقامتها وتنظيمها لفرط حاجتها للموظفين الاكفاء ،.وحضارة اتاحت لها النجاحات الجغرافية والبشرية التي حققتها ان تخفف كثيراً، من وطأة هذه الحاجة بعينها، فلم يطلع عليها من المُثل غير التي تبينها الشرق الهليني من قبل بكثير ، والجمهورية الرومانيـــة نفسها ، التي لا تزال نصب اعين الطبقات المتطورة . وهذا الترابط او المشاركة التي رُغِب فيها والتي لقيت قبولاً لدى كل هؤلاء الذين دعاهم العهد للتعاون معه ، ليس من احد ينكر النجاحات الباهرة التي اصابتها ، ولا عظمة الإنجازات التي استطاعت تحقيقها، فكانت موضوع اعجاب الجميع ودهشتهم.

ولكن ، هل كانت هذه الحضارة ضخمة ، واسعة ؟ فقد تجاوزت في محاباتها وتغرضهـا ،

واخذها بالوجوه ، حد المنطق ، اذ قصرت عنايتها واهتمامها على المدينة دون سواها ، وحرصت على تأمين وسائل التطور والتألق لها ، لتبرز زاهية ، مشرقة على حساب غيرها .

فانشاء المدن الجديدة في جميع ارجاء الامبراطورية ، والازدهار العجيب الذي عرفته هذه المجتمعات المدنية ، وإلباسها هذه الحلل القشيبة من انواع الزخرف والنقش والتحلية ، بدا ، في نظر الجميع ، اكمل تعبير لهذه الحضارة واجمل صورة لها . والنخبة التي بيدها مقاليد الامور ، وهي بمعظمها من المدينة ، أصلاً ومنشأ ، كانت تتيه فخراً بهذا كله ، فلم يبق ما يدعو خيال الامبراطور ومخيلته للتفتق والخروج بشيء اكمل وأمثل ، اذ كان يجد في هذه المدن الادارات الثانوية التي تخفف عنه اعباء المسؤوليات التي يضطلع بها ، والاداريين الذين ينبرون لخدمته بعد ان يتمرسوا بالاعمال الادارية ويبرهنوا عن شديد ولائهم له . فبعد ان اهمل هؤلاء الاباطرة ، عن سابق قصد وتصميم ، امور الريف وشؤون الولايات ، امعنوا في هدر مصالحها في سبيل مصالح المدن التي اخذ عددها يتكاثر وينمو باطراد ، وافرطوا في تجميلها وتزيينها . فقام فيها من المباني الفخمة والصروح الجميلة الضخمة اكثر مما يجب ان يقوم ، وعقدوا فيها من الاعياد والحفلات واسباب اللهو ، اكثر من المألوف ، وأنفقوا عليها جزافاً ، بصورة تقرب من الجنون ، وبدون طائل ، ما انهك خزينة الدولة فأرزحها ، وجمعوا لها من الحيوانات والسباع والرجال ، ما لا يقع تحت حصر ولا عد . وبعد ان اخذت هذه الحضارة بألق هذا الغنى وبالدعة التي عرف العهد ان يؤمنها لها ، شأن غرّ أخذ بثروة هبطت عليه بغير توقع منه ولا انتظار ، فلم تستطع العيش ، فكَبَت بها الحياة بعد أن أعجزها توفير مثل هذا الفيء العظيم الذي تم لها من قبل ، الا في ارتهان الحاضر ، وارتهان ما هو ادعى للخطر : ارتهان المستقبل .

حاجاتها

ولكي تتمكن الامبراطورية من السير على هذا المنوال كان لابد لها سنوياً من تأمين محصول طيّب من المواد الغذائية ومن الخامات الأخرى التي لا غنى لها عنها ، وان تؤمن المزيد منها ، منذ الآن على ان تضاعف هذا الانتاج فيما بعد ، بحيث يكفي كل مطلب طارىء . ولكن لم يحدث شيء من هذا في سبيل تحقيق هذين الشرطين .

فأدوات العمل وعدته لم يدخل عليها أي تحسين يذكر ، واصحاب رؤوس الاموال المتوفرة ، لم يحاولوا يوماً توجيهها في الصدد القويم والصراط المستقيم ، فأنفقوها في وجوه لا تجدي فتيلاً ، كما انهم أهملوا الافادة مما عرض لهم من عبقريات خلاقة ونوابغ مبدعين ، فواكبوا الحركة العلمية التي نشطت اذ ذاك وساروا في ركابها . هنالك مدنيات عديدة قامت في التاريخ قديماً ، تكشّفت عن مثل هذا النقص الفادح ، وعن مثل هذه الحاجات . غير ان التفوق الذي بلغته الحضارة الرومانية في ما تمّ لها من الوسائل المادية والذرائع العلمية ، جعلها وجهاً لوجه امام مسؤوليات أكبر وأخطر .

وهكذا ، فأمام عدم كفاء العدة ، وقصور الوسائل اللازمة ، رأينا الانتاج مرتبطاً الى حد بعيد ، باليد العاملة . ومهما كان من الغرور في ان يحاول المرء تكوين رأي له حول هذا الموضوع ،

عليه ان يعتمد على انطباعات محتملة التصديق بعد ان فاتته الاحصاءات العلمية الدقيقة . والحال، فاذا لم يكن من شك قط بأن سكان الامبراطورية زاد عددهم ، على العموم ، فليس من شك قط ايضاً ، في ان هــذه الزيادة جاءت متفاوتة غير متعادلة ، بين الولايات المختلفة التي تألفت منها الامبراطورية، وذلك باختلاف النشاطات التي تجلت فيها . فولاية غاليا ، كما يبدو ، أفادت أكثر من أية ولاية أخرى . هنالك عدد من المؤرخين يعزون اعتباطاً ، الى جميع ولايات الامبراطورية ما يجب إقصاره على ولاية غاليا وحدها . فالمدن ، اينما كانت، هي التي استفادت بالأكثر من هذا التطور ، الأمر الذي أفضى الى المزيد من الاستهلاك . ومهما يكن ، فلم نر في أي محل كان ، اليد العاملة في الزراعة او في صناعة التعدين ، مع انها عماد الانتاج في البلاد وعليها يتوقف تأمين مثل هــــذا المحصول الاساسي ، تسجّل أي زيادة يمكن مقارنتها بالزيادة التي سجلها نمو عدد السكان في المدن .

ومن الثابت ايضاً ان عدد السكان تناقص ، هنا او هنالك ، في بعض الولايات . فالوضع الذي أحاط بالسكان لم يسؤ ، وقد يكون سجّل ، مع ذلك ، بعض التحسن . ولكن عنـــد معارضة هذا الوضع بالوضع الذي كان ينعم به سكان المدن ويتحملون هم ، أي سكان الارياف كل أعبائه ، فكيف لا يجدون وضعهم أثقل من قبل ؟ ومن هنا هذا التظلم ، وهذه التشكيات ، وهذا اليأس ، وحوادث الفرار المتكاثرة ، وهرب العمال المتزايد في مصر *Anachoréseis* الذي كان نذيراً بتأزم الوضع .اضف الى ذلك تناقص عدد العبيد والأرقــاء . فحوادث العتق بالجملة جعلت عددهم ينخفض باستمرار . صحيح ان حركة العتق هذه أفادت كثيراً هذا الفريق العامل منهم في المنازل ، او الفريق الآخر الذي يتعاطى، في المدن، الحرف والمهن الصغيرة ، او يعملون مع مولاهم فيهبهم العتق والحرية على حسابهم الخاص ، لقاء رسم يدفعونه له كل يوم ، ويحتفظون بالفائض لحسابهم ، وهي عادة جرى عليها القوم في اليونان، قديماً. ولكن هذه النخبة من الارقاء كان يؤتى بها من الرق ، احدى نتائج الحروب ، الأمر الذي كان يوجب بقاء هذا المعين الأكبر للعبيد على منعدل عالٍ . فاذا ما كان اسياد العبيد واصحابهم ، عملاً منهم بالروح الانسانية ، او طمعاً في زيادة دخلهم عن طريق منحهم بعض الاعفاءات ، قبلوا بسخاء أكبر من الماضي ، قيام اتحادات لهؤلاء الارقاء ، فالمواليد بقيت نسبياً ، قليلة لأن الاشغال الكبرى التي كانت تستهلك العبيد وتستنفزهم ، لم تكن لتأخذ سوى الذكور منهم . ولعل ما هو افظع من ذلـك ، هؤلاء المواليد الجدد من العبيد الذين يرضى مولى امهاتهم باعالتهم وإعاشتهم الى ان يبلغوا سن المراهقة . فلم نر مدنية واحدة من بين المدنيات القديمة ، رضيت بأن تضارب بتربية العبيد ، وذلك بالنظر لما يجبئه هذا النوع من التجارة من خطر . ومن جهـة اخرى كانت اسواق الرق اقل ازدهاراً في هذا العهد منها في الماضي ، كما ان مادتها كانت تتجدد اليوم بصعوبة أكثر من الماضي ، وذلـك بعد ان قلّت الحروب وانقطع عن هذه الاسواق ، سيل هذه القطعان البشرية التي كانت تباع في اسواق النخاسة بيع السائمة . ومن جهة اخرى ، فاتساع حدود الامبراطورية جعـــل شراء العبيد أكثر صعوبة بعد ان راحت الامبراطورية تجاور شعوباً لا ترضى ببيع رجالها بيع النعاج.

واخيراً وليس آخراً ، فمعارك المصارعين ، ومصارعة الوحوش جاءت هي الاخرى ، ضغثاً على أبالة ، وثالثة الاثافي فتحصد صفوفها ، فتنتقص من عددهم ، وتستنزف دماءهم في هذه المعارك الوحشية ، فأحدث هذا كله رد فعل سيء جداً . كل هذه الاسباب جعلت المورد الرئيسي الذي اعتمد عليه الرومان لتوفير ما هم بحاجة اليه من اليد العاملة يجفّ ، وينقطع بالتالي معينه . فاذا كان عدد اليد العاملة الخشنة ، لم يطرأ عليها أي نقص من حيث قيمتها المطلقة ، فقد سجلت ، مع ذلك نقصاً لا يستهان به من حيث قيمتها النسبية ، مع انه كان من المتوقع ان تزداد ، قيمة وعدداً ، بحيث تستطيع مواجهة الطلب وتلبية حاجات المدن والجيش معاً .

خطر الازمة واولى مداخلات الدولة

وهذه المدنية الرومانية المغرقة في حركتها الحضارية والتمدينية معاً والتي انحصر كل هم السلطة في الدفاع عنها والعمل على بسطها ونشرها ، لم تهتم هي ، الاهتمام الكافي ، بتأمين حاجاتها من الانتاج . فكانت النتائج ما لا بد ان تكون ، وجاءت على الشكل الذي لا يمكن ان يكون سواه . فالاستقرار الغذائي ، في اكثر من ولاية ، بقي تحت رحمة موسم رديء، او مرتبطاً بعدم انتظام وسائل النقل في ارجاء الامبراطورية. فاذا ما أضفنا الى الجهود التي كان لا بد للدولة من بذلها لمواجهة حرب تطل عليها من الخارج ، والخراب الذي ينتج عن غزو طارىء او عن كارثة طبيعية ، مهما كانت محدودة، تبيّنا الاضطراب الذي يلم بالبلاد ، والمدة الطويلة التي يقتضيها ليعود الاستقرار الى نصابه . فاذا ما تضافرت كل هذه العوامل والمسببات واتفق حدوثها معاً في آن واحد ، رأت البلاد نفسها امام ازمة تهزها من الاركان .

فبعد ان كانت هذه الأزمة في الاساس أزمة انتاج ومواصلات ، كان من المتوقع لها ان تستفحل ويتسع نطاقها بحيث تهدد بالخطر ، اكثر ما تهدد المدن الكبرى ، أي ، نقطة الثقل في النظام الاجتماعي والاداري في الامبراطورية. وقبل ان يستفحل أمر هذه الازمة كان الوضع الحرج الذي تتخبط فيه المدن يبدو قاتماً ، مقلقاً من خلال هذه الاعراض والمظاهر الخارجية التي تطبع نمط الحياة فيها، والتي يجب ردها الى هذا الغلو في الترف، وهذا الاسراف والاملاق المتجاوز لحدود العقل، في البذخ والزهو، الأمر الذي ارهق الطبقة الثرية في هذه المدن وارزحها. وقد رأينا كيف ان بعض هذه المدن اخذ يعاني شديداً من الضيق المالي الذي اطبق على خناقها. كذلك رأينا كيف ان هذه القصور التي كانت محل دعة واستجمام لسيد الأرض ، اخذت تصبح تدريجياً ، عالماً صغيراً باستطاعته ان يكفي نفسه بنفسه ، بفضل ما له من انتاج زراعي كاف ، وبفضل هذا الدخل الطيب الذي تؤمنه له معامل وورش النسيج ، ومصانع الحديد القائمة على مقربة منه . واخذ الاغنياء بهجر المدن الى الريف ليتفرغوا ، اكثر فاكثر ، لاملاكهم ويعنوا باستغلالها ، متفادين بذلك مضايقات الجماهير التى اخذت تضايقهم بتبرعات شخصية . فامام هذه الحركة العفوية الاقتصادية اللامركزية ، اخذت الصناعة والتجارة في المدن تفقد قسماً من زبائنها من سكان الريف ، كما انها كثيراً ما وجدت نفسها امام منافسة شديدة مع الفيلات التي بعد ان كانت ،

مدة طويلة ، عيالاً على المدن ، اصبحت اليوم مزاحمة لها . فاذا ما بدت هذه الاعراض وبرزت للعيان في اوقات الرفاه والطمأنينة ، منذ اواسط القرن الثالث ، فما عسى ان يكون الوضع ، والحالة هذه ، عندما تتعقد قضية تموين المدن وتصبح مشكلة خطيرة بعد ان تتعطل حركة المقايضات التجارية ، الامر الذي يهدد بانقطاع الثروة عنها ويساعد تدريجياً، على تقلص الثروات الخاصة فيها ، كما يهدد بنضوب صندوق المدينة ، فتقف بذلك حركة العمران ، وتنعدم اسباب الترقي والتطور ، ويحال دون انتقال، او بالاحرى ، دون استحالة الطبقة الكادحة، الى الطبقة البورجوازية ، وانتقال هذه الاخيرة الى طبقة النبلاء والاشراف في الدولة .

يشك المؤرخ في ما اذا كان الاباطرة الرومان تحسّسوا بمثل هـذه المخاطر التي كانت تتهدد الامبراطورية في الصميم . فلم يسبق لهم ان خبروا او تمرسوا بمثل هذه الازمات . وهب ان تمّت لهم مثل هذه التجربة، لكانوا أبَوْا ان يُذْعنوا للواقع ويسلّموا، انهم ورعاياهم ، أوْلَوا بعض مظاهر الحياة في المدينة ، من العناية والاهتمام ، أكثر مما يجب : فهل في مقدور حضارة ما، ان تقرّ وتعترف بأذى او بعدم ملائمة المُثُل التي راودتها فتمثلتها ؟ وهكذا ما كادت تصدمهم المصاعب الاولى حتى راحوا ، بشجاعة واقدام ، يعالجون الوضع ، بوسائل تجريبية ، خلواً من كل خطة ومنهجية ، تحدوهم الرغبة الصادقة لمعالجة وضع لم تفتهم نتائجه الخطيرة ، دون ان يتمكنوا من النفاذ الى اسبابه الحقيقية وتحليلها . فاذا ما كانوا اقوياء او ظنوا انهم أقوى بكثير، بالنظر لما هم عليه من وهم او جهل، راحوا يعتقدون ان ليس من صعوبات تعترض سير الدولة يستعصي حلها، او لا يمكنهم التغلب عليها ، وذلك لأنهم لم يلاقوا ، حتى الآن ، سوى احداث بسيطة ، تافهة للغاية ، وبالاكثر ، ازمات محلية لا تذكر . فالتدابير التي تسلحوا بها لا تشير بشيء الى الاتجاه الذي سيضطر ضغط الحوادث، خلفاءهم ، لاتخاذها عندما يجدون انفسهم ، وجهاً لوجه، امام أزمة عامة كاسحة : اهو التدخل المباشر او الشدة والعنف ؟

فالمبادىء التي تقوم عليها العاطفة الانسانية لا تكذب القول القائل : عندما تنصرف الدولة للتمكين للاخلاق والترسيخ لها ، تصبح بذلك حامية للمستضعَفين ، وهو شيء لا يصعب علينا اليوم رده للنزعة التي تدعو للتدخل . وستحتفظ الدولة بهذا الدور تلعبه الى نهاية التاريخ القديم ، مضيفة اليه ، ما لم تأخذ به من قبل ، الا وهو الشدة او الضغط ، وذلك حفاظاً منها على سلامة الواقعين تحت رعايتها ، اذا لم يدفعهم تحسن وضعهم القانوني للانصراف له .

فالقوانين والتشريعات التي سنها هدريانوس بشأن الاراضي الموات، واستثمار المناجم، عنَت، في الدرجة الاولى ، صغار الناس ، وذوي الحال المتواضع . غير ان ما اتسمت بـه من إرهاق ووقفها الى جانب القانون المعمول به، يدل بأن الدولة كانت على استعداد لبذل كل شيء في سبيل المحافظة على الانتاج . كذلك ، فاذا كانت المنافع التي نالتها النقابات المهنية ارضت ، على السواء، العمال ومتعهدي الاشغال في المدن ، فقد اخذت الدولة تفرض عليها رسوماً جماعية ألحقت الضرر

بالمنظمات البورجوازية في المدن وأصابتها في صميم حرياتها الاقتصادية ، كما اخذت من جهة ثانية ، تشدد على النبلاء والأشراف وتجبرهم على قبول الوظائف البلدية غصباً عنهم ، ولم يتورعوا من تجريدهم من حق ادارة شؤونهم المالية المحلية . إلا ان الامتيازات الجديدة، من فخرية وقضائية، التي أسندت الى الطبقات « الارفع منزلة » جاءت تعوض ، بعض الشيء ، عن هذه التدابير القاسية ، اذ كان لا بد من المحافظة على عامل الاغراء الملازم اصلاً للوظائف العامة ، والتي ، في السعي للفوز بها ، ما فيه من منفعة الدولة والحضارة معاً .

اما نحن الذين نعرف جيداً المصير الذي آلت اليه هذه التدابير ، فقد رمزت الى المستقبل وهيأت له الأسباب. ولم يكن في وسع احد، اذ ذاك، ان يفهمها او يدركها على وجهها الصحيح، اذ لم يكن بوسع احد ان يتصور أهمية المشكلات التي لا بدّ من إيجاد حل لها يوماً . هنالك شيء واحد أكيد ، لا يمكن الاستغناء عنه، لأنه وراء كل دولة كما انه وراء كل حضارة، ولا سيما هذه الحضارة المدنية بالذات ، فيفرض نفسه ، في كل الظروف وفي كل مكان .

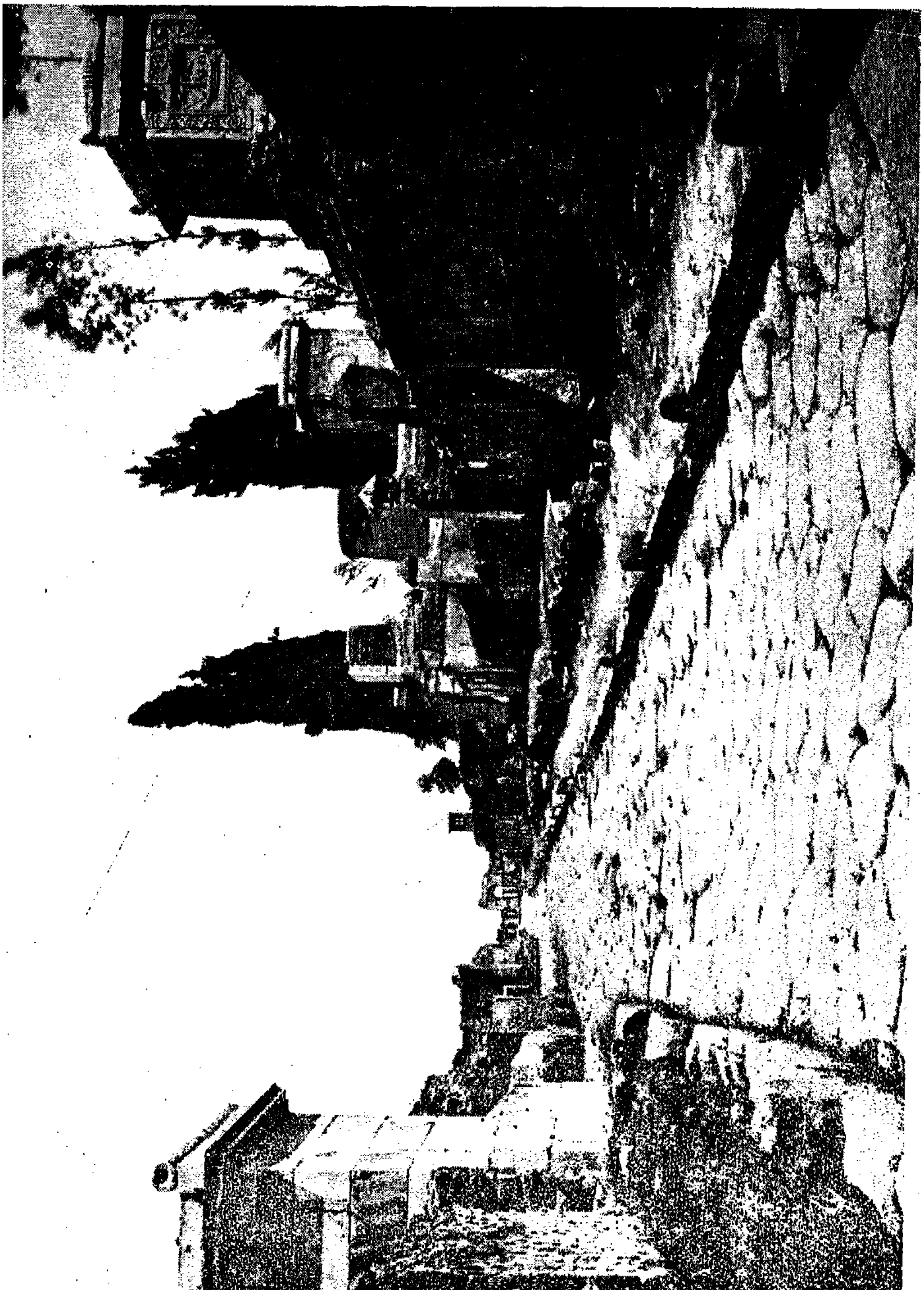

١٧ — بومبيي : طريق المدافن خارج باب هرقل .

١٨ – عرس الدوبرنديني

١٩ – تقدمة خنزير وكبش وثور . نقش رخامي

٢٠ — سر ديونيسي

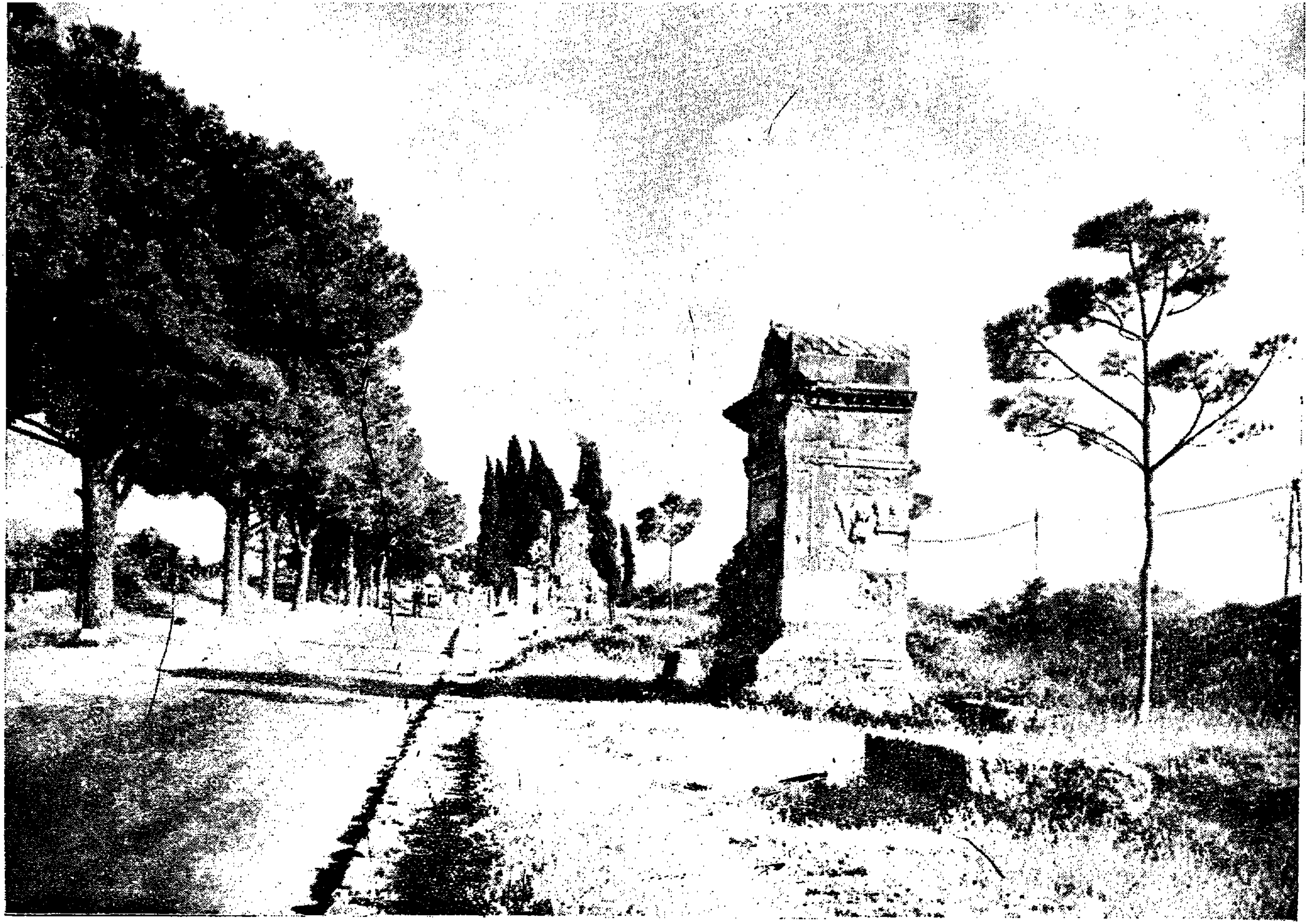

٢١ – اول الطريق الأبّية من جهة روما

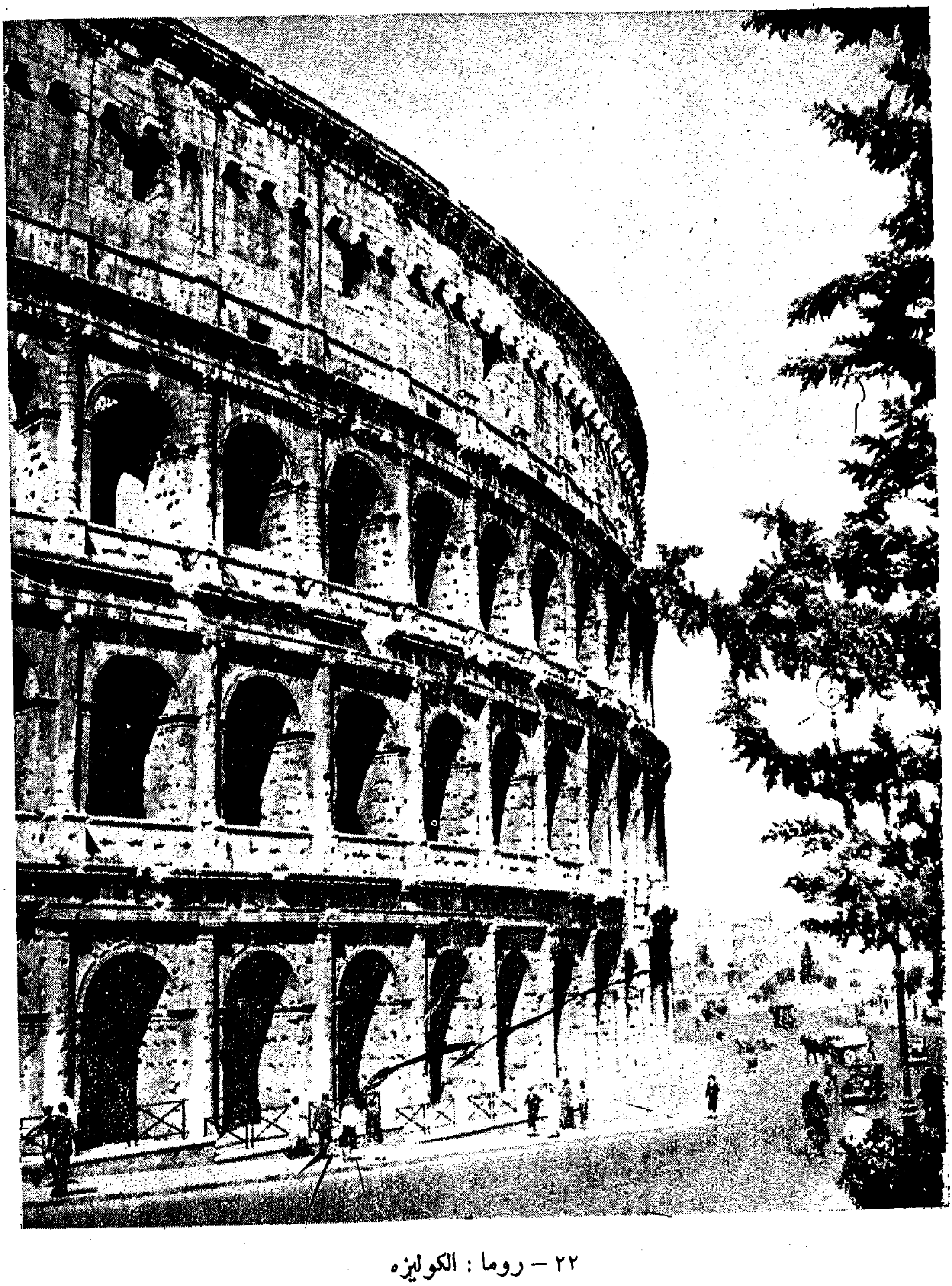

٢٢ – روما : الكوليزه

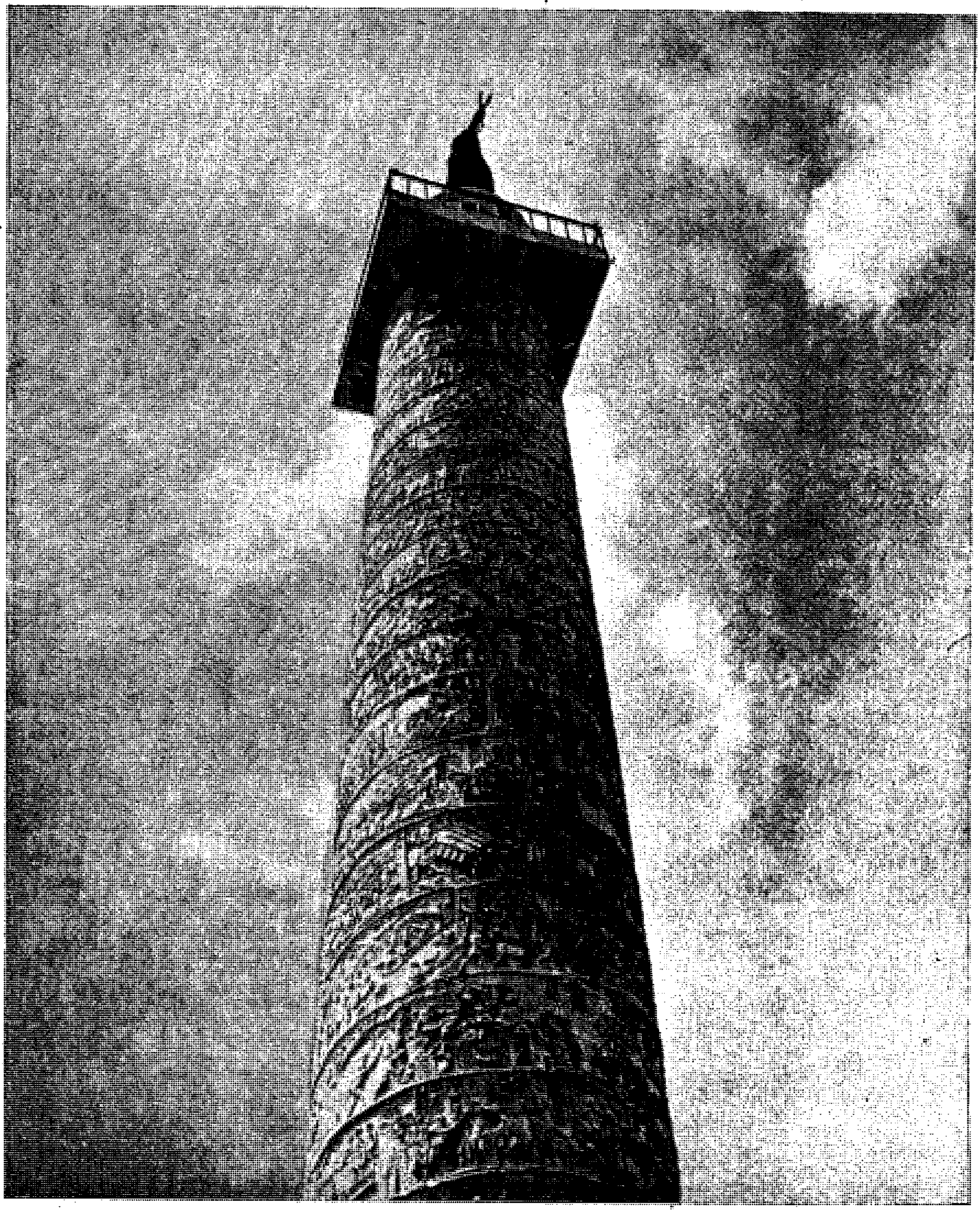

٢٣ – روما : عمود ترايانوس

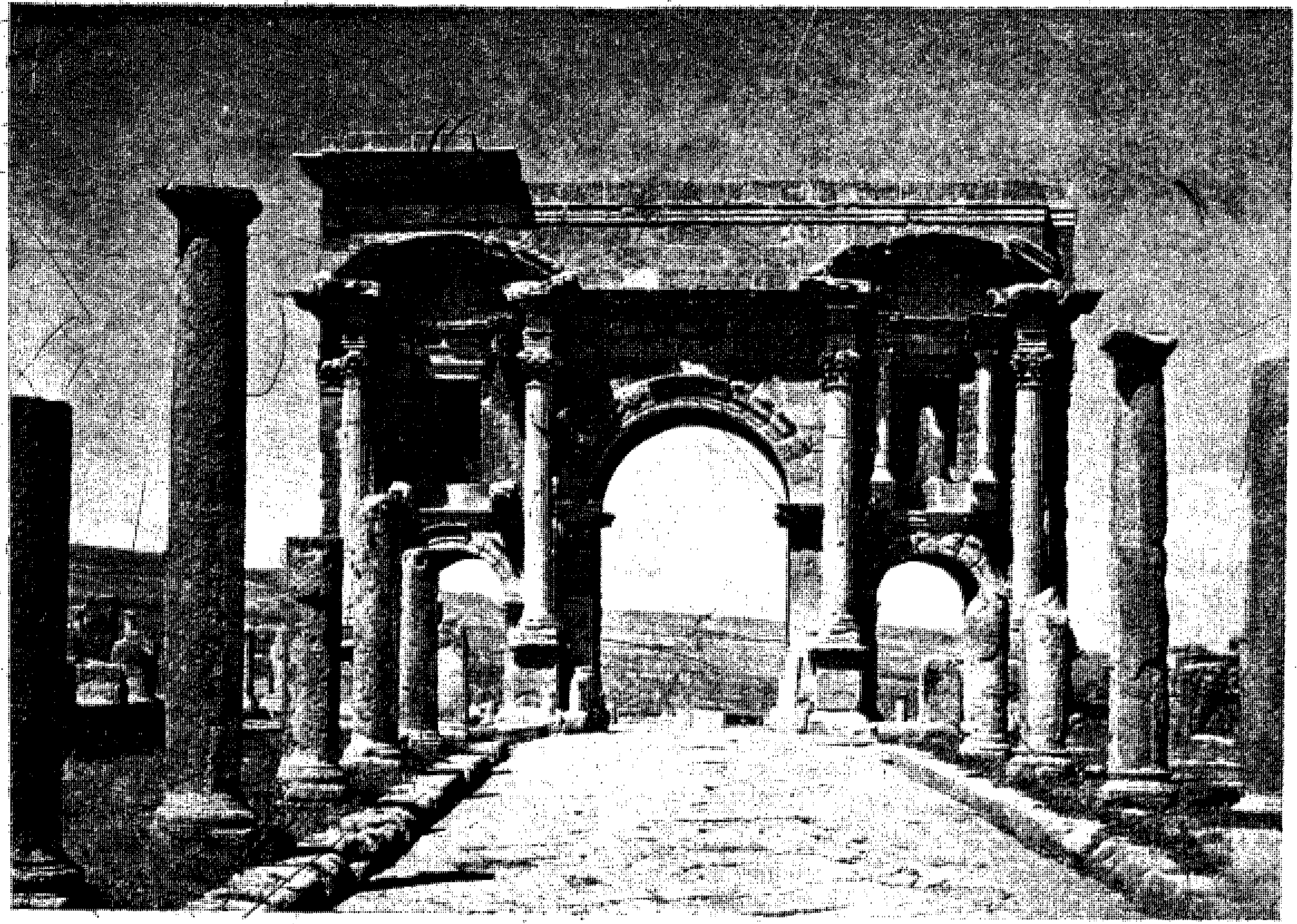

٢٤ – القوس المعروف بـ« قوس ترايانوس» في تمغاد (الجزائر).

٢٥ – صورة محفورة تمثل مأتم احد الزعماء

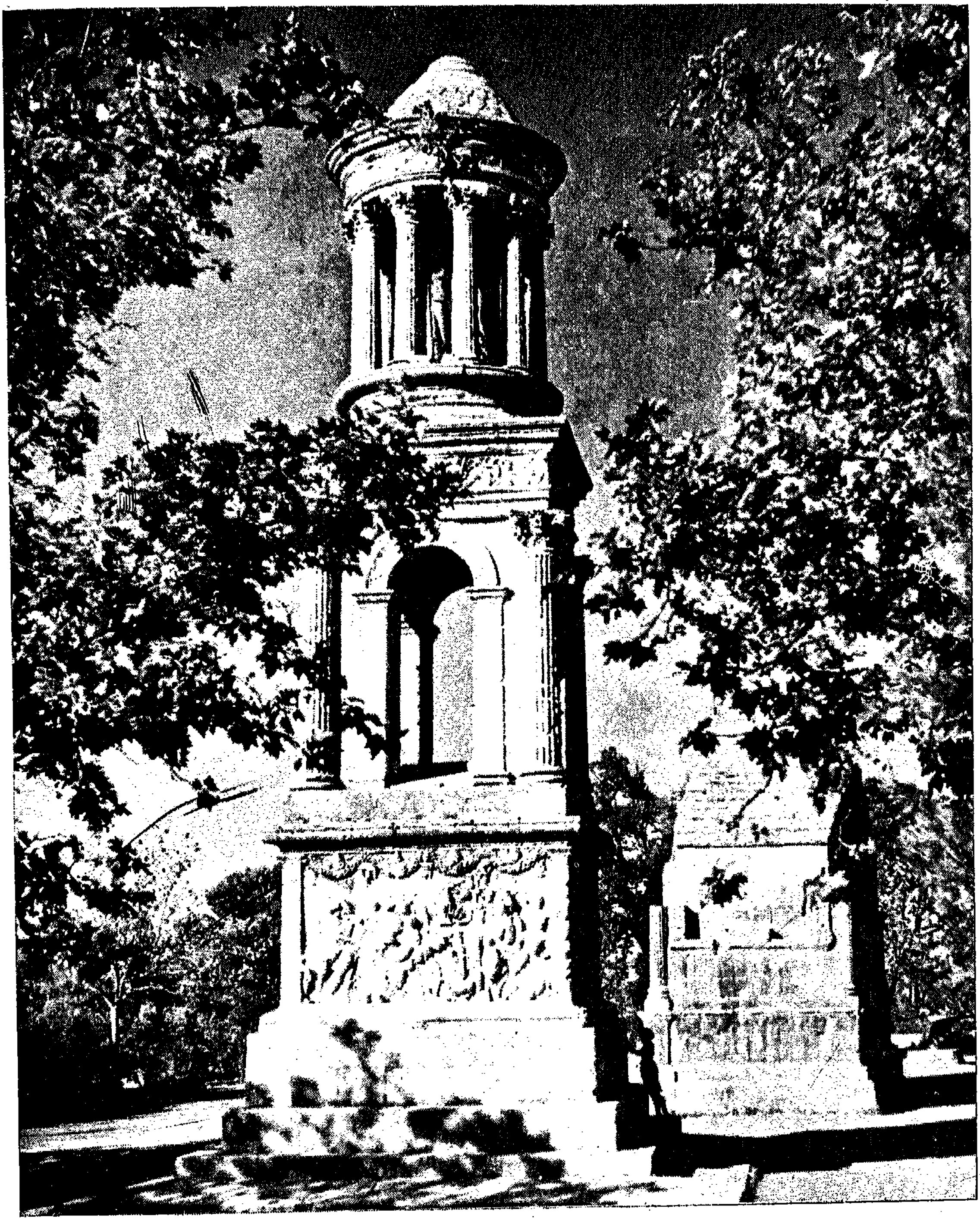

٢٦ – ضريح آل جوليوس في سان ريمي في مقاطعة بروفنسا .

٢٧ – بقايا مسرح أوستيا

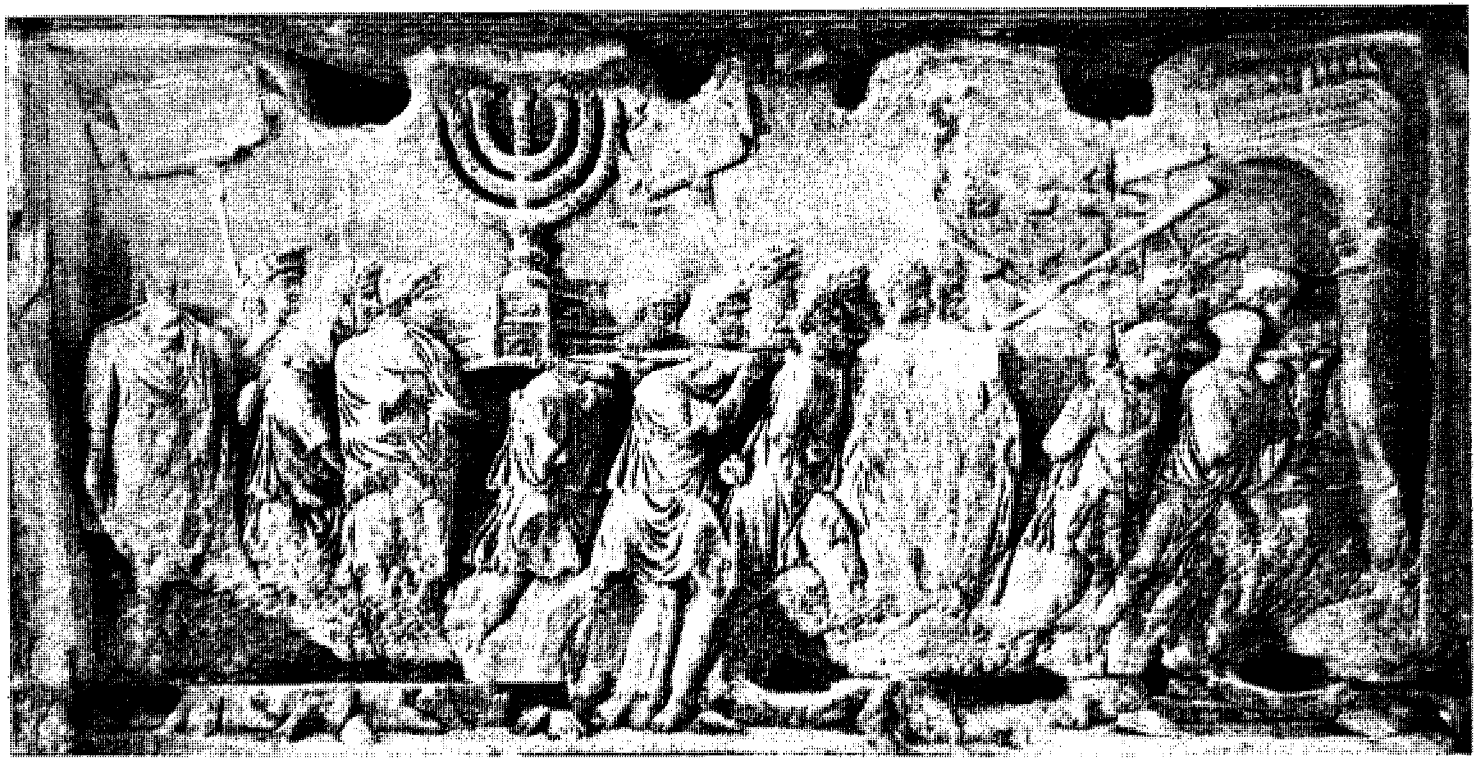

٢٨ – غنائم وأسلاب اورشليم. نقش في قوس تيطوس في روما

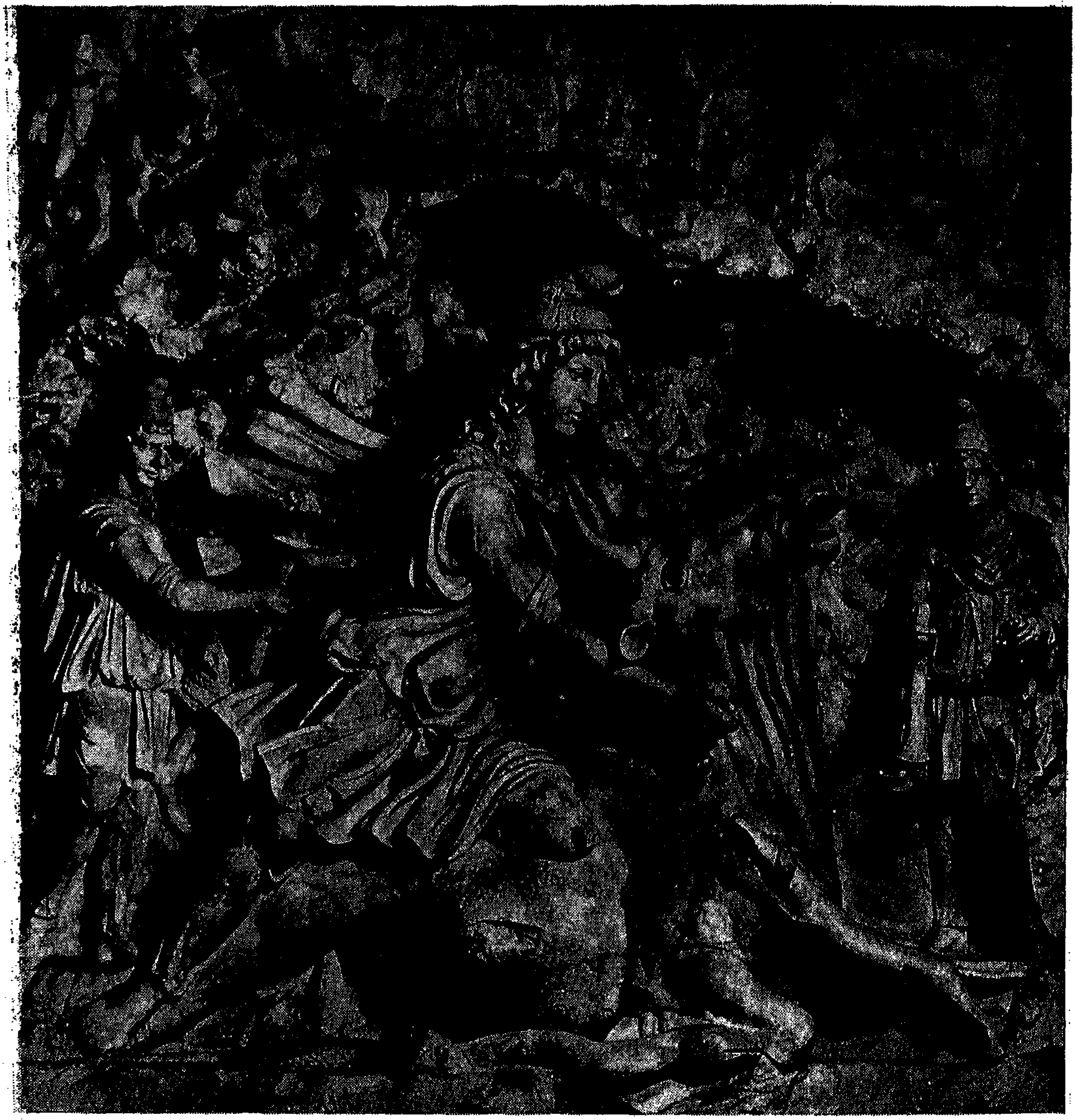

٢٩ – ميترا يقدم الثور قرباناً

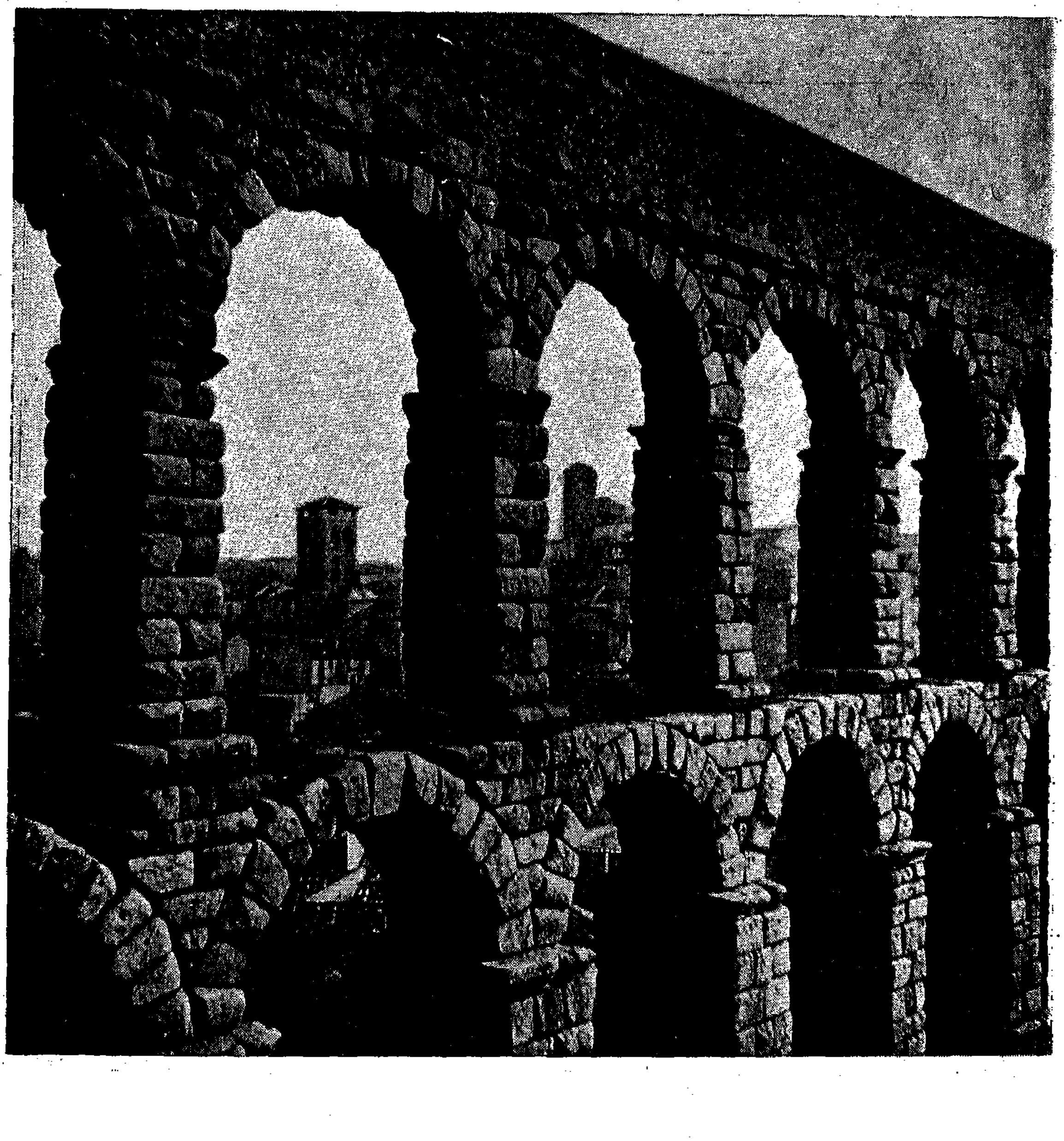

٣٠ – قناة ماء سيغوفيا (اسبانيا) .

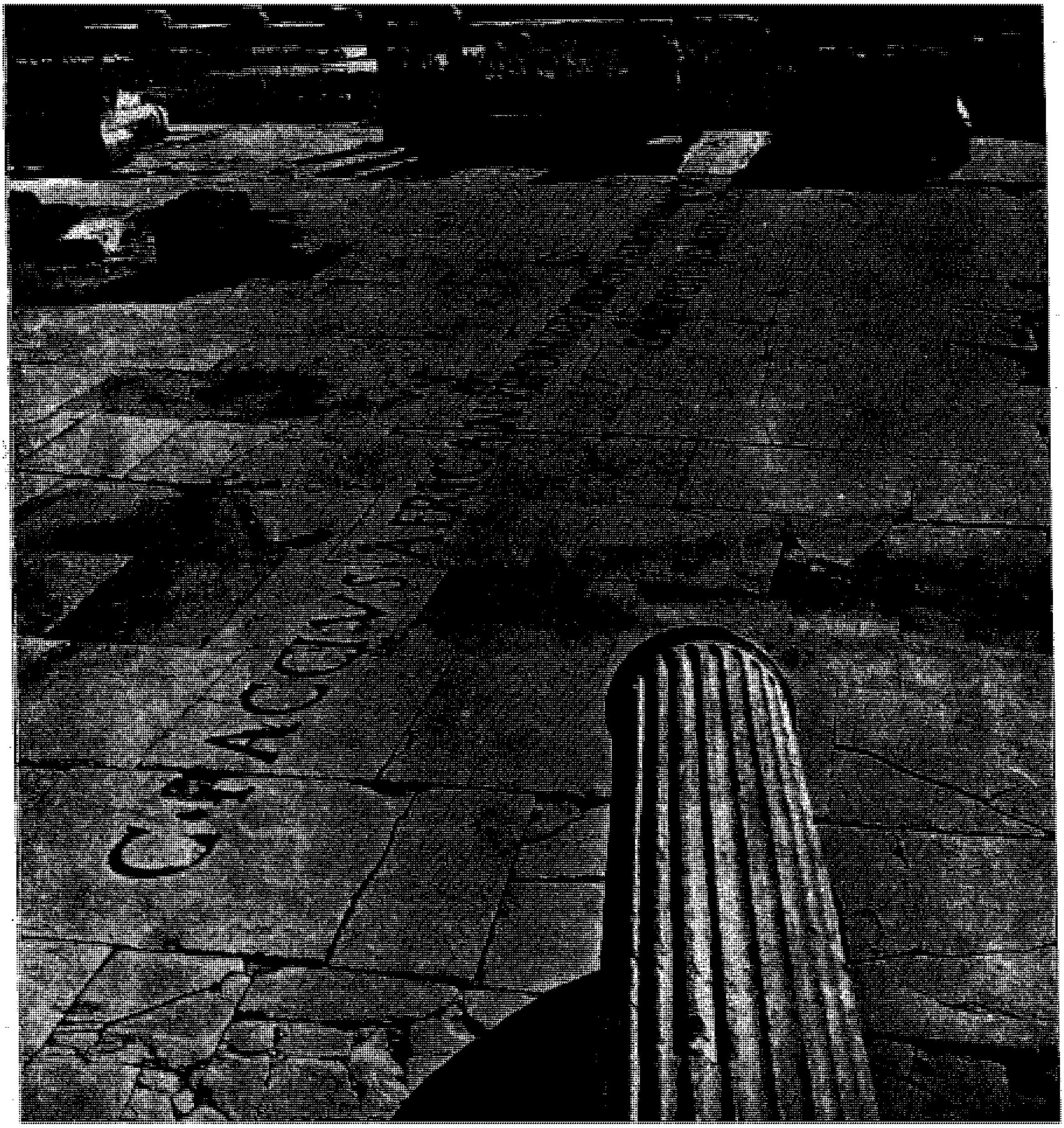

٣١ – الفوروم في هيبون (عنابة ـ الجزائر) .

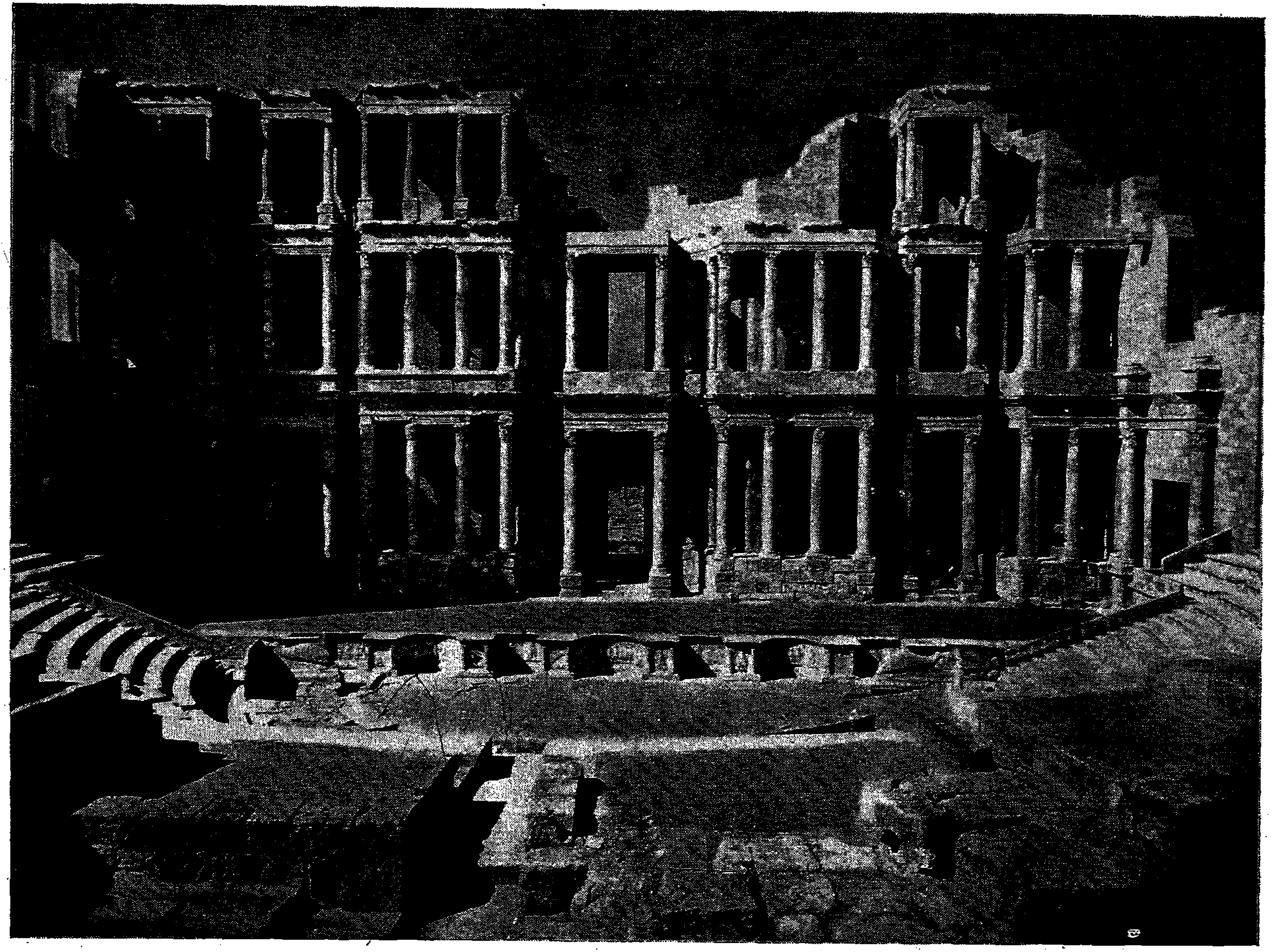

٣٢ — مسرح سبراتا ـ ليبيا

الفصل الرابع

الديانات القديمة والجديدة

الوضع الديني في عهد الامبراطورية المتأخر كان أكثر دلالة على المستقبل من الوضع الاقتصادي والاجتماعي ، يكشف عنه بصورة اوضح واجلى . فالعقائد الدينية المتباينة ، قامت في هـــذا جنباً الى جنب بعد ان يسّرت الاتصالات بين الولايات المتباعدة ، وسهُلت سبلها ، وانفتحت منها الابواب على مصراعيها امام الديانات والعقائد الأجنبية، فأدّت المنافسات التي اشتدت بينها، قبل نهاية القرن الثاني،الى فوز العقائد التي حُوربت بعنف في الماضي ولاسيا مع مطلع الامبراطورية ونشأتها ، باعتبارها منافسةً للنظام القائم في البلاد ومغايرة للتقاليد الرومانية . فبعد ان لقِيت بعض الاغضاء والتسامح لم تلبث ان فازت بحق الرعوية وأصبحت مهيأة ليس لزعزعة الامبراطورية فحسب ، بل ايضاً لنفخ روح جديدة فيها وبعثها من عثارها والركود الذي صارت اليه .

العاطفة الدينية

اوغسطس وموقفه من الديانة

اتصفت النخبة التي تولت مقاليد الحكم في روما ، في اواخر العهد الجمهوري ، بعدم مبالاتها بالدين . فهذه الطقوس الدينية الرسمية التي ارتبطت مظاهرها بحياة الدولة ، والتي كانت تمثل بقيةً من هذه العقائد الايطالية الرومانية ، أضيفت اليها فيما بعد ، عناصر يونانية لم تكن تمثل في نظر هذه النخبة ، سوى مراسم لا بدّ منها للنظام العام القائم ، رمزاً بالاكثر ، لمبدأ ديني عانى ، هو الآخر ، من هذا القلق الروحي الذي استبدّ بالأذهان . فالاعياد تُهمل جانباً ، ويعفو ذكرها ، ويُتناسى أمرها ، والهياكل يتجافى الناس الدخول اليها، والوظائف الكهنوتية يُزهد بها ويُعرض عنها فتبقى شاغرة ليس من يملؤها.

وما ان أطلّ اوغسطس بعد ان تم له من الأمر ما تم ، حتى راح يصحح الاوضاع ويكافح هذا الإعراض ، ويُحِدّ من تدهور المشاعر الدينية . فقـــد تمنى ان يكون ، وأصبح بالفعل ، المصلح الحقيقي للديانة الوطنية حتى في اقدم مراسمها ، وأخذ يرمم المعابد ويعيد اليها رونقها ويضفي على هذه المزارات الدينية والاساطير التي تمثلها او ترمز اليها ، بهاءً لم تعهد مثله من عهد بعيد ، ويملأ الوظائف الكهنوتية الشاغرة. كذلك حَرِص ان يعيد تشكيل المنظمات والجمعيات

الدينية وينفخ فيها نشاطاً جديداً بدخوله في عضويتها . هنالك حادثان يمثلان خير تمثيل سياسته الدينيـة : رفضه انتزاع لقب « رئيس الاحبار » *Pontifex Maximus* من لبيذس *Lépide* ، زميله السابق مع انطونيوس في الحكومة الثلاثية *Triumvirat*. فقد آثر ان ينتظر حلول أجَله حتى يُكرَّس ، هو نفسه ، في هذه الوظيفة السامية ، وفقاً للقوانين المرعية لتتم له بذلـك أعلى سلطة دينية دون ان يمسّ الشرعية بشيء . اما الثاني ، فاحتفاله بأبهة وجلال ، طوال ثلاثة ايام وثلاث ليال ، بالأعياد القرنيّة *Jeux Séculaires* التي كانت تحيي ذكرى تأسيس روما ، وذلك باستمطار البركات السماوية على المدينة الخالدة وعلى سكانها .

وبعد الجهود التي بذلها العلماء لِسَبْر مشاعر اوغسطس الدينية ، وتحليل نوازع نفسه الدفينة ، من حيث حقيقة موقفه من الدين ، يبدو من المستحيل اليوم ، التشكك في اخلاص سلامة نواياه او الارتياب في صدق عواطفه الدينية الصادرة عن إيمان حي . فالعمل الذي انجزه في هذا المجال ينسجم كل الانسجام مع العمل السياسي العظيم الذي قام به والذي رمى منه الى اصلاح الدولة والنظام الاجتماعي القائم في الامبراطورية . غير ان النجاح الذي اصابته السياسة العـامة التي انتهجها لا تسمح لنا بان نرى فيه غير مصلح واداري ماهر ، كما ظهر بالفعل رجلاً شديد الايمان برسالته . فاخلاصه يبرز بهـذا الاستمرار في العمل الذي اضطلع به ، وبمواصلة الجهد فيه ، والإستدامة عليه ، وفي مداخلاته المتكررة ، وفي سخائه وبذله على شؤون الدولة واصلاحها ، وفي هذا الاهتمام الذي برهن دومـاً عنه والذي طالما نوه به وألمع اليه باسهاب وبشيء من الرضى الذاتي ، في كتابه : « امور الحكم »،وفي خطبه التي شدد فيها على هذه الامور وبالاخص على هذه العناصر الجديدة التي لقح بها الديانة الرومانية في محاولته اصلاحها والرفع من شأنها . وقد ادخل على هذه الديانة التي كانت عبارة عن طقوس دينية تشير الى هذا الترابط بين الألوهية من جهة ، وبين المؤمن او جماعة المؤمنين ، من جهة اخرى ، شعوراً حياً اتصف بالعمق ، وصدق العاطفة ، وهذا الوقار والجلال الذي اضفاه على الاحتفالات الدينية الرسمية . فاخذه بالخرافات والاساطير جعله يستنطق الأحلام التي تراوده ، ويطلب تفسيراً لهـا ، ويعتمد على زجر الطير ، وتعليل الحوادث الطارئة التي تملأ النفس دهشاً : كالصواعق والالتقاءات المفاجئة ، والحوادث العادية في الحياة ، وكلها ظواهر طبيعية حاول الرومان ، منذ القدم ، ان يلبسوها معنى خاصاً ، وغيرها من الامور التي يعلقون عليها في الخارج ، مدلولاً رمزياً خاصاً ، كالطالع الذي اخذ له وهو بعد ، حدث يافع ، وبرج الجدي الذي ولد تحته ، وهي طوالع خلدوا ذكرها بنقشها على احدى قطع النقود الرومانية ، كما حُفرت حفراً ناتئاً ، على رصيعة عُرفت برصيعة « فيينا » . وقد تأثر هو وبطانته تأثيراً عميقـاً بالفيثاغورية الرمزية ، كما راح يستلهم بعض الطقوس المستمدة من الشرق الهليني وأبى ان يدخل يوماً هيكلاً في مصر ليسجد للإله ابيس او هابيس (*Apis*) ويقدم له القرابين ، وامتدح حفيده لأنه رفض ان يقدم القرابين ، هو الآخر ، لإله اليهود في القدس ، وحظر الاحتفال بعيد إيزيس على ارض روما ، بينما أظهر مشاعره الدينيـة نحو الآلهة اليونانية المنشأ والمصدر ،

المشهود لها بالحسب وشرف المحتِد . وقد علّق أهمية كبرى على اشتراكه بأسرار الفسيس ، والاعياد القرنية التي حدد وقوعها بدقة كلية، هذه الاعياد التي لقحت التقاليد الرومانية بأشياء كثيرة استمدها من الميثولوجيا عند اليونان وديانتهم وطقوسهم العبادية . كل هذه الامور تشير بوضوح الى انه صدر في الحركة الاصلاحية الدينية التي قام بها ، عن يقين صادق وايمان حي وطيدين ، وانه لم يرض او يقنع بنظام ديني ، حرفي ، جامد ، بـــل اراده ان ينبض بعاطفة دينية مشبوبة .

ليس من يُنكر قط ان الحركة الاصلاحية الصادقة التي قام بها تركت اثراً عميقاً في التطور الادبي الذي طلع على المجتمع الروماني . فلم يستدعِ عمله الاصلاحي بين الطبقات الشعبية الوسطى والدنيا جهداً كبيراً ، لأنها كانت ، على الاجمال ، بمعزل عن موجتي الكفر والالحاد اللتين غمرتا الطبقات العليا ، ولأن مثل الامبراطور وسلوكه كان له أكبر الوقع كما كان أكبر مشجع لها . فالشواهد الكثيرة التي يمدنا بها علم الآثار ، والرُقم القديمة التي عثر عليها المنقبون في ايطاليا وفي غيرها من الولايات الرومانية ، تنطق عالياً بما كانت عليه هذه الطبقات من عاطفة دينية ملتهبة بالرغم مما شابها من خرافات صبيانية . اما الطبقة الاجتماعية العليا التي غمر الكفر والالحاد معظم بنيها، فقد انقلب فيها الوضع فجأةً . ويميل المرء الى الاعتقاد بأن طيباريوس ، وهو من أتباع مذهب العقليين ، كان خاتمة الملحدين، اذ ان استلطاف الامبراطورة بلوتين لتعليم الفلسفة الابيقورية ، كما تشهد على ذلك، احدى النقائش التي عُثِر عليها في اثينا، لا يستدعي قط ، تسليم ارملة الامبراطور ترايانوس بالنتائج التي تفضي اليها تعاليمهم . وليس من الحق ولا من العدل بشيء ان نعزو الفضل كله لنفوذ اوغسطس وسطوته . فالقلق النفسي الذي استحوذ على نفوس النـــاس خلال الحرب الاهلية الدامية كان له تأثيره الظاهر، ولا شك ، هو الآخر ، اسوةً بهذه العقائد والفلسفات التي قدمت من العالم اليوناني . وليس من الصدفة بشيء ان يكوّن عهد اوغسطس الطويل الذي شهد مطلع الامبراطورية ورافق نشأتها ، من هذه الناحية ، نقطة الانطلاق لتطور حاسم خلاق .

الفلسفة والدين

وهذا التطور الذي اخذت الامبراطورية بأسبابه، مهّد لازدهار التعاليم والنظريات الفلسفية الكبرى، كما اسهم في النجاح الذي لقيه الناهضون بالدعوة لها والعاملون على نشرها ، بحيث لو اخذنا نبحث ، منذ الآن ، في تعاليم هـــذه الفلسفات وننعم النظر في مبادئها ، قبل ان نتفرغ لدرس الحياة الفكرية والادبية التي ازدهرت في ارجاء الامبراطورية اذ ذاك ، لكنا وقعنا في مغالطة فاضحة ، ليس من حيث الشكل فحسب ، بـل من حيث الاساس ايضاً .

بين هذه المذاهب الفلسفية ، يمكن ان نضرب صفحــاً ، عن ذكر ، الفلسفة التشككية أو السفسطائية التي لم يكن لهـــا أي صدى ، والفلسفة الكلبية التي اتجهت بالأخص من الجماهير والشارع وبقيت كلتاهما شبه مجهولتين في روما . فالفلسفة الابيقورية (***Epicurisme***) وحدها، كانت ملحدة ’معطّلة‘ ، اذ أن الخوف والرجــاء المرتبطين بالعمل الإلهي المتوقع ، يذهبان

بالهدوء التام الذي تتوقف عليه سعادة الانسان . فقد عرفت هذه الفلسفة ان تحافظ بكل دقة، مصونة من كل تغيير أو تبديل ، على فكرة المعلم الذي وضع اسس هذه الفلسفة ، في مطلع القرن الثالث ق.م . كما عرفت أن تحتفظ بحب الناس له واحترامه . فقد اطلعت في روما ممثلها الاكبر لوكريس، اذا شئنا ان نضرب صفحاً عن هؤلاء الذين بعد ان شوّهوا تعاليمها وغيروا من مقالتها، راحوا يدعون ان فيها ما يبرر إشباع شهواتهم وملذاتهم . وقد خف تأثيرها، أقله في روما، بعد ذاك . أما في الشرق الهليني حيث راح أتباع هذه الفلسفة ينتظمون في نوادٍ وحلقات خاصة ، فقد تمكنت من ان تحافظ على نشاطها الى عهد الامبراطور مارك اوريل ، فأسند اليهم أحد الكراسي الأربعة التي أسسها في أثينا ، ولم يتورع اتباعها من اظهار كفرهم وجحودهم في هذه المناقشات والمجادلات ، وفي هذه المظاهرات العامة التي قاموا بهـا إذ ذاك ، فأثاروا تشكك الجماهير ، واستهدفوا ، نتيجة لهذه الأعمال ، لردود خصومهم المفحمة ولرشقهم بالشتائم وبأقذع الكلام أحياناً .

فراحت الشيع والمذاهب الفلسفية الاخرى تتكتل ضدها، بعد ان تجند من رجال الفكر بينها من تصدى لها بالرد العنيف، اذ لم يكونوا ليفرقوا بين الفلسفة والدين . « يا بني ، كن ورعاً تقياً » كما جاء في نص يوجز جيداً الكثير من مأثور الكلام في هذا المجال»؛ « فالتقوى هي رأس الحكمة ، كما ان ليس باستطاعة أحد ان يبلغ التقوى الحقيقية بدون الفلسفة » .

أما الفيثاغورية *Pythagorisme* ، فقد تقدمت من أذهان الناس ديناً جديداً اكثر منها فلسفة . فقد عاف الناس التحدث عن نظرية الارقام والاعداد التي قال بها مؤسس هذه الفلسفة وعلّم ، كما انها تخلت ، هي ايضاً ، عن تحرياتها وتقصيّاتها العلمية التي كانت يوماً ، سبب شهرتها ومجدها . وبعد مراسم عديدة من التطهير، ومجالدة النفس بالصبر وطول الاناة ،وشظف العيش والاعتصام بحبل الاخلاق الفاضلة ، راحت تعلل اتباعها بالسعادة في الحياة الاخرى. وقد راح بعضهم ينتحل القدرة على اجتراح المعجزات والتنبؤ بالكشف عن الغيب كالمجوس . فقد نهج السواد الاكبر بينهم نهجاً ليناً في الحياة ، مفضلاً الانطواء على نفسه ، رحيماً ، حليماً ، وانقطع للتأمل والتجريد العقلي ، مرتدياً لباساً من الكتان الابيض وهو مسترسل الشعر .

فالاعمال التي قام بها في روما نيجيديوس فيغولوس، في اواخر العهد الجمهوري وسكستيوس، وحفيده ، في عهد اوغسطس ، عادت على الفلسفة الفيثاغورية بنجاح عظيم ، كما يشهد على ذلك نشيد مبنى « الباب الكبير » *Porte Majeure* وقد أهمل هذا المبنى ، فجأة ، في اواسط القرن الاول ، لاسباب نجهلها . ولم تحافظ المدرسة الجديدة على حيويتها ونشاطها إلا في اليونان. فوقع بلوتارخوس (بلوتارك) نفسه تحت تأثيرها ، كما عدّت لها ، في عهد الاسرة الفلافية ، ممثلا كبيراً في شخص ابولونيوس دي تِيان ، الملقب بصانع العجائب *Apollonios de Tyane* .

لم يتمكن الافلاطيون من كسب اتباع لهم في روما، بينما تكاثر عددهم في الشرق الهليني، فقد عرفوا ان يقوّوا الدعوة الدينية التي بشّر بهـا مؤسس هذه الديانة ، وجعلوا من فكرة الله ،

أكثر من أي وقت آخر ، محوراً لتأملاتهم ، وحاولوا ان ينقّوا هذه الفكرة من الشوائب التي علقت بها ، وان يعيدوا اليها صفاءها ورواءها ، فجردوها وأبعدوها عن صفاتية العالم المادي ، واقاموا بين الله والعالم وسطاء ممثلين بهؤلاء الابالسة الذين لا حدّ لهم ولا حصر ، وبذلك انفتح المجال للأخذ بكل صور الديانة وأشكالها بما فيها من الخرافات والاساطير الشعبية .

ولم يختلف الوضع كثيراً هنا عما كان عليه في الفلسفة التي سجّلت أكبر قدر من النجاح اذ ذاك ، هذه الفلسفة التي طلع بها زينون والمعروفة بفلسفة زينون *Stoïcisme* . فبعد ان كان زينون رقيقاً عند احد معتوقي الامبراطور نيرون ، وطرده دومتيانوس من روما ليعود اليها من جديد في عهد هدريانوس ، تمكن أبكتيتس من مواصلة النهج ذاته الذي وضعه بانايتيوس وأكمله بوزيدونيوس. وهكذا استطاعت فلسفة زينون ان ترفع باسم الفضيلة صوتها عالياً في وجه الاباطرة الذين عُرفوا بشططهم ، في القرن الاول ، كما استطاعت ، في القرن الثاني ، ان تؤثر عميقاً في حلقات المثقفين ونواديهم وجمعياتهم ، قبل ان يساعد مارك اوريل بسلوكه على تكثير اتباعها ولو في الظاهر . ويقيت هذه الفلسفة ناشطة في الشرق طيلة هذين القرنين . فقد عرفت تعاليمها بعض التطور اثر وفاة مؤسسها زينون ، واحتلت القضايا الادبية او الاخلاقية محلا مرموقاً من اهتمامها ، كما انها جعلت من الإله الذي آمنت به وحدة نظام هذا الكون وباعث الحياة فيه . فالقدرية بقيت قائمة كما بقي من واجبات الانسان ان يرتفع الى مستوى النظام العام ليصبح بطاعته وخضوعه « جندي القدر » . إلا ان تابع هذه الفلسفة لم يلبث ان تبيّن الضعف البشري الذي عليه الانسان ، والحافز الذي يحفزه للتعلق بالالوهية ، الا وهو القلق المستحوذ عليه أكثر من دافع العقل . وكان بحاجة لمن يُقنعه بأنه في حراسة الالوهية التي تسهر كذلك على الانسان ، فكلاهما موضوع حبها . وقد برهن مارك اوريل عن تقوى مفرطة حتى حدود الخرافة ، مُعنياً نفسه بتقديم القرابين والاضاحي وبطوالع الغيب ، حتى ان بعضهم تاهوا وراء رمزية سقيمة .

العناية الإلهية

تلاقحت هذه النظريات الفلسفية الدينية وتمازجت . ولم تبق على صفائها سوى الفلسفة الابيقورية ، وذلك بفضل ما عرفت به من صلابة العقيدة؛ وقد قبست مقالات فلسفية أخرى كثيراً من تعاليمها . وقد تكاثرت أسباب التلاقي والاتصالات بين هذه المذاهب الفلسفية لكثرة ما بينها من تجانس وتقارب في نزعاتها الدينية . وزاد هذا الاختلاط فيما بعد ، لما قام من تجانس بين المبادىء الاساسية لتعاليمها وبفضل اتصالات الحياة العامة ، باستثناء الاتصالات التي قامت بين مختلف فئات هذه الشيَع . وقد تفادوا المجادلات الدينية ولاسيا بين اتباع هذه الفلسفات التي عرفت بمشاحناتها الشديدة في اقطار آسيا الصغرى المُتهلّينة .

فلا عجب ان يوجد بينها في امور الدين ، من يقول بوجود عناية إلهية او ربانية ، وان اختلفت هذه التعاليم فيما بعد ، حول نسبة تدخل هذه العناية في تقرير مصائر الحياة على الارض ، ولا سيا حياة البشر ، اذ كان الاعتقاد السائد لدى العموم انها تتدخل في بعض الظروف الخاصة ، اما مباشرة أو بالواسطة . وقد توصلت الى شيء يشبه الإجماع فيما بينها ، إذ سلمت بأن هذه

العناية هي عطوفة على الانسان ، فيقف حيالها موقفاً كله أمل ورجاء ، يستنزل بركاتهـا ، كلما أنس من نفسه الضعف والتعاسة ، وهو ابداً على استعداد ليعرب لها عن شكره وامتنانه بجميع الوسائل التي بين يديه .

ومع ذلك ، فهذه الفلسفة التي خضعت لتطور ذاتي ، هل بقيت صالحة لتكون هادياً أميناً، أم انها اقتصرت على تطوير تعاليمها وفقاً لتيار عقائدي أو شعوري غلاّب خارج عنها ؟ فبدون ان نقطع في الامر نفياً او اثباتاً ، يكفي ان نرى ، على الاقـل ، كيف توفرت جميع الظروف الملائمة لقيام شيء من اتفاق المشاعر بين الاوساط المثقفة وبين الطبقات الجماهيرية التي سيطر عليها الجهل فوحّـد بينها بقدر الامكان . وبالفعل ، لم نرَ بين كل المدنيات التي قامت قديماً وتركت وراءها ما يحدثنا عنها ، مثل هذا الاجماع او الاتفاق التام . ومن الواضح جداً ان تحقيق مثل هذا الاجماع لا يتطلب ان يكون الشعب بلغ مثل هذا المستوى الرفيع المعقول . فالوضع ، على العكس من هذا تماماً ، اذ بقيت الاوساط المستنيرة في المجتمعات الهلينية ماضية في انطلاقها الى الامام ، منذ عهد الاسكندر ، أي مُتنكّبة عن النظرة العقلانية ، متوقفة عن تنقية الدين من المعطيات المادية . وهذا الانطلاق اشتد قوة واندفاعاً ، اذ انـــه انتهى عند الكثيرين ، ولكن ليس عند افضلهم مع هذا — مثال ذلك مارك اوريل — الى الاقتناع عن بذل أي جهد قوي . أو ليس من الاغتباط بمكان، ان نجد في هذا كله، اثراً لنظام سياسي آسر، سيطر على كل سكان الامبراطورية فخضعوا ، في مشارقها ومغاربها لرئيس او سلطان واحد ؟ فالصورة التي تجلت لهم في سلطة امبراطور كلي القدرة ، اوحت ، ولا شك ، بأكثر من سبب لمقارنتها بفكرة العناية الإلهية .

النتائج المترتبة على هذا الاعتقاد

وقد نتج عن مثل هذا الوضع ، في المجال الديني ، نتائج عدة . منها ما يتفق لعمري ، مع هذه المشاعر التي تأثر بها أوغسطس نفسه ، الا انها تجاوزتهـا بشكل غريب بعد ان اضفت عليها من إتساع وشمول كان من شأنه ان يسمّر الخوف في قلب اوغسطس . من ذلك مثلاً ، هذه العاطفة الدينية المفرطة التي تغلغلت الى اعماق شعور الانسان ، والتي ، ان قادته من جهة ، الى حلم معسول راودته فيه رؤىً من الامـــاني العذاب ، فقد عرّضته من جهة اخرى ، الى مواقف مخزية من التسكع والتذلل . ومن ذلك مثلاً الاعتقاد بما توجهه هذه الآلهة من وعد ووعيد، بحيث يرى المرء نفسه مضطراً للتصديق بالعجائب والمعجزات تطالعه كل يوم لتفسير وتعليل ما يتعاقب عليه من بركات . ومن هذا الباب المسدوف ، اي الذي فتحه اوغسطس قليلاً، تدافعت الى الاذهان والنفوس والعقول اغرب العقائد تصديقاً وأصدمها للعقل السليم ، فاستقرت فيها واستبدّت بها . فكيف السبيل بعد الآن ، للابقاء على هذه الحدود والسدود التي يعزون اقامتهـا الى اوغسطس ضد بعض الآلهة ، وفي وجه بعض العبادات والطقوس الغريبة المنشأ .

فقد سلموا ، بالفعل ، بوجود وسطاء او آلهة ثانوية ، بين العناية الالهية وبين عالمنـــا الهيولي

هذا. وبين هولاء الوسطاء من هو مجردفكرة، مجهول، غير معروف البتة. ومن الطبيعي جداً ان يُنزل الانسان ، حتى من كان منه عالي الثقافة، جميع آلهة الوثنية ، هذه المنزلة : فالتضرع اليها ليس فيه ما يضر او يسيء . وهكذا يحافظ الانسان على الطقوس والعبادات التقليدية ، وعلى مراسم عبادة هذه الآلهة وتكريمها . كذلك يحافظ على الاعتقاد بهواتف الغيب ، اذ يرى ان باستطاعة الجن او الابالسة تقديم النصح لابناء البشر. ومهما يكن ، فالتقليد الوطني او ما ينزلونه منزلته ، لم يعد في وسعه ان يقدم ، في هذا المجال ، ركيزة يمكن قبولها او التعويل عليها . فهذه العناية الإلهية التي تغمر الكون باسره ، لا تعرف الحدود والسدود . فالتمييز بين إله وإله، غريباً كان ام يونانياً ام رومانياً ، مُتهلينا كان ام مُتلينتا ، لا محل له على الاطلاق . فعلى نسبة استلطاف الناس لهذه الآلهة يأتي تأثيرها ، مشروطاً بدرجة الاخلاص، وحرارة العاطفة، ونوع التكريم الذي يُرفع اليها. وفي هذه المنافسة الحرة ، فلا عجب ان تحظى الآلهة الغريبة او الاجنبية، ولا سيما آلهة الشرقيين بينها، بالمرتبة الاولى،وذلك بفضل ما تتمتع به من طابع غير رسمي ، وبفضل مالها من غنى الرمز ، وبفضل ما توحي من ثقة بالنجاة والخلاص .

ومع ذلك ، ففوق الاسماء والكنى والالقاب والجنسيات تُلاحظ المشابهات بأيسر مما تلاحظ الفروق ، عند الذين لم تُعطّل حرارة العواطف والرغبة في التمتع بالعطف والحماية، القوة العاقلة والناقدة في النفس . ومن هنا طلعت حركة التوفيق بين الاضداد المتباعدة التي ربما انتهت الى شيء من توحيد العنصر الالهي اينما وجد . وهذا بالذات ما حدا باديب بثينيا ، ديون ده بروس الذي لقب بحق : « فم الذهب » الى ان يكتب في اواخر القرن الاول ما يلي : « أخذ البعض يدّعي ان ابوللو ، وهيليوس (الشمس) وديونيسيوس هم واحد ، وانت تقول القول ذاته . واكثر من هذا بكثير يُجمِع عدد كبير من الناس ببساطة كلية . على ان يروا ، في كل الآلهة مجتمعة ، قوة واحدة ، وقدرة واحدة ، بحيث لم يعُد من فرق قط ، بين تكريم هذا أو ذاك ، من بينها » .

وأخيراً اخذ الناس يُعللون النفس ان باستطاعة الابالسة ، اخياراً كانوا أم اشراراً ، حتى الصغار منهم الذين يَسمُون فوق ضعف البشر بكثير ، ان يُرغموا الناس ، ببعض الوسائل المغرية التي لديهم ، على التصرف حسبما يريدونه منهم . وهكذا نرى باشكالها المختلفة ، اعمال السحر ، والتعزيم والشعوذة آخذة بعضها برقاب البعض ، في حياة الانسان .

وهكذا شهدنا طلوع ثورة دينية حقيقية ، تجلت في الشعور الديني ، بفوز الرمزية الفردية . اما الحياة الدينية فقد تلبست مظاهر لا حصر لها ولا حد، لم يلبث بعضها ان زال ومات، تاركاً وراءه مغزى الطقوس الدينية التي تجلى بها ومعناها ، بينما استأثر البعض الآخر بكل الشهرة . فالمراسم الميتة هي التي احياها اوغسطس وبعثها حية من جديد. اما الحية منها فهي التي أقصاها او وضع لها حدوداً لا تتعداها . والتطور السياسي الذي اخذت الحضارة الرومانية بأسبابه انما تم وفاقاً للاتجاه الذي أراده اوغسطس واستطاع ان يوجهه . اما التطور الديني فقد تم بصورة معكوسة تماماً .

٢ ـ الوثنية وطقوسها

العبادات

من الجائز ان نمر سريعاً على ما يسمونه بالعبادات التقليدية، أي هذه الطقوس التي سِيرَ عليها في الديانة اليونانية اللاتينية، وفي عبادة الامبراطور. فقد ازداد عددها: فالاولى منها هي عبارة عن فلسفات جديدة انضمت الى الايديولوجيا الامبراطورية، وفقاً لاعراف سِير عليها في روما منذ عهد بعيد؛ اما الثانية فتقوم في هذا التقليد المتبع عند الاباطرة وأعضاء أسرهم اذ يصبحون متألهين ومتألهات *Divi et Divae* عند وفاتهم. ولهذه الطقوس العبادية ميزة مشتركة تقوم في ارتباطها جميعاً بالدولة. وعلى الدولة تتوقف حياة هذه الطقوس واستمرارها وازدهارها، والاحتفال بمواسمها بكل انتظام، اذ ان هذه القوى او الكائنات الالهية التي تتجه اليها مراسم العبادة، هي الحارسة لروما، وهي التي تلهم الحكام، وتهديهم الصراط المستقيم.

ولهذه الاسباب، كانت اجهزة الدولة تحرص الحرص الشديد على الاحتفال بهذه العبادات بكل دقة. فالامبراطور يعطي فيها المثل الصالح، كما ان مجلس الشيوخ لا يمكن له ان يتهاون يوماً بأمرها. فليس من منصب ديني إلا ويُملأ، وليس من رتبة دينية إلا ومن يمارسها، اذ لكل واحد دوره وعمله المحدد، في هذه الرُتب التي تتدرج صُعُداً لتبلغ أعلى المراتب. فالوظائف الكهنوتية الصغرى والمحلية كانت تُمهّد الطريق لاصحابها الى البورجوازية، بينما ينال الشفاليه درجات صغرى تخول حاملها ترؤس الاحتفالات الدينية التي تقام في ضواحي روما وأرباضها، كما كان يؤخذ من بين اعضاء مجلس الشيوخ، اعضاء المجامع الرومانية. اما الامبراطور فكان يرقي اسراً جديدة الى مرتبة الحاكمية وذلك لتوفير ما يلزم من الموظفين لإشغال بعض الوظائف الخاصة، ككهانة المشتري وجوبتير، مثلاً. ولم تكن المعابد والهياكل يوماً، أكثر منها عدداً، ولا أبهى منها زينة، كما لم تكن الذبائح والاضاحي أسمى منها وأبذل. والاعياد لا افخم ولا أبهى، موزعة على ايام السنة. والرغبة في ممالأة الشعب والتزلف الى الجماهير، والظهور بمظهر السخاء والبذل والعطاء، كل ذلك جعل سراة القوم واعيانهم من الامبراطور الى حكام المدن الصغيرة يندفعون في هذا المضمار. وعبثاً حاول مارك اوريل تحديد عدد الاعياد الرسمية التي تقفل فيها ابواب المحاكم بجعلها ١٣٥ يوماً في السنة. فما كاد يتوارى عن المسرح حتى عادت الامور الى مجراها الاول باندفاع لا يقاوم. وكان إطار هذه الاعياد وجوّها خالياً من كل تقوى او خشوع حقيقي، إلا اذا رغب المرء ان يرى فيها تعبيراً خاصاً ومدلولاً يبتعد كثيراً عن الفكرة الاولى.

ولكن لم يكن في الامكان ان نزدّ هذه التقوى الى الرغبة في تقليد روما وذلك عن طريق تبني حضارتها، ولا إضفاء شيء عليها من عواطف الشكر والولاء لها. وقد راحت المدن في كل مكان، ولا سيما في الولايات الغربية التابعة للامبراطورية الرومانية حيث حركة اللَيتنة كانت

ترادف التقدم الثقافي والاجتماعي والقضائي ، تتبنى آلهة الديانة الرومانية . فالمستعمرات الرومانية واعضاء المجالس البلدية كان يهمهم جداً ان يشيدوا « كابيتول » أي هيكلاً خاصاً بعبادة جوبتير « العظيم ، الخيّر ، الكبير » ؛ فكان ذلك التكريم موجهاً بالفعل لروما ولمظاهر حضارتها الخارجية أكثر منها لعقائدها . قد تكون عبادة الامبراطور في الاساس ، أكثر تعقيداً ، اذ انه حدث ، تبدو مظاهره ولا شك ، عفوية طوعية ، قامت بها جماعات من متوسطي الحال ، بحيث أصبحت هذه العبادة ، بالضرورة ، متشابهة بالنسبة لاستمرارها وللازدياد المطرد لجماعة المتألهين (*Divi*) الذين كان لا بد من تصنيفهم الى فئات حسب الأسر . زد على ذلك ان تكاليف هذه الطقوس الدينية الباهظة ، كثيراً ما أرهقت ، ان لم يكن في روما ، فأقله في البلديات والنواحي الاقليمية ، موازنة هذه الهيئات والمنظمات ، كما انهكت موارد الخاصة . وعندما ذابت هذه الثروات الخاصة امام النكبات والازمات الاقتصادية ، اخذ اصحابها يُعْرِضون عن الوظائف والمراتب الكهنوتية ويتحولون عنها . وهكذا زهد الناس بهذه الوظائف كما زهدوا بالوظائف البلدية الاخرى ، مما حدا بالحكومة على فرض هذه الوظائف بالقوة ، كما اجبرت البعض على قبول وظيفة رئيس العشرة *Décurion* . غير ان لجوء السلطة الى الاساليب ذاتها ، انما يعني ، ان هذه الوظائف ، في نظرها ، هي على مستوى واحد في كلا الجهازين الاداري والسياسي .

العبادات الاجنبية : الغرب

فالحياة الدينية الحقة لم تكن هنا في روما . فقد كانت خارج روما ، حيث كان باستطاعتها ان تجد ، كما وجدت فعلاً ، الآلهات والعبادات التي لم يكن تبنيها من قبل الدولة والاعتراف بها ، ليجعل منها مؤسسات رسمية ، كما كان من شأنها ان تتحجر وتجمد من جراء إشراكها بالاحتفالات الرسمية . فباقتباس روما هذه العبادات : تارة من رعاياها ، وطوراً من الخارج ، جعلها تصدر عن تقليد عرفته من عهد بعيد ، وسارت عليه طويلاً . فقد عرفت ان لا تقصر نفسها على السلبية ، بل استقبلت باهتمام كلي ، وبحثت جادة ، عن مؤثرات دينية طلعت من ايطاليا واليونان . فرحابة الامبراطورية واتساعها وسّع امامها مجال القبس في امور العبادة والدين ، لم تقف الحدود الجغرافية حائلاً دون عملية الاختيار والاصطفاء . فالعلاقات التجارية التي كانت تستأنف بسهولة في فترة ما بين حربين ، كانت تحمل مع السلع التجارية ، آلهة وعبادات جديدة .

فباستثناء افريقيا القرطاجية القديمة ــ وقرطاجة جزء لا يتجزأ من الشرق ــ كان من الطبيعي جداً ان يقل اقتباس روما من الديانات والعبادات المعمول بها في الغرب . فهي لم تقف موقفاً معادياً لهذه العبادات ، ولم تضطهدها قط ، انما تشددت في تحريم القرابين والذبائح البشرية ، كما راحت تجتث من الاساس ، في غاليا ، لاسباب سياسة محضة ، المنظمات الدرويدية وتشكيلاتها الكهنوتية . فالمدنيات التي قامت فيها مثل هذه الطقوس الدموية ، هي من التأخر ، في نظرها ، بحيث لم يكن بين هذه العبادات ما يغري بالاقبال عليها . ورغبةً من الموظفين الرومانيين في اكتساب

عطف احد الآلهة المحليين واستمالته ، وعملا بايمانهم بقوة إلهية شاملة تتجلى بكائنـــات متعددة الاشكال ، راحوا يقدمون ، هنا وهنالك ، حتى من كان بينهم من أصل ايطالي ، وفقاً لظروفهم الادارية والتنقلات التي تفرض عليهم من جانب الادارة المركزية ، بعض القرابين والنذور لبعض هذه الآلهة التي هي موضوع عبادة محلية ، في اسبانيا او في غاليا . ثم ان طبيعة الجيش الروماني وطريقة تشكيله وتكوينه من عناصر عرقية متباينة ، وتنقل فرق هذا الجيش من مركز الى آخر ، كثيراً ما تسبب في توطين احد الآلهة الغريبة عن البلاد، في المنطقة المرابط فيها الجيش ، فتظهر فيها طقوس وعبادات جديدة . ففي بعض فرق الخيالة مثلاً ، نرى الإلهة إيبونا الغالية ، تزاحم بصورة غير متعادلة، عبادة الإلهة التراقية الاصل« هيرون »التي انتشر تكريمها والتعبد لها بين الاوساط العسكرية الهلينية ، وغير ذلك من الشواهد والامثلة التي تبقى ، مع ذلك حوادث فردية لا كبير شأن لها. فروما لم تقتبس من الغرب ، في الدين ، شيئاً يذكر . فهي ، على عكس ذلك تماماً ، اعطت الغرب كثيراً من طقوسها وعباداتها الاصيلة كما اعطته عبادات اجنبية بعد ان اضفت عليها لبوساً رومانياً ، او انها كانت ممراً لهذه العبادات في انتقالها من بلد الى آخر .

تفوق الشرق وتساميه الديني

وقد حدث عكس ذلك في الشرق تماماً ، حيث نشاهد عملية إلباس الآلهة المحليين لبوساً رومانية . فالإله بعـل ، الذي كان موضوع عبادة في مدن سوريا كهليوبوليس (بعلبك) ودمشق ، والإله دوليخـه الذي كانت عبـادته تقام في مقاطعة كوماجين والذي اخـذ الاغريق بتسميته زفس استحال المشتري « جوبتير » عند الرومان ، دون ان يجري تجريده من الصفات والمناقبية التي عرف بها في مواطن عبـــادته الاصلية ، كما حاول الغرب السير على هذا النهج ذاته مع الآلهة التي اقتبسها ، دون ان يبدّل من عبادتها وطقوسها الدينية . فقد اقتبست روما الكثير ، دون ان تعطي الشرق شيئاً يذكر ، وذلك بالرغم من موقف اباطرتها المعارض ، الذين لجأوا ، للحد من هـذه الحركة ، الى اساليب شتى من العنف والشدة كالنفي ، ان لم نقل الاضطهاد ، صحبها حوادث اعدام بالجملة . فبعد ان تم لاوغسطس النصر على انطونيوس وكليوباترا ، اخذ على عاتقه إصلاح الديانة الرومانيـــة وبعث مناسكها ومراسمها من جديد ، فوقف في وجه هذا التيار للحد منه . وسار سيرته طيبـاريوس ونهج نهجه بصورة اشد واعنف . ثم عقب ذلك فترة من التساهل والتسامح والقبس من جديد لم يكن الاباطرة قط بغرباء عنها .

هنالك دوافع كثيرة وبواعث عدة لهذا الاندفاع الشديد الذي لا يقاوم. فالشرق أمدّ روما بالكثير من الأفكار الجديدة والنظريات الفلسفية على اختلاف ألوانهـــا من سياسية واقتصادية وفكرية، كما أمدها بالكثير من الرجال والأرقـاء الذين امتازوا بحدة الذكاء وبالمرونة، وبالخدمات التي أدّوها لأسيادهم ، كما أتاحت لهم حركة العتق التي نشطت بين صفوفهم ، مخالطة جميـع الطبقات الاجتماعية . ومع هـذا الدفق من الهجرات ، وهذه المجاري الفكرية التي دخلت روما، دخلها في الوقت ذاته ، صدر كبير من آلهة الشرق وما لها من عبادات ومراسم وطقوس، عرفت

ان تستبد بنفوس الرومان ، وتملك عليهم مشاعرهم ، وذلك بما أضفت على الحياة الدينية من أشياء لم تكن معروفةعندهم من قبل، لقيت هوىً في قلوب الرومان لإشباعها منازعهم الروحية، وعرفت ان تجتذبهم وان تُغريهم على اعتناقها . وهذا الاغراء او الانجذاب خضع له الاغريق من قبل ، قبل ان تضعهم فتوح الاسكندر وجهاً لوجه مع الشرق ، فكان لها الوقع الآسر نفسه على الرومان ، للأسباب ذاتها . فهذه الطقوس الجافة والمراسم الباردة التي كان يحتفل بها رسمياً باسم الدولة وتجري برئاسة أولي الامر فيها ، كانت تتجه من الفرد دونما نظر الى وضعه الاجتماعي ، اذ كان يجد نفسه معها امام آلهة قريبة الى نفسه، بعد ان احسن تجريدها مما أضفوا عليها من مسحة الخلود والجبروت والقسوة ، وهي آلهة جاشت مثله بالاحاسيس والمشاعر : كالخوف والقلق والحب، تتألم وتموت ثم لا تلبث ان تنفض عنها غبار القبر، ناهضة مشرقة، جياشة بالحياة، تشبهاً بالطبيعة . وكثيراً ما كانت هذه الطقوس تثير في نفسه الشجى والأسى، كما تثير فيه الرجاء بالخلاص بعد قيامه ، بما توجب عليه من مراسم الوضوء والتطهير والنضج ، جسدياً وروحياً ، بعد ان زكت وطابت بهذه القرابين التي يرفعها لها عن رضى وطيب خاطر . ففي مشاركة القوم هذه الاحتفالات وما يجري فيها من طقوس العبادة ، وفي مشاركتهم الأسرار الدينية ، كانت نفوسهم تقع في شبه انخطاف وذهول روحي ، بعد ان خلصت من ادران المادة . وكانت هذه الطقوس في مراسمها المختلفة، تفسيراً لهذا الكون وتعليلاً لأسرار الحياة، وذلك باشراكها الفرد نوعاً ما ، في عمل القوى الغامضة التي تسيطر على مصائر الانسان ، كما تعطيه ، عن طريق السحر والنجامة ، مسحة من العلوم الطبيعية . وهكذا أشبعوا بهذه المراسم ، شتى الرغائب والمنى التي كانت تجيش في النفس البشرية ، بينما طقوس الاحتفالات الرسمية كانت تجري في جو بارد ، جاف ، عارٍ من الوقار الرسمي ، برئاسة وإشراف ممثلي السلطة .

الفوران الديني في الشرق

ولكن هيهات ان يأتي هذا الفوران الديني خالياً من الشوائب . فقد راح فريق من المشعوذين والممخرقين، والسَحَرة والمنجمين، والمجوسية والمريدين الكلدان ، واتباع إيزيس ، ممن عجّت بهم روما افواجاً وفرقاً لا حد لها ولا حصر ، يستثمرون سذاجة عاطفة هذه الجماهير الدينية ، بالرغم من سهر الشرطة واستعمالها الشدة احياناً، وذلك بما يأتونه، مأجورين، من ألاعيب تتنزّى بالخداع والغش والتضليل . فاذا ما رأينا انفسنا عاجزين اليوم عن تحديد التبعة التي تقع على جوفنال في ما نمّ به من الافتراءات التي غلّف بها الشتائم التي كالها ، فقد وجد في هذه الاعمال المشبوهة ما يغذي حقده الحقين . ولكي يُلهبوا الاخيلة ويهيّجوا الأعصاب ، لم يكونوا ليتورعوا قط عن اللجوء الى أقذع الوسائل وان يفتعلوا الحوادث الغامضة، ليثيروا دهش الجماهير فيقيموها ويُقعدوها، فينصبون في الأماكن التي تجري فيها حفلات الاشتراك بالأسرار الدينية ، التماثيل الناطقة او المتحركة ، وأطياف من الصوت والضوء، والابواب التي تنفتح او تنغلق من ذاتها ، والتنكر بالازياء والملابس الغريبة اثناء الحفلات الدينية ، والآلات الموسيقية الصائتة ، والهتافات الهستيرية والصياح المهتاج . فمن الطبيعي جداً

ان تتحرك مشاعر الجماهير وان تهتـــاج ، وان يطفو عليها زَبَد الطفيليات و نزَق المتطرفين والروافض وأعمالهم النكراء : فالحفلات الخاصة بقطع العَفَص *gui* ، وتمثيل بعض الاسرار الدينية المخالفة للآداب العامة ، او حفلة رش المؤمنين بدم الذبائح ، كلها أمور وشؤون من شأنها ان تثير في نفوسنا اليوم الانقباض والاشمئزاز. ولكن ، هل كانت بعض الطقوس الدينية الأكثر مراعاة للتقاليد ، بأقل إثارة لأذواق المعاصرين اليوم ؟ ان تاريخ الاديان المقارَن يقدّم لنا أكثر من مَثل وشاهد على ان التقوى والورع كثيراً ما تلبّسا بمظاهر انقبضت لها النفوس ، وأثارت المقت والكره، ومع ذلك يجب ألا يغرب عن بالنا قط، ان الطقوس الدينية الشرقية التي اقتبسها الرومان ، بعد اليونان ، غذّت نفوساً وأعدّت قلوباً عُرفت بنبل الاخلاق والمبادىء السامية.

وقد زخر الشرق بمثل هذه الديانات وخصبت فيه العبادات . وهذا الخصب الذي افترّ عنه منذ ألوف السنين ، لم يبد ما يشير الى انــــه أصيب بالنضوب والنزوح . فطلوع النصرانية ليس بالشاهد الوحيد على هذه الخصوبة . فلنقتصر هنا على الدليل الذي تمدنا به ، بكثير من التفاصيل المثيرة ، وان لم تكن كلهـا صحيحة ، الرسالة النقدية التي وضعها لوكيانوس *Lucien* بعنوان : « الكسندروس او النبي الكاذب » يقصّ فيها على لسان احد الملحدين الكَفَـرَة ، مولد احـد الآلهة المعنيين بالكشف عن طوالع الغيب ، في احدى مدن بفلاغونيـا الصغيرة ، يُعرَف باسم ابونوتيخوس ، في عهد الاسرة الانطونية . وهذا الإله تلبّس صورة أفعى لها رأس انسان ، عُرفت باسم غليكون وهي تجسيد للإله أسكلابيوس . وقد راح الكسندروس بوحي من الآلهة يستقبل الإلهة وأحلها محلاً لائقاً بها ، في احد المعابد ، واخذ يجيب باسمها على الاسئلة التي يتلقاها او تطرح عليه، ويردّ عليها بهاتف صوتي يخرج من قمقمة جهاز تألف من عدة مواسير او انابيب رُكّبت على وضع خاص . ومثل هذا الهاتف كان يكلف طالبه أغلى بكثير من الهواتف العادية الاخرى . وسواءً أصحّت ام لم تصح، تُهم التضليل والخداع التي عزاها لوكيانوس للقائمين بهذه الألاعيب ، فالمهم في الامر تلاقي مثل هذه المعلومات وصَهْر هذه التقاليد والاساطير المتباينة الاصل والمنشأ في ألفة تامة ، وذلك بفضل مذهب توحيد الآراء ، في الحقلين الروحي والطقسي الذي كان ضارباً أطنابه اذ ذاك . كذلك من المهم ايضاً هذا النجاح البعيد ، المستمر ، تلقــاه هــذه العبادة الجديدة ، وهو نجاح بلغ من الشدة والقوة بحيث ان احد اعضاء مجلس الشيوخ ممن تولوا منصب القنصلية في روما من قبل ، وأصهر فيما بعد ، لالكسندروس المذكور أعلاه، نقل الى الامبراطور مارك اوريل ، هاتف غيب ، يدعو الامبراطور لإلقـاء أسدين في نهر الدانوب فيؤمّن بذلك، النصرعلى البرابرة. اما شاهدالاستمرار فيقوم في ان، بالرغم من وفاة الكسندروس، حوالي عام ١٧٠ ، نرى نقوداً تضرب في بلدة ابونوتيخوس التي اصبحت تعرف في عهـد مارك اوريل بـ : إيونوبوليس ، وهو اسم نجهــل وجه التسمية فيه ومعناه ، انما بقي باسمه الحديث : اينبولي ، وتحمل صورة غليكون ، بعد ذلك بخمس وسبعين سنة .

هذا المثل ضربناه، يرينا الى اية درجة بلغ الاختمار الديني في ربوع الشرق بعد الازدهار العظيم

الذي نعمت به الامبراطورية ، والسهولة التي كانت تتم بها اتصالات الناس بعضهم ببعض ، فجاء ذلك يكمل الفوران الديني والغليان الروحي الذي طبع العهد الهليني من قبل. فعبادة الإلهة تيخه خسرت كثيراً من جراء الطابع الرسمي الذي اتسمت به عبادتها . ومثل هـذا الأمر لم يخل من اثر بيّن على طالع الامبراطور والمدينة او الجماعة. فالاهتمام بامر الخلاص، وتوق النفس البشرية اليه، كل ذلك أوجب حلولاً اكثر فردية وتحللاً من الرسمية الجامدة : فلم تلق يوماً الآلهـة الصانعة العجائب، والآلهة التي في ظقوس عبادتها اسرار، من الرواج، ما لقيته ، اذ ذاك . فقد تكاثرت انواع هذه الآلهة واصنافها، وكانت تماثيل سيرابيس وهي من الفئة الاولى، تنافس اسكلابيوس، كما نافست تماثيل ديونيسوس ، وهو من الفئة الثانية . كذلك انتشرت عبادة هذه الآلهة الشعبية واقيمت لها هياكل ومعابد في اماكن كثيرة : منها هيكل برغاموس على اسم اسكلابيوس ، حيث رأى والد الطبيب المشهور جالينوس حلماً أوحي فيه اليـه بوجوب تعليم ابنه الطب ونال هذا الهيكل من سعة الشهرة ما وازى الشهرة التي تمتع بها هيكل أبيدور . فاينما يتجه المرء كان يطالعـه ناطقون بهواتف الغيب ، من كل شكل ونوع ، يتوافد اليهم، للكشف عن طوالع الغيب واسرار المستقبل ، اكثر الناس اخذاً باسباب الثقافة ، وتصديقاً منهم للغرائب والمدهشات التي طالما نعتوها بالمعجزات ، او سعياً وراء تفسير الرؤى والاحلام. وانتشرت بالتالي اعمال التنجامة لاستطلاع طِلع الأقدار المخبوءة أيما انتشار . وهذا الاتجاه العارم الذي بلغ الهوس ، نحو القوى الخارقة الطبيعة ادى الى حركة شاملة من تبادل الطقوس والعبادات ومزجها بعضاً ببعض .

العبادات الشرقية في الغرب

كل هذا السيل الجراف من عديد الآلهة ومناسك عباداتها وطقوسها الغريبة الطابع ، سواء أصدرت من الشرق عامة ، او من هذا الشرق الخاضع لسلطة روما وسيادتها ، او من هذا الشرق الأبعد ممثلاً ببابل وايران ، الخاضعتين للفارثيين ، اندفع نحو الغرب ، فاغرق ايطاليا وروما بسيله ليتجاوزهمـا أبعد الى الغرب: الى الولايات اللاتينية اللسان واللغة .

فما من إله شرقي قط ، الا ونرى أتباعه ومريديه يروّجون له لدى جميع الشعوب ، وفي كل صقع وناد ، جاهدين مجاهدين لكسب المزيد من المريدين . فمن المغرب الاقصى الى اصقاع بانونيا في شرقي اوروبا ، نرى افراداً في الجيش الروماني من اصل عربي يُحيُون مناسك آلهتهم الوطنية ويقيمون مراسم عبادتها ، كالإلهة ثياندروس ، ومنف . من الثابت كذلك ان بعض المواطنين الرومان من الافارقة اصلاً، ادّوا خدمتهم العسكرية ، في الفرقة « التدمرية » فادخلوا طقوسهم الدينية الى بلدة القنطرة في المغرب ٧ ومنهـا جنوباً الى لاغوات ، وقدموا نذوراً لإله بلميرا : ملاغبيل . فمن غير ان نأخذ بتعداد هذه الطقوس والعبادات المختلفة ، نقتصر منها على تلك التي لقيت عبادتها رواجاً اكبر . « قربة الآلهة » سيبيل، الفريجية الاصل ، جرى توطينها في روما منذ نهاية القرن الثالث ق.م . الا ان عبادتها وتكريمها وفقاً للطقوس الشرقية ، لم تصبح رسمية الا في عهد الامبراطور كلوديوس ، عندما أدخل الى روما عبادة الثالوث الذي تألف من ابنها

وعشيقها أتـّيس . وقد احتاط الامبراطور للامر عندما راح ينظم هيئة الكهنة الذين عهد اليهم بالكهانة لهذه الإلهة . الا ان اهم مادة في هـــذا التنظيم بقيت حبراً على ورق : ففي الحين الذي كان فيه القوّامون (*Archigalles*)على هذه العبادة يُختارون من بين المواطنين الرومان وتجري تسميتهم في روما ، من قبل مجلس الشيوخ ، وفي الملحقات ، من قبل الادارة المحليـة ليتولوا رئاسة خدمة المعابد ، كنا نرى عُمُداً (*Galles*) من الخصيان ، يمارسون ، بالرغم من الشرائع والقوانين التي كانت تمنع الخصاء وتحرمه ، هذه المراتب الدينية في بلدان لا تقع في آسيا ، وهي القطر الوحيد الذي سمح بقيام هؤلاء الخصيان بمثل هذه المراسم .

وكان هؤلاء الكهان يحتفلون بهذه الطقوس ، علانية في شوارع المدن خلال فصل الربيع ، في مواسم يستمر الاحتفال بها ١٣ يوماً متواصلا . وكان يسبق هذه الاعياد مراسم من الصوم ، وطقوس من التطهير تشبه هذه الطقوس التي كانت تذكرنا بقصة أتـّيس وما اليهـــا من نوح النائحين وندب النادبين ، وتشويه الرافضة اجسامهم بصورة وحشية تقشعر منها الابدان ، خلال حفلة الجنائز ، تمازجها قهقهات صاخبة من الضحك خلال تمثيـل عملية قيامها من بين الاموات . والحفلة الوحيدة المعروفة تفاصيلها لدينا بالتدقيق ، هي تلك الحفلة التي كان يرافقها ذبيحة الثور *Taurobole* او الكبش *Criobole* ، اذ كانت ترمز الى انتقـــال عنصر الحياة من الضحية الى الانسان الذي يُنضح بدمائها ، فيكون ذلـك عربوناً لخلوده ، ويُرمز الى دفنه في القبر بوجوده في حفرة ، والى تنقيته من ادران الخطيئة وتجدده ثانية . كما ان في ذلك إشارة الى الولاء السياسي وان كنا نجهل وجه الرّمز في هذه الضحية التي كثيراً ما تُقدّم لخلاص الامبراطور ، واحياناً لخلاص افراد أسرته .

وكان يشارك سيرابيس في هذه العبادة ، الإلهة المصرية إيزيس التي ما لبثت ان تغلبت عليها . فبعد ان حظّر كل من اوغسطس وطيباريوس الاحتفـــال بمراسم هذه العبادة في روما ، راح كاليغولا يعترف لها بحق المواطنية . ومنذ ذلك الحين احتـُفِل بأعيادها وطقوسها بكل حرية دون ان يثير الاحتفال بها أية معارضة . وما ان أطلت سنة ٦٩ حتى كان لها هيكل ارتفع على هضبة الكابيتول . واضطر يوماً الامبراطور دومتيانوس ان يتنكر بزي أتباع ايزيس لينجو من مطاردة جنود خصم ابيه له . وكانت مناسبة الاحتفال بأعيادها مجلى لحشود شعبية ضخمة ، ويقوم على مراسمها طغمة من الكهان بثيابهم البيضاء ، حالقي الشعور ، يسيرون وئيداً ويقيسون خطاهم على وقع انغام الزمر والقيثارة . فتعتري الجميع هزة من الغبطة والفرح بعد بكاء ايزيس وذرفها الدموع سخينة على جثمان اوزيريس . وكانت تقام مع هذه الاحتفالات اسرار من شأنها تأمين الحياة في دار البقاء للمريدين . واذا كانت هـــذه الطقوس تفرض على المؤمنين واجبات قاسية وفرائض شديدة من الوضوء والتطهيرات ، كالاستحمام في مياه نهر التيبر خـــلال فصل الشتاء القارص ، فقد كانت ، من جهة ثانية ، تعبيراً ، ولا شك ، عن كفـّارة تعيد الى الخطاة نقاءهم الروحي . وكانت ايزيس تبرز للناس : الإلهة المثلى بين اناث الآلهـات ، وذلك حسبما تصورها

التقاليد المتوارثة، في حنانها الاموي وضراعتها القوية. وكان اتباعها يقومون بعملية إزالة هذه الفوارق في ما هو لصالح هذه الإلهة. «ها انا ذا»، نراها تؤكد في آخر اسرار *Métamorphoses d'Apulée*، قبل ان توحي الى الحمار لوسيوس الممسوخ، بكيفية استرجاعه شكله وقوامه البشري ... «ها انا ذا» القادرة، الوحيدة التي تعمّ عبادتي الارض كلها بأشكال مختلفة، وطقوس متباينة، وتحت مسميات لا حد لها ولا عدد، بعد ان عُرفت بأسماء: سيبيل، ومنيرفا، والزهرة، وديانا، وبروسيربين، وسيريس، ويونون وبللونا، وهيكاتا ونميزيس.

لنضرب صفحاً هنا عن الإلهة السورية أترغاتيس هيرابوليس، وقد راحت زمرة من الخصيان تطوف المقاطعة تجمع لها، على نغم المزمار، التقادم والعطايا التي يجود بها المتعبدون لها. كذلك، لنضرب صفحاً عن الإله الساميّ الاصل: بَعْل، بأشكاله وصوره المختلفة، منها بعل حمص الذي رُفِع، لفترة قصيرة، الى مصافّ الآلهة العظام في الامبراطورية، وعقد قرانه على الإلهة شلستس، أي الإلهة تانيت، إلهة قرطاجة، وذلك بفضل عبادة وغيرة رئيس أحبارها: إيلاغابال *Elagabal* الذي تولى، من سنة ٢١٨ – ٢٢٢، مقاليد الامبراطورية الرومانية. الا ان التطور العظيم الذي عرفته هذه العبادة فيما بعد، يحملنا على ان ننوّه هنا باسم الإله ميترا *Mithra*.

هو إله فارسي المنشأ ومن المرتبة الثانية بين آلهة الايرانيين القدامى. وقد تطورت عبادته فيما بعد بما أُضيف اليها من لواحق وزوائد اقتبسها من الطقوس الأسيوية الساميّة. وقد تجلى للناس كالنور والشمس، وارتبط اسمه بالنظام الكوني، يحمل بين يديه الظفر والخلاص كما يهب الفضائل الكبرى: كالحقيقة، والولاء، والإخاء، واحترام القَسَم. وقد انتشرت عبادته فعمّت جميع انحاء الامبراطورية، وأُقيم له، بفضل العناصر الشرقية العاملة في الجيش الروماني، من الهياكل والمعابد ما نعجب لكثرتها في ضواحي نهري الرين والدانوب. وقد كان له بالطبع أتباعه ومريدوه الكثر في روما، بحيث ان الامبراطور كومود همّه أن يشترك في اسرار عبادته ويدخل عضواً في هيئاتها. وكثيراً ما كانوا يعبدونه في المغاور والمنحنيات المعزولة عن الناس، فتبرز ناتئة صور الاله الشاب مرتدياً ثياباً شرقية ومعتمراً قبّعته الفريجية بعد ان أرغم الى الارض ثوراً ضخماً وأدماه. وبعد مدة طويلة من الاختبار يمر بها المريد، يخضع لمراسم أشبه ما تكون بمراسم العماد، واذ ذاك فقط يحق له الاشتراك عملياً بالاحتفالات الطقسية وما يتخللها من ولائم. وكانت عملية الاطلاع على اسرار المذهب لا بد ان تقطع سبع مراحل او مراتب هي مرحلة: الغراب – الخاتم – الجندي – الأسد – الفارس – بريد الشمس، الى ان يصل في خاتمة المطاف الى «ابي الآباء». وكل مرتبة من هذه المراتب توجب على صاحبها واجبات ادبية ومراسم طقسية عليه ان يتقيد بها بدقة. وكان يترتب على الضالعين في اسرار عبادة هذا الاله ان يتحلّوا بالصبر، ومجالدة النفس، وطول الأناة بحيث يُسهمون في إعلاء الخير على الارض، لينالوا المثوبة التي عرفوا ان يستحقوها، يوم الدينونة العظيم، برئاسة الاله ميترا.